أحمد منور

الأدب الجزائري باللسان الفرنسي

نشأته و تطوره و قضاياه



ديوان المطبوعات الجامعية

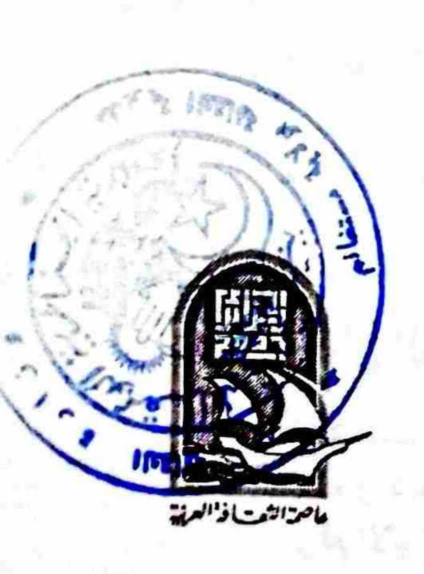


الأدب الجزائري
باللسان الفرنسي

الدكتور أحمد منور

الأدب الجزائري باللسان الفرنسي

نشأته وتطوره وقضاياه



ديوان المطبوعات الجامعية

رقم النشر : 4.09.4888
رقم ر.د.م.ك.(I.S.B.N.) : 978.9961.0.1036.5
رقم الايداع القانوني : 2007/263

المقدمة

كانت بداية اهتمامي بالأدب الذي كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية، منذ أن وعيت، ومنذ أن أصبح في إمكاني قراءة هذا الأدب، سواء في بعض آثاره التي ترجمت إلى اللغة العربية على يد الإخوة المشارقة أو في أصله باللغة الفرنسية، وقد قرأته دائما من موضع الإعجاب به، متأثرا بتقريظ المترجمين له وإشادة الدارسين العرب به، أو بما كنت أجده من متعة في قراءته، ثم بما كنت أجد من ألفة فيما كان يصوره من شخصيات ومن بيئة أعرفها حق المعرفة.

ومع الوقت ازداد اطلاعي عليه، وتعمقت معرفتي به، وعرفت بعض كتابه معرفة شخصية، أمثال مالك حداد، ورشيد بوجدرة، ومولود عاشور، والطاهر جاوت، بل وحاولت أن أسهم في ترجمة بعض نصوصه إلى العربية. وبدأت القراءة الناقدة والمتأملة تحل محل قراءة المتعة والإعجاب، وبدأت أعي بعض الإشكاليات التي يطرحها هذا الأدب، سواء على المستوى الفكري أو الفني، وأتلمسها في أقوال الكتاب أنفسهم وتصريحاتهم، وفيما يكتبه الدارسون لأدبهم. ومن هذه اللحظة رحت أتحول بالتدريج من قارئ متذوق إلى قارئ ناقد، وأحاول أن أتأكد بنفسي من بعض القضايا فيه، وأكوِّن لي رأيا شخصيا فيها. ومن هنا جاء التفكير في القيام بهذا البحث، الذي شغلني وقتا طويلا.

وهناك سبب موضوعي جعلني أهتم بهذا الأدب، وأنتقل من مجرد قراءته قراءة استهلاكية إلى مترجم ودارس له بعد ذلك، ألا وهو ما لاحظته من قلة اهتمام الجزائريين بترجمته أو دراسته أو الكتابة عنه،

فمعظم ما ترجم منه ونشر باللغة العربية تم على يد الأشقاء السوريين والمصريين، ومعظم ما وضع من الدراسات عنه كان على يد اللبنانيين باللغة العربية، والفرنسيين باللغة الفرنسية. أما في مجال البحوث الجامعية، فقد لاحظت أن أقسام الأدب عندنا باللغة العربية لا تولي أية أهمية لهذا الأدب، تماما مثل أقسام اللغة الفرنسية التي لا تولي بدورها أية أهمية للأدب الجزائري المكتوب بالعربية، وهو ما كرس القطيعة والتجاهل المتبادل القائم منذ أمد بعيد بين المثقفين بهذه اللغة وبتلك.

من هذه الاعتبارات الذاتية والموضوعية اخترت بحثي هذا، الذي كان يحمل في الأول عنوان"**أزمة الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية**"، هذا العنوان الذي يطرح في حد ذاته إشكالية لم ينته النقاش فيها بعد إلى شيء، ولاسيما في جزئه الأخير، إذ هناك من ينكر على هذا الأدب جزائريته ويعده بسبب لغته أدبا فرنسيا، وهناك في المقابل من يعده، بسبب"الروح" التي كتب بها أدبا جزائريا خالصا لا مجال للطعن فيه، ولكل فريق حججه وأسانيده التي سنتعرض إليها في ثنايا البحث، ثم أصبح العنوان"**الأدب الجزائري باللسان الفرنسي**" لا لأنني انتصرت إلى الفريق الثاني، ولكن لأنني رأيته أدق، وربما أكثر حيادية.

والوقع أنني لم أهتم كثيرا، وأنا أعد هذا البحث، أن أثبت أو أنفي عنه هذه الصفة أو تلك، و إنما كان همي تتبع تاريخه، والإحاطة بمختلف مراحله، والتعمق في مضامينه، ومساءلة نصوصه بشكل مباشر، دون وسيط، ولا شارح، ولا مؤول. إلا أن هذا لا يعني أنني استغنيت عن جهود الباحثين فيه، أو أهملت آراء الدارسين له، مهما كانت متواضعة، ويكفي إلقاء نظرة على هوامش البحث، ثم على

قائمة المراجع الكثيرة التي أثبت أهمها في الأخير، للتأكد من ذلك، وإنما يعني أنني أعطيت الأولوية للنصوص الأصلية، أقرأها وأعيد قراءتها المرة بعد المرة، وأجتهد في فهمها، وفي استخلاص النتائج منها. و ربما يجدني القارئ مبالغا أحيانا في حرصي على نقل فكر أصحاب تلك النصوص، وفي الاستشهاد بها.

وقد ثبت لي بالدليل القاطع أنني كنت محقا في إعطاء الأولوية لمساءلة النصوص الأصلية بدون وسيط، ولا أحكام مسبقة، وخاصة عندما عدت إلى النصوص الروائية التي صدرت في العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، وهي النصوص التي تعوَّد معظم الدارسين إصدار الأحكام الجاهزة بشأنها، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الاطلاع عليها، متأثرين في ذلك بأحكام الباحث الفرنسي الأب"جان ديجو"، الذي وإن كان لا يبارى في كثرة مؤلفاته، وفي سعة اطلاعه على ما كتبه الجزائريون والمغاربة عامة باللغة الفرنسية، إلا أنه لم يكن منصفا لأولئك الكتاب، فقد جردهم من أية مزية فكرية أو فنية، وجعلهم مجرد"تلاميذ" يتعلمون الإنشاء، ويحاولون من خلال ذلك أن يبرهنوا لأساتذتهم الفرنسيين أنهم يستطيعون الكتابة بلا أخطاء لغوية. والحقيقة أنهم كانوا في أغلبهم أصحاب ثقافة فرنسية وعربية عالية، وكان منهم من يمتلك موهبة روائية غير عادية، ولم يكونوا أبدا على هذه الصورة السيئة التي وصفهم بها الأب"ديجو". وما يؤسف له، أن بعض الباحثين الجزائريين اعتمدوا آراءه، فيما يخص الفترة المذكورة، اعتمادا كاملا، ونقلوها بكل"أمانة"، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التأكد من صحتها بالرجوع إلى النصوص ذاتها.

والحق أن كتاب هذه الفترة مظلومون أشد الظلـــم، ولا أبـــالغ في شيء ، إن قلت إنهم، بالرغم من"اندماجيتهم" التي لم يتعلقوا بهـــا في حقيقة الأمر إلا حرصا على فكرة المساواة بين المستوطنين والجزائريين، قد دافعوا أحسن دفاع، وعبروا أصدق تعبير عـــن هويـــة الـــشعب الجزائري، وعن كيانه ووجوده، وعن حقه في تعلم لغته وصيانة دينه، والحفاظ على مقوماته الأساسية. ولا أعتقد أن غيرهم مـــن كتـــاب الفترات اللاحقة قد عبروا عن الهوية الجزائرية بشكل أفضل منهم.

وانطلاقا من عنايتي بهؤلاء الكتاب، وتحليلي للعديد من روايـــاتهم، أزعم أنني قد أتيت بجديد لم يسبقني إليه أحد من الباحثين، وينطبق هذا حتى على نصوص الخمسينيات أيضا، التي لم تنل هي الأخرى حظهـــا من التحليل المعمق، رغم كثرة ما كتب عنها، حيث ظـــل النقـــاش منصبا في الغالب على الظروف التاريخية التي أحاطت بها وبكتابها.

وقد قسمت بحثي إلى مدخل، وبابين، مع المقدمة والخاتمة، وأعطيت المدخل عنوان"في الهوية والهوية الجزائرية"، شرحت فيه مسألة الهويـــة، وبينت اشتقاقها اللغوي العـــربي واللاتـــيني، وعرفّتـــها في معناهـــا الاصطلاحي، وأتيت على ذكر مرادفاتها، وعلى عناصرها المكونة لها، وناقشت، بناء على كل ذلك، مسألة الهوية الجزائريـــة، وادعـــاءات المحتلين، الذين أنكروها، واتخذوا من إنكارها مبررا للاحتلال، ومن هنا قدمت الأسس النظرية والمنهجية التي تقوم عليها خطة البحث.

أعطيت **الباب الأول** عنوان:"**من الهوية المغصوبة إلى الهوية المفروضة**"، ويضم ثلاثة فصول ذات طابع تاريخي نظري، تحمل العناوين التالية:

ـــ "الهوية الجزائرية وحرب الإبادة الاستعمارية".
ـــ "أدب الجزائريين بالفرنسية: النشأة والتطور".
ـــ "أدب الجزائريين بالفرنسية: إشكالية الهوية والانتماء".

في الفصل الأول أعطيت نظرة تاريخية وافية عن احتلال الفرنسيين للجزائر وعن الظروف التي تم فيها، وبينت المراحل المختلفة لحرب الإبادة التي شنوها على الشعب الجزائري، المادية والروحية، من العمل على إفناء العنصر البشري، إلى الاستيلاء على الأرض وتعميرها بالعنصر الأوروبي، إلى الاستيلاء على أملاك الوقف وتعطيل العمل بالتشريع الإسلامي، إلى تغيير نظام التعليم ولغته، إلى الحملات التبشيرية الواسعة التي كانت تملك إمكانيات مادية ضخمة، إلى تشويه تاريخ الجزائر ومحاولة إحياء تاريخ الاحتلال الروماني لشمال إفريقيا، من خلال العناية بالآثار الرومانية، وفي المقابل طمس المعالم الإسلامية، إلى غير ذلك مما يصعب حصره في هذه العجالة. وتوصلت إلى حقيقة هي أن عملية التشكيك في الهوية الجزائرية هي نفسها داخلة ضمن تلك الخطة، وقد أثرت هذه الحرب التي استمرت ما يزيد عن مئة وثلاثين عاما في الهوية الجزائرية أيما تأثير، وأنهكتها، وشوهتها، ولكنها لم تتمكن مع ذلك من القضاء عليها، بفضل التضحيات الجسام التي قدمها أبناء هذا الشعب في الذود عن كيان الوطن وعن هويته.

أما الفصل الثاني فتتبعت فيه أدب الجزائريين باللغة الفرنسية منذ بداياته الأولى، وبينت الظروف والعوامل السياسية التي ساعدت على ظهوره، ومختلف مراحله التي مر بها من العشرينيات إلى بداية التسعينيات من القرن العشرين، وأهم المواضيع التي شغلت الكتاب في

كل مرحلة، والخصائص الفنية التي تميـزت بهـا أعمـالهم الأدبيـة، وتعرضت لأهم القضايا التي طرحت بشأنه، والمناقشات التي أثارها في السنوات الأولى من الاستقلال على الخصوص.

الفصل الثالث خصصته لموضوع هوية هذا الأدب، وناقشت المسألة من الجانب النظري، على ضوء مدرستي الأدب المقارن الفرنسية مـن جهة، والأمريكية من جهة أخرى، حيث يعتبر من وجهة نظر المدرسة الأولى أدبا فرنسيا، ومن وجهة نظر الثانية جزائريا، ووسعت النقـاش ليشمل الآداب الأخرى في إفريقيا وآسيا التي كتبت باللغات الأوروبية، ورجعت من الناحية التاريخية إلى محاولات احتواء المـستوطنين حـتى لاسم الجزائر نفسه، حيث كان الكتاب الأوائل منهم يطلقون علـى أنفسهم اسم"الجزائريانيين" (Les algérienistes)، كما كانت"مدرسـة الجزائر" بزعامة"ألبير كامو" تدعي لنفسها هذا الشرف، كمـا يـدل اسمها، وتعرضت للاستفتاء الذي أجرته مجلة"الأخبار الأدبية الفرنسية" في مطلع الستينيات حول موضوع: من هو الكاتب الجزائري؟ وشارك فيه العديد من الكتاب المستوطنين والجزائريين، وتميز على الخـصوص بتدخل مالك حداد في النقاش بمقاله المطول الشهير"الأصفار تـدور في فراغ". كما تعرضت أيضا لبعض المناقشات التي جرت بين الكتّـاب الجزائريين بعد الاستقلال، وشاركت فيها أبرز الأقـلام. وتناولـتُ ظاهرة صمت العديد من الكتاب الكبار بعد الاسـتقلال، لأسـباب اكتشفت أنها تناقض تصريحاتهم، فحاولت أن أجد لها تفسيرا معقـولا يتجاوز الأفراد إلى الظاهرة بشكل عام.

أما الباب الثاني من البحث وعنوانه:"**من الهوية المفروضة إلى الهوية المأمولة**"، فيضم أربعة فصول تحمل العناوين التالية:

- "**الخمرة طريقٌ لضياع الدنيا والدين**".
- "**الهوية الهجينة والاندماج المستحيل**".
- "**من وعي الذات إلى التمرد**".
- "**من التمرد إلى الثورة** ".

واعتمدت في هذا الباب طريقة مساءلة النصوص الروائية نفسها، وقمت بتحليل مجموعة معتبرة من الروايات المشهورة، والمعبرة عن المرحلة التي تمثلها، بلغ عددها الإجمالي سبعة عشر نصا روائيا، تغطي الفترة الممتدة من سنة 1925 إلى سنة 1962، وهي موزعة على النحو التالي: ثلاث روايات في الفصل الأول هي:"**زهراء امرأة المنجمي**" لعبد القادر حاج حمو،"**مامون أو مشروع مثل أعلى**" لشكري خوجة، "**لبيك**" لمالك بن نبي، وأربع في الفصل الثاني هي: "*العلج* ، **أسير البرابر**" لشكري خوجة، "**بولنوار الفتى الجزائري**" لرابح زناتي، "**مريم بين النخيل**" لمحمد ولد الشيخ، "**ليلى، فتاة من الجزائر**" لجميلة دباش، وسبع في الفصل الثالث هي:"**الربوة المنسية**" و"**نوم العادل**" لمولود معمري، "**الدار الكبيرة**" و"**الحريق**" و"**النول**" لمحمد ديب، "**نجمة**" و"**المضلع النجمي**" لكاتب ياسين، وثلاث في الفصل الأخير، هي: "**الانطباع الأخير**" لمالك حداد، "**صيف إفريقي**" لمحمد ديب"، "**أطفال العالم الجديد**" لآسيا جبار.

وبالطبع، فإنه بالنظر إلى عدد الروايات، الكبير نسبيا، التي ظهرت في الفترة المحددة، فقد كنت مضطرا إلى نوع من الانتقاء لأشهر الروايات وأكثرها تمثيلا للمرحلة التي ظهرت فيها، وإلى مراعاة مدى

ما تتوفر عليه من مظاهر معبرة عن موضوع الهوية، ومدى استجابتها للتحليل، الذي يركز أساسا على تلك المظاهر، ولا يلتفت إلى بقية الجوانب الأخرى إلا بما يخدم الموضوع الرئيسي.

وقد تمكنت، عبر هذا التحليل المتدرج في الزمان، من تتبع التطورات المتعلقة بالموضوع، التي تعكس في المقام الأول تطور الوعي السياسي لدى النخبة الجزائرية المثقفة، ولكنها تعكس في المقام الثاني تطور الوعي السياسي في الحركة الوطنية الجزائرية ككل، فليس مصادفة أن يكون معظم كتاب المرحلة الأولى يدعون إلى الاندماج في مجتمع المستوطنين، وليس مصادفة أيضا أن يكون معظم الكتاب في الخمسينيات ينتمون إلى اليسار، ويكتبون في مرحلة أولى أدبا احتجاجيا ثم يحاولون في وقت لاحق أن يكتبوا أدبا ثوريا.

أما الخاتمة ، فقد ضمنتها أهم النتائج التي توصلت إليها، ولخصتها في أربع نقاط يمكن القول عنها إنها بقدر ما حاولت أن تجيب عن الأسئلة التي شكلت صلب البحث، بقدر ما أثارت من التساؤلات التي تعيد صياغة الإشكالية المطروحة بكيفيات أخرى، ولذلك فأنا لا أعدّ نفسي بهذا العمل قد أنهيت البحث في هذا الموضوع الشائك، ولكنني أعتبر نفسي قد فتحت باب النقاش فيه.

المؤلف

تمهيد

في مفهوم الهوية والهوية الجزائرية

بادئ ذي بدء، نرى من الضروري أن نقف أولا مع مفهوم"الهوية" لنحدد مختلف مدلولاتها اللغوية، وأبعادها الفلسفية والاجتماعية والنفسية، لنخلص بعد ذلك إلى موضوع الهوية الجزائرية وحرب الإبادة التي شنها الاستعمار الفرنسي عليها وعلى الشعب الجزائري طيلة ما يزيد عن قرن وربع قرن، وإلى موضوع الأدب الذي كتبه الجزائريون باللُّغَة الفرنْسية لنحدد على ضوء تلك المدلولات ملامح الهوية الجزائرية ومَميزاتها، ونبيِّن بعد ذلك ملامح أزمة الهوية في كتابات أولئك الجزائريين، وكيف تمظهرت في أدبهم بوجه عام، وفي رواياتهم على وجه الخصوص، وهو ما سوف يسمح لنا بتناول موضوع بحثنا في وضوح، ويسهِّل لنا مهمة تحديد إشكالاته، والإحاطة بمختلف قضاياه، لاسيما أن مسألة الهوية تعد من المسائل التي كثر الخوض فيها عندنا في السنوات الأخيرة، حيث دخلت بقوة ساحة البحث الأدبي والجدل السياسي، وأصبحت من العبارات الكثيرة التداول على الألسن، غير أن ما يلاحظ بشأن ذلك الجدل، أنه لا يحدد معنى الهوية، ولا تتفق أطرافه بشأنها، ولذلك فهي تتنوع وتتعدد في معناها باختلاف الانتماء السياسي، والمنحى الأيديولوجي للمتحدث، وإذا كان المقام لا يسمح لنا باستعراض نماذج من ذلك الجدل، لأنه ليس هو المقصود في بحثنا، فإن ذلك الجدل نفسه هو الذي يحتم علينا، من جهة أخرى، أن نحدد عباراتنا بدقة.

إن الهوية كما يعرّفها قاموس"المنجد" باللغة العربيّة، معناها ((حقيقة الشيء أو الشخص، المطلقة ، المشتملة على صفاته الجوهرية))[1] ، وهي في اللغة العربية مشتقة، كما هو واضح في مبناها، من الضمير المنفصل "هو"، الذي يدل على ذات الشيء أو الشخص، المستقلة عـــن ذوات الأشياء أو الأشخاص الآخرين. أما في اللغة الفرنسية، فإن لفظ الهوية (L'identité) مشتق من الكلمة اللاتينية (Edèm) ((التي تقال عن الأشياء أو الكائنات المتشابهة أو المتماثلة تماثلا تاما، مـــع الاحتفـــاظ في ذات الوقت بتمايز بعضها عن بعض))[2]. والهوية كما شـــرحها قـــاموس" لاروس" تعني: ((مجموع الظروف، أوالحيثيات التي تجعل من الشخص شخصا مميزا، أو محددا))[3]. ولا يختلف قاموس "روبـــير" في تعريفـــه للهوية كثيرا عما جاء في القاموس السابق، فهي حسب تعريفه: ((مـــا يسمح بالتعرف على شخص بين جميع الأشخـــــاص الآخرين)) لكنه يضيف بين قوسين بأنها: ((الحالة المدنية والصفات المميزة للشخص))[4].

أما"الموسوعة الكونية"، فتنطلق من الأصل اللاتيني للكلمة، المشار إليه آنفا لتنقد فكرة التشابه أو التماثل التام بين الأشياء، وتستشهد بقول للفيلسوف والرياضي الألماني"لايبنيتز" (1646ـ 1716م) الذي ((ينفي أن يتشابه شيئان في العالم في كل خصائصهما)) ليخلص إلى

1 لويس معلوف "المنجد في اللغة والأدب والعلوم" ، الطبعة الثامنة، بـــيروت (د . ت) ، مادة هوية .ص 564 ، 565 .

2 Cf: Identité in "Petit Larousse en couleur" . Edition 1984 .

3 Ibid. Terme : Identité

4 Cf :"Identifier" in "Petit Robert 1". Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française . Ed. 1984

نتيجة ((أننا لو قلنا بذلك لكانا شيئا واحدا))[5]، ومن هنا يستنتج مفهوم"الهوية" بمعناها المتداول، الذي يعني وجود كيان مستقل لكل شيء أو كل كائن، عن الأشياء أو الكائنات الأخرى، مهما تشابهت خصائصها معه.

ولا يعدو ما جاء في"الموسوعة الفلسفية"، في تعريفها للهوية أن يكون مجرد تلخيص لمختلف المعاني التي ورد ذكرها سابقا، فالهوية ((مقولة تعبر عن تساوي وتماثل موضوع أو ظاهرة ما مع ذاتها (...) ويتطلب تعيين هوية الأشياء أن يكون قد تم تمييزها مسبقا، ومن ناحية أخرى، فإن الموضوعات المختلفة غالبا ما تحتاج إلى تحديد هويتها بهدف تصنيفها، وهذا يعني أن الهوية ترتبط ارتباطا لا يمكن فصمه بالتمييز (بين الأشياء)..إلخ))[6].

واستنادا إلى التعريفات السابقة، لا سيما إذا أخذنا من معاني الهوية ما تعلق بشخص الإنسان، لأن هذا الذي يعنينا أساسا في موضوعنا، نخلص إلى القول: إنها تلك المعلومات المسجلة في"بطاقة التعريف" أو "بطاقة الهوية"، التي تشمل الاسم واللقب وتاريخ الميلاد ومكانه، والنسب العائلي(أي اسم الأب والأم) وعنوان الإقامة، بالإضافة إلى العلامات الجسمية المميزة، كالطول ولون الشعر ولون العينين. وقد

---

5 "Encyclopédia Universalis", Volume 19 (Terme : Identité) France 1975 .

6 "الموسوعة الفلسفية" ، بإشراف م.روزنتال ، و ب.يادين . ترجمة سمير كرم ، دار الطليعة بيروت . ط 4 ، 1981 .

بشرته، كما هو الحال في بعض البلدان[7]. يضاف إلى هذا كله ديانة الشخص أو الطائفة التي ينتمي إليها، ولون

غير أن قصور هذا التعريف، وكذا التعريفات السابقة، بيِّنٌ للعيان، لأنها تُبقي هوية الشخص جدُّ ناقصة، وبعيدة عن الدقة المطلوبة، حيث تضيع وسط التعميمات الفلسفية أو تقف عند حدود التعريف اللغوي المبهم أو عند هذا التقييد القانوني المنْصَبِّ على الناحيـــة الـــشكلية الظاهرة للشخص التي نجدها في بطاقة الهوية، ويبقى هناك عالم الإنسان الداخلي وما ينطوي عليه من مشاعر وأفكار وعواطف وتجـــارب في علاقته بعالمه الخارجي، وما يزخر به من تفاعلات مع بيئته الطبيعيـــة، وما يحكمه من علاقات متشابكة مع محيطه البشري، وكـــذا عوامـــل الوراثة المنتقلة إليه عبر الأجيال، التي يكون لها بدورها تأثيرها البـــالغ الأهمية في تكوين شخصية الفرد مـــن الناحيـــة الجـــسمية والنفـــسية والاجتماعية.

ولعل أقدم من أضاف إلى معاني"الهوية" البعد النفسي لدى الإنسان في العصر الحديث، الفيلسوف الإنكليزي"جـــون لـــوك" (1632 — 1704م) في معرض نقده لـــ"الكوجيتو" الديكارتي، حين قال: ((إن "الذات" أو الـــ"هو" (Le soi أو Self) هو ذلـــك"الـــشيء" (La chose) المفكر، الواعي (كائنا ما كانت الصورة التي يتجلـــى فيهـــا: روحية او مادية بسيطة أو مركبة، لايهم) الحَسَّاس نحو المُتـــع والألم أو الواعي بها، الخليق بالسعادة أو الشقاء الذي يَكُون اهتمامه فيه، والحال

7 مثل ما هو معمول به في لبنان (بالنسبة للديانة أو الطائفة) ، أو كما كان في جنوب إفريقيا في نظام التمييز العنصري السابق .

هذه، منصبا على ذاته .. وهو ما يجعل من وعي ذلك"الشيء الواعي" يلتقي مع ذاته، وليس مع غير ذاته، ليشكل شخصا واحدا، وذاتا واحدة. وعلى هذا النحو تسند كل أفعال ذلك الشيء لذاته وتصير ملكه، باعتبارها أفعاله، بالقدر الذي يمتد ذلك الوعي، لا أبعد منه)) [8].

وهكذا، ومع الوقت يتسع مفهوم هوية الإنسان ويتعقد ويتشعب، ويسمى بمسميات أخرى لها نفس المعنى أو تقترب منه اقترابا شديدا، مثل: الشخصية والإنية والكينونة والذّات، ليكوّن مجالا واسعا وحقلا خصبا للدراسات النفسية والاجتماعية والأنتروبولوجية والوراثية وغيرها من مجالات البحث العلمي.

ويستعمل مصطلح"الشخصية" على الأخص، في كثير من الأحيان بمعنى"الهوية"، لاسيما في مجال علم النفس وعلم الاجتماع، غير أن الاختلاف بين الباحثين يظل قائما بشأنه، إنْ في معناه أو في عناصره المكونة له أو في أهمية كل عنصر وأسبقيته أو تأخره عن العناصر الأخرى. وقد أحصى أحد الباحثين أكثر من خمسين تعريفا لمصطلح "الشخصية"[9]، مما يشير إلى الخلاف الكبير الواقع بشأنها، وأورد الدكتور أحمد بن نعمان لمعنى مصطلح "الشخصية" في كتابه "سمات الشخصية الجزائرية" خمسة عشر تعريفا لعلماء نفسانيين واجتماعيين، ومختصين في علم الإناسة، وخلص إلى القول بـ ((أن آراء العلماء لم تستقر بعد حول مفهوم محدد لمعنى "الشخصية"، مما حال دون الوصول

8Cf:"Identité " , in "Encyclopédia Universalis" Supplément 1980 . P 763 .

9 د. أحمد بن نعمان "السمات الشخصية الجزائرية من منظور الأنترو بولوجيا النفسية". المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1988،ص155.

إلى وضع تعريف جامع مانع له يكون مستوعبا لكل الأجزاء المكونة للشخصية))[10].

ويرجع الاختلاف الرئيسي إلى تركيز علماء النفس في دراستهم للشخصية على الجانب النفسي والمزاج الشخصي للفرد، في حين يركز علماء الاجتماع والإناسة على الجانب الاجتماعي، انطلاقا من أن الشخص في نظرهم إنما هو نتاج اجتماعي بالدرجة الأولى. ويحاول أحمد بن نعمان أن يصوغ في الأخير تعريفا للشخصية يوفق فيه بين آراء الفريقين، وهو أن ((الشخصية هي ذلك الطابع العام المميز والثابت نسبيا، المكَوَّن من مجموع صفات الفرد الجسمية والنفسية المتكاملة، في انتظام ودينامية، والمتكيِّفة مع البيئة الاجتماعية والطبيعية التي يعيش فيها الفرد ويتبادل التأثير))[11].

ونخلص من هذا كله إلى القول بأن التعريفات الشائعة للهوية أو الألفاظ المرادفة لها مثل "الشخصية"، تقتصر في الغالب الأعم على بعد واحد أو اثنين في أحسن الأحوال، هو ذلك البعد الذي يشكل اهتمام الباحث، أو اختصاصه، وتهمل أبعاد الشخصية الأخرى، في حين أن الهوية تتشكل من كل تلك الأبعاد مجتمعة، منظورا إليها في حالة تفاعل وحركية.

فإذا انتقلنا من هوية الفرد إلى هوية الجماعة، وجدنا أن معظم العناصر التي تشكل الهوية الفردية تنطبق على مفهوم الهوية الجماعية أو ما اصطلح على تسميته بالهوية الوطنية أو الهوية القومية[12]، إذ يتعلق

---

10 المرجع نفسه ، الصفحات 155 ـ 158 .

11 "السمات الشخصية الجزائرية .."، ص 165 .

12 هناك خلط وتداخل في استعمال لفظتي "وطني" و"قومي" ، في معظم الأقطار العربية ، بحيث تستعملان في معظم الأحيان بمعنى واحد ، وفي الجزائر شاع استعمال اللفظة

الأمر بمجموعة معينة من البشر يحملون اسما يعرفون به، ويقطنون رقعة جغرافية معينة، وينتمون إلى عرق غالب أو أعراق متعددة انصهرت مع مر الزمن في بوتقة واحدة، وكوّنت هوية مشتركة[13].

غير أن الأمر في هذه الحال يصبح أكثر تعقيدا، والخلاف يصير أقوى وأشد بين الباحثين حول أهمية وأولوية كل عنصر من العناصر المكونة للشخصية، باستثناء عنصر الأصول العرقية المشتركة ، التي أثبتت الوقائع التاريخية بشأنه أن فكرة العرق النقي ليس إلا خرافة لا أساس علمي لها، ولم يدعُ إليها سوى أصحاب الفلسفات العنصرية كالنازية والفاشية والصهيونية[14].

وتبقى العناصر الأخرى محل أخذ ورد واختلاف شديد، حيث يرى بعضهم مثلا أن لا أهمية للاختلافات اللغوية والدينية لتكوين أمة، إذ يكفي أن تكون هناك رغبة مشتركة لدى تلك المجموعات البشرية المختلفة لغة ودينا في التجاور والعيش معا، في ظل دولة وطنية واحدة، ويضربون لذلك مثلا بسويسرا والصين والهند، ويرد المعارضون لوجهة

الأولى، بمعنى : "الجزائري" ،أو الخاص بالوطن الجزائري" ، والثانية بمعنى "العربي" ، أو أي شيء يحمل البعد العربي المشترك مع الأقطار العربية الأخرى" ، ونقصد نحن هنا المعنى الأول ، أي الجزائري.

13 بناء على تعريف "إرنيست باركر" الوارد في كتاب ساطع الحصري "حول الوحدة الثقافية العربية". نشر مركز دراسات الوحدة العربية ، سلسلة "التراث القومي" الطبعة الثانية ، بيروت 1985، ص ص 13 ــ 14.

14 د. سامي مصطفى: "الشخصية القومية ، دراسة نقدية حول مجموعة من الدراسات"، مجلة "قضايا عربية"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت . العدد الثاني (عدد خاص بالوحدة العربية) حزيران ــ يونيو 1979 . ص 245 .

النظر هذه بأن ذلك الاختلاف قد لا يمنع قيام دولة، ولكنه لا يوفر الشروط لتكوين هوية قومية لأمة واحدة[15] ، ولذلك يمكن الحديث عن الدولة الهندية أو الصينية، ولكن لا يمكن الحديث عن شيء اسمه الأمة الهندية أو الصينية، أوالسوفياتية (سابقا)، لأنها دول تتكون أصلا من خليط من الأمم والشعوب المختلفة القوميات والأعراق واللغات.

ونميل من جهتنا إلى وجهة النظر الأخيرة هذه، ونرى أن اختلاف اللغات والأديان لا تساعد على تكوين هوية الأمم، ولا تحفظ هويتها القائمة من التمزق والتلاشي، وإذا كنا لا نستطيع أن نفصل في عدد العناصر المكونة لهوية الأمم، ولا أن نرتبها تنازليا، على حسب أهميتها، لأن حصرها وترتيبها ما يزال موضع خلاف كبير بين المختصين، ومازال يتم في الغالب حسب وجهات نظر ذاتية، وأيديولوجية، وسياسية، غير أننا نستطيع من جهة أخرى، اعتمادا على الأمثلة العديدة في التاريخ الحديث، أن نؤكد بأن عاملي اللغة والدين يشكلان عنصرين أساسيين في تكوين وحدة الأمم والشعوب، في حين أنه كلما اختلفت الألسن وتعددت المعتقدات الدينية كلما كان ذلك عاملا مساعدا على تفرقها وتمزق وحدتها وانقسامها إلى قوميات ودول أصغر، وأقرب الأمثلة إلينا ما جرى من انقسامات وصراعات وحروب في إفريقيا الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، وفي الهند، وفي دول شرق أوروبا ومنطقة البلقان، وفي أيرلندا الشمالية، وداخل الاتحاد السوفياتي السابق، الذي ضُمت فيه في وقت من الأوقات أممٌ وشعوب إلى بعضها بعضا بالقوة، لتعيش في ظل دولة واحدة، إلا أنها سرعان ما

15 ساطع الحصري ، "حول الوحدة الثقافية العربية" ، ص 16 .

انقسمت على نفسها بمجرد أن وجدت فرصة سانحة لذلك. ويعود سبب الانقسام والصراع والحرب فيها أساسا إلى تلك الاختلافات اللغوية والدينية التي تجوهلت أو قمعت أو عدت، ببساطة، أمورا غير ذات شأن أثناء قيام تلك الدول.

فإذا أتينا إلى موضوع الهوية الجزائرية فإننا ـــ ولأسباب منطقية صرف، ولكي لا نوغل، بلا جدوى، في البحث في الحقب القديمة للتاريخ الجزائري، ولا ندخل في تفاصيل تاريخية نراها معروفة حتى بالنسبة لأطفال المدارس ـــ سننطلق في مناقشة هذا الموضوع بدء من الغزو الاستعماري الفرنسي للجزائر، وذلك للأسباب التالية:

أولا لأن تاريخ الجزائر، بالرغم من التشويه والتحريف الذي ألحقه الاستعمار الفرنسي به ـــ كما سنبين فيما بعد ـــ فقد ظل تاريخا معروفا للخاص والعام، لا مجال للاختلاف فيه بين الباحثين النزهاء وأصحاب الرأي الموضوعي والنظرة العلمية المتجردة من الأغراض.

ثانيا، لأن الاستعمار الفرنسي هو الطرف الوحيد الذي أنكر هوية الشعب الجزائري، وجعل من ضمن مبررات غزوه للبلد أن الجزائريين لا يشكلون أمة واحدة ولا شعبا متجانسا، وإنما هم ـــ كما حاول أن يصورهم ـــ عبارة عن أعراق مختلفة وقبائل متفرقة ومتناحرة[16].

---

16 راجع مصطفى الأشرف "محاولات لتبرير الغزو الفرنسي" في كتابه "الجزائر الأمة والمجتمع"، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983، ص ص 261 ـ 264. وكذا: Mohamed Cherif Sahli « Décoloniser l'histoire : Introduction à l'histoire du Maghreb », Ed. F.Maspéro , Paris 1965. لاسيما الفصل الذي أعطاه عنوان: « Le coup d'éventail », pp 87-98 وقد ظل الفرنسيون يرددون هذه المقولة حتى وقت قريب، ومنهم بعض رؤسائهم ووزرائهم، فقد جاء على

ثالثا، لأننا سنتخذ من فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر منطلقا لمعالجة موضوع بحثنا الأساسي، ألا وهو الأدب الذي كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية، ومن ثمة نبحث في الكيفية التي انعكست بها مسألة الهوية فيه، انطلاقا من أن ذلك الأدب في حد ذاته هو أحد نتائج تفاعلات الاحتلال على الصعيدين الثقافي واللغوي، ومن ثمة، وحتى تكون دراستنا مؤسسة على وقائع ملموسة، نرى من الضروري أن نقف مع أهم المحطات التاريخية للاحتلال، ونعرض لأبرز الممارسات التي قام بها بمختلف أجهزته العسكرية وشبه العسكرية وأنظمته المدنية من أجل القضاء على الهوية الجزائرية.

* * * *

لسان الجنرال ديغول عن الجزائر قوله: "إنها لم تكن ذات يوم دولة ، ولا أمة ، وإنما هي مجرد خليط مزركش من عشائر متطاحنة"، وكتب ألان جوبير وهو أحد وزراء الخارجية في عهد رئاسة جيسكار ديستان "إن الجزائر قد بدأت تاريخها سنة 1962"، وعبر عن هذا المعنى جيسكار ديستان نفسه بلغة دبلوماسية، في زيارته للجزائر سنة 1975 حين قال: "إن فرنسا التاريخية تحيي الجزائر المستقلة". راجع : مولود قاسم ، نايت بلقاسم " أصالية أم انفصالية "، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1991، ج 2، ص30.

الفصل الأول

الهوية الجزائرية وحرب الإبادة الاستعمارية

من الحقائق التي لا يستطيع أحد نكرانها، أنه حين دخلت القوات الفرنسية الغازية مدينة الجزائر في الخامس من جويلية سنة 1830، لم تجد الأرض الجزائرية خرابا يبابا، فقد كانت هناك دولة جزائرية قائمة، لا تقل عراقة عن مملكة أسرة"آل بوربون" التي كانت تحكم فرنسا آنذاك، حيث كان قد مضى على تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة على يد الأخوين عروج وخير الدين بربروس أكثر من ثلاثة قرون[1]، كان يرأسها السلطان ثم الباشا في فترة لاحقة، وأخيرا الداي على التوالي[2]، ويسيِّر شؤونها وزراء، لهم مهمات لا تختلف في جوهرها عن مهمات نظرائهم الوزراء في المملكة الفرنسية، وكان لهذه الدولة سياسة داخلية، وسياسة خارجية، وسلك دبلوماسي أجنبي في الداخل، ومفوضون رسميون في الخارج يبرمون الاتفاقيات، ويوقعون المعاهدات باسم الدولة

---

1 بايع أهل مدينة الجزائر خير الدين بربروس كحاكم على الجزائر سنة 915 هـ الموافق لسنة 1509م، وأعلن نفسه سلطانا على الجزائر سنة 1533م. انظر على التوالي: د. جمال قنان"نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر"، منشورات المؤسسة الجزائرية للطباعة. الجزائر 1987، ص43.

.1 Mahfoud Kaddache "L'Agérie durant la période Ottomane". O.P.U , Alger 1992, p13 .

2 أحمد توفيق المدني"كتاب الجزائر" نشر دار الكتاب، البليدة (الجزائر) 1963، ص37، وانظر أيضا بشأن هذه التسميات وتواريخ استعمالها : د. أبو القاسم سعد الله "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1986ص321.

الجزائرية، بدليل أن الغزو المباشر جاء نتيجة خلاف دبلوماسي افتعله القنصل الفرنسي المقيم في الجزائر آنذاك، السيد"دوفال"، بأمر من حكومته[3]، لتبرير الغزو، وضربة المروحة المزعومة هي من الشهرة بحيث لا تحتاج إلى أن نعيد روايتها في هذا المقام.

ولن نقف طويلا هنا مع القائلين بأن الحكام الأتراك في الجزائر كانوا بدورهم محتلين أجانب كغيرهم من المحتلين، فهذا القول بدوره من الحجج التي روَّج لها الاستعمار كثيرا، وجعلها من مبررات الغزو، ولكنها، على أية حال، حجة ضعيفة، لأنه لم يقع في أي يوم من الأيام غزو تركي للجزائر، وإنما يحدثنا التاريخ عن استنجاد سكان مدينة الجزائر في سنة 915 هـ 1509م بالقائدين البحريين الأخوين عروج وخير الدين بربروس التركيين، لحمايتهم من خطر الغزو الإسباني، وكان ذلك عن رضى وقناعة من السكان، على أساس أنهم كانوا يستنجدون بقوة إسلامية لمساعدتهم في مواجهة قوة أجنبية مسيحية، وتمت مبايعة خير الدين بربروس كحاكم على الجزائر بعد مشاورات جرت بين أعيان البلد، وبإلحاح منهم على خير الدين حتى يقبل بذلك[4]. فإذا كان القائلون بهذا الزعم يشيرون إلى الأصل التركي للأخوين عروج وخير الدين، فلماذا لا يقولون عن حكم ملوك آل"بوربون" لفرنسا نفسها، وهم من أصل جرماني، بأنه كان احتلالا أجنبيا لفرنسا؟ ولماذا لا يقولون ذلك عن حكم نابليون الذي كان كورسيكيا ينحدر من أصول إيطالية؟ أو عن

---

3 هنري قارو"تاريخ الجزائر العام" نقلا عن أحمد توفيق المدني"كتاب الجزائر" ص45.

4 Cf :Mahfoud Kaddache "L'Algérie durant l'époque Ottomane ", p13.

حكم "برنادوت" ملك السويد" الذي كان فرنسي الأصل ولم يكن سويديا؟[5].

وقد كان للدولة الجزائرية على عهد الدايات رقعة جغرافية معروفة، وتقسيم إداري محدَّد ومعروف أيضا، ويشمل رقعة الجزائر الحالية، بما في ذلك مناطق الجنوب، التي انتقل إليها صالح رايس سنة 1555م، بصفته ممثلا للسلطة المركزية، وزار مناطق تامنغست، وعين صالح التي سميت باسمه منذ ذلك التاريخ، وحصل على ولاء أهلها للدولة المركزية في الجزائر العاصمة[6].

وكان للجزائريين غداة الاحتلال لغة علم وثقافة واحدة مشتركة هي اللغة العربية، التي كانت منتشرة ومتغلغلة في أوساط السكان بدرجة كبيرة، شهد بها المحتلون أنفسهم وكتبها في تقارير رسمية ضباط عسكريون، وموظفون رسميون، وقد وجد بعضهم في نفسه من الشجاعة والموضوعية ما جعله يصرح "بأن القراءة والكتابة كانت عند دخول الفرنسيين أكثر انتشارا بين العرب (الجزائريين) منها بين الفرنسيين[7]، لأنها لم تكن بالنسبة إليهم مجرد لغة تواصل، أو لغة علم فحسب، ولكنها كانت فوق ذلك لغة القرآن، أي لغة الدين الذي يدينون به، وهذا ما نص عليه بالحرف تقريبا أحد التقارير التي وضعت عن حالة التعليم في الجزائر بعد وقوع الغزو.

---

5 مولود قاسم "أصالية أم انفصالية" ج 2 ص313.

6 "أصالية أم انفصالية" ج 2، ص270.

7 Christiane Achour "Abécédaires en devenir, idéologie coloniale et langue française en Algérie". Ed. Enap. Alger 1985 , p 145 .

وكانت الأغلبية الساحقة من الجزائريين، ومازالت، تدين بالدين الإسلامي، الذي كان قد مر على دخوله إلى شمال إفريقيا حين وقع الغزو، حوالي اثني عشر قرنا، وكان الجزائريون قد اعتنقوه عن قناعة، ودون قهر أو إجبار، بعد أن قاوموه في الأول، ظنا منهم أن الفاتحين العرب قد جاؤوا غزاة محتلين، طامعين في خيرات البلاد، كغيرهم من المحتلين السابقين، فلما تبين لهم سمو الرسالة السماوية التي يحملونها، ونبل مقاصدها، أقبلوا على الدين الجديد من تلقاء أنفسهم، يدخلون فيه جماعات، وينشرونه بأنفسهم في أعالي الجبال وأقاصي الصحراء، بين أهلهم وذويهم، فكان الإسلام منذ ذلك الحين عامل جمع وتوحيد بالنسبة للجزائريين، تجاوز في ذلك كل عوامل التوحيد الأخرى.

وإلى جانب هذا، كان هناك تاريخ مشترك يجمع كل الجزائريين، تكوَّن عبر العصور المختلفة، وتقاطع في كثير من فتراته مع تاريخ جيرانهم وإخوانهم في بلاد المغرب والمشرق، واختلف عنه في بعضها، وانطوى على صفحات كثيرة مشرقة، كما ضم صفحات أخرى مؤلمة ودامية، وتميز عموما بتعلق الجزائريين الشديد بالحرية، وبرفضهم للهيمنة الأجنبية، وبكفاحهم الطويل ضد كل الغزاة والمحتلين الذين نزلوا بأرضهم، ولأجل ذلك أطلقوا على أنفسهم اسم الأمازيغ، أي الأحرار، وقد أنشأوا أثناء هذا التاريخ الطويل العديد من الممالك والدول، يعود أقدمها إلى القرن الثاني قبل الميلاد، حين أنشأ "ماصيبصا" مملكة"نوميديا" وعاصمتها"سيرتا"، وهي قسنطينة الحالية، وكانت تمتد من الشرق إلى الغرب على مساحة الجزائر الحالية تقريبا،

وبالضبط: من منطقة"الكاف" بتونس إلى نهر"ملوية" بالمغرب الأقصى[8]، وأنشئت بعدها ممالك عديدة أخرى في فترات تاريخية مختلفة لا يسمح لنا المقام بذكرها، وذلك قبل الفتح الإسلامي وبعده، ودام حكمها أزمانا متباينة، كانت تقوى فيها الدولة تارة وتضعف أخرى، وتتغير عاصمتها حينا، لتنتقل إلى غرب البلاد مثل تلمسان أو وسطها كبجاية والجزائر أو إلى مناطق أخرى مثل تيهرت والأشير جنوبا، وتتسع تبعا لذلك رقعة الدولة أو تضيق، حسب الظروف والملابسات، لكن كانت هناك دائما دولة ونظام وشعب وحضارة، باستثناء فترات الاحتلال الأجنبي التي كانت تتلاشى فيها الدولة ولكن يظل فيها الشعب صامدا متماسكا، محافظا على شخصيته وقيمه وتقاليده، إلى أن تأتي الفرصة المواتية للتحرر من ربقة الأجنبي.

وقد اتسمت كل الممالك والدول التي تأسست بعد الفتح الإسلامي على الأرض الجزائرية، أي طيلة أربعة عشر قرنا، باستثناء دولة الاحتلال الفرنسي، بالطابع الإسلامي المميز، وعرفت بانتمائها للحضارة العربية الإسلامية، وكانت تشكل دائما جزء من الأمة العربية والعالم الإسلامي. لذا، فإن الغزو الاستعماري الفرنسي حينما وقع على الجزائر، ومهما كانت المبررات التي حاول الاستعمار أن يتذرع بها، إنما كان في حقيقته يندرج ـــ كما سنوضح في الصفحات اللاحقة ـــ في إطار الصراع الحضاري الذي كان قائما بين العالم العربي الإسلامي من جهة، والعالم الأوروبي المسيحي من الجهة الأخرى.

---

8 راجع محمد الصغير غانم"شخصيات نوميدية". مجلة"التراث"باتنة/الجزائر، ع5، 1992ص8.

وبناء على كل ما سبق أن بَيَّناه، فقد كان للجزائريين، حين نزلت القوات الغازية الفرنسية على الشواطئ الجزائرية سنة 1830 كل مقومات الأمة، حتى وإن لم تكن تسمى بهذا الاسم[9]، من رقعة جغرافية محددة ومعروفة، وحكم مركزي ذي سيادة، ولغة وطنية، وثقافة عريقة، وحضارة متجذرة في التاريخ، ودين يجتمع عليه كل أهل البلد، وتاريخ معروف يمتد على مدى عشرين قرنا على الأقل.

وإذا أنكر المحتلون كل هذه الحجج الدامغة، وبرروا غزوهم واستيطانهم للبلد بنفي كل هذه المقومات، فإن إنكارهم لم يكن إلا مكابرة وبحثا عن مبررات للغزو، وإن التصريحات التي صدرت عن قادتهم السياسيين والعسكريين، قبل الغزو وأثناءه وبعده، تكذب ادعاءاتهم، وتكشف نواياهم الحقيقية، فقد كانت تُحرِّكُهم في الواقع نوازع دينية، وترسبات تاريخية، وأحقاد قديمة، تعود إلى عهد الحروب الصليبية في الشرق العربي وفي الأندلس، يتجلى ذلك في التصريحات الأولى التي صاحبت الإعداد للغزو أو التي صدرت بعد الشروع في تنفيذه، ومن تلك التصريحات أن الغرض من الحملة على الجزائر إنما هو ((إنقاذ المسيحية والمسيحيين من أيدي القراصنة الجزائريين))[10]. ويذكر المؤرخون أن الأسقف"فريسنوس" وزير الشؤون الكنسية في حكومة الملك"شارل العاشر"، قد لعب دورا بارزا في تعبئة النفوس لإنجاح

9 محمد حربي"الثورة الجزائرية، سنوات المخاض" ترجمة نجيب عياد وصالح المثلوثي"موفم"، الجزائر1994 ص75.

10خديجة بقطاش"الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر1830_1871".مطبوعات دحلب. الجزائر 1992. ص17.

الحملة على الجزائر[11]، وكذلك باركت روما"البابوية" الغزو واعتبرته عملا مقدسا لفائدة المسيحية[12]، ولم ير البابا"بيوس الثامن" أي مانع من استخدام موانئه لفائدة الحملة[13].

وكان الملك شارل العاشر نفسه، وهو يعد العدة لغزو الجزائر، قد عبّر عن نوازعه الصليبية حين قال في خطاب له بمناسبة ذكرى اعتلائه العرش: ((إن العمل الذي سأقوم به ترضية للشرف الفرنسي[14]، سيكون، بإعانة العلي القدير، لفائدة المسيحية كلها))[15].

وأبدت العديد من الدول الأوروبية ارتياحها للغزو[16]، رغم المنافسة التي كانت قائمة بينها على اقتسام مناطق النفوذ في إفريقيا وآسيا والأمريكتين، ولكن يبدو أن الروح الصليبية في نفوس قادتها كانت أقوى من روح المنافسة على المنافع المادية، أضف إلى ذلك روح التشفي والانتقام بعد أن حاول معظمهم غزو الجزائر أكثر من مرة، مثل الإسبان والإنكليز، فضلا عن الفرنسيين أنفسهم[17]، ولكنهم منوا في كل مرة بالفشل الذريع.

---

11 "الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر"، 17.

12 نفسه، ص 18.

13 نفسه، ص 37، هامش رقم 17.

14 إشارة إلى حادث المروحة المشهور، الذي اتخذته فرنسا مبررا للغزو.

15 أحمد توفيق المدني"كتاب الجزائر" . ص46.

16 "الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر"، ص17.

16 المرجع نفسه، ص17.

17 كان ذلك في سنة 1664، على عهد لويس الرابع عشر، حين هاجم الدوق"دي بوفور" مدينة جيجل وانهزم فيها. راجع : مولود قاسم"أصالية أم انفصالية"ج 2، ص267.

وانطلاقا من هذه الروح الصليبية، فإن الغزاة الفرنسيين كانت تداعب أحلامهم، كما يبدو واضحا من تلك التصريحات، فكرة أن يخوضوا"حربا مقدسة" ضد الجزائر، باعتبارها جزء من أرض الإسلام، ليجعلوا منها أرضا مسيحية، على غرار ما حدث في إسبانيا ابتداء من منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، من حرب ضد المسلمين، فيما أصبحوا يسمونه"حرب الاسترداد"[18]، ويتخذوا منها منطلقا للاستيلاء على الأقطار المغربية الأخرى؛ وقد استولوا فعلا، ولو بعد حين، على تونس وعلى المغرب الأقصى، وفرضوا عليهما الحماية سنة1881 و1912 على التوالي، وهو ما يدل على أن الفكرة لم تكن وليدة المصادفة أو مجرد أحلام أو أوهام أملتها عليهم نشوة الانتصار، كما يذهب إلى ذلك العديد من المؤرخين، استنادا إلى التردد والارتباك الذي عرفته سياسة الاحتلال في سنواتها الأولى[19]، وإنما كانت نية مبيتة ومخططات مدروسة، ولم يكن ينقصها إلا التطبيق الفعلي في الميدان.

أما سبب التردد والارتباك المشار إليه، فلا يعود في رأينا إلا إلى تلك القلاقل والاضطرابات الداخلية التي عرفتها فرنسا في تلك الفترة،

---

18 يذهب فرحات عباس إلى هذا الرأي حين يقول:"لقد كان غزو الجزائر منذ البداية مرتبطا أشد الارتباط بخلاف الديانات والحضارة، فبترول قواهما على شاطئ سيدي فرج تكون فرنسا شارل العاشر قد خلفت إسبانيا المسيحية، بلد إيزابل الكاثوليكية وشارل كان، اللذين عقدا العزم بعد أن أجهزا على مملكة غرناطة، آخر المعاقل العربية الإسلامية في الأندلس، على انتزاع شمال إفريقيا من الحضارة الإسلامية، ومن هذا المنظور تم غزو الجزائر سنة 1830، من قبل أمة أخرى مسيحية، ثم تأتي بعد ذلك الأطماع الاقتصادية والبحرية والتوسعية". راجع تصدير فرحات عباس للطبعة الجديدة من كتابه المعنون بـ : " De la Colonie vers la Provence : Le jeun algérien" Ed. Garnier Frères, Paris 1981, P11.

19 C.f: Charles Robert Ageron "Histoire de l'Algérie contemporaine" Coll. Que-sais-je n°400, P.U.F 1964. P20.

وكان التعجيل بغزو الجزائر في حد ذاته، كما يذهب إلى ذلك بعض المؤرخين، نوعا من تصريف العاصفة، وإلهاء للرأي العام الفرنسي بحرب خارجية تنسيه أوضاعه الداخلية المتردية، غير أن ذلك لم يمنع في نهاية الأمر من قيام الثورة ضد الملك شارل العاشر، التي أطاحت به وأتت بلويس فليب مكانه، لكن ذلك لم يغير شيئا بالنسبة لغزو الجزائر، كما لم يغير من الأمر شيئا انتقال طبيعة الحكم في فرنسا من النظام الملكي إلى النظام الجمهوري أو العكس، في سنوات 1848 و1852 و1871، وهو ما يؤيد ما ذهبنا إليه في وجود نية مبيتة تتجاوز الحكام وطبيعة الحكم إلى ما هو أبعد من ذلك، أي إلى الصراع الحضاري الذي ظل قائما مدة قرون، وما يزال إلى يومنا هذا، بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي.

وبالرغم من طول فترة الاحتلال وتغير القادة والحكام في فرنسا والجزائر على السواء، ووقوع ثورات في فرنسا، وخوض غمار حربين عالميتين، وسقوط وصعود خمس جمهوريات إلى سدة الحكم، فإن السياسة الاستعمارية في الجزائر ظلت تحافظ على ثوابت معينة يمكن لنا وصفها باستراتيجية الاستعمار العامة، فقد عمل الغزاة منذ أن وطئت أقدامهم هذه الأرض على محاربة الشعب الجزائري بكل ما أوتوا من قوة مادية، وعلى ضرب مقوماته الروحية التي تفقد كل وسائل المقاومة الأخرى بدونها أية أهمية أو فاعلية.

وقد قامت استراتيجية الاستعمار أساسا على حرب إبادة مادية ومعنوية (روحية)، تقوم في جانبها المادي على:

أولا: إفناء العنصر البشري للشعب الجزائري، عن طريق حرب مباشرة شاملة لا هوادة فيها، بجيوش جرارة، منظمة ومدربة أحسن تدريب، ومسلحة أفضل تسليح، يقودها ضباط محترفون، ويضرم نيرانها جنود مرتزقة مهنتهم القتل، ضد الأهالي العزل في القرى والبوادي والأرياف، وفي أسوإ الأحوال، بالنسبة للغزاة، في مواجهة مقاومة شعبية قليلة العدد والعدة، لا سلاح لها في الواقع إلا الصبر والإيمان.

ثانيا: الاستيلاء على الأرض وتعميرها بالعنصر البشري الأوروبي، على حساب أهلها الأصليين، في محاولة لتحويل طابعها البشري من الطابع العربي الإسلامي إلى الطابع الأوروبي المسيحي.

وتقوم في جانبها المعنوي الروحي على شقين أيضا: **الأول، يتمثل في هدم البنيات الثقافية والروحية والأنظمة والتقاليد الاجتماعية التي كانت قائمة قبل الغزو، والثاني، يتمثل في إحلال بنيات أخرى محلها، تستمد مقوماتها من البنيات الثقافية والروحية والتقاليد الاجتماعية الأوروبية المسيحية،** وتحتاج هذه الاستراتيجية لكي نوضحها إلى شيء من التفصيل نقدمه في الصفحات التالية.

الإبادة المادية

1 ـ إفناء العنصر البشري للشعب الجزائري.

كانت الإجراءات العملية الأولى في مخطط حرب الإبادة الشاملة ضد الشعب الجزائري تتمثل في مواصلة الغزو ، وتوسيع رقعة الحرب من أجل الاستيلاء على كل المناطق الجزائرية غربا في اتجاه وهران ومعسكر وتلمسان ، والجنوب الغربي عموما ، وشرقا نحو بجاية

وقسنطينة وعنابة وجنوبا نحو بسكرة وبوسعادة والأغواط. وبالرغم من أن الملك"لويس فيليب" كان كما يقول المؤرخون على خلاف سابقه "شارل العاشر"، رجلا "مسالما"، ومحبذا لفكرة"الاحتلال المحدود"[20]، إلا أنه لم يتجرأ على معارضة الجنرال"كلوزيل"بشكل علني في توسيع رقعة الاحتلال، لأن هذا الأخير، كما قيل، يعرف عنه"أسرارا" شخصية، يخشى أن يستعملها قائده العسكري كسلاح ضده، إن هو عارض علنا طموحاته[21]، وكان كلوزال يطمح إلى تحقيق أمجاد شخصية لنفسه، لا سيما بعد أن حقق بعض الانتصارات السهلة في حملته على مدينة المديَّة.

ولتحقيق غرض التوسع، واستجابة لرغبة كلوزال، وتصميمه على احتلال قسنطينة بالخصوص، تضاعفت القوات العسكرية الفرنسية ثلاث مرات عما كانت عليه عند نزولها على شاطئ سيدي فرج[22]، وظل عددها يتضخم مع الوقت باستمرار، وخصوصا بعد الفشل الذريع الذي مني به الجنرال"كلوزيل"[23] في الناحية الغربية في حربه مع الأمير عبد القادر، وفي الناحية الشرقية مع أحمد باي على السواء[24]، وهو الأمر الذي دفع وزارة الحربية إلى عزله، ليحل محله الجنرال "داميرمون" الذي قاد بنفسه الحملة الثانية على قسنطينة في أكتوبر 1837، وقتل تحت أسوارها. وعندما تولى الجنرال"بيجو" القيادة العامة

---

20 Francis et Colette Jeanson " L'Algérie hors la loi " E.NAG. Alger1993. 23 .

21 "L'Algérie hors la loi". p 27 .

22 L'Algérie hors la loi. P 24

23 الذي تولى القيادة العامة مرتين من أوت1830 إلى فبراير1831، ومن جويلية 1835 إلى فبراير1837.

24 " Histoire de l'Algérie contemporaine", p17 .

للجيش سنة1841، وكان أكثر غلوا في الدعوة إلى الحرب من كل سابقيه من العسكريين، كان عدد القوات الفرنسية في الجزائر ثلاثة وثمانين ألف رجل، لكنه رأى أن هذا العدد غير كاف للقضاء على المقاومة الشعبية، ولاسيما مقاومة الأمير عبد القادر، فراح يطالب حكومته باستمرار بزيادة عدد أفراد الجيش، إلى أن بلغ سنة 1846، مئة وثمانية آلاف رجل[25]، بالإضافة إلى حوالي عشرة آلاف من رجال "القوم"*.

وقد استعملت في هذه الحرب كل وسائل الدمار والتقتيل الجماعي للأهالي العزل معظمهم من السلاح، وتجردت الحملات العسكرية من كل الأخلاق والقيم الإنسانية، وتفنن ضباط الجيش الفرنسي في وضع مخططات الموت، واختراع وسائل الإبادة، وتنافسوا في نشر الخراب والدمار، لا سيما حين أصبح الجنرال بيجو قائدا للجيش وحاكما عاما على الجزائر في الفترة ما بين1841و1847 ــ كما سبقت الإشارة ــ فهو صاحب الشعار المشهور" السيف والمحراث"، وهو الذي ابتدع ما أصبح يعرف بـ"سياسة الأرض المحروقة"، أي تدمير القرى، وحرق المحاصيل الزراعية، وقطع الأشجار المثمرة، وإتلاف المراعي، ومصادرة قطعان الماشية، ولخص كل ذلك في أمر عسكري لقادة جيشه هو: "منع العرب من الزرع، والحصاد، والرعي"[26].

لكن، هذا لا يعني أن الذين سبقوه كانوا أقل قسوة وفظاظة، فمنذ السنوات الأولى للاحتلال، راح الجيش الفرنسي يشن حرب

---

25 " Histoire de l'Algérie contemporaine", p17 .

* رجال القوم ، هم الجزائريون الذين انضموا إلى القوات الفرنسية، وحاربوا في صفوفها.

26 Histoire de l'Algérie contemporaine P 20.

إبادة ضد المدنيين العزل، ويرتكب في حقهم مجازر بشعة، وكان الضباط أنفسهم يكتبون عنها بكثير من التفاصيل، وفي شيء من الزهو والتلذذ، وبفضل كتاباتهم تلك، صار بين أيدي الباحثين اليوم شهادات تاريخية على قدر كبير من الدقة. وكانت أخبار تلك المجازر تتسرب إلى الصحافة في فرنسا، فتثير بعضا من ردود الفعل في أوساط الرأي العام، ومن أولايات المجازر التي ارتكبتها القوات الفرنسية بعد الغزو، تلك التي وقعت في حق قبيلة العوفية في ضاحية الحراش ليلة السادس أبريل 1832، فقد فاجأهم الجنود وهم نيام، وأبادوا أفراد القبيلة عن آخرهم دون تمييز في الجنس أو العمر[27]، ولم يتمكن رجال القبيلة القادرون على استعمال السلاح حتى من الدفاع عن أنفسهم، وعند عودة الجنود من هذه المهمة "المخزية" ـــ حسب تعبير أحد الكتّاب ـــ ((كان فرساننا يحملون الرؤوس الآدمية على أسنة حرابهم))[28].

وتتكرر مثل هذه المجزرة في السنوات التالية، لتصبح بالنسبة للجنود الفرنسيين نوعا من أنواع النزهة ـــ كما يصفها الجنرال" شان كارني" ـــ وتجارة رائجة بما يسلبونه من ضحاياهم. يقول"كارني": ((كان جنودي يجدون في تلك الغزوات المتكررة على القبائل المناهضة لنا من الحراش إلى بورقيقة نوعا من النزهة))[29]، أما السلب والنهب فقد صار عملة رائجة بين الجنود، وقد ابتدع الجنرال"لاموريسيار" طريقة جديدة

27 Ibid, p17.

28 L'Algérie hors la loi, p 25 .

ويقدر بعض المؤرخين عدد الضحايا بحوالي اثني عشر ألف ضحية. راجع :

Abdelghani Megherbi «La Paysannerie algérienne face à la colonisation» E.N.A.P. Alger 1973, p28

29 "L'Agérie hors la loi", p 25 .

تشجع على ذلك، وهو إرسال الجنود في مهمات حربية بدون مؤونة ((اعتمادا على أن نهب مطمورات الحبوب والسطو على المواشي كفيلان بتوفير القوت للجندي الحامل لمشعل الحضارة)) [30]. وعقب كل غزوة كان الجنود يحملون بضاعتهم إلى سوق "باب عزون" ((ليعرضوا للبيع أساور نساء ما تزال تطوّق بعد معاصمهن المقطوعة، وأقراطا معلقة في قطع من لحم آذانهن)) [31].

وبالرغم من عدم وجود فارق بين قادة جيوش الاحتلال في القسوة والفظاظة، كما تشهد بذلك أفعالهم، إلا ما ندر [32]، إلا أن الفارق بينهم هو أن عمليات التقتيل والإبادة الجماعية في سنوات العشرية الأولى للاحتلال كانت تتم في الغالب بدون ترتيب دقيق، ولا نظام محكم، ولكنها في العشرية الثانية، حين تولى الجنرال "بيجو" القيادة العامة، صار ذلك يشكل استراتيجية مدروسة، لها مخططاتها الواضحة، وأهدافها المحددة سلفا، كما تطورت فيها أدوات القتل، وتعددت وسائل الإبادة، واستعملت فيها كل أنواع الأسلحة، مثل القتل المباشر بالرصاص أو السيف، أو بسلاح النار، أو الخنق بالدخان، أو بغيره من وسائل القتل، وتدمير القرى، وحرق المحاصيل، ومصادرة المواشي، وباختصار: القضاء على كل ما يحفظ حياة الإنسان ويبقيه على قيد الحياة.

---

30 مصطفى الأشرف "الجزائر الأمة والمجتمع" ترجمة د. حنفي بن عيسى، م.و.ك، الجزائر 1983ص283.

31 L'Agérie hors la loi, p 25 .

32 مثل الجنرال "بيرتوزان" الذي تولى القيادة لمدة أحد عشر شهرا سنة1831، وكذلك الجنرال "فوارول" الذي تولى القيادة سنتي 1833و1834 وحاول أن يكسب ود العرب ويمحو آثار سابقيه. راجع: .L'Algérie hors la loi"p 26"

وقام بوضع هذه الاستراتيجية موضع التنفيذ ضباط ومساعدون للجنرال اشتهروا بالقسوة وارتكاب الجرائم الفظيعة، حتى ضج من أعمالهم الرأي العام الفرنسي نفسه، واشتهر منهم خاصة"سانت آرنو" و"شان كارنيي" و"ديريسون" و"لاموريسيار" و"بيليسي" و"مونتنياك". ومن اختراعات هؤلاء الضباط في القتل الجماعي: الخنق بالدخان، هذا الاختراع الرهيب الذي تسرب خبره إلى الصحافة الفرنسية، وأثار جدلا في البرلمان الفرنسي نفسه، وكان أول من ابتدعه ووضعه موضع التطبيق العقيد"كافنياك" سنة 1844، حين أمر بإشعال نار عظيمة أمام إحدى المغارات على الضفة اليسرى لنهر الشلف، كان سكان تلك المنطقة قد لجؤوا إليها بأطفالهم ونسائهم، ودوابهم، فرارا من بطش الجنود الفرنسيين، فمات الكثير منهم خنقا بالدخان واستسلم بعضهم كرها. وتكرر هذا الفعل الشنيع في شهر جوان من السنة الموالية (1845) على يد العقيد "بيليسي" بمنطقة الظهرة مع أولاد رياح، الذين التجئوا بدورهم إلى مغارة، فأمر جنوده بإشعال النار عند مدخلها، وبعد مرور أربع وعشرين ساعة من إضرام النار، اقتحم الجنود المغارة ليروا ما حل بضحاياهم. ووصف أحدهم المشهد بقوله ((حين تمكنا في آخر الأمر من زيارة ذلك الجحيم، بعد أن خمدت فيه النيران، عددنا أكثر من خمسمائة ضحية، ما بين رجال ونساء وأطفال، وقد أصيب جميع الحاضرين بوجوم شديد لهول الفاجعة))[33].

---

33 الجزائر الأمة والمجتمع، ص113.

ونظرا للصدى الذي أحدثته المجزرة في فرنسا نفسها، فقد طلب نواب البرلمان "توضيحات" بهذا الشأن من الحكومة، ووجد السيد "سول" وزير الحربية آنذاك نفسه محرجا أمام النواب، فأدان هو نفسه الجريمة، وانتقد سلوك العقيد بيليسي. إلا أن هذا لا يعني أن الحكومة الفرنسية لم تكن على علم بما كان يجري في الجزائر، أو لم تكن متواطئة مع العسكريين الذين كانوا في ميدان العمليات، وإنما كان دورها أن تقدم لمجلسي النواب والشيوخ ما كان يجري في الجزائر في شكل مُلطّف ومقبول، وتقنع أعضاء المجلسين بمشروعيته، وتجعلهم يوافقون على رصد الموازنات الضخمة للآلة الحربية، وهو ما حققته فعلا، فكان النواب يوافقون في النهاية على نفقات الحرب، تحت عبارة ((القيام بأشغال كبيرة استعدادا للحرب)) والمساعدات الموجهة لتوطين المعمرين تحت عبارة ((وضع عائلات فلاحين فرنسيين إلى جانب عائلات الأهالي)) [34].

وقد أثار موقف وزير الحربية في مجلس النواب حفيظة الجنرال بيجو، فبعث برسالة إلى الوزير يحتج فيها على "تحامله بدون تحفظ" على سلوك العقيد بيليسي، ويعتبر الكلمات الصادرة من النواب "غير لائقة"، لأنها ستحدث، حسب تعبيره، أثرا سيئا في الجيش. وختم رسالته الاحتجاجية بقوله ((وأنا أرى بأن مراعاة القواعد الإنسانية تجعل الحرب في إفريقيا تمتد إلى ما لانهاية، كما أن الثورة فيها لن تخمد أبدا..)) [35].

---

34 L'Algérie hors la loi, p29 .

35 الجزائر الأمة والمجتمع، ص113.

وواضح من هذه العبارة التي تلخص رأي القائـد العـام لجـيش الاحتلال في الكيفية التي يتصور بها إنهاء حالة الحرب في الجزائـر، أو بتعبير أدق: القضاء على المقاومة الشعبية، أنها تترجم بشكل عملي مبدأ "ميكيافيللي" الشهير"الغاية تبرر الوسيلة".

ولا عجب أن يتولى الجنرالبيجو بنفسه الدفاع عن جرائم ضـباطه، فقد كانت تلك الجرائم ترتكب في الواقع بتشجيع منه، وأحيانا بـأمر مباشر منه، وهذا ما حدث بالنسبة للمجزرة التي قـام بهـا العقيـد "بيليسي"، الذي تلقى منه قبل ذلك رسالة تقول بالحرف ((في حالـة ما إذا لجأ أولئك"الأنذال" إلى مغاراتهم، فافعل بهم ما فعله"كافينيـاك" بـ"الصبايح"، أبِدْهم بالدخان كالثعالب. إمضاء: الدوق ديزلي*))[36] .

ويبدو أن"لعبة الموت" هذه بالنار والدخان، قد استهوت ضـباطا آخرين، فراحوا يتنافسون في استعمالها، غير آبهين ـــ مادام قائـدهم يشجعهم عليها ـــ بالضجيج الذي كانت تحدثه في فرنسا، وقد برز من بينهم على الخصوص الجنرال"سانت آرنو"، الذي كرر في الجهـة الشرقية من البلاد ما فعله"كافينياك" و"بيليسي" في الجهة الغربية، ففي شهر أوت من سنة 1845، أي بعد شهرين فقط من جريمة"بيليسي"، أقدم هذا الجنرال، وبالطريقة نفسها، على ((تحويل بعض المغارات إلى مقابر واسعة))[37]. وتشهد على"منجزاته" تلك، تقاريره إلى رؤسـائه،

---

* الدوق ديزلي، أو "ديسلي" هو لقب الجنرال"بيجو" الذي حصل عليه وعلى رتبة "ماريشال" بعد انتصار جيشه على جيش سلطان المغرب في موقعة"إيسلي" بتاريخ 14 أوت 1844. راجع: Histoire de l'Algérie, p 18.

36 L'Algérie hors la loi, p 33 .

37 L'Algérie hors la loi, p33

ورسائله إلى أصدقائه، التي كانت تحفل بالتفاصيل الكثيرة عنها، وهو الأمر الذي أزعج وزارة الحربية، ودفعها إلى إصدار تعليمات تمنع الصحف من نشر ((تفاصيل شديدة الدقة"يسهل تبريرها" ولكنها غير مجدية في أن يعرفها الرأي العام الأوروبي)) [38].

ويروى عن هذا العسكري المحترف للجريمة أنه كان يردد قوله: ((لن أترك شجرة واحدة واقفة في بساتينهم، ولا رأسا واحدة على كتفي هؤلاء العرب الأشقياء)) [39]. وقد صعب عليه ذات مرة أن يفهم نبل مبادرة الأمير عبد القادر الذي أطلق سراح مجموعة من الجنود الفرنسيين كانوا أسرى لديه دون أية شروط أو مبادلة من أي نوع، فكتب في إحدى رسائله: ((لقد أعاد إلينا عبد القادر كل أسرانا، بدون شروط، وبدون مبادلة، وقال لهم: لم يعد لدي ما أطعمكم به، ولا أريد أن أقتلكم، ولهذا أطلق سراحكم)). وعلق على هذ بقوله: ((إنها لفتة حسنة من همجي)) [40].

وعلى هذا المنوال سار الدوق"دومال" الذي خلف الجنرال"بيجو" سنة 1847، حين أحيل هذا الأخير على التقاعد، ومنه تلقى التوجيهات والنصائح [41]. وسياسة الحرق والإبادة الجماعية نفسها اتبعها خليفته الماريشال"راندون" ونفذها في منطقة الوسط على الخصوص، ويمكن أن نذكر هنا من سجلات هؤلاء العسكريين، على سبيل المثال لا الحصر، ما فعلوه بسكان واحة الزعاطشة، الذين

38 Ibid, P33.

39 La Paysannerie algérienne, p 33 .

40 Cité par Ferhat Abbas in "Le Jeun Algérien " p 118.

41 الجزائر، الأمة والمجتمع، ص302.

أبادوهم عن آخرهم في نوفمبر 1849، وما فعلوه بسكان مدينة الأغواط أثناء احتلالهم لها سنة 1852، حيث قتل معظم قاطنيها، وخرب عمرانها، وأتلف زرعها[42]، وكذا ما فعلوه بسكان تُقُرت سنة 1854[43]، وما ارتكبه الماريشال"راندون" من فظائع سنة 1857 في بلاد القبائل[44]، رغبة منه في الإجهاز بسرعة على المقاومة الشعبية التي قادها لالا فاطمة نسومر.

وإذا كان العسكريون لا يأبهون كثيرا بتقديم المبررات عما كانوا يقومون به في الميدان، ولا يلجؤون إلا نادرا إلى الطرق الملتوية في الاستجابة لنزعتهم السادية، وفي إشباع تعطشهم للدماء، فإن هناك دائما فئة من أصحاب"الياقات البيضاء" ممن يتطوعون للدفاع عن أشد الطروحات تطرفا وعنصرية، ولكنهم يحرصون في الوقت نفسه على الظهور بمظهر المتحضرين، المتمسكين بالقيم الأخلاقية والإنسانية، وقد وجدت حرب الإبادة في الجزائر أتباعا ومناصرين ومبررين لها من هذا النوع في الصالونات الباريسية، ويلخص لنا "فلسفتهم" المدعو دكتور"بوديشون" بقوله: ((لا يهم أن تخرج فرنسا في مسلكها السياسي أحيانا عن حدود الأخلاقيات السوقية، فالمهم هو أن تنشئ مستعمرة قارة، وأن تقود البلاد الهمجية نحو الحضارة الأوروبية، وحين يكون هناك عمل يعود بالفائدة على الإنسانية، فإن أقصر الطرق هي أفضلها، والحال هنا أن أقصر الطرق هو استعمال العنف))[45].

---

42 أحمد توفيق المدني"كتاب الجزائر" ص58.

43 Histoire de l'Algérie contemporaine, p19 .

44 L'Algérie hors la loi, p 31 .

45 L'Algérie hors la loi, P33.

وحيث أنه لابد من المحافظة على المظهر المتحضر فإن الأمر لا يحتاج إلا إلى شيء من الرياء ((فدون أن نخرق مبادئ الأخلاق والقوانين الدولية، نستطيع أن نحارب أعداءنا الأفارقة بسلاح البارود والحديد، مقرونا بسلاح الجوع، وإشاعة الفرقة بينهم بالحرب بين العرب والقبائل، وبين عشائر التل وعشائر الصحراء، وبالخمور، والرشوة، ونشر الفوضى في صفوفهم، وكل هذا من أسهل الأمور وأيسرها)) [46].

وقد أدت هذه السياسة الميكيافيلية إلى دمار شامل، فأهلكت الحرث والنسل، وقضت على الزرع والضرع، وتسببت في مجاعات أودت بحياة مئات الآلاف من أرواح الجزائريين، نذكر منها تلك المجاعة التي حدثت في سنوات 1867ـ1869 وراح ضحيتها ما بين خمسمائة وستمائة ألف نسمة [47]. ولم تكن هذه المجاعة هي الأولى ولا الأخيرة، فقد حدث مثلها في السنوات 1845ـــ1850 التي سميت بسنوات البؤس [48]، وتكررت في السنوات 1893و1897و1920، وكانت في كل مرة تحصد آلاف الأرواح، وتتضافر في معظم الأحيان المجاعة والجفاف مع وباء الكوليرا والتيفوس [49]، وهو ما كان يزيد من معاناة الناس ويضاعف من عدد الضحايا. ونسوق فيما يلي شهادتين على ما آلت إليه وضعية الكثير من الجزائريين، واحدة لأحد العسكريين الذين أسهموا بشكل مباشر في صنع ذلك الواقع المزري الذي يتحدث عنه،

---

46 Ibid, p33.

47 Cf: «La Paysannerie algérienne face à la colonisation » , p58.

48 Histoire de l'Algérie contemporaine , p37.

49 La Paysannerie algérienne.. , p83.

وهو الجنرال"دوكاستيلان"، والثاني للكاردينال"لافيجري" الذي يروى عنه أنه كان يحمل الخبز والدواء في يد، والصليب في اليد الأخـرى، ليقدم للمنكوبين الإسعافات مقابل الدخول في المسيحية[50]. يقـول الأول واصفا مشهدا أثار مشاعره: ((كانوا رجالا ينتحرون، تأكلـهم الحمى.. يلبسون أطمارا، يغطيهم القمـل، ويغوصـون في الوحـل، يتصارعون مع الموت. كانوا بلا زاد، يتنازعون فيما بينهم على أحشاء الحيوانات الميتة))[51]. ويصف الكاردينال حال العرب في مجاعة سنوات 1867،1869 فيقول: ((منذ شهور عديدة كان هناك عدد كبير مـن العرب لا يعيشون إلا على حشائش الحقول، أو ورق الشجـر، الـتي كانـوا يقضموها كالبهائم. إنهم يموتون جوعا. تراهم عرايا إلا مـن أطمار، يتنقلون جماعات في الطرقات بجوار المدن، فيُعمد إلى طردهم، تجنبا لأي نوع من خرق النظام، وتشاهدهم ينتظرون عربات القمامة ليتنازعوا على ما بداخلها ويلتهموه..))[52].

وفي إمكاننا ــ لو نحن حاولنا أن نتتبع تفاصيل حرب الإبادة الـتي شنها الفرنسيون ضد الشعب الجزائري طوال فترة احتلالهم للبلـد، أن نسوق عشرات الأمثلة على ذلك ــ ولكن نخشى أن نخرج بذلك عن الحدود التي رسمناها لأنفسنا في هذا البحث، غير أنه من الضروري أن نشير هنا إلى المجازر الرهيبة التي ارتكبوها في حق الجزائريين في تاريخين قريبين إلينا زمنيا، وتعد تلك المجازر أكبر دليل على وحشية الاستعمار في الجزائر، وعلى ما كان عليه من استعداد دائم لممارسة سياسة الإبادة

---

50 د. يحي بوعزيز"ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين" منشورات"المتحف الوطني للمجاهد"، الجزائر، ط2، 1996، ج1، ص230.

51 L'Algérie hors la loi, pp 33-34.

52 La Paysannerie algérienne.. , p53.

ضد الجزائريين، دونما تردد كلما رأى ذلك ضروريا، ونعني هما ما حدث في مظاهرات الثامن من مايو 1945، وما حدث في ثورة التحرير الكبرى بين سنتي 1954و1962، ففي الأولى سقط برصاص الجنود الفرنسيين والمعمرين الأوروبيين في أيام معدودة ما لا يقل عن خمسة وأربعين ألف قتيل ــ حسب أشهر الروايات ــ زيادة على آلاف الجرحى والمعطوبين[53]، الذين كانوا قد خرجوا، كغيرهم من أمم الأرض وشعوبها، التي خرجت في ذلك اليوم للاحتفال بنهاية الحرب العالمية الثانية وانتصار ما سمي بالعالم الحر والديمقراطي على النازية والفاشية وعودة السلم لربوع العالم، وكان ذنبهم الوحيد الذي جعل الاستعمار يحكم عليهم من أجله بالقتل الجماعي هو أهم حملوا العلم الجزائري، وأنشدوا الأناشيد الوطنية، وعبروا في شعاراتهم عن تطلعهم إلى العدالة والحرية. أما في الثانية فقد دفع الجزائريون على يد القوات الاستعمارية ثمنا باهظا فاق المليون ونصف المليون من الأرواح، ناهيك عما خلفته تلك الحرب الإبادية من آلام وجروح نفسية وجسمية لملايين الجزائريين، وما أحدثته من خراب ودمار ما تزال آثاره ماثلة للعيان حتى اليوم. ولم يخرج الاستعمار في نهاية الأمر من هذه البلاد إلا مرغما، وبلغة السلاح التي لا يفهم لغة غيرها.

2 ــ الاستيلاء على الأرض وتعميرها بالعنصر الأوروبي.

سبق لنا أن بينا النوايا المبيتة من احتلال الفرنسيين للجزائر ، وأشرنا إلى الطابع الصليبي الذي اصطبغت به تلك النوايا ، بحيث يشكل

---

53 "ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين" ج2، ص87.

احتلال الجزائر ، في حقيقته ، حلقة من حلقات ذلك الصراع الديني الحضاري الذي ظل طوال قرون عديدة يطبع علاقة أوروبا المسيحية ببلاد المسلمين ،فكان الغرض هو احتلال الجزائر في مرحلة أولى، وجعلها أرضا مسيحية تابعة لأوروبا، ثم إلحاق كل شمال إفريقيا بها في مرحلة تالية، بالطريقة نفسها التي تمت في الأندلس، غير أنه كان هناك فروق جوهرية بين الأندلس والجزائر تتمثل في أن الجزائر ليست جزء من القارة الأوروبية، وأن أهلها ليسوا أوروبيين، ولا يعيشون مختلطين بالمسيحيين على أرض واحدة مثل ما كان الحال في الأندلس، وأمام وضع كهذا كان هناك خيارات عديدة أمام المحتلين لإلحاق الجزائر بأوروبا، وجعلها أرضا مسيحية ــ كما كانوا يرغبون ــ وذلك إما بتنصير أهلها بالقوة كما حدث بالنسبة لمسلمي الأندلس في القرن السادس عشر الميلادي، وإما باضطهادهم وإبادتهم كما فعلت محاكم التفتيش هناك بمن رفضوا الدخول في المسيحية منهم، أو كما فعل الأمريكان بالهنود الحمر في أمريكا الشمالية، أوما فعله الأسبان أنفسهم، قبل الأمريكان، بهنود أمريكا اللاتينية وبحضارتهم في المكسيك والأورغواي وفنزويلا والأرجنتين وغيرها، وإما بطردهم إلى الصحراء أو تهجيرهم إلى"أوقيانوسيا" كما اقترح بعض العسكريين وبعض المبشرين المتعصبين[54]، وجلب الأوروبيين إلى البلد وتوطينهم فيها.

والواقع أن المحتلين الفرنسيين قد جربوا كل هذه الخيارات مجتمعة، وقد قدمنا في الصفحات السابقة أمثلة من حرب الإبادة التي شنوها بلا

54 قال بذلك العقيد"دي مونتينياك" والكاردينال"لافيجري"، ولم يكونا الوحيدين اللذين قالا بهذا. راجع على التوالي:"الجزائر الأمة والمجتمع"ص290، و"الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر" ص116.

هوادة ضد الشعب الجزائري طوال فترة احتلالهم للبلد، وبكل الأسلحة الممكنة: القتل والحرق والتجويع والتشريد والنفي، وترك الناس نهبا للأوبئة والأمراض الفتاكة، مما جعل عدد الجزائريين يتناقص بشكل خطير، وكاد هذا الوضع أن يؤدي بهم، كما تدل الإحصائيات، إلى الانقراض الفعلي. فقد قدَّر الجنرال بيجو سكان الجزائر سنة 1844 بحوالي أربعة أو خمسة ملايين نسمة[55]، ولكن عددهم تناقص في سنة 1872 إلى أقل من نصف هذا العدد، أي إلى مليونين ومائة وخمسة وعشرين ألف نسمة[56]، ولا يرتفع العدد فيبلغ من جديد الأربعة ملايين إلا بعد أكثر من نصف قرن، أي مع مطلع القرن العشرين[57].

أما الاستيلاء على الأرض وتعميرها بالعنصر الأوروبي فقد كان يشكل أولى الأولويات في عملية الغزو، ويأتي في مقدمة كل الأهداف والخيارات الأخرى، وكانت القوة العسكرية مسخرة أساسا لخدمة هذا الهدف. عبَّر عن ذلك منذ السنوات الأولى للاحتلال العديد من القادة العسكريين، وفي مقدمتهم الجنرال"كلوزيل" الذي ترجم هذا المعنى بكل وضوح وهو يخاطب جمعا من المعمرين الأوائل، حين قال: ((إن هذه القوة العسكرية التي تحت إمرتي، ماهي إلا وسيلة ثانوية، وذلك لأنه لا يمكن أن نغرس العروق هنا إلا بواسطة الهجرة الأوروبية فقط))[58]. وكان كلوزيل معجبا بالنموذج الأمريكي في تعمير الأرض،

---

55 "الجزائر الأمة والمجتمع"، ص287.

56 Histoire de l'Algérie contemporaine , p37, marge .

57 Mohamed Cherif Sahli «Décoloniser l'histoire», p 14 .

58 صالح عباد"المعمرون والسياسة الفرنسية في الجزائر". ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر1984ص6،7.

وبتسخير المُلوَّنين الذين يمكن إحلال العرب محلهم في خدمة الأرض[59]، وكان كلوزيل نفسه يملك ثلاثة أحواش (مزارع) استولى عليها من أملاك الوقف والبايلك[60]، تقدر مساحتها بآلاف الهكتارات[61].

وكان الجنرال"بيجو" أكثر العسكريين حماسا لتعمير الأرض بالمستوطنين الأوروبيين وكان يستخدم الجيش في بناء المستوطنات، وشق الطرق، واستصلاح الأراضي، وغرس الأشجار، في انتظار وصول المعمرين، كما كان يشجع الجنود المسرحين من الخدمة على البقاء في الجزائر، وأنشأ لهم المستوطنات ليعملوا فيها جماعيا[62]، ولم يقتصر تشجيعه على فئة الجنود وحدهم أو المهاجرين القادمين حديثا من أورورباً، بل كان يشجع المبشرين المسيحيين أيضا على الاستقرار في الجزائر، ومن ذلك أنه منح في سنة 1843 لطائفة من الرهبان الكاثوليك تدعى"الإخوة لاطراب" أرضا في"سطاوالي" بضواحي مدينة الجزائر، تفوق مساحتها على ألف هكتار[63]، ونوّه في رسالة وجهها إلى رئيس الطائفة بالعلاقات المتينة الموجودة بين الراهب والجندي، وهو ما يشير بوضوح إلى وحدة الهدف بين المؤسسة العسكرية والمؤسسة الدينية، والتقاء المصالح المشتركة بينهما.

ولأن سياسة تعمير الأرض بالجنود المسرحين والمهاجرين الفقراء قد منيت بالفشل في معظم الأحيان، وذلك لضعف خبرة هؤلاء بخدمة

---

59 الجزائر الأمة والمجتمع، ص285.
60 المعمرون والسياسة الفرنسية، ص8.
61 الجزائر الأمة والمجتمع، ص289.
62 المعمرون والسياسة الفرنسية، ص11.
63 الجزائر الأمة والمجتمع، ص275.

الأرض وقلة المال ونقص العتاد بين أيديهم، فقد وجه بيجو عنايته لأصحاب الأموال، ليقدم لهم كل التسهيلات، بل كل الإغراءات. وأصدر قرارا يمنح بموجبه كل أوروبي يملك بين ألف ومائتي فرنك وخمسة عشر ألف فرنك مسكنا وقطعة أرض من أملاك الدولة، تتراوح مساحتها بين أربعة وثمانية عشر هكتارا[64]، وهو القرار الذي كان فاتحة لمرحلة جديدة في استعمار الأرض الجزائرية، بفتح المجال أمام أصحاب رؤوس الأموال لاستثمار أموالهم في الزراعة واستصلاح الأراضي. وقد ارتفع عدد المستوطنين الأوروبيين في فترة حكم "بيجو" ليبلغ مائة ألف مستوطن، بزيادة نسبية قدرها 423% عما كانت عليه في سنة 1839. وحين نفدت الأراضي التي كانت في حوزة سلطات الاحتلال، أصدر الجنرال قرارين في سنة 1844 و 1846 على التوالي بمصادرة أراضي الجزائريين غير المزروعة، وأراضي كل من ليس له أوراق رسمية منهم تثبت ملكيته للأرض. وقد شملت المصادرة حتى أراضي "البور" التي كانت تزرع كل عامين، متجاهلا نظام "التبوير" الذي كان تقليدا شائعا بين الفلاحين الجزائريين.

ويلتقي بيجو مع كلوزيل في تصوره أن القوة العسكرية لا معنى لها بدون استيطان الأرض، ولذلك صرف كل جهده طوال فترة بقائه كحاكم عام وكقائد أعلى للجيش، ليجعل من قوة الجيش درعا للاستيطان تشجعه وتحميه وتعمل دوما على توسيع رقعته. وقد أنشأ في ظرف سبع سنوات من حكمه خمسة عشر ألف مستوطنة ريفية، وبلغ عدد المستوطنين الأوروبيين في نهاية فترة حكمه مائة وتسعة

64 المعمرون والسياسة الفرنسية، ص11.

آلاف وأربعمائة[65]. وفي وصية له بعث بها سنة 1848 لـ"كافنياك" الذي خلفه في الحكم، يؤكد"بيجو" على ضرورة جعل القوة العسكرية في خدمة الاستيطان، وزيادة عدد أفراد الجيش كلما ارتفع عدد المستوطنين، يقول: ((أرى أن يزداد عدد أفراد الجيش تبعا لازدياد عدد المعمرين))[66]، وهي الوصية التي عمل بها خليفته الأمين، وقدم مشروعا خاصا به لتوطين ما بين مئة وعشرين ومئة وثلاثين ألف معمر[67].

وفي سبيل تحقيق هذا الغرض، ومن أجل أن تكون الجزائر مستوطنة أوروبية خالصة لا يزاحم فيها أبناء البلد الأصليون المستوطنين الجدد، قدم"كافنياك" تصورات يعد بعضها أغرب من الخيال، كأن يُرحَّل الشعب الجزائري بأكمله إلى "أوقيانوسيا"، أما الرجال الذين تزيد أعمارهم على الخامسة عشر فيقتلون عن آخرهم ((ولم يكن مونتينياك يمزح حينما تحدث عن مشروعه بترحيل الأهالي إلى جزر "ماركيز"))[68]، ولم يكن"مونتينياك" الوحيد الذي أتى بمثل هذه التصورات الغريبة، فقد كانت ترد على لسان المعمرين في المناسبات المختلفة، وطبقت جزئيا على الثائرين سنة1871 في بلاد القبائل، حين نفي عدد هام منهم إلى"كاليدونيا الجديدة"[69]. واقترح المونسينيور "لافيجري" من جهته، بعد أن فشلت جهوده المضنية في تنصير الجزائريين، أن ينفى"الأهالي" إلى الصحارى ((بعيدا عن العالم

65 Histoire de l'Algérie contemporaine , p24.

66 الجزائر، الأمة والمجتمع، ص302.

67 نفسه، ص294.

68 فسه، ص297.

69 راجع بهذا الخصوص :

Seddik Taouti «Les déportés algériens en Nouvelles Calédonie » Dar El-Oumma, 2ème édition, Alger 1997 notamment le chapitre V intitulé: Les conséquences de l'insurrection pp75-79.

المتمدن))[70]. ويذكر المفكر "ألبير ميمي" في هذا الصدد ((أن الأوروبيين وإلى وقت غير بعيد، لم يتخلوا عن فكرة إمكانية الإفناء الكامل لبعض التجمعات السكانية المستعمرة، وقد شاعت مزحة ثقيلة بخصوص الجزائر، نصفها جد ونصفها هزل، تقول: ((لايوجد مقابل كل فرنسي في الجزائر سوى تسعة جزائريين، وعليه، يكفي أن تعطى لكل فرنسي بندقية وتسع رصاصات))[71].

ولتوفير مزيد من الأراضي للمستوطنين، ولأصحاب رؤوس الأموال الكبيرة، ابتكر الحاكم العام الماريشال "راندون" في الفترة ما بين سنتي 1852 و 1858، نظاما جديدا أسماه نظام "المَضَارِب" **(Les** Cantonnements) وبموجبه يتخلى الجزائري عن حقه فيماً "يزيد عن حاجته" أو "لا يستطيع استغلاله" من أراضي الملكية المشتركة أو أراضي "العرش"، مقابل اعتراف الدولة له بالملكية الفردية على الجزء الذي يستغله[72].

وقد اعتمد "راندون" في هذا الشكل الابتزازي للأهالي على قانون 1851، الذي صادقت عليه الجمعية الوطنية الفرنسية، ويُسمح بناء عليه للإدارة بتأميم أراضي "العرش"[73]، وبمثل هذه السياسة الابتزازية، والاستيلاء على الأراضي بطرق صريحة ومقنَّعة، تمكن المستعمرون من الاستيلاء في الفترة ما بين 1851 و1861 على ما يقارب ثلاثمائة

---

70 الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر، ص116.

71 Albert Memmi « Portrait du colonisé » Ed. Jean Jacques Pauvert, Utrecht, 1966, p181.

72 Histoire de l'Algérie contemporaine, p27.

73 المعمرون والسياسة الفرنسية في الجزائر ص14.

خمسين ألف هكتار[74]، وزعت على القادمين من فرنسا وإسبانيا ومالطا وسويسرا[75]، وحصل أصحاب الامتيازات وحدهم من أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة على أكثر من خمسين ألف هكتار[76].

وبالرغم من ضخامة المردود المادي الذي حققته سياسة الابتزاز التي اتبعها الماريشال "راندون" لفائدة المستعمرين، فضلا عن تكسيره لنظام اجتماعي قبلي تضامني كان سائدا منذ قرون هو نظام" ملكية العرش"، فقد تبين فيما بعد أنه كان يخدع الجزائريين حين واعدهم بالحصول على اعتراف رسمي من الدولة بملكية أراضيهم مقابل تخليهم عن جزء منها في أرض العرش، حيث كانت عمليات "الاعتراف" بالملكية تتم بناء على مجرد تعليمات على المستوى المحلي، لا يبقى لها في الغالب أي أثر مع مرور الوقت في الأوراق الرسمية[77].

وعقب ثورة المقراني والحداد سنة1871 وجدت السلطات الاستعمارية فرصة سانحة لتسلط على منطقة القبائل عقوبات قاسية، من بينها مصادرة الأراضي، لتضيف للاحتياطي العقاري الذي استولت عليه من قبل مساحة قدرت بخمس مائة ألف هكتار[78].

وقد عرفت حركة الاستيطان فترات نشطة ارتفعت فيها وتيرة الهجرة الأوروبية إلى الجزائر، لاسيما في الفترات التي كانت تعقب الاضطرابات السياسية أو الثورات أو الحروب التي كانت تحدث في

---

74 Histoire de l'Algérie contemporaine, p28.
75 La Paysannerie algérienne.. , p51.
76 المعمرون والسياسة الفرنسية، ص15.
77 Histoire de l'Algérie contemporaine, p28.
78 La Paysannerie algérienne.. , p59.

فرنسا، نذكر منها بالخصوص: الهجرة القسرية التي وقعت بعد فشل ثورة 1848 وصعود الأمبراطورية الثانية، فقد أبعد آلاف المناهضين للنظام الأمبراطوري إلى الجزائر، ووزعوا على مناطق الوسط والشرق والغرب، وأعطي كل واحد منهم ما بين ثمانية وعشرة هكتارات من الأرض، ومسكنا وما يلزمه من حاجيات لمدة ثلاث سنوات[79]، وتكرر الإجراء نفسه مع المبعدين في ثورة"لاكومين" سنة 1871. وكان المهاجرون عقب حرب 1870 مع الألمان من منطقتي الألزاس واللورين أوفر حظا من الثوار المبعدين، فقد واعدهم الحكومة قبل مغادرهم الأراضي الفرنسية بمائة ألف هكتار من أجود الأراضي الجزائرية[80]، كما خصت كل عائلة منهم بمبلغ ستة آلاف وخمسمائة فرنك كمساعدة لها على الاستقرار في الجزائر[81]، وهو مبلغ ضخم في ذلك الزمان، في الوقت الذي كانت المجاعة والأوبئة تفتك بآلاف الجزائريين كما أسلفنا، ولا يجدون من الدولة المحتلة أي مساعدة. وهكذا تحولت الجزائر إلى متنفس للأزمات السياسية والاضطرابات الاجتماعية التي كانت تحدث في فرنسا. وقد ارتفع عدد المستوطنين الأوروبيين في سنة 1871 إلى مائتين وخمسة وستين ألف نسمة[82].

ومع ارتفاع عددهم ونمو ثرواهم توسعت مصالحهم وتعاظم شأنهم، وأصبحوا يشكلون قوة ضاغطة، ولهم نفوذ في فرنسا نفسها، وأصبح لهم ممثلون في البرلمان الفرنسي، فكان في إمكانهم إملاء القوانين،

---

79 المعمرون والسياسة الفرنسية، ص13.

80 Histoire de l'Algérie contemporaine , p49.

81 Ibid, p49.

82 المعمرون والسياسة الفرنسية في الجزائر ، ص15.

وتعيين الحاكم العام وعزله[83]، وهذا ما حدث على سبيل المثال عند عودة الجمهوريين وسقوط نظام نابليون الثالث سنة 1870 حين فرض المستوطنون على "حكومة الدفاع الوطني" إصدار سلسلة من القوانين لإقامة نظام مدني في الجزائر بدلا من النظام العسكري الذي كان قائما، حتى يتسنى لهم إطلاق أيديهم بلا مزاحمة من العسكريين، ليتصرفوا في مصير البلد كما يشاءون. وحين خالفت الحكومة رغبتهم وعينت رجلا عسكريا هو الجنرال "ديريو" حاكما عاما، رفض المستوطنون هذا التعيين، وهاجموا مقر الحاكم وأرغموه بالقوة على مغادرة الجزائر[84].

وبمجيء الحكم المدني ازداد نفوذ المستعمرين أكثر من ذي قبل، وظل يتعاظم باستمرار إلى أن أصبح في إمكانهم أن يؤثروا على مجريات الأمور في فرنسا نفسها، وتجلى هذا النفوذ في أوضح صورة له سنة 1914، حين طرحت الحكومة الفرنسية للنقاش مشروع إصلاح في إحدى جلسات البرلمان يعطي للجزائريين بعض الحقوق السياسية، وذلك عقب الاضطرابات التي أحدثها قانون تجنيد الجزائريين الذي صدر قبل ذلك بعامين، فتحرك المعمرون لمنع مناقشة المشروع، ونجحوا في ذلك نجاحا ساحقا، بحيث قاطع الجلسة 587 نائبا، ولم يحضر إلا سبعة نواب، وسقط المشروع بسبب تلك المقاطعة[85]، وهو الشيء الذي زاد من غرور المستعمرين وثقتهم الزائدة بأنفسهم إلى درجة

---

83 La Paysannerie algérienne.. , p65.
84 Histoire de l'Algérie contemporaine, p39.
85 د. عمار بوحوش "العمال الجزائريون في فرنسا"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر 1975. ص98.

جعلت ممثليهم في البرلمان يهددون بانفصال الجزائر عــن فرنــسا إذا لم تستجب الحكومة الفرنسية لبعض مطالبهم[86].

وتواصل مخطط التوسع على أيديهم وتفتحت شهيتهم على الآخر، للاستيلاء على مزيد من الأراضي، تسندهم القوة العسكرية التي تحولت إلى أداة قمع طيِّعة في أيديهم، تأتمر بأوامرهم وتنفذ رغباتهم، وجملة من القوانين التي فصلت على مقاسهم، يأتي في مقدمتها قانون" فارني" سنة 1873 المتعلق بإلغاء الملكية الجماعية، الــذي وإن أقر بواقع قائم كان بالفعل فإنه أضفى صفة الشرعية على"تفكيــك نظــام العــرش"[87]، وكذلك قانون"الأندجينا" القمعي، الخاص بالجزائريين وحدهم، الذي وضعت بنوده الأولى عقب ثــورة المقراني سنة1871، واعتمد عليه في محاكمة الثائرين، واكتملت بقية بنوده الواحدة والأربعــين في ســنة 1881[88]، وهو القانون الذي يلحق العار بواضعيه وبمنفذيه في الميــدان سواء بسواء بالقدر الذي يهدر كرامة الإنسان الجزائري ويقهر إرادته، ((وقد استغل في أعمال لا يمكن تخيلها، من تغريم جماعي، وتسخير في الأعمال الشاقة، وتصفية جسدية، وحجز، ونفي، إلخ))[89]، حيث كان هذا القانون يبيح للإدارة المحلية توقيف أي جزائري، وإنــزال أقــسى العقوبات عليه دون الرجوع إلى المؤسسات القضائية[90].

وهكذا استمر مخطط الاستيلاء على الأراضي الفلاحيــة، وتجريــد الجزائريين من أرضهم بشتى الطرق والأساليب القهرية، بحيــث بلــغ

86 "العمال الجزائريون في فرنسا"، ص108، 109.

87 La Paysannerie algérienne.., p63.

88 Ibid, p72.

89 Histoire de l'Algérie contemporaine , p63.

90 La Paysannerie algérienne.. , p26.

العدد الإجمالي للأراضي المنتزعة منهم في الفترة ما بين 1871 و 1900 وحدها حوالي ستمائة وسبعة وثمانين ألف هكتار[91].

وقد أدى مخطط انتزاع الأراضي الفلاحية والغابية من الجزائريين، على المدى الطويل إلى نتائج خطيرة انعكست على حياة الناس، على كل المستويات، فقد حرموا من وسيلة عيشهم الأولى، التي هي الفلاحة، لاسيما أن الأغلبية الساحقة من الجزائريين كانت تقطن الأرياف والبوادي، وتعيش على زراعة الأرض أو تربية المواشي[92]، ومنعوا من رعي أغنامهم ودوابهم بعد أن صارت الأرض والغابات ملكا للدولة أو المعمرين، فتدهورت أحوالهم المعيشية، وآل حالهم إلى الفقر المذقع، بل وبلغوا إلى مرحلة الفاقة والجوع، فأصبح ما يعرض في الأسواق لا يستجيب لحاجة الناس من الغذاء، ونزل معدل تزود الجزائري بالقوت سنويا من خمسة قناطير من القمح والشعير قبل سنة 1871 إلى قنطارين في سنة 1900، ونزل هذا المقدار إلى أقل من قنطارين في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية[93]، وتحول الفلاحون إلى متشردين ومتسولين، يهيمون في الأرض ويقتاتون على ما يصادفونه في طريقهم من الحشائش وثمار الأشجار البرية وجذورها[94]، وأصبحوا مع الوقت يشكلون احتاطا ضخما من اليد العاملة الرخيصة في أراضي المعمرين، التي كانت بالأمس القريب أراضيهم[95].

---

91 راجع تفاصيل هذا القانون الجائر في "كتاب الجزائر" لأحمد توفيق المدني، 306/303.

92 Histoire de l'Algérie contemporaine, p50.

93 حتى عام 1930 لم يكن هناك إلا 10% من الجزائريين يسكنون المدن. راجع :
A. Megherbi «La Paysannerie algérienne.. » p 102 .

94 العمال الجزائريون في فرنسا، ص31.

95 La Paysannerie algérienne.. , p28.

وقد أبى المعمرون إلا أن يجعلوا من الفلاحين الجزائريين أنفسهم غنيمة حرب، فعاملوهم معاملة العبيد، واستغلوهم أبشع استغلال، وعملوا على قهرهم بكل الوسائل، وعلى تجريدهم من كل حق، ووضعوا لذلك قانونا يحقق لهم هذا الغرض هو"قانون الأندجينا" الذي يقنن وسائل القمع ويسبغ على القهر وممارسة العنصرية صفة الشرعية. كما جند كثير من الفلاحين الجزائريين ومنذ وقت مبكر من عهد الاحتلال ليقاتلوا على الجبهات الأوروبية[96]، وقتل عشرات الآلاف منهم في الدفاع عن شرف فرنسا وحرية شعبها[97].

واقتضت مصلحة فرنسا من جهة أخرى، أن تفتح لهؤلاء الفلاحين غداة الحرب العالمية الأولى باب الهجرة إلى الأراضي الفرنسية لإدارة عجلة مصانع السلاح والذخيرة الحربية، والتحق بهم عدد هام من الجنود المُسرَّحين من الخدمة العسكرية ليشكلوا قاعدة الطبقة العمالية الجزائرية بفرنسا، التي ما فتئت تنمو منذ ذلك الحين وتتكاثر إلى أن أصبح أفرادها يعدُّون بمئات الآلاف.

ووجد هؤلاء الفلاحون في الهجرة فرصة لتحسين ظروفهم وظروف أسرهم المعيشية، وفتحوا الباب لغيرهم من أبناء جلدتهم ليلتحقوا بهم. لكن المعمرين كانوا دائما لهم بالمرصاد، فاعترضوا على فتح باب

---

96 يذكر عبد الغني مغربي، نقلا عن مجلة Historama الفرنسية العدد 219، سنة1970، أن تجنيد الفرنسيين للجزائريين في حروبهم على الجبهات الأوروبية بدأت سنة 1854، حين أصدر نابليون الثالث مرسوما بذلك، فتكونت فرقة من فيلقين باسم"فرقة القناصة الجزائريين" شاركت في معركة"كريمي" على الجبهة الروسية في السنة المذكورة آنفا، وشاركت في صنع انتصار"ألما". راجع عبد الغني مغربي في: La Paysannerie algérienne.. », p47

97 راجع تفاصيل ذلك في"العمال الجزائريون في فرنسا"، لاسيما ص99،98.

الهجرة للجزائريين، خشية أن يفقدوا ذلك الاحتياطي الضخم من اليد العاملة الرخيصة، وراحوا يقدمون لذلك أعذارا ومبررات أقل ما يقال فيها أنها كانت واهية ومطبوعة بطابع الحقد والعنصرية، ومنها أنهم حاولوا أن يظهروا بمظهر الإشفاق على المجتمع الفرنسي من ((هؤلاء الفلاحين القتلة والمجرمين)) ومن الأمراض التي سينقلونها معهم، ولاسيما مرض السل ((لتشكل خطرا على الصحة العامة للفرنسيين)) [98]. واستطاع المعمرون بالفعل أن يستصدروا قوانين تحد من هجرة الجزائريين إلى فرنسا، وتضع لها شروطا تعجيزية، لاسيما من الناحية المالية، لا يستطيعها إلا القليل من طالبي الهجرة، نظرا لفقرهم الشديد [99].

الإبادة المعنوية أو الروحية:

وترادفت مع حرب الإبادة المادية هذه بشقيها العسكري والاستيطاني حرب إبادة أخرى لا تقل عنها فتكا وتدميرا، بل لعلها الأشرس والأخطر لأنها تستهدف ضرب القيم المعنوية والروحية للإنسان، وتفرعت بدورها إلى شقين هما:

1 ـ هدم وتدمير البنيات الثقافية والاجتماعية والتشريعية والروحية للشعب الجزائري.

2 ـ إحلال بنيات أخرى محلها مستمدة من ثقافة المستعمر ونظمه الاجتماعية.

---

98 Le Jeun Algérien, p54.

99 العمال الجزائريون في فرنسا، ص136,

وفي هذا السياق يمكن أن نفهم دلالة أن يكون أول قرار يتخذه الجنرال"دو بورمون" القائد العام للحملة الفرنسية على الجزائر، فيما يتعلق بتنظيم الحياة العامة، هو أن فرض يوم الأحد عطلة أسبوعية، وذلك ابتداء من يوم 5 يوليو 1830، وثاني قرار له هو أنه أمر بتحويل مسجد كتشاوة إلى كنيسة، ورفع بنفسه صليبا كبيرا على المسجد المذكور [100]، ضاربا بذلك عرض الحائط بتلك الضمانات التي كان قد وعد بها السكان في بيانه الموجه إليهم عشية الاحتلال [101]، وبما جاء في معاهدة الاستسلام التي أمضاها بنفسه مع ممثل الداي حسين، وجاء فيها بالحرف: ((إن الجنرال يتعهد بشرفه أن تبقى ممارسة الديانة المحمدية حرة، ولن يُنال من حرية السكان من جميع الطبقات، ولا من دياناتهم وممتلكاتهم وتجارتهم وصناعتهم)) [102].

ولم يكن ذلك من الجنرال إلا بداية القطر، فقد توالت انتهاكات تلك الوثيقة منه شخصيا، وممن جاؤوا بعده، وديست كل بنودها بالأقدام، فلم تسلم أماكن العبادة، ولا الممتلكات العامة أو الخاصة،

---

100 مولود قاسم"أصالية أم انفصالية" ص123.

101 راجع البيان المذكور في"الحركة الوطنية الجزائرية" للدكتور أبو القاسم سعد الله ج2، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1983، ص443.

102 د. جمال قنّان: "نصوص ووثائق في تاريخ الجزائرالحديث"، المؤسسة الجزائرية للطباعة الجزائرية 1987 ص 303، 304. وقد جاء أيضا في البيان المذكور: ((إني أضمن لكم بأنه ليس منا من ينوي مضرتكم، لا في ممتلكاتكم ولا في عائلاتكم (يتبع في الصفحة الموالية) (تابع الصفحة السابقة). إنني أضمن لكم أيضا بأن بلادكم، وأراضيكم، ومزارعكم، ودكاكينكم، وكل شيء ينتمي إليكم، صغيرا أو كبيرا سيبقى على ما هو عليه (...) إننا نضمن لكم أيضا، ونعطيكم وعدا شرفيا وصريحا لا يقبل التغيير ولا التفسير، بأن جوامعكم ومساجدكم ستكون محترمة (...) ونضمن بأن لا أحد منا سيتدخل في شؤونكم الدينية..إلخ)).

ولا الصناعة، ولا التجارة، ولا غيرها من شؤون الحياة اليومية للناس. وقد روى حمدان بن عثمان خوجة، الذي كان شاهد عيان على ما حدث ودوّن وقائعه في "المرآة" أنه ((تم الاستحواذ على جزء كبير من المساجد، اكتري بعضها للتجار وحولوها إلى محلات، وخصص بعضها الآخر لإسكان جيوش الحملة)) [103]، وأعطى الجنرال كلوزيل أوامره هدم محلات بيع الكتب وسوق المقاييس، وسوق الصباغين ((وأصبح عمالها بعد تهديمها بدون مورد)) [104]، كما قام هذا الجنرال نفسه ((بتهديم جزئي لجامع"السيدة" وقلع رخامه بحثا عن كنز مزعوم، أوهمه اليهود بأنه مدفون فيه (...) ولما لم يجد شيئا، نُزِع الرخام وبيع)) [105]. وحتى المقابر امتدت إليها يد الاحتلال وعبثت بأحجارها وعظامها. يقول حمدان خوجة: ((وفي عهد الجنرال كلوزيل نهب الأموات في مدافنهم، وسمح بالاتجار بالعظام البشرية، وبيعت حجارة المقابر، ثم نقلت إلى باب الوادي لتحول إلى مادة الجير. ووقع الاستيلاء على آجر المقابر)) [106].

كل هذا كان بجرد بداية لتنفيذ مخطط الإبادة المعنوية المشار إليه آنفا لتأتي بعده خطوات لاحقة شملت أملاك الحبوس الإسلامية والإدارة والتشريعات والقوانين والتعليم وكل شؤون الحياة العامة، بل شملت

---

103 حمدان خوجة"المرآة" تعريب وتحقيق وتقديم د. العربي الزبيري، ش.و.ن.ت. الجزائر 1975، ص262.

104 نفسه، ص277.

105 نفسه، ص279.

106 "المرآة"، ص292.

حتى جوانب عديدة من الحياة الخاصة للأفراد. ويمكننا أن نحدد معالم المخطط المذكور في الميادين الآتية :

1 ـ الاستيلاء على أملاك الوقف لتجفيف منابع التمويل عن المؤسسات الإسلامية التقليدية التي كانت قائمة، والتي كان ينظر إليها على أنها مصدر المقاومة والمخزون الاحتياطي للثورات ضد الاحتلال، ومن ثمة تعطيل العمل بالشريعة الإسلامية أيضا.

2 ـ تغيير نظام التعليم السائد في لغته وفي محتواه.

3 ـ القيام بحملات التبشير الواسعة لتنصير السكان.

4 ـ تزوير تاريخ الجزائر وطمسه أو تشويهه إن تعذر طمسه.

1 ـ الاستيلاء على أملاك الوقف وتعطيل العمل با لشريعة .

صدر قرار الاستيلاء على أملاك الوقف الإسلامية العامة في الثامن من ديسمبر 1830 وكان عددها 2600 وقف، ومنها أوقاف مكة والمدينة التي كان يُحوَّل جزء منها لشريف مكة، فأجبر الوكيل المكلف بها على دفع ريعها للخزينة العامة[107]، وكان قرار التأميم بحجة أن لا تستغل أموال الأوقاف في إشعال وتموين الثورات.

وألغت سلطات الاحتلال العمل بالتنظيمات الإدارية والقانونية التي كانت سارية على عهد الداي، والمستمدة أساسا من الشريعة الإسلامية، وجردت القضاة المسلمين بقرار 28 فبراير 1841 من معظم مهامهم، ونزعت منهم حق الحكم في الجنايات والجنح، وأصبح الحكم فيها من مهام "دائرة الاستئناف" الفرنسية[108]. وصدر

---

107 الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر، ص23.

108 "كتاب الجزائر" ص313.

قانون 26 جويلية 1873 لينزع من القضاة المسلمين حق النظر في مسائل الملكية والاستحقاق، وأصبح قاضي الصلح الفرنسي هو الحاكم في القضايا العامة بين المسلمين، ولم تعد صلاحية القضاة المسلمين تتجاوز حدود عقد الأنكحة والمواريث وتنفيذ أحكام قضاة الصلح الفرنسيين[109].

وبناء على هذا صار الجزائريون يلجؤون مرغمين إلى المحاكم الفرنسية للفصل في نزاعاتهم فيما بينهم أو في نزاعاتهم مع المعمرين، وكانت عضوية المحلفين مقصورة على الفرنسيين وحدهم[110]، وهو الشيء الذي كان يجعل المتقاضي الجزائري في مواجهة غريم هو الخصم والحكم في آن واحد.

وفي نطاق فرنسة البلد وتغيير معالمها العربية الإسلامية عمدت الإدارة الاستعمارية إلى سلسلة من الإجراءات الواسعة النطاق لتغيير أسماء المدن والقرى، لتطلق عليها أسماء ضباط وساسة ورجال دين فرنسيين، مثل"أورليان فيل"(الشلف حاليا) و"قيوفيل"(مستغانم)، و"فيليب فيل"(سكيكدة)، و"ميشلي"(عين الحمام)، و"سانت آرنو" (العلمة)، وروفيكو(حجوط). وكذلك فعلوا بالشوارع والأحياء والساحات العامة، وتجاوز ذلك إلى سجل الحالة المدنية الذي أنشأوه سنة 1882، وتغيرت بسببه الأنساب، وعد في نظر الجزائريين اعتداء مبيتا على هويتهم وأنسابهم[111].

---

109 نفسه، ص314.

110 Histoire de l'Algérie contemporaine, p64.
111 Histoire de l'Algérie contemporaine, p64.

2 ـ تغيير نظام التعليم ولغته

لقد كانت المدرسة من أهم المؤسسات التي استهدفها الاستعمار منذ الأيام الأولى لاحتلاله البلد[112]، وكانت للمحتلين قناعة بأن المدرسة هي المنفذ الذي عن طريقه يتسللون إلى عقول الجزائريين وقلوبهم، ويجعلونهم يقبلون بفكرة الاستعمار، وبالتعايش مع المستعمرين، يتجلى ذلك في العديد من تصريحات وتقارير العسكريين الذين تداولوا على السلطة في بداية الاحتلال، ومنهم الدوق"دو روفيكو" الذي صرح سنة 1832 قائلا: ((أرى أن نشر لغتنا هي الوسيلة الأكثر فعالية لفرض هيمنتنا في هذا البلد))[113]، وقال في مناسبة أخرى: ((إن المعجزة الحقيقية التي علينا أن نصنعها هي أن نُحِل اللغة الفرنسية شيئا فشيئا محل العربية، بحيث نتمكن عن طريق هذا الإجراء من نشر لغتنا بين الأهالي، خاصة إذا أقبلت الأجيال الجديدة جماعات على التعلم في مدارسنا))[114]. وهذا أيضا رأي "الدوق دومال" الذي أولى عناية خاصة لهذا الموضوع، وجاء في تقريره الشامل الذي رفعه إلى الحكومة الفرنسية سنة 1858 عن وضعية التعليم ما خلاصته بالنسبة لمستقبل المستعمرة:((إننا في هذه المؤسسة (المدرسة) سنكوِّن فرنسيي المستقبل (يقصد الجزائريين)..))[115].

---

112 L'Amicale des anciens instituteurs et instructeurs d'Algérie «Les enseignants d'Algérie se souviennent.. », Ed. Privat 1981 , p31 .

113 Yvonne Turin, « Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, écoles, médecines, religion, 1830-1880 » , E.N.A.L., Alger 1983, p40.

114 Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, pp40-41.

115 Christiane Achour « Abécédaire en devenir, idéologie coloniale et langue française en algérie » Ed. E.N.A.P , Alger 1985, p149.

لكن كيف يتم لهم ذلك وقد وجدوا المدارس الابتدائية (القرآنية) في كل مكان، في المدن وفي القرى وفي رؤوس الجبال وأعماق الصحراء، وكان ذلك موضوع تحقيقات وإحصائيات قام بها المحتلون أنفسهم كما سبقت الإشارة، لاسيما في المدن الكبرى كالجزائر وقسنطينة ووهران وتلمسان[116]. وقد وجدوا صعوبة كبيرة في تغيير هذا الواقع، لاسيما أن التعليم كان مرتبطا أشد الارتباط بالحياة الروحية للشعب، حيث كان القرآن يشكل محوره الأساسي، ولذلك كان التعليم واجبا دينيا قبل أن يكون لأي غرض دنيوي، يطلب لفهم الدين وللتفقه فيه، فكانت الصعوبة بالنسبة للمستعمرين تتمثل في إيجاد الوسيلة التي تمكنهم من الدخول إلى هذا العالم، والكيفية التي يستطيعون بها التوفيق — في مرحلة أولى — بين تعليم مطبوع بالطابع الديني المميز وبين تعليمهم الأوروبي الدنيوي المطبوع بطابع اللائكية؟ لذلك كان لابد من تغيير الوضع الذي كان قائما حتى ولو عن طريق الهدم والتخريب، الذي عبر عنه أحد الضباط المقربين من الجنرال بيجو وهو"شارل ريشار" حين قال: ((فلا نرى مانعا في أن يكون مآل هذه المؤسسات (يقصد المدارس العربية والمساجد) إلى الخراب، وأن يرجع الشعب العربي إلى عهود الجهالة الأولى، وعندئذ سوف يتأتى لنا أن نعلمه شيئا وأن نكسبه إلى صفنا عن طريق التربية))[117]. غير أن قادة

116 من ذلك إحصاء الجنرال"بيدو" الذي قام به في مدينة قسنطينة سنة 1837، و تقرير الدوق دومال سنة 1848 عن وضعية التعليم في الجزائر، وكذا التقرير المماثل للجنرال"لاموريسيير" سنة 1848 أيضا، وتقرير الرائد ران سنة 1882 عن التعليم العام لمسلمي الجزائر، راجع:
« L es enseignants d'Algérie... » p16.« Abécédaire en devenir » pp146-147.
117 الجزائر ، الأمة والمجتمع، ص338.

الاحتلال الذين كان بأيديهم الحل والعقد آثروا أن يستعملوا طرقا أكثر مرونة، فأنشأت السلطات، باقتراح من الكونت"دو روفيكو"، ابتداء من سنة 1833، أول مدرسة مختلطة بمسجد"سوق الجمعة" الذي كان من جملة الحبوس الإسلامية المؤممة، تعلم الفرنسية لأبناء الجزائريين واليهود، والعربية لأبناء الفرنسيين[118]، ثم أنشئت مدارس أخرى على شاكلتها في القبة ودالي ابراهيم، ثم في مدن أخرى مثل وهران وعنابة، وقد كان غرضهم الظاهر هو خلق نوع من التآلف والتقارب والانصهار بين مختلف الطوائف، حسب ما عبر عنه الدوق دو روفيكو[119]، لكن الغرض الخفي كان خلق مدرسة بديلة تنافس المدارس القرآنية التي ظلت رغم تضييق الخناق عليها وعلى معلميها، تؤدي وظيفتها التعليمية.

وقد استقبل الجزائريون هذه المدرسة البديلة بكثير من التخوف ترجمه عدم إقبالهم على إدخال أبنائهم إليها، وامتناعهم عن إعطاء المتصرف الإداري العام"ديبسي" أسماء العلماء والمعلمين الذين كان في إمكانهم القيام بمهمة التعليم باللغة العربية[120]، ولذلك لم يلتحق بهذه المدارس من أبناء المسلمين إلا 95 من جملة 1324 تلميذا[121].

وفي سنة 1850، على عهد الجمهورية الثانية، وأمام فشل النموذج السابق الذكر من تلك المدارس، صدر مرسوم أنشئ بموجبه نموذج جديد من المدارس أطلق عليه إسم"المدارس العربية الفرنسية"[122]،

118 Les enseignants d'Algérie ... , p32.
119 bid. p32.
120 Affrontements culturels.. , p45.
121 Les enseignants d'Algérie.., p33.
122 Ibid , p34.

وتبعه مرسوم آخر في السنة نفسها "يقترح" تحديث التعليم العربي القرآني في داخل البلد كله، وكان ذلك في الواقع نوعا من وضع المدارس القرآنية تحت المراقبة المباشرة لسلطات الاحتلال، وهو ما دفع بالكثير من المعلمين إلى هجر مدارسهم وتلاميذهم[123]. وكان الفشل من نصيب هذا النموذج الجديد من المدارس، ولم يتجاوز عدد التلاميذ الذين كانوا يترددون على "المدرسة العربية الفرنسية" من أبناء الجزائريين أكثر من 1%. وأنشئت بعد ذلك مدارس أخرى متخصصة مثل "مدارس تكوين المعلمين"، وبعض المدارس المهنية المخصصة للبنات، لكن ظلت هذه التجارب إلى سنة 1880 عبارة عن سلسلة من التجارب المتتالية الفاشلة بسبب مقاطعة الجزائريين لها[124].

وقد استعمل المحتلون كل الوسائل في هذا الميدان لكسر مقاومة الجزائريين واختراق صفوفهم، فكانوا يدفعون لبعض الدراويش ورجال الطرق مكافآت شهرية ليتكلموا في مختلف المناسبات كلاما في صالح الاحتلال، كما كانوا يختلقون الأحاديث النبوية، ويلفقون الأقوال المأثورة التي تتنبأ بدوام السيطرة الفرنسية، وفي هذا الصدد ذهبت الجرأة ببعض القادة العسكريين إلى حد أنه اقترح تكليف أحد الحجاج الجزائريين بوضع بعض تلك الأحاديث المختلقة، والأقوال الملفقة، خفية، تحت حجر عند ضريح النبي محمد (ص)[125].

ومع مرور الوقت وتكرُّس الاحتلال كأمر واقع راح الجزائريون يتخلون عن تحفظهم شيئا فشيئا إزاء تعليم اللغة الفرنسية لأبنائهم،

123 Ibid. p36.
124 Les enseignants d'Algérie.., p37.

125 الجزائر، الأمة والمجتمع، ص340.

فأصبحوا هم الذين يطالبون السلطات ببناء المدارس وبالإنفاق على التعليم، على أن لا يكون ذلك على حساب تعليم اللغة العربية أو بإهمال المساجد، ومن ذلك موقف أهالي بجاية في مقابلة لهم مع عامل عمالة قسنطينة سنة 1850 (وكانت بجاية تابعة إداريا لعمالة قسنطينة) حيث سجل عامل العمالة تلك المقابلة في في تقرير له بقوله: ((لقد طلب أهالي بجاية مقابلتي فقابلتهم، فلم يحدثوني عن أملاكهم المحتجزة ولا عن بؤسهم الشديد، ولكنهم خاطبوني قائلين: أصدر الأمر بترميم مسجدنا، ووفر لنا مدرسة لائقة، وادفع للمعلم أجره الذي صار يستحيل علينا دفعه له. هذا كل ما نطلب منك)) [126]. ويعلق عامل العمالة على ذلك في اندهاش وإعجاب لم يستطع إخفاءهما بقوله: ((لقد تأثرت تأثرا عميقا وأنا أواجه هذا النوع من نكران الذات، إلى جانب كل ذلك العوز الشديد، ووعدت أن أتوسط لهم بإلحاح لصالح تحقيق رغبات في غاية المشروعية مثل هذه)) [127].

ونورد في هذا الصدد أيضا قولا لسي محمد بن رحال [128]، قاله سنة 1881 أمام لجنة من أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي كان يرأسها "جول فيري"، جاءت لتحقق في أوضاع التعليم في الجزائر، عبر فيه عن رغبة الأهالي الجزائريين، بصفته نائبا عنهم وممثلا لهم: ((ينبغي أن

---

126 «Affrontements culturels.. », p33.
127 Ibid, p33.

128 محمد بن رحال 1856ـ1925، وهو أحد المثقفين الوهرانيين البارزين في الربع الأخير من القرن الماضي والربع الأول من القرن الحالي، وقد عرف بمواقفه الوطنية، ونضاله من أجل اللغة العربية، وإتاحة فرص التعليم لكل الأطفال الجزائريين راجع: الفصل الثاني من كتاب عبد القادر جغلول "تاريخ الجزائر الحديث" بعنوان: "محمد بن رحال وتعليم الجزائريين"، ترجمة فيصل عباس، دار الحداثة، بيروت 1982، من ص59 إلى ص124.

تبنى مدرسة في كل قرية وفي ظل كل نخلة))[129]. لكن المستعمرين، بالرغم من اقتناعهم بأن التعليم هو طريقهم إلى قلوب الجزائريين وعقولهم، إلا أنهم لم يكونوا في يوم من الأيام جادين في نشر التعليم على نطاق واسع يسمح للجزائريين بالتخلص حقا من الجهل، والتفتح على الحضارة الأوروبية الحديثة، لأن ذلك كان مناقضا لمصالحهم. لقد كانوا دائما متخوفين من تعليم الجزائريين، وقد عبروا عن ذلك صراحة وبمختلف الأشكال، فجاء هذا التخوف بشكل مهذب ومتسم بطابع التعليل العلمي على لسان علماء اجتماع مرموقين، مثل"كوستاف لوبون" حين قال: ((إن العبارة المتداولة اليوم على لسان كل هندي تعلم الإنكليزية هي"الهند للهنود"، ولو علّمنا نحن"عربنا" لتحولت العبارة على ألسنتهم:" الجزائر للعرب"))[130]، والتخوف نفسه عبر عنه المعمرون لكن بعبارات عارية من كل أدب، ومشبعة بروح عنصرية حاقدة، تجلى ذلك في رفضهم للتشريع المدرسي الذي وضعه"جول فيري" سنة 1883، ونص على إجبارية التعليم لكل الأطفال، وأعطى فرصا أفضل في التعليم لأبناء الجزائريين، وأوصى ببناء المدارس لهم، على أن تتكفل البلديات بتمويل بنائها، فوصفوا مشروعه بقولهم: ((إنه مخطط مكلف وخطير في آن واحد..)) لفائدة من وصفوهم بـ"جموع المشردين"[131]. وتلتقي حجتهم مع حجة"لوبون" المذكورة آنفا ((بأنه في حالة تعميم التعليم فإن النداء الذي سيجتمع عليه"الأهالي" هو"الجزائر للعرب"))[132].

129Christiane Achour «Anthologie de la littérature algérienne de langue française» E.N.A.P, Alger, Bordas. Paris 1990, p20.

130 Les enseignants d'Algérie... , p22

131 Histoire de l'Algérie contemporaine, p70.

132 Les enseignants d'Algérie..., p70 .

إن هذه الحقيقة تتجلى لنا أكثر من خلال الأرقام إذا ألقينا نظرة على تطور عدد الأطفال الجزائريين الذين كانوا يؤمون المدرسة الفرنسية، فقد كان عددهم سنة 1879 على سبيل المثال لا يزيد عن 3172 (وكانت نسبة الفتيات بينهم ضئيلة) وفي سنة 1892، أي بعد الإصلاحات التي أقرها قانون"جول فيري"، بلغ العدد 11500، ولم يتجاوز عددهم في مطلع القرن العشرين 24172 لعدد من السكان يقارب الخمسة ملايين نسمة، بحيث لم تتجاوز نسبة التمدرس بين الأطفال الجزائريين أكثر من 2%[133]، وفي هذه الفترة بالذات كان عدد أطفال المستعمرِين في المدارس يبلغ 92 ألف تلميذ، لعدد من السكان لا يصل إلى نصف مليون نسمة[134].

لقد كانت السياسة التعليمية الاستعمارية في جميع مراحل الاحتلال محكومة بأهداف محددة، حتى وإن لم تكن دائما معلنة، وعلى هذا الأساس أنشئ في الأول ما أطلق عليه اسم"المدارس الموريسكية الفرنسية" ثم"المدارس العربية الفرنسية" و"المدارس البلدية المختلطة" و"مدارس المعلمين"، إلخ.. وكانت دائما تستجيب لحاجات محددة ومحدودة، فقد كان الغرض في النوع الأول هو إدخال اللغة الفرنسية إلى المدارس القرآنية، وكان الغرض في النوع الثاني هو تكوين نخبة من المتعلمين يحتاج إليها الفرنسيون في تعاملهم مع الجزائريين، كموظفين في القضاء الإسلامي وفي الترجمة العسكرية والعدلية، وحتى في التدريس

133 الطاهر زرهوني"التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال" مؤسسة"موفم" للنشر، الجزائر 1993، ص17.

134 Les enseignants d'Algérie.., p94.

باللغة العربية[135]، وفي جميع الأحوال فقد كان الغرض هو تكوين نخبة تكون واسطة بين الإدارة وبين الأهالي، وتكون الأسبقية لأبناء الأعوان والأعيان كالقياد والأغوات والقضاة وكبار ملاك الأراضي[136]. وبناء عليه، لم تكن هناك أبدا نية في يوم من الأيام لتعميم التعليم، حتى ولو كان بلغة المستعمرين، لأن ذلك سيجعل الجزائريين يتخلصون من شبح الجهل ويدفعهم إلى المطالبة بحقوقهم المهضومة.

إن هذه الأمثلة تكشف عن مدى تناقض السياسة الاستعمارية وتذبذبها بين رغبة في تحويل الجزائريين إلى فرنسيين عن طريق المدرسة، وبين تخوفها من نتائج التعليم التي يمكن أن تتحول في أيديهم إلى سلاح يستعملونه لرفع الظلم والاستغلال المسلط عليهم.

3ـ النشاط التبشيري المسيحي

سبق أن أشرنا من قبل أن من نوايا الغزاة المبيتة أن يجعلوا من الجزائر أرضا مسيحية، وقد أجمع الكل على ذلك: السياسيون و العسكريون ورجال الدين على السواء، حتى وإن اختلفت أغراضهم من ذلك وتباينت الأولويات عند كل فئة منهم، بين الغرض الدنيوي عند الفئة الأولى بما تمثله المستعمرة الجديدة بأراضيها الواسعة وثرواتها الهائلة، وبين الغرض الديني لدى فئة الكهنوت الذين كانت تحركهم في المقام الأول نوازع صليبية، فكان هدفهم هو محاصرة الإسلام وتقليص رقعته

135 أبو القاسم سعد الله"اللغة العربية في مواثيق الحركة الوطنية". مجلة"الكلمة"، الجزائر، العدد 4 يناير1993ص7.

136 راجع : الطاهر زرهوني" التعليم في الجزائر"، ص18.

الجغرافية، والعمل بشتى الطرق والوسائل على إضعافه بإدخال المسلمين في المسيحية. وقد ظهرت البوادر الأولى للعمل على تحويل وجه البلد عن طابعه الإسلامي المميز إلى المسيحية منذ البدايات الأولى للاحتلال، وتمثلت خاصة في الاستيلاء على أملاك الأوقاف الإسلامية، كما سبقت الإشارة، وتحويل عدد من المساجد إلى كنائس، وحدث ذلك بطريقة فظة لا تتفق أبدا مع الحضارة التي ادعى الغزاة أنهم جاؤوا لينشروها بين أهالي البلد، ولا مع تعاليم المسيح الذي كان يبشر بالسلام والمحبة. تجلى ذلك في طريقة استيلائهم على مسجد"كتشاوة" الذي دخله الجنرال"دو روفيكو" وجنوده عنوة، وأجبروا أربعة آلاف مصلٍ كانوا يعتصمون به على مغادرته بالقوة، ليجعلوا منه كاتدرائية أطلقوا عليها اسم"القديس لويس فيليب"، وهو أحد أشهر ملوك فرنسا الصليبيين، وقد مات في تونس سنة 1270 م وهو على رأس إحدى الحملات الصليبية على بلاد الإسلام[137]، وفي إطلاق اسمه على أول مؤسسة مسيحية تقام في الجزائر عن طريق الغصب، ما يشير إلى الروح الصليبية التي كان يضمرها الغزاة.

وقد أسهمت الملكة"إميلي" زوجة الملك"لويس فيليب" نفسها في تقديم هدايا للكاتدرائية الجديدة، كما بعث البابا"كريكوار السادس

---

137 هو لويس التاسع، الذي لقب بالقديس، عاش ما بين 1214 و 1270 م، واشتهر بحملتين صليبيتين قادهما بنفسه، واحدة إلى مصر حيث انهزم وأسر في دمياط سنة 1249م واشترى حريته بالمال، والأخرى إلى تونس، وفيها مرض وتوفي ودفن سنة 1270. المرجع: « Larousse » مادة : St-Louis

عشر" للكاتدرائية الجديدة بتماثيل للقديسين، وأعرب عن امتنانه وشكره للذين قاموا بذلك العمل[138]، ويتضح من هذا كله أن ما قام به العسكريون في الجزائر لم يكن مجرد تجاوزات فردية لضباط جيش الاحتلال، وإنما كان يدخل ضمن مخطط ثلاثي الأطراف، رأسه في الجزائر وقاعدته في باريس وروما، وهو المخطط الذي سيتضح مع مر الأيام ومع التوسع في الاحتلال، بحيث كان هناك دائما تنسيق وتآزر بين السلطة الرسمية في باريس، والعسكرية في الجزائر، والروحية في روما، وقد برز في أجلى صوره من خلال هذه التظاهرة الرسمية المسيحية في حفل افتتاح كاتدرائية لويس فيليب، كما تجلى التآزر والتنسيق مرة أخرى بين الأطراف الثلاثة في المخطط الذي وضعوه سنة 1833 بشأن إرسال فرقة"العازاريين" إلى الجزائر للشروع في مهمة تنصير السكان[139].

لقد كان الملك لويس فيليب على قناعة تامة ((أن مستقبل المستعمرة (الجزائر) مرهون بتنصير سكانها)) ولذلك كان يشجع المبشرين ويؤيد مساعيهم، ذلك ما فعله على سبيل المثال مع الكونت "أوغسطين دوفيلار" أول من فتح باب التبشير في الجزائر وأقام ملاجئ للأيتام في بوفاريك، مع أخته الراهبة "إميلي دوفيلار"، التي استجلبت راهبات من فرنسا، وفتحت أول مدرسة للبنات بالجزائر سنة 1836، فلقيت بدورها كل التشجيع والمساعدة من الملك وزوجته على السواء[140].

138 الحركة التبشيرية، ص34.
139 الحركة التبشيرية الفرنسية، ص43 .
140 نفسه، ص46.

وكان العسكريون يشاركون ملكهم في قناعته بـضرورة تنـصير السكان ويوفرون الحماية للمبشرين، وكان الماريشال"سولت" وزيـر الحربية قد بعث في سنة1841 لجنة خاصة كانت مهمتها البحث عـن وسائل الاستعمار بواسطة الفرق الدينية، وجاء تقرير اللجنة المذكورة ليوكد ((أنه لا يمكن للجزائر أن تكـون فرنـسية إلا إذا أصـبحت مسيحية)) [141]. وعلى إثر ذلك أرسلت فرقة"الإخـوة لاتـراب" إلى الجزائر، وأسست مركزا فلاحيا بمنطقة سطاوالي، ولقيت دعما كـبيرا من الجنرال بيجو، الذي قيل عنه إنه كان يكره رجال الـدين، وقـد وضع بنفسه الحجر الأساسي لدير هذه الفرقة الدينية، ونوه في كلمتـه بهذه المناسبة بالعلاقة المتينة بين الراهب والجندي [142]، وسـلم لـلأب "بريمولت" مجموعة من الأطفال الجزائريين الأيتام قائلا له: ((حاول يا أبت أن تجعلهم مسيحيين، فإذا فعلت فلن يعودو إلى دينهم ليطلقـوا علينا النار)) [143].

والدعم والتأييد نفسه يلقاه القس"سوشي" عند نزوله بقسنطينة من قبل الجنرال"دوغالبوا" الذي تيمن بمقدمه، وأعلن لـه عـن ترحيبه بـ"أخوات القديس يوسف" واستعـداده لإيوائهن بقصره حتى يجد لهن محلا خاصا بهن. وتعبيرا عن حسن نواياه في هذا المسعى ورغبته في التعاون مع القس لخدمة الحركة التبشيرية، أقدم الجنرال على تحويـل مسجد أحمد باي إلى كنيسة، وأغلق في المقابل خمسة عشر مـسجدا بالمدينة. وكان القس سوشي قد أرسل إلى قـسنطينة بتوصـية مـن

141 لحركة التبشيرية الفرنسية، ص81.
142 الجزائر، الأمة والمجتمع، ص275 .
143 لحركة التبشيرية الفرنسية، ص62.

الجنرال"فالي"، وبالتنسيق مع الأسقف"دبيش" ـــ وهو أول أسقف يعين على رأس أسقفية الجزائر بعد تأسيسها سنة 1839 ـــ وكان "سوشي" يمثل الساعد الأيمن للأسقف"دبيش" في شؤون التبشير[144].

وكتب"لويس فويو"، الكاتب الخاص للجنرال "بيجو" يقول ((بأن مستقبل المستعمرة سيكون حالكا إذا لم تقدم السلطة على تنصير السكان))، وكان هذا الكاتب يتصور أن الإسلام سوف يختفي من الجزائر ـــ بفعل التبشير ـــ في ظرف عشرين عاما[145]. ولعله برأيه هذا يكون قد أثر على الجنرال بيجو، وجعله يغير موقفه من رجال الدين ويتعاون معهم في مهمتهم التبشيرية.

أما رجال الدين أنفسهم، فبحكم اختصاصهم كانوا أكثر قناعة وأشد حماسا من السياسيين والعسكريين لمهمتهم التنصيرية، فكان الأب"لاندمان"، الذي قدم إلى الجزائر سنة 1839 لينفذ مشروع "الجمعية المسيحية لاستعمار وتحضير إفريقيا" يقول: ((إن فرنسا لا يمكن لها أن تستعمر إفريقيا إلا بعد أن تغرس قوانينها ودينها ولغتها))[146]. وكان الكاردينال "لا فيجري" يرى بدوره ((أن تنصير مسلمي شمال إفريقيا سيعمل على تثبيت الوجود الفرنسي بالجزائر))[147]. وتحقيقا لهذا الغرض اشترى الأب"لاندمان" سنة 1847 خمسمائة هكتار من الأراضي الزراعية قرب قالمة، وأنشأ عليها مشروع

---

144 نفسه، ص53.

145 Rabah Belamri «L'oeuvre de Louis Bertrand, miroir de l'idéologie colonialiste» O.P.U. Alger 1980 p97.

146 الحركة التبشيرية الفرنسية، ص89.

147 نفسه، ص119.

قرية فلاحية، على غرار ما فعله "الإخوة لاتراب" في سطاوالي، وأقام بها ملجأ للأيتام والمشردين من أبناء الجزائريين، تتراوح أعمارهم بين الثانية عشر والثامنة عشر، يعملون في الأرض، ويتعلمون القراءة والكتابة ومبادئ الدين المسيحي، وكان يشرف عليهم ويقوم بتعليمهم خمسة من الرهبان. وقد شجع الماريشال "سولت" مشروع الأب لاندمان وساهم فيه بمبلغ عشرين ألف فرنك[148].

وعلى خطوات الأب لاندمان سار الكاردينال "لافيجري"، الذي برز بشكل خاص في مجاعة 1867ـ1869، فأقام الملاجيء للمشردين من أبناء المسلمين، في بوزريعة وبولوغين والأبيار والقبة وبوفاريك ومدينة الجزائر، قصد معالجتهم وتنصيرهم[149]، وبنى قرى عربية مسيحية، واشترى أراضي واسعة في العطاف، وأسس قريتين كبيرتين بها، وزوج الأيتام فيما بينهم. وكان يهدف إلى استعمال الأهالي أنفسهم في التبشير، ويريد أن يقدم البرهان على أن الاندماج يمكن أن يحدث عن طريق التنصير. وقد جاءته التبرعات من كل حدب وصوب في فرنسا، وحصل على مساعدة وتأييد الأمبراطور نابليون الثالث نفسه، الذي كان مثل سلفه لويس فيليب يؤمن أن تطبيق "سياسة الاندماج" التي حاول تطبيقها في الجزائر، لا تأتي إلا عن طريق التنصير والتعليم. وجاءت المساعدات للكاردينال من انكلترا وبلجيكا، وإسبانيا وإيطاليا، ومن البابا شخصيا، ومن الكنيسة البروتستانية[150].

148 الحركة التبشيرية الفرنسية، ص91،92.
149 نفسه، ص112.
150 نفسه، ص113.

والكاردينال لافيجري هو الذي دعا إلى جلب الموارنة المسيحيين من لبنان، للاستعانة بهم في تنصير الجزائريين[151]. وكان قنصل فرنسا في الإسكندرية قد راسل وزارة الخارجية، وأشار إلى أهمية اســتعمار الجزائر عن طريق جلب الموارنة المسيحيين من لبنان ((الذين ســوف يؤثرون على سكان الجزائر حينما يسكنون بينهم))[152]. وهذا دليــل آخر على أن السياسيين والعسكريين كانوا لا يلتقون مع رجال الدين في الهدف وحسب ولكن يلتقون معهم في التفكير أيضا.

وبفضل المساعدات الضخمة التي تلقاها، والتأييد الــذي وجــده الكاردينال من السلطات المدنية والعسكرية ومن المستوطنين، أنشأ سنة 1869 فرقة" الآباء البيض"، وهي الفرقة التــي ستأخذ على عاتقها مهمة التبشير في الجزائر ثم في تونس والمغــرب ثم في إفريقيــا بعــد ذلك[153]. كما أنشأ أيضا فرقة "الأخوات البيض" للتبشير في الوســط النسائي عن طريق التطبيب والتعليم والخدمات الخيرية، لأن الوصــول إلى المرأة ــ كما قال ــ هو وصول إلى الأسرة كلها[154]. وحين رأى تمسك السكان بدينهم عد ذلك تعصبا أعمى، وراح يهاجمهم لأجــل ذلك ويسئ إليهم، وقد دعا في إحدى لحظات اليأس، بعد أن فشلت جهوده المضنية في تنصير الجزائريين إلى تزويدهم بنسخ مــن الإنجيــل وطردهم إلى الصحراء[155].

---

151 نفسه، ص111.
152 لحركة التبشيرية الفرنسية، ص93.
153 نفسه، ص128.
154 نفسه، ص129.
155 نفسه، ص116.

وكانت استراتيجية المبشرين بمختلف نحلهم تهدف إلى التقرب من الأهالي واستمالة قلوبهم عن طريق القيام بالأعمال الخيرية، كإنشاء مراكز للمشردين، وتقديم المساعدة الطبية للمرضى، وبناء المستشفيات وإنشاء القرى الفلاحية وغير ذلك. وعن طريق أعمال البر والإحسان كانوا يحاولون جلب الناس إلى الدين المسيحي. ووضعت للعمل التبشيري قوانين أسقفية، وسطرت له أهداف، وحددت طرق وأساليب للعمل بغرض التأثير على الأهالي[156].

وكان موضوع غزو بلاد القبائل عن طريق التبشير محل مراسلات ومشاورات بين الدوق دومال والأب"ريجيس"، وأبى هذا الأب إلا أن يرافق حملة الجنرال"راندون" على هذه المنطقة، وجسد أحد الرسامين يدعى"هوراس فيرني" تعاون الكنيسة مع العسكر في لوحة تظهر خضوع السكان للقوة الفرنسية، ويعلو المشهد صليب كبير يقف الأب ريجيس إلى جانبه وهو يقيم قداسا، تخليدا لهذا الغزو[157]. وقد حصل الأب ريجيس على "صليب جوقة الشرف" من الحكومة الفرنسية اعترافا له بمشاركته في عملية الاستعمار في الجزائر.

وتضافرت جهود الكنيسة مع جهود السلطات السياسية والعسكرية في إقامة المستعمرات، فكان المبشرون يجمعون التبرعات في فرنسا ويشترون الأراضي، ويقيمون المستوطنات لفائدة عائلات فلاحية تستجلب من مقاطعة الألزاس وغيرها من المقاطعات الفرنسية،

---

156 راجع مواد"القوانين الأسقفية للتبشير بين الأهالي" في كتاب"الحركة التبشيرية..، الملحق رقم 3، ص169.

157 نفسه، ص84.

وهذا ما فعلته "الجمعية المسيحية لاستعمار وتحضير إفريقيا" التي أسسها الأب "لندمان" والأمير البولوني "كازيمير بيرسي"[158]. وأنشأ الأب "دوغا" من جهته "جمعية للصلاة من أجل تنصير المسلمين في العالم وإحياء الكنيسة الإفريقية" فانخرط فيها الفرنسيون بعشرات الآلاف، ووفروا لها المال الكثير[159].

غير أن حسابات السياسيين والعسكريين حتى وإن التقت في الهدف مع المبشرين فإنها لم تكن تتطابق دائما وحسابات هؤلاء، ولا تتفق في أسلوب العمل ولا في درجة الحماس، فكان ذلك مدعاة لنشوب الخلافات بينهم وتبادل الاتهامات أحيانا، وذلك ما حدث على سبيل المثال بين الماريشال "ماكمهون" و"الكاردينال لافيجري"، فقد ضاق الماريشال بتجاوزات الكاردينال، وهو الذي استحسن من قبل فكرة استجلاب الموارنة من الشرق، وأبدى استعداده لاستقبالهم في القطاع الوهراني[160]، وأعلن له عن عدم رضاه عن ذلك، غير أن الكاردينال رد على النقد باتهام "المكاتب العربية" التي يديرها العسكريون بأنها تقف في وجه العمل التبشيري، وتمنع التأثير الأوروبي عن المسلمين[161]. وحين لم يجد الماريشال أذنا صاغية من الكاردينال، بعث برسالة إلى وزير الحربية يطلب منه وضع حد لأعمال لا فيجري، لكن الوزير تجاهل الطلب لأنه كان يؤيد أعمال الكاردينال[162].

---

158 نفسه، ص87.

159 الحركة التبشيرية الفرنسية، ص70.

160 نفسه، ص98.

161 نفسه، ص118.

162 نفسه، ص120.

وأمام تكرار شكاوى العسكريين من أعمال لا فيجري، اضطر الأمبراطور نابليون الثالث نفسه إلى التدخل، وأمره بترك شأن العرب للحاكم العام، لكن التأييد الذي لقيه لا فيجري في رحلته إلى فرنسا على المستوى الرسمي (من الحكومة) ومن الرأي العام، جعل الأمبراطور يعدل عن رأيه ويسمح له بمواصلة مهمته التبشيرية[163].

وهكذا التقت الأطماع التوسعية الاستعمارية مع الأحقاد الدينية الصليبية لتشكل حلفا مقدسا استولى على الأرض، ونهب خيرات البلاد، واستعبد أهلها، وحاول القضاء على هوية الشعب الجزائري وعلى دينه، واستبدالهما بهوية الغزاة ودينهم.

4 ـ *تزوير تاريخ الجزائر أو تشويهه*

كان لابد للاستعمار في مرحلة معينة من مراحل الاحتلال أن يخلق، من جهة أخرى، أيديولوجية تبرر وجوده، ويستند إليها في استمرار احتلاله للبلد، وكان العمل في هذا الاتجاه يمضي نحو اتجاهين متعاكسين، الاتجاه الأول هو نسج أساطير تكون بمثابة مبررات تسبغ على وجوده نوعا من الشرعية وتعطي له الحق في إعمار الأرض، والاتجاه الثاني يتمثل في العمل على نفي وجود الآخر (المستعمَر)، وطمس تاريخه، وتشويهه عندما يكون طمسه أمرا غير ممكن. وقد اشترك في هذه المهمة مؤرخون، وباحثون في الآثار، ومستشرقون، وعلماء اجتماع، وعلماء الأجناس، ولغويون، وأدباء، وبالطبع اشترك

---

163 الحركة التبشيرية، ص121.

في هذه المهمة عسكريون، ورجال دين، وتحولت الجزائر بـذلك إلى حقل تجارب وميدان واسع للبحث في مختلف الميادين.

أسطورة "الجزائر الرومانية"

والواقع أن أيديولوجية الاستعمار المبنية على الاتجاهين المشار إليهما، قد بدأت تتشكل كغيرها من المخططات الاستعمارية، منـذ الأيـام الأولى للاحتلال، فقد كان المستعمرون يعتـبرون أنفسـهم ورثـة للأمبراطورية الرومانية، وأنهم بهذه الصفة إنما يستعيدون ما فقدوه من أرزاق وممتلكات[164]. وكان العقيد كافينياك من أوائل مـن اهتمـوا بأسطورة"الجزائر الرومانية" التي أصبحت تشكل إحـدى مـبررات المستعمرين في احتلال الأرض، وإحدى الركائز الـتي تنـبني عليهـا أيديولوجيتهم. وكان العقيد"كافينياك" خبيرا في الآثار، فاهتم اهتماما كبيرا بالحفريات، وأمر بإجرائها ((لكي يستخرج الآثار التي تـبرهن للبدو بأن الأوروبيين لهم حقوق قديمة في امتلاك البلاد))[165]. وكانت فكرة تنصير الشعب الجزائري لدى المبشرين تقوم أيضا على هذا المبرر، فعملوا من جهتهم على إحياء فكرة الكنيسة الإفريقية الـتي أسسـها المحتلون الرومان في شمال إفريقيا، وإلى ذلك يشير القس"سوشـي" في شيء من الزهو ومن الحنين إلى تلك الفترة عند زيارته لمدينة قـسنطينة سنة 1839، حين كتب يقول: ((إن الجنرال "دوغالبوَا" استقبلني بكل حفاوة في هذه المدينة التي لم يدخلها قسيس منذ 1400 سنة))[166].

---

164 الجزائر، الأمة والمجتمع، ص283.

165 نفسه، ص284 .

166 نفسه، ص53.

وقد عرفت الجزائر أعدادا هائلة من ضباط الشؤون الأهلية والرحالين والمبشرين الذين اختصوا في دراسة عادات وتقاليد وأنماط المعيشة لدى سكان البلد بمختلف مناطقهم [167]، وكانت تلك الدراسات، والتحقيقات، والتقارير، والتصنيفات، والخرائط، والفهارس، تهدف في الأول إلى أغراض استراتيجية آنية وهي مراقبة **العدو** لتصفيته جسديا، ثم صارت فيما بعد تهدف لأغراض سياسية، وهي معرفة هذا العدو من الداخل، من أجل تحطيمه اقتصاديا وثقافيا[168]. وقد قام بجزء من هذه المهمة المستشرقون وعلماء الإناسة، وحاولوا أن يقنعوا الأهالي المغلوبين على أمرهم بأن المستقبل مع المستعمر، وأنه لا مستقبل لهم بدونه [169]، حتى وإن وجد من بين هؤلاء من رفض السير في هذا المسعى وهم قلة قليلة، مثل المستشرق إسماعيل "أوربان"* الذي جهر برأيه، واستنكر ما كان يجري من جرائم في حق الإنسان الجزائري، وحذر الحكومة الفرنسية من عواقب سياستها في الجزائر، واقترح عوض الاستعمار المباشر أن تنشأ في الجزائر مملكة عربية تفرض عليها الحماية. غير أن آراءه قوبلت بحملة صحفية شديدة اللهجة، سواء في فرنسا أو في الجزائر [170].

وقد سمحت تلك المعرفة الدقيقة بالتركيبة الاجتماعية للسكان من استغلال نقاط الضعف فيها، وتصريفها لفائدة المستعمرين، الذين

---

167 الجزائر، الأمة والمجتمع، ص138.
168 «L'oeuvre de Louis Bertrand, miroir de l'idéologie colonialiste» , p104.
169 Daniel Reig «L'homo-Orientaliste» Coll. Islam-Occident. Ed. Maisonneuve et Larose, Paris 1988,p144.
* وكان قد اعتنق الإسلام في تركيا قبل مجيئه إلى الجزائر .
170 «L'homo - Orientaliste », pp146-147.

استغلوا بالأخص النعرات القبلية لزرع روح الشقاق بين السكان، بتقسيمهم إلى بربر وعرب، ووصفوا الأوائل منهم بالأصلاء والآخرين بالغزاة الدخلاء[171]، متبعين في ذلك سياسة المحتلين الرومان الذين اخترعوا وطبقوا قبلهم سياسة "فرق تسد" ليتمكنوا بها من بسط سيطرتهم على شمال إفريقيا. وفي هذا السياق ذهب بعض المستعمرين يبحثون للقبائل عن أصل آري، وقالوا عنهم إنهم من أصل جرماني، وأنهم عرفوا المسيحية قديما[172]. غير أن الكاردينال "لافيجري" حين ركز جهوده التبشيرية على هذه المنطقة ذكر أسبابا أخرى هي أقرب إلى الأهداف الحقيقية للاستعمار من محاولة عزل هذه المنطقة عن بقية المناطق الأخرى من البلاد، منها كثافة سكانها وتجمعهم في منطقة واحدة، وعزلتهم بسبب التضاريس الطبيعية عن المناطق الأخرى، واعتقاده أن التعاليم الإسلامية غير متمكنة في نفوسهم*.

---

171 "الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر" ص138.

172 نفسه، ص140.

* وقد أثبتت له الأيام أنه كان واهما في تصوره، وذلك من خلال حادثتين بارزتين على الأقل، الأولى أن التبشير كان أحد العوامل الرئيسية في قيام ثورة الطريقة الرحمانية سنة 1871، التي قادها المقراني والشيخ الحداد، وكان الناس قد ضاقوا ذرعا بنشاط المبشرين، والثانية تتمثل في الجهود التبشيرية المضنية التي بذلها الأب كروزا، لمدة تزيد عن العشرين سنة، بتشجيع من الكاردينال وتأييده المادي والمعنوي، ولكنه فشل في مهمته فشلا ذريعا، جعل العقيد "هانوتو" قائد القطاع العسكري يكتب للماريشال "ماكماهون" قائلا ((إن الأب كروزا يسعى إلى هدف وهمي)) بل ويحذر من تصرفاته ((التي تزود كل من أراد أن يستأنف الحرب، بمحرك يدفعه إلى القيام بها)). راجع خديجة بقطاش "الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر" من ص146 إلى ص152.

وكان الجنرال"دوماس" أول من اهتم من العسكريين بدراسة عادات وتقاليد القبائل، ورأى أنهم يحتفظون بقوانين قديمة لاتتفق مع تعاليم الإسلام[173].

تأسيس جامعة الجزائر

وبتأسيس جامعة الجزائر سنة 1900 أنشأ الاستعمار ما أطلق عليه المؤرخ الجزائري محمد الشريف ساحلي اسم"المشتلة الأيديوجية"، التي ستتكفل بتخريج مدافعين أشداء عن أيديولوجية الاستعمار من قانونيين ومؤرخين وفلاسفة ولغويين[174]،كان عملهم كلهم يسير في الاتجاهين المذكورين آنفا، ويصب في الأهداف نفسها التي تخدم الاستعمار وتقدم له المبررات"العلمية" لوجوده في الجزائر، وحق البقاء فيها.

وهكذا انصب اهتمامهم على فترة الاحتلال الروماني للجزائر، فسلطوا عليها الأضواء وألفوا فيها المؤلفات، وأولوا عناية خاصة بالآثار الباقية من تلك الفترة، ونشطت التنقيبات عن المدفون منها تحت الأرض، فتم إحصاؤها وتصنيفها، ووضعت لها الخرائط، وجهزت لها المخابر، وبنيت المتاحف، ودرست دراسة معمقة. ومن هنا أصبحت الخرائب الرومانية في تيبازا وشرشال وجميلة وتيمقاد وغيرها محجة للدارسين والمنقبين والمبشرين والأدباء والسواح على السواء، يدفعهم الفضول العلمي، أو يحركهم الحنين الديني، أو يسوقهم الاغتراب

173 الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر" ص140.

174 «Décoloniser l'histoire», p14.

الرومانسي، أو يتسلط على عقولهم الهوس العرقي ووهم البحث عن أمجاد"إفريقيا اللاتينية"**.

وفي مقابل هذا الاهتمام بالفترة الرومانية تجوهلت الفترات التاريخية الأخرى وطمست معالمها وأهملت آثارها، وبالأخص الآثار الإسلامية التي لم يكن يُتطرق إليها أو إلى التاريخ الإسلامي في الجزائر بوجه عام، إلا إذا كان في ذلك ما يعزز الأطروحات الاستعمارية، ويؤيد الأحكام المسبقة عن العرب والمسلمين.

وقد تزعم هذه الحركة الجامعية باحثان كان لهما الدور الأكبر في بلورة الأيديولوجية الاستعمارية وتغذيتها بالأفكار، ونشرها بين الطلاب، ونعني بهما: المؤرخ"ستيفان كزال" والباحث الاجتماعي" أ. ف. كوتييه"، كل حسب اختصاصه، حيث صرف الأول عنايته لدراسة الفترة الرومانية، واختار له منهجا في ذلك أملاه عليه عامل نقص المعلومات عن الفترة المدروسة في الجزائر، وعدم دقتها حين تكون المعلومات متوفرة، ويتمثل أساسا في ملإ الفراغات التي كانت تصادفه في تلك الحقبة بما يماثلها في الحياة المعاصرة، ومن ذلك دراسته لحياة البربر القدامى بالرجوع إلى مجتمع البربر اليوم[175]، وهو الشيء الذي قاده إلى استنتاج غريب عن هذا المجتمع يتفق تماما والأيديولوجية الاستعمارية، ونعني به ما أسماه بـ"الجمود البربري" (L'immobilisme berbère) الذي يتجلى – حسب رأيه – في ((التمسك الشديد للبربر بوضعهم الاجتماعي أكثر من أي شعب آخر

** من أمثال الكاتب"لوي بيرتران" و"روبير راندو" و"جان أنطوان نو" وكلهم من أبرز وجوه الأدب الاستعماري في الجزائر، والمنظرين له.

175 «Décoloniser l'histoire» p, 21.

من شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط))[176]. أما "كوتييه" فقد اشتهر بنظرياته الجغرافية والاجتماعية، وذهب من جهته إلى القول: ((يمثل المغربي، بلا أدنى ريب، الإنسان المتأخر عن الركب، الباقي بعيدا في الخلف من بين الأجناس البيضاء المطلة على البحر المتوسط (...) إن هذا الجنس لايمتلك أية ذاتية إيجابية))[177]. ويرجع ذلك إلى طبيعة الرجل البدوي الشمال إفريقي الذي يقول عنه أيضا ((إنه ذو نزعة عدمية، شديد الميل إلى الفوضى والتخريب)) وهو ما يترجم، في اعتقاده، عجز شمال إفريقيا عن صنع تاريخها الخاص[178].

وقد مهدت هذه الطروحات الطريق لمن جاء بعدهما من الأتباع والأشياع ليتخذوا منها مرتكزا يستندون إليه، ليتوسعوا فيها، ويحشدوا لها ما لا يعد من"الأدلة" و"القرائن" التي تحاول بكل الوسائل أن ترسخها في الأذهان، وتلبسها ثوب العلم، وتجعل منها"حقائق" لا يتطرق إليها الشك. ففكرة"كزال" عن"الجمود البربري" هي حقيقة لاجدال فيها عند"جان لاسيس"، الذي يرى أن ((البربري يقاوم كل تجديد، وبالتالي كل تقدم))[179]، وهذا"شارل أندري جوليان"، الذي كان في أول أمره — ومعه ثلة من المؤرخين والكتاب السياسيين اليساريين — يرفض حتمية"كزال" الجغرافية وحتمية"كوتيه" العرقية، يعود في وقت لاحق ليكتشف وزميله"شارل كورتوا" أن كزال وكوتيه لم يكونا مخطئين تماما في كل ما ذهبا إليه، فقد توصلا بدوريهما إلى ((أن التضاريس الجغرافية قد فتَّتت البلد ومنعت قيام وحدته السياسية،

176 «Décoloniser l'histoire», p63.
177 Ibid, p20.
178 Ibid, p21.
179 Ibid, p22.

وساعدت، في المقابل، على تكوين تجمعات سكانية"أصلية" في بلاد القبائل والأوراس، صمدت حتى اليوم لعوامل التعرية التاريخية)) [180].

وجاءت اجتهادات"كابريال كامب" في هذا الصدد لتضيف تأكيدات أخرى على"صحة" الحتمية الجغرافية: ((إن التسميات الجغرافية للجزائر مثل"شمال إفريقيا" و"بلاد المغرب"، والإثنية مثل بلاد البربر، تؤكد العجز عن الفعل التاريخي (الحضاري) الذي ذهب إليه "كوتيه")) [181]. وكذلك الحتمية العرقية: ((لا يوجد في عالم المتوسط ريف أكثر محافظة وأكثر انغلاقا عن المغريات المدنية من ريف شمال إفريقيا)) [182]. ومن هنا أعطى هؤلاء الباحثون صورة يائسة عن ماضي الجزائر، وحصيلة لا يمكن أن توصف إلا بالكارثة، عن كل مراحل التاريخ الجزائري، قديمه (عهد الممالك البربرية) ووسيطه (العهد الإسلامي) وحديثه (العهد التركي)، باستثناء الفترة الرومانية التي عدوها الفترة الذهبية التي عرفتها الجزائر، ليخلصوا من كل ذلك إلى ما يسمونه "الخلاص الرباني" الذي جاء به الاحتلال الفرنسي [183].

* * * *

وبعد، لقد حاولنا في الصفحات السابقة أن نرسم معالم الحرب الإبادية التي شنها الاستعمار الفرنسي على الشعب الجزائري، بشقيها المادي والمعنوي، وقد كانت ــ كما أوضحنا ــ حربا شاملة، طاحنة ضد الإنسان الجزائري، واتخذت لها أوجها عديدة متشابكة ومتداخلة، صليبية، لغوية، ثقافية، حضارية، ظلت قائمة على أشدها طوال فترة

---

180 Décoloniser l'histoire, p19.
181 Ibid p18.
182 Ibid, p21.
183 Ibid, p15

الاحتلال الفعلي الذي دام أكثر من مئة واثنين وثلاثين عاما، وقد عانى منها الشعب الجزائري الأمرين، وما زال يعاني من آثارها إلى يومنا هذا غير أنه ينبغي، في مقابل ذلك، أن نسجل حقيقة تاريخية لا يمكن نكرانها من الطرف الآخر، ألا وهي أن الاستعمار لم يهنأ أبدا باحتلاله للجزائر، لأنه لم يتمكن في يوم من الأيام من قهر روح المقاومة في الشعب الجزائري، وظـــل طـــوال بقائه في حالة تحفز دائم، لا يكاد يخضع منطقة حتى تثور ضده منطقة أخرى، ولا يكاد يخمد ثورة حتى تشتعل في إثرها ثورة أخرى. فبقدر ما كان تصميم المحتل قويا من أجل تحقيق أغراضه العدوانية، بقـــدر ما كانت مقاومة الجزائريين له عنيدة وبلا هوادة، بدأت بمقاومة الأمير عبد القادر، التي انطلقت بعد احتلال القوات الفرنسية لمدينة الجزائر[184]، وشملت كل مناطق الغرب والوسط وتزامنت منذ سنة 1837 مع مقاومة أحمد باي في المناطق الشرقية للبلاد، إلى غاية 1848[185]. وما كادت مقاومة الأمير وأحمد باي تنتهي حتى تلتها حركات مقاومة أخرى، وثورات في مختلف مناطق البلاد، ظلت نيرانها مشتعلة طيلة القرن التاسع عشر، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: مقاومة الزعاطشة سنة 1849 بقيادة الشيخ أحمد بوزيان، ومقاومة منطقة القبائل بقيادة لالة فاطمة نسومر (1857)،

---

184 بدأت مقاومة الأمير عبد القادر للمحتلين تحت قيادة والده محي الدين، حيث شـارك إلى جانبه في العديد من المعارك، قبل أن يبايع بالإمارة ويتولى قيادة الكفاح في شـهر نوفمبر 1832. انظر: "الأمير عبد القادر الجزائري" للأميرة بديعة الحسني الجزائـري، منشورات سلام للترجمة والنشر، ط2 . دمشق 1992. ص26، 36. وكـذا "حياة الأمير عبد القادر" لشارل هنري تشرشل، ترجمة د. أبوالقاسم سعد الله. الدار التونسية للنشر، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تونس/الجزائر 1974، ص50، 53.

185 "مذكرات أحمد باي" تحقيق د. العربي الزبيري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1973، ص99.

وثورة الحاج المقراني والشيخ الحداد (1871) بالمنطقة نفسها، وثورة أولاد سيدي الشيخ الأولى سنة 1864، وثورة الأوراس سنة 1879 بقيادة الشيخ بوبرمة، وثورة أولاد سيدي الشيخ الثانية سنة (1881) بقيادة الشيخ بوعمامة، وقد دامت هذه الأخيرة أكثر من عشرين عاما[186]. ويضاف إلى ثورات القرن التاسع عشر انتفاضات القرن العشرين العديدة، التي يمكن أن نذكر أهمها مثل انتفاضة سكان عين التركي ومليانة سنة1901، وأحداث عين بسام سنة 1906، وبني شقران ومعسكر سنة 1914، والأوراس والهضاب العليا الشرقية سنة 1916 والتوارق بالهقار بين سنتي 1916 و1919، ومظاهرات ماي 1945 في قالمة وسطيف وخراطة، وخاتمتها ثورة التحرير الكبرى في فاتح نوفمبر1954 التي وضعت حدا نهائيا للاستعمار المباشر في هذا البلد[187].

وعلى العموم ، فقد دفع الاستعمار الفرنسي في الجزائر بدوره ثمنا غاليا في الأرواح والأموال والمعدات، مع الفارق الكبير ــ بالطبع ــ بين ما دفعه المستعمر وما دفعه الشعب الجزائري، بسبب اختلال موازين القوى المادية في كل المجالات لصالح الاستعمار، ومع الفارق أيضا في الموقع بين المعتدي والمعتدى عليه. وقد كانت حروب الاستعمار في الجزائر، بشهادة الفرنسيين أنفسهم، أكبر الحروب الاستعمارية في العصر الحديث، وأكثرها تكلفة في الأرواح والأموال والمعدات[188].

---

186 ويعدها المؤرخون، إلى جانب ثورة المقراني والحداد، أكبر وأعظم الثورات بعد مقاومة الأمير عبد القادر، خاصة إذا نظرنا إليهما من حيث اتساع الرقعة الجغرافية التي امتدتا إليها، وحجم الوقائع الحربية التي جرت أثناءها، والنتائج التي أسفرت عنها. راجع "الحركة الوطنية الجزائرية" للدكتور أبو القاسم سعد الله، ج 2، ص57.

187 للاطلاع على التفاصيل راجع: د. يحي بوعزيز" ثورات الجزائر في القرنين 19و20".

188 C.f «Histoire de l'Algérie contemporaine» p19. «L'Algérie hors la oi »p19. .

ولا يمكن لنا اليوم أن نقول بأن هذه الحرب قد وضعت أوزارها نهائيا باستقلال الجزائر في الخامس من جويلية 1962، وذلك بالنظر إلى آثارها العميقة التي تركتها في الشعب الجزائري، والتي ما تزال إلى يومنا هذا ماثلة للعيان، منقوشة في البنيان، ناطقة في الإنسان. وإننا إذا حاولنا أن ننكر تلك الآثار، أو نهون من شأنها، فإن ذلك سيكون نكرانا منا للتضحيات الجسام التي قدمها الشعب الجزائري، وللمقاومة العنيدة التي أظهرها طوال فترة الاحتلال، في سبيل الحفاظ على كيانه، وعلى مقوماته الثقافية والروحية.

ومما لا شك فيه أن إزالة الآثار المادية لتلك الحرب أسهل بكثير من إزالة الآثار النفسية، والتشوهات الفكرية، هذه التشوهات التي ما فتئت تظهر بين الحين والحين في طرح تساؤلات حول"حقيقة" الهوية الوطنية وحول مقومات الشعب الجزائري الأساسية ــ وقد أشرنا إلى الجدل حول هذا الموضوع في أول الفصل ــ مما يعني أن الاستعمار قد تمكن في نهاية الأمر من أن يثير الشكوك في نفوس بعض الجزائريين حول هويتهم الوطنية، وحول مقوماتها الأساسية، وقد تحولت تلك الشكوك مع الوقت إلى"قضية" أدبية وفكرية، وإلى"أزمة" سياسية وثقافية.

ونعتقد أن الأدب الذي كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية منذ العشرينيات من هذا القرن إلى اليوم، قد شكل ظاهرة مثالية للتعبير عن هذه"القضية" أو"الأزمة" الأدبية، الفكرية، الثقافية، السياسية، وأنه جسد في حد ذاته معلما بارزا في هذه الأزمة، وذلك هو ما سوف نحاول أن نبينه في الفصول اللاحقة.

* * *

الفصل الثاني

النشـــأة والتطـــور

يرجع المؤرخ والباحث"جان ديجو" أول نص أدبي كتبه جزائـري باللغة الفرنسية إلى سنة 1891[1]، وهو عبارة عن قصة بعنوان"انتقـام الشيخ"، مستقاة ـــ حسب ما يذكر ديجو ـــ من التقاليد الاجتماعيـة الجزائرية، كتبها محمد بن رحال[2]، ونشرتها "المجلة الجزائرية التونـسية، الأدبية والفنية"[3].

إلا أن الباحث نفسه يذكر أن عملية المسح الشامل التي قـام بهـا للجرائد والمجلات التي كان يصدرها الفرنسيون في الجزائر، في الفترة ما بين 1880 و1920، بحثا عن نصوص أخرى لجزائـريين آخـرين، لم تسفر إلا على نتائج هزيلة، بحيث لم يعثر إلا على نصوص قليلة موقعة بأسماء ذات"رنين" عربي ـــ حـسب تعـبيره ـــ مثـل "الجزائـري"

---

1 Jean Déjeux "Situation de la littérature maghrébine de langue française"O. P. U . Alger 1982 . P 18.

2 وهو أحد المثقفين الوهرانيين المعروفين، الذين اشتهروا بنضالهم الطويل من أجل الحفاظ على الهوية الجزائرية، وتعليم اللغة العربية لأبناء الجزائريين. راجـع حياتـه ونـضاله في كتاب"تاريخ الجزائر الحديث، دراسة سوسيولوجية" فصل:"محمد بن رحـال ومـسألة تعليم الجزائريين" لعبد القادر جغلول. ترجمة فيصل عباس. دار الحداثـة. بـيروت ط2، 1982. من ص59 إلى ص124.

3 « La Revue algérienne et tunisienne ,littéraire et artistique » N°13, du 26 /9 au 3/10/189 . C.f Jean Déjeux "Situation de la littérature maghrébine de langue française". P 18.

و"الراوي" و"الفرياني"، وهو يشك كثيرا في حقيقة أصحابها، بل ويرجح أنها أسماء مستعارة لمستوطنين فرنسيين، ويستثني اثنين منهم، أحدهما يدعى أحمد بوري، الذي نشر سنة 1912 في جريدة "الحق" رواية مسلسلة بعنوان"مسلمون ومسيحيون"[4]، ويعلق على الرواية بأنها كتبت بـ"ماء الورد"، كناية على القفز المتعمد للمؤلف على تناقضات الواقع، حين يصور العلاقة بين الفرنسيين والجزائريين في غاية الانسجام والوئام[5]. والثاني يدعى سالم القُبي[6]، الذي نشر سنة 1917 مجموعة شعرية بعنوان"حكايات وقصائد من الإسلام"، أتبعها بمجموعة أخرى سنة 1920 بعنوان"أنداء مشرقية"، ولا يختلف عن الأول في تمجيده للإسلام والشرق وفرنسا في آن واحد[7].

ونظرا لهذا الفراغ المسجل بين سنة 1891 التي ظهرت فيها قصة "انتقام الشيخ"، وبين سنوات العشرينيات من القرن العشرين، التي ظهرت فيها عدة نصوص أدبية ـ لأسباب سنأتي على ذكرها فيما بعد ـ لجزائريين كتبوا باللغة الفرنسية، ولاسيما في مجال الرواية، فإن"جان ديجو"، المؤرخ الأول للأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية يتخذ سنة 1920 كانطلاقة حقيقية لهذا الأدب الناشئ،

---

4 يذكر الباحث الجزائري أحمد الأنصاري عنوانا آخر لهذه الرواية وهو"مسلمون ومسيحيات" في تقديمه للطبعة الجديدة لرواية محمد ولد الشيخ"مريم بين النخيل". راجع:
«Myriem dans les palmes » O.P.U . Coll. Textes anciens. Alger 1985, (Introduction de Lansari Ahmed), p1 .

5 Jean Déjeux "Situation de la littérature maghrébine de langue française" , P 19

6 يشير "ديجو" بشأن هذا الرجل أنه تلقى رسالة من الباحث الجزائري عبد القادر جغلول يبلغه فيها أن سالم القبي لم يكن جزائريا مسلما، وإنما هو اسم مستعار لأحد أفراد الطائفة اليهودية التي كانت تقطن تلمسان، إلا أن ديجو يشك بدوره في صحة هذه المعلومة ويستدل على ذلك بإشادة المؤلف بالإسلام. راجع :

7 Jean Déjeux "Situation de la littérature maghrébine de langue française", p19

ويَعدُّ مؤلّف القايد بن الشريف، الموسوم بـ"أحمد بن مصطفى القومي"، بداية تلك الانطلاقة[8]، وينظر إليه على أنه أول رواية يكتبها جزائري باللغة الفرنسية[9]*.

وإذا سلمنا هذا التاريخ، على أنه بداية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، وهو ما لا ينكره بعض الباحثين المعروفين، ولكنهم يتجاهلونه في الوقت ذاته، كما يتجاهلون كل ذلك الأدب الذي كتبه الجزائريون بالفرنسية في فترة ما بين الحربين[10]، فإن هناك ملاحظة لا يمكن لنا أن نتجاوزها هنا، دون أن نبحث فيها، وهي طول المدة التي تفصل بين بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، وبداية ظهور هذا الأدب، فهي مدة تزيد عن التسعين عاما وهو أمر غير عادي وغير طبيعي، لاسيما إذا أخذنا بدعاوى الاستعمار الذي كان يردد دائما أن رسالته في الجزائر هي رسالة حضارية. والحقيقة أن هناك عوامل وأسبابا عديدة أخرت

---

8 Jean Déjeux "La littérature algérienne d'expression française". Col. Que-sais-je, P.u.f. Paris 1979.P 59.

9 Jean Déjeux, "Situation de la littérature maghrébine de langue française"P 19.

*لم نتمكن، رغم المحاولات المتكررة من العثور على هذا المؤلف في مظانه، غير أنه، نظرا لغلبة طابع المذكرات الشخصية عليه، حيث يروي فيه صاحبه قصة مشاركته في الحرب العالمية الأولى، كمجند جزائري في الجيش الفرنسي، كما يذكر "جان ديجو"، فإن غيابه من المدونة لا يؤثر على دراستنا.

10 من هؤلاء الباحثين عبد الكبير الخطيبي، وغني مرّاد، حيث يتجاهل الأول الإنتاج الروائي الذي سبق سنة 1945 ويشير الثاني بمجرد إشارة على الهامش إلى بعض الروايات التي سبقت ذلك التاريخ، ويعلق عليها بأنها ((مرت دون أن ينتبه إليها أحد لأن الشعب الجزائري كان منشغلا عن ذلك الأدب البكائي أو المكرس لإرضاء الذوق الاغترابي الفرنسي بتضميد جراحه التي تسبب فيها قمع 1945)). راجع :

- Abdelkabir Khatibi , "Le roman maghrébin". Ed. F. Maspéro . Paris 1968.
- Ghani Merad . La littérature algérienne d'expression française". Ed. Oswald. Paris 1976. P 68.

ظهور هذا الأدب كل هذه المدة ، أبرزها عاملان رئيسيان: الأول سياسة العدوان التي انتهجها الاستعمار طوال احتلاله للجزائر، وحربه الاستئصالية ـ كما فصلنا القول في الفصل السابق من هذا البحث ـ ضد الأمة الجزائرية ومقوماتها الأساسية، الشيء الذي جعل العلاقة بين المحتلين وأهل البلد الشرعيين علاقة حرب ومناجزة وتوتر دائم، منعت أي احتكاك إيجابي بين الطرفين، ووقفت حائلا دون أي تعاون مثمر، سواء على الصعيد السياسي أو الفكري، أو الحضاري، وذلك لانعدام الثقة بينهما، والثقة شرط أساسي لقيام مثل ذلك التعاون المنشود في مجال السياسة، أو التلاقح الفكري، أو التأثير الثقافي والحضاري، والعامل الثاني يتمثل في سياسة التعليم التي طبقها المحتلون في الميدان، أو على الأصح سياسة التجهيل التي طبقوها ـ وقد فصلنا فيها القول في الفصل السابق أيضا ـ بحيث قضوا على البنية التقليدية للمنظومة التعليمية التي كانت قائمة قبل الاحتلال قضاء يكاد يكون مبرما، ولم يعوضوها بمنظومة أخرى تضمن لكل أبناء الشعب الحد الأدنى من التعليم كما كان الحال في فرنسا.

لقد كان الجزائريون والمستوطنون الأوروبيون يعيشون جنبا إلى جنب، ولكن كخطين متوازيين لا يلتقيان، كان لكل مجتمع منهما حياته الخاصة التي لا يشاركه فيها الطرف الآخر، فللمستوطنين الأوروبيين مقاهيهم وملاهيهم ونواديهم ومسارحهم، وللجزائريين مقاهيهم ونواديهم وجمعياتهم الثقافية والرياضية الخاصة بهم، وكما لم يكن المستوطنون يسمحون للجزائريين بمشاركتهم أنشطتهم الثقافية والرياضية، حيث كانت ـ كما يذكر سعد الدين بن شنب ـ نوعا من الفاكهة المحرمة على الجزائريين [11]،

---

11 S. Benchneb , préface des «Memoires» de M. Bachetarzi,, S.N.E.D Alger 1968 , p6.

فإن هؤلاء كانوا من جهتهم لا يبدون أية رغبة في مشاركة المستوطنين أنشطتهم الثقافية أو الترفيهية، وهو نوع من المقاومة السلبية للمحتل، وحفاظا منهم على ثقافتهم وهويتهم الخاصة[12]، ومن هنا ينفي "جاك بيرك" وجود أي تعايش حقيقي كان قائما بين الأوروبيين والجزائريين[13]. ويعبر أحد الباحثين الفرنسيين عن هذه الهوة التي تفصل بين الاثنين أحسن تعبير حين بقول: ((لا يوجد بين فرنسا والجزائر سوى ألف كيلومتر من ماء البحر، ولكن يوجد بين أحياء الأوروبيين في المدينة وأحياء "الأهالي" مسافة فلكية هي تلك التي صنعها الاستعمار))[14].

ونظرا لهذه الوضعية العدائية المستحكمة التي ظلت تطبع العلاقة بين الطرفين، فقد كان أي تبادل ثقافي، أو تلاقح فكري أو تأثير حضاري بينهما يكاد يكون منعدما. لقد كان المحتل ينظر في الغالب إلى الثقافة المحلية نظرة احتقار، أما الجزائريون فكانوا يتوجسون خيفة من ثقافة المحتل، ويقابلون بحذر كل ما يصدر عنه، ومن أشهر الأمثال التي كانت تُتداول على ألسنتهم، وتترجم ذلك التوجس والحذر الذي كانوا يتعاملون به مع المحتل قولهم: "كل ما يأتي من الغرب ما يفرّح القلب".

ولكن هذا الوضع عرف عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى بعض الانفراج ووقع ما يشبه نوعا من التقارب الحذر بين الطرفين، حيث حاول كل طرف الانفتاح على الآخر، وساعد على ذلك حالة الانفراج الدولي التي أعقبت الحرب، وإعلان مبادئ ويلسون الشهيرة

---

12 أحمد منور"مسرح أحمد رضا حوحو"، رسالة ماجستير، معهد الآداب، جامعة الجزائر 1990، ص17.

13 Cité par Bouba Mohammedi «La société algérienne avant l'indépendance dans la littérature. Lecture de quelques romans » , O.P.U , Alger 1986, p31.

14 Ibid , p32

التي تحدثت لأول مرة عن حق الشعوب في تقرير مصيرها، كما ساعدت على تجسيد هذا الانفراج إجراءات سياسية وإدارية اتخذتها الحكومة الفرنسية خففت من حدة التوتر وهيأت الأجواء المناسبة لمثل ذلك الانفتاح، وتمثلت فيما أصبح يعرف بقوانين 4 فبراير1919، التي ألغت السلطات الاستعمارية بموجبها معظم مواد قانون"الأندجينا" العنصري، الذي كان يحكم الجزائريين بقبضة من حديد، وكانت الحكومة الفرنسية ترمي من وراء قيامها بتلك الإجراءات المساعدة على الانفراج إلى رد بعض الجميل لما يربو عن ثلاثة وسبعين ومائة ألف جندي جزائري كانوا قد شاركوا في الحرب تحت العلم الفرنسي، وقُتِل وجرح منهم الآلاف، كما كانت أيضا لفتة اعتراف وتقدير منها لجهود العمال الجزائريين الذين كانوا يقيمون على التراب الفرنسي، وضمنوا استمرار دوران آلات المصانع الفرنسية طوال الحرب، معوضين في ذلك مئات الآلاف من زملائهم العمال الفرنسيين الذين جندوا في الحرب[15].

وبناء على هذه الاعتبارات، واستنادا على القانون المذكور، أصبح في إمكان الجزائريين، لأول مرة في تاريخ الاحتلال الفرنسي للجزائر، حق إنشاء الأحزاب السياسية وإصدار الصحف، والمشاركة في الانتخابات المحلية. وكانت الانتخابات البلدية في مدينة الجزائر عام 1919 بمثابة المحك الذي يتضح على ضوئه مدى صدق النوايا الاستعمارية في المضي قدما في وضع الإصلاح السياسي موضع التنفيذ، وكانت النتيجة مذهلة بالنسبة للمستعمرين حين حصل الأمير خالد

15 عمار بوحوش"العمال الجزائريون في فرنسا". ص98،99.

على الأغلبية الساحقة من أصوات مواطنيه[16]. وجاءت الصدمة أقوى من احتمال المحتلين، لذلك أثاروا القلاقل حول شخص الأمير، وحرموه من حق الترشح لانتخابات 1922، ولفقوا له تهمة التآمر على أمن البلد بسبب تقديمه عريضة للرئيس الأمريكي ويلسون سنة 1919، أثناء توقيع اتفاقيات "فيرساي"، طلب فيها منه تدخل القوى الكبرى لفرض استفتاء للشعب الجزائري على تقرير المصير[17].

وكان هناك عامل سياسي آخر له تأثيره أيضا في اتخاذ تلك الإجراءات الإصلاحية في السياسة الفرنسية في الجزائر، تمثل في بداية استعداد المحتلين للاحتفال بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، وكان لابد من إظهار شيء ما أمام الرأي العام العالمي، والفرنسي نفسه، يبرر استمرار احتلال البلد، ويظهر ثمار "الرسالة الحضارية" التي طالما ادعى الاستعمار الفرنسي أنه جاء لنشرها في الجزائر، فكان لابد من تشجيع الأدب، ونشر أعمال إبداعية لكُتَّاب من "الأهالي" تظهر كيف أن

---

16 الأمير خالد (1875 ـ 1936) هو حفيد الأمير عبد القادر الجزائري، قائد المقاومة الوطنية للاحتلال الفرنسي في القرن19. وقد كان أبرز وجوه الحركة الوطنية الجزائرية في الحقبة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى. راجع في هذا الصدد:
Itinéraire politique de L'émir Khaled, in « L'émir Khaled , documents et témoignages .. », réunis et présentés par Mahfoud Khaddache, O.P.U et EN.A.P Alger 1987, p11-14.

17 ظلت هذه الوثيقة مجهولة ، وغير مُتأكد من صحتها إلى أن عثر عليها الباحث والمؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله في ميكروفيلم بمكتبة ميشيغان الأمريكية، مأخوذ عن أوراق الرئيس ويلسون المحفوظة بمكتبة الكونغرس ، فترجمها ونشرها سنة1981. راجع : أبو القاسم سعد الله "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر"ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر1986 ص49. وقد تعرض الأمير خالد بعد ذلك للمضايقة والاضطهاد، ثم سجن، وأخيرا نفي من الجزائر ليموت سنة 1936 في دمشق بعيدا عن الجزائر . راجع:
Mahfoud Kaddache « L'émir Khaled.. », p70.

"جمعة" أو «Friday»[18] قد حفظ الدرس، وتعلم لغة سيده وعاداته المتحضرة، وأصبح يعبر بتلك اللغة عن مختلف شؤونه الخاصة والعامة.

وهكذا ظهرت فجأة، وبعد أكثر من تسعين عاما من الاحتلال، أعمال أدبية باللغة الفرنسية لجزائريين، كتبت على عجل للمناسبة، ونشرت على عجل أيضا، بالرغم مما كانت تنطوي عليه من نقائص وعيوب — إذ كان لابد من التسامح مع "جمعة"— حتى يتقن القواعد بشكل أفضل، ويتمرن على أساليب التعبير تحت بصر وسمع سيده ((..فكان المؤلفون (الجزائريون) يريدون أن يبرهنوا (للمستعمر) أنهم تلاميذ نجباء ومقتدرون))[19].

وعلى هذا النحو ظهرت في عشرية 1920 — 1930 خمسة أعمال أدبية. وكنا أشرنا من قبل إلى مجموعة سالم القبي الشعرية، والسيرة الذاتية للقايد بن الشريف، ونضيف إليهما رواية"زهراء امرأة المنجمي"«Zohra, la femme du mineur» لعبد القادر حاج حمو، التي صدرت سنة 1925. ورواية"مأمون بدايات مثل أعلى" «Mamoun, l'ébauche d'un idéal» لشكري خوجة التي صدرت سنة 1928، ورواية "العلج أسير بربروسيا«El-Euldj, captif des barbaresques» للكاتب نفسه، التي صدرت سنة 1929.

وواضح أن هذا العدد القليل من الأعمال الأدبية لا يشكل عامل فخر إذا قيس بطول فترة الاحتلال أو بحجم الدعاية التي أحاطت بها

---

18 إشارة إلى تعليم "روبنسون كروزو"اللغة الإنكليزية لخادمه"جمعة" في رواية "دانيال ديفو" الشهيرة التي تحمل الإسم ذاته.

19 Jean Déjeux "Situation de la littérature maghrébine de langue française", p29 .

السلطات هذا الحدث. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذا العدد نفسه يعكس مدى عقم المدرسة الاستعمارية وضآلة النتائج التي أعطتها سياسة الاستعمار التعليمية بخصوص الأهالي.

ولأن الكُتَّاب من أبناء البلد الأصليين الذين نشرت أعمالهم قد اختيروا بعناية كبيرة — وهم قبل كل شيء نتاج المدرسة الفرنسية، وينتمون في معظمهم إلى أبناء الذوات، وإلى المتعاونين مع الإدارة الاستعمارية ممن كانت أحوالهم ميسرة، ويؤمنون فوق هذا بفكرة التعايش مع الاستعمار ، وبفكرة الاندماج في مجتمع المستوطنين — فإنهم كانوا يشيدون صراحة، وبلا تحفظ، بـ"فضل" الاستعمار على البلد، ويظهرون إعجابهم بالثقافة والحضارة الفرنسيتين، غير أن القضايا التي عبروا عنها قد عكست بالرغم من كل ذلك، وعن غير قصد منهم، فيما يبدو، العديد من الإشكاليات المعقدة التي كانت تطرحها تلك الثقافة والحضارة الغربية الليبرالية، بالنسبة للمجتمع الجزائري المسلم، ومن أهم تلك الإشكاليات التي كوَّنت الهاجس الرئيسي في تلك الأعمال الأدبية مسألة حرية تعاطي الخمور، ولعب القمار، وهي عادات كانت تشكل جزء من الحياة اليومية العادية للفرنسيين، أدخلوها معهم للجزائر، وصارت شيئا مباحا لا يعاقب عليه القانون، وكذا تسامحهم في ممارسة الدعارة، وتعاطي بعض المخدرات مثل الحشيش، حيث كانوا يعدونها من الأمور الشخصية التي تتعلق بحرية الفرد في المجتمع، في حين، تعد هذه الأشياء من المحرمات في الشريعة الإسلامية، وتلزم إقامة الحد على مرتكبها. مع العلم أن هؤلاء الكتاب لم ينظروا إلى الأمور المذكورة من وجهة النظر الشرعية المحضة، وإنما

أولوا عنايتهم بتصوير آثارها المدمرة على الأسرة المسلمة في الواقع الاجتماعي . هذا ما حاولت أن تعبر عنه رواية"زهراء، امرأة المنجمي" لعبد القادر حاج حمو، التي تعد بحق باكورة الأعمال الروائية للكتّاب الجزائريين باللغة الفرنسية، فقد كان بطلها، وهو عامل جزائري يعمل في مناجم الفحم بضواحي مدينة مليانة، يعيش مع زوجته عيشة راضية قانعة، رغم فارق الأجر الكبير بينه وبين ما يتقاضاه أي عامل أوروبي يعمل معه في المنجم ذاته، وما إن خالط مجتمع المدينة ، وعاقر الخمرة مع رفاقه من العمال الأوروبيين، حتى تدهورت حاله، وأهمل زوجته، وترك الصلاة ، وانتهى به الأمر إلى السجن مُتهَما بارتكاب جريمة قتل، لم يقترفها في الحقيقة[20] . وكذلك عالجت رواية"مأمون" لشكري خوجا، موضوع الخمرة ونتائجها المدمرة على حياة بطله، الذي جاء من عمق الريف الجزائري إلى العاصمة لمتابعة الدراسة، و بعد مخالطة المجتمع المديني الأوروبي، بحكم أنه ابن"قايد"[21]، انتهت حياته بالمرض والموت من جراء الشرب والسهر ولعب القمار.

والشيء المؤكد أنه حتى وإن جاءت ولادة الشكل الروائي لدى الجزائريين في سنوات العشرينيات كاختيار فردي في أحد جانبي

---

20 تكشف الرواية في الأخير أن المقتول جاء هاربا من إيطاليا، بعد ارتكابه جريمة قتل، غير أن أهل القتيل تمكنوا من معرفة مكانه في الجزائر فبعثوا إليه من يأخذ بثأرهم منه.

21 القايد موظف جزائري لدى سلطة الاحتلال، والوسيط بين الإدارة وبين الأهالي في كل الشؤون، ولذلك فهو يتمتع بسلطات واسعة يستمدها من كونه ممثلا للحاكم الفرنسي أي أنه كان وسيلة القمع التي ينفذ بها الاستعمار إرادته على الجزائرين ولأجل ذلك كانت السلطات تختاره بكل عناية من بين الأعيان المخلصين لها.

الظاهرة، كما يرى مصطفى الأشرف[22]، فإن موضوع معاقرة الخمرة، وتعاطي الحشيش، ولعب القمار، لم يأت عفويا، ولم يكن أبدا مجرد مسألة شخصية، أو "موضة" أدبية لدى كتّاب هذه الفترة[23]، ولكنه كان هاجسا اجتماعيا، تحركه انشغالات وتساؤلات فكرية وسياسية، عن الحدود الفاصلة بين المحرَّم والمُباح في الدين وفي القانون المدني، بين حرية الفرد بالمفهوم الغربي، والوازع الديني والأخلاقي بالمفهوم الإسلامي، ومن هنا نلاحظ أن أزمة الهوية قد رافقت الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية منذ بدايته الأولى.

وقد تطورت هذه الانشغالات والتساؤلات لدى هؤلاء الكتاب إلى ما يشبه الحيرة أو أزمة الضمير، حينما طرحت مسألة إمكانية حصول بعض الجزائريين على صفة "المواطَنة الفرنسية" **La citoyenneté française**، وجاءت هذه المسألة كجزء من الانفتاح الذي أشرنا إليه، وكنتيجة للإصلاحات التي أتت بها قوانين 4 فبراير، وهي مسألة ، تمس في الصميم موضوع الهوية، فكان السؤال المحير لدى الكتّاب ولدى بعض الزعماء السياسيين ولدى المثقفين الجزائريين باللغة الفرنسية بوجه عام هو: كيف يمكن للجزائري أن يصبح فرنسيا، مع ما في ذلك من تناقض،

---

22 Mostefa Lacheraf « Brève contribution à un débat sur le roman maghrébin» p39, in «Ecrits didactiques, sur la culture, l'histoire et la société» E.N.A.P Alger 1988.

23 ولم يشغل هذا الموضوع الروائيين وحدهم ، وإنما شكّل الموضوع الرئيسي في هذه الفترة لدى رجال المسرح أيضا، فعالجوه في العديد من المسرحيات، اشتهرت منها "الشفاء بعد المنع" (1923) و"خديعة الغرام" و"بديع" (1924)، وكلها لمحمد المنصالي، ومسرحية "عنتر الحشايشي" (1930) ، لعلي سلالي. راجع في هذا الصدد: - Arlette Roth "Le théâtre algérien". Ed. François Maspéro. Paris 1967, p23. - Allalou "L'aurore du théâtre algérien 1926-1932" Cahiers du C.D.S.H. N°9. Oran 1982,p33.

لأنه فرنسي بحكم واقع الاحتلال، ومع ما يترتب على ذلك ـ في حالة حصوله على صفة مواطن فرنسي فعلا ـ من تبعات والتزامات، وكيف يبقى في الوقت ذاته عربيا مسلما؟ لقد كان هذا السؤال محورا أساسيا في معظم الروايات التي ظهرت في الفترة ما بين 1929 و 1948، وهي على أية حال قليلة العدد، لا تتعدى سبع روايات في مجملها، مثل رواية"مريم بين النخيل"(1934) لمحمد ولد الشيخ، و"بولنوار، فتى جزائري"(1941) لرابح زناتي، و"ليلى فتاة جزائرية"(1948) لجميلة دباش، ولكن تظل رواية" العلج أسير بلاد البرابر" لشكري خوجة أهم رواية عالجت هذا الموضوع، مع أنها كانت أسبق في الظهور من الروايات المذكورة (تعود إلى 1929)، وذلك لأنها ابتعدت ـ خلافا للروايات الأخرى ـ عن المعالجة المباشرة للموضوع حيث لجأ كاتبها إلى استلهام وقائع من تاريخ"رياس البحر" في جزائر القرن السادس عشر، ليسقطها بشكل فني بارع على عصره في عشرينيات القرن الحالي، ويحاول أن يدفع القارئ إلى استخلاص العبرة من كل ذلك[24].

وتجدر الملاحظة هنا إلى أن الزعيم الوطني فرحات عباس كان أول من فتح النقاش في هذا الباب، وكرّس استعمال صفة"الفتى الجزائري" في أدبيات الحركة الوطنية في فترة العشرينيات والثلاثينيات، كدلالة

---

24 لجأ المؤلف إلى التاريخ، وبالضبط إلى فترة حكم الأخوين عروج وخير الدين التركيين (العقد الثاني من القرن 16) واختار شخصياته الروائية من أسرى الحروب البحرية الأوروبيين في البحر المتوسط، الذين كانوا يدخلون في الإسلام تحت ضغوط الترهيب أو الترغيب، محاولا إسقاط تلك الأحداث بملابساتها الخاصة على حالة الجزائريين الذين أصبحوا يحتلون موقع الأسرى الأوروبيين في ظل الاحتلال الفرنسي.

على الجيل الجديد من المثقفين الجزائريين من خريجي المدرسة الفرنسية، وذلك في مقالات متفرقة له نشرها في الصحف ما بين سنتي 1922 و1930 ثم جمعها ونشرها سنة1931 في كتاب بعنوان"الفتى الجزائري"، وقد ترددت هذه التسمية كثيرا بعد هذا التاريخ وبرزت في عناوين العديد من روايات الجزائريين ، التي أثبتناها أعلاه.

وقد جسد شكل كتاب"الفتى الجزائري" أرضية النقاش الذي شغل روائيي هذه الفترة، وأهم الطروحات الفكرية الرئيسية التي حاولوا أن يجسدوها عن طريق الفن الروائي، وقد انطلق فرحات عباس في كتابه المذكور من الدفاع عن مبدإ المساواة في الحقوق والواجبات بين الجزائريين والأوروبيين، وبالتحديد من قانون التجنيد الذي كان يميز بين هؤلاء وأولئك في المدة التي كان يجب على كل مجند قضاءها في الخدمة العسكرية[25].

ثم وسع بعد ذلك من دائرة النقاش ليتعرض إلى بعض القضايا الآنية ذات الطابع الاجتماعي والاقتصادي، مثل ظاهرة هجرة الفلاحين الجزائريين إلى فرنسا ليتحولوا هناك إلى عمال، فيعلل أسبابها، ويبين دوافعها، ويكشف عن العراقيل التي يضعها المعمرون في طريق هجرة الفلاحين[26]. ومثل الاتهامات الباطلة التي كثيرا ما يفسر بها المحتلون كل نشاط ثقافي أو اجتماعي أو سياسي للشبان الجزائريين، فيرمونهم تارة

---

25 كان فرحات عباس قد كتب هذا المقال — باسم مستعار — أثناء تأديته للخدمة العسكرية، وكانت الخدمة الإجبارية بالنسبة للمجند الجزائري تمتد ثلاث سنوات، في حين لا تتعدى بالنسبة للأوروبي أكثر من ثمانية عشر شهرا ، راجع :

Ferhat Abbas «Le Jeun algérien », p34.

26 «L'exode des ouvriers algériens en France » , in « Le Jeun algérien », p51

بالتعصب الديني، وتارة بالميول الشيوعية الهدامة[27]. ومنها قضايا ذات بعد حضاري وثقافي وديني ، مثل رده على ما أسمته المدرسة التاريخية الاستعمارية"الآثار المدمرة للاحتلال العربي لشمال إفريقيا"[28]، حيث يناقش هذا الزعم مناقشة مستفيضة، ويجري مقارنة في غاية الإقناع وقوة الحجة بين طبيعة"الاحتلال العربي" من جهة، وبين طبيعة الاحتلال الروماني قديما والفرنسي حديثا والآثار التي خلفها هؤلاء وأولئك في البلاد والعباد، ويدافع في مقال آخر بحرارة عن الإسلام والحضارة العربية الإسلامية[29]، ويبين المزايا الروحية والأخلاقية للإسلام، وعن النبي العربي، ضد افتراءات المستشرقين، ويشيد بأخلاقه، ونزاهته، وعدله، ويدلل على ذلك بشواهد من حياته.

وقد شكلت هذه الموضوعات الخلفية الفكرية لمعظم الروايات التي ظهرت في الفترة التي سبقت 1952، كما سبقت الإشارة[30]، فقد دافع الروائيون من جهتهم بطرق شتى عن الإسلام، وعملوا على التعريف به خاصة، وإظهار سمو مبادئه ، وعظمة رسالته، لأنهم كانوا يعتقدون أن

---

27 L'intellectuel musulman en Algérie, et Les incidents de Jemmapes - Notre inferiorité intellectuel, Ibid, p66-68

28 «Les races supérieures - Colonisation et islamisation» Ibid, p 76

29 «les haines religieuse contre l'Islam - le Prophète» Ibid, p 89 .

30 وزاد عليهم فرحات عباس بتذكير المحتلين بما ارتكبوه من فظائع بالأمس القريب، ولاسيما ما جرى في الخمسين سنة الأولى من الاحتلال، فتحدث عن"مأساة الأمس وعدم وضوح الرؤية بالنسبة للغد" وساق أمثلة ووقائع من تلك الفظائع التي ارتكبتها الجيوش الفرنسية الغازية وأقوالا ومواقف لجنرالات الجيش الفرنسي يندى لها جبين الإنسانية، وحذر من مغبة التمادي في سياسة القهر التي ظل المحتلون يمارسونها منذ وطئت أقدامهم الجزائر إلى ذلك اليوم، وخلص في مقال آخر بعنوان "عدالة ونزاهة قبل كل شيء، وسياسة بعد ذلك " إلى ما معناه ، أن لا سبيل إلى التعايش السلمي بين مختلف الأجناس والأديان إلا على أساس العدل والمساواة بين الجميع .) راجع : Ferhat Abbas « Le Jeun algérien », La tragédie d'hier et l'incertitude de demain- Nous voulons exister , p115 et Justice et loyauté d'abord, politique après, p15.

الأوروبيين لا يعرفون الإسلام، ولو عرفوه على حقيقته لغيروا رأيهم فيه، ولذلك كثيرا ما نجدهم يستشهدون بالآيات القرآنية، وبالأحاديث النبوية، ويحرصون أشد الحرص على شرحها وتبيين مقاصدها[31]، أما مظاهر النقص الذي يحسبه الأوروبيون على الإسلام، فيرجعها هؤلاء الروائيون إلى حالة تخلف المسلمين وجهلهم وفهمهم الخاطئ للإسلام وتعاليمه، مثل فهمهم لمعنى القضاء والقدر، الذي يتحول عند بعضهم إلى استكانة وخمول، ورضى بالواقع مهما كان مزريا وبائسا، أو مثل إفراطهم في العمل بالتراخيص التي رخصها لهم الله في بعض أمور حياتهم، كتعدد الزوجات[32].

غير أن روائيي هذه المرحلة — وفي تأثر واضح بكتابات المستوطنين الأوروبيين من مدرسة"الجزأرة" (Les algérienistes)[33] — أحلوا مسألة الزواج المختلط بين الجزائريين والفرنسيات المحل الأول، وهو الشيء الغالب[34]، أو بين الفرنسيين والجزائريات، وهو القليل، نظرا للمانع الديني[35]، ومن خلال رابطة الزواج المختلط، الذي يعد خرقا للممنوع، سواء بالنسبة للجزائريين أو بالنسبة للمستوطنين الأوروبيين، يطرح الروائيون مختلف القضايا الاجتماعية والثقافية، ومن خلال ذلك

---

31 وسنقف على هذه الظاهرة بشيء من التفصيل ولتحليل في الفصول اللاحقة.

32 عالج ر. زناتي على الخصوص هذين الموضوعين بشيء من التوسع في روايته"بولنوار فتى جزائري".

33 سيأتي الحديث عن هذه المدرسة الأدبية وعن غيرها في الفصل التالي.

34 لعل ذلك يرجع إلى طبيعة الفن الروائي نفسه الذي يحفل كثيرا بالعلاقات العاطفية بين الرجل والمرأة، ويجعل منها محورا رئيسيا في تطور الأحداث.

35 لأن الإسلام لا يبيح للمسلمة الزواج من غير المسلم ، ونجد هذا النوع الأخير من الزواج المختلط في رواية"مريم بين النخيل" لمحمد ولد الشيخ، وفي رواية"ليلى فتاة جزائرية" لجميلة دباش .

القضايا السياسية، التي يرونها سببا في تباعد الطائفتين وتنافرهما. ونجد في النظر إلى الزواج المختلط موقفين رئيسيين، فقد عده بعضهم ممكنا، ولكنه غير مجد في خلق الانسجام المطلوب بين الطائفتين، نظرا لاختلاف العقيدة، وهذا ما عبر عنه شكري خوجة في روايته"العلج أسير بربروسيا"[36]، في حين عده بعضهم الآخر — وهم الأكثرية — السبيل الوحيد للتقارب والتفاهم بين المسلمين والمسيحيين، لإيجاد الانسجام المرجو في التركيبة الاجتماعية، في ظل الواقع الاستعماري، وهذا ما ذهب إليه محمد ولد الشيخ في"مريم بين النخيل"، ور. زناتي في "بولنوار الفتى الجزائري"، وجميلة دباش في "ليلى الفتاة الجزائرية". غير أن الجميع يتفق على أن ما يمنع تحقيق مثل هذا التقارب، بل ويفشل الزيجات المختلطة، إنما هو الأحكام المسبقة التي تحملها كل طائفة عن الأخرى، ورفضها لهذا الزواج، وعدم استعدادها لأن تتزحزح قيد أنملة عن مواقفها، وهو ما يشكل ضغطا اجتماعيا قويا لا يستطيع أبطال الروايات الصمود في وجهه، فيكونون ضحايا المجتمع من الطائفتين. هذا ما حدث لبطل رواية"مامون"، وما حدث لبطل رواية"بولنوار الفتى الجزائري".

---

36 يلتقي موقف شكري هذا مع مع موقف الكتاب باللغة العربية، الذين عبروا، بدون استثناء، عن رفضهم القاطع للزواج المختلط في أشعارهم وقصصهم، ومقالاتهم الصحفية، وعدوه خطرا كبيرا على المجتمع الجزائري المسلم، راجع في هذا الصدد، على سبيل المثال: محمد سعيد الزاهري"الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير" الصادر سنة 1928، وأعيد طبعه بدار الكتاب، الجزائر1983. وعبد المجيد الشافعي"خواطر مجموعة" المطبعة الجزائرية بقسنطينة (دون تاريخ).

وتندرج في هذا السياق رواية"ابن الفقير" لمولود فرعون التي يعود تاريخ كتابتها إلى سنة 1939 [37]، حيث يلتقي كاتبها مع كتّاب هذه المرحلة في منطلقاتهم الفكرية، أي في الإيمان بمبدإ سياسة الاندماج، والتعايش مع الأوروبيين و"الأهالي"، وهي الفكرة التي غرستها في نفسه "دار المعلمين" ببوزريعة[38]. وقد كتب روايته"ابن الفقير" انطلاقا من هذا المنظور، حيث كان يعتقد أن"الأهالي" قد أتيحت لهم فرصة التعرف على بلاد فرنسا وسكانها عن طريق الهجرة، وعن طريق المدرسة ((حتى إن أطفال القرية يعرفون من أين ينبع نهر السين(...) وما بقي إلا أن يسقط القناع"الوحشي"، "البدائي"، أو بعبارة مختصرة: "اللاإنساني"، الذي تختفي وراءه وجوه الأهالي، وعندما يسقط القناع يتم التعارف من كلا الجانبين)) [39].

ويختلف إلى حد ما عن غيره من كتاب هذه المرحلة في طغيان طابع السيرة الذاتية على عمله، متخذا من عنايته بتصوير العادات والتقاليد القبائلية كخصوصية محلية، مقابل الخصوصية الدينية ـــ أي الإسلام ـــ التي دافع عنها غيره من الكتاب للحفاظ على قانون الأحوال الشخصية. وفي الإشارات القليلة التي وردت في الرواية عن الإسلام لم

---

37 يوسف نسيب"مولود فرعون حياته وأعماله"، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1991 ص41.

38 نفسه، ص8.

39 فسه، ص32.

يظهر فرعون ما يدل على أنه يوليه أية أهمية باعتباره مقوما أساسيا للشخصية الجزائرية[40].

وقد عرفت سنة 1948 خروجا عن هذا التقليد الذي سارت عليه الرواية المكتوبة بالفرنسية في الجزائر، بصدور روايتي"إدريس" لعلي الحمّامي و"لبَّيك" لمالك بن نبي، وكلا الكاتبين كانا بعيدين عن الفكر الاندماجي الذي كانت تدعو إليه حركة"الفتيان الجزائريين"، وتبناه كتّاب الروايات السابقة، وعبروا عنه في أعمالهم الأدبية، فقد كان الأول أحد المناضلين الجزائريين الذين عرفوا بكفاحهم الطويل ضد الاستعمار بالسلاح وبالفكر على السواء إلى آخر لحظة في حياته[41]، واختار أن يعبر، في طفرة نوعية على مستوى الوعي الوطني، عن كفاح شعوب شمال إفريقيا، وتطلعها للانعتاق من ربقة الاستعمار، من خلال تصويره لوقائع ثورة الريف بالمغرب الأقصى سنة 1923 بقيادة عبد الكريم الخطابي، التي شارك فيها الكاتب شخصيا إلى جانب الأمير عبد المالك الجزائري ـــ أحد أحفاد الأمير عبد القادر ـــ الذي كان يقيم بالمغرب، وقاد المقاومة المسلحة مع عبد الكريم الخطابي[42]، وهذا ما يفسر أن الطبعة الأولى من هذه الرواية، التي كانت سباقة في طرح

---

40 بل إنه كان يبدي سخرية من الإسلام ـــ حسب ما يقول يوسف نسيب ـــ في الإشارات القليلة التي وردت في هذه الرواية وفي غيرها من أعماله الأخرى عن الإسلام. راجع : يوسف نسيب "مولود فرعون حياته وأعماله"، ص 26ـ27.

41 وتوفي في حادث سقوط طائرة في 12 ديسمبر سنة 1949 ، بكراتشي ، وهو في طريق عودته من المؤتمر الاقتصادي الإسلامي الذي انعقد في باكستان بعد أن مثل الحركة الوطنية الجزائرية في المؤتمر المذكور . راجع :
Amar Belkhodja « Ali El-Hammami et la montée du nationalisme algérien» Ed. Dahlab. Alger 1991 , p23 .

42 Amar Belkhodja «Ali El-Hammami et la montée du nationalisme algérien » p12 .

موضوع الكفاح المسلح كسبيل وحيد للتحرر من الاستعمار، قد نشرت بالقاهرة[43]، لأنه كان من المستحيل إصدار مثل هذه الرواية الثورية آنذاك في الجزائر، أو حتى في فرنسا*، أما الثاني فهو مفكر إسلامي، كان قد عبر عن توجهه الفكري في كتابه"الظاهرة القرآنية"، الذي كان قد صدر قبل عام من روايته المذكورة[44]، وفي هذه الرواية[45] يعود الكاتب إلى معالجة موضوع الخمرة الذي كان يشكل الهاجس الرئيسي لكتّاب العشرينيات كما أشرنا من قبل، ولكن من منظور جديد، وفي نطاق تصور نظري متكامل لدى المؤلف عن"شروط النهضة" الجزائرية التي يرى أنها لا يمكن أن تقوم إلا على أساس الرجوع إلى الأصل، أي إلى الدين الصحيح، وبناء على هذا الأساس يعطي المؤلف الحل، ولا يترك بطله حائرا مستسلما، ينتظر مصيره المحتوم في قدرية وعجز كامل، كما كان حال بطلي رواية "زهراء امرأة المنجمي" لعبد القادر حاج حمو، و"مامون" لشكري خوجة، ويتمثل الحل في توبة البطل، وتكفيره عن ذنوبه، بالذهاب إلى البقاع المقدسة ليؤدي فريضة الحج، ومن هنا جاء عنوان الرواية"لبيك"، وهو بهذه الحل ((يريد أن يبرهن بأن لاشيء قد ضاع، وبأن الشعب يستطيع بلا ريب أن يمسك بزمام أمره، ويستعيد شخصيته عن طريق تجديد تمسكه بعقيدته التي هي ضمان تحرره))[46].

---

43 Jean Déjeux« Dictionnaire des auteurs maghrébins de langue française» ,Ed.Karthala,Paris 1984, p105

* ثم أعادت الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر طبعها سنة1976، وسنة 1988.

44 Malek Ben Nabi «Le phénomène coranique», Ed. Enahdha Alger 1947.

45 Malek Ben Nabi «Lebbeik» , Ed . Enahdha Alger 1948 .

46 Ghani Merad . La littérature algérienne d'expression française", p69 .

وشكل ظهور رواية "الدار الكبيرة" لمحمد ديب سنة 1952[47] منعطفا حاسما في تطور الأدب الروائي الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية على مستوى المضمون[48]، فلأول مرة تتجاوز فيه هذه الرواية صالونات المثقفين ومناقشاتهم الفوقية عن العدالة والمساواة، في ظل الحكم الاستعماري، ووهم التعايش السلمي بين "الأهالي" والمعمرين، عن طريق الدعوة إلى الاندماج والزواج المختلط، لتنزل إلى الطبقات الدنيا من المجتمع، وتتحدث عن هموم الناس البسطاء من عامة الشعب، وتصف أحوالهم المعيشية القاسية، ومعاناتهم من الجوع والفقر والقهر، ولأول مرة تتحدث عن النضال السياسي الجزائري، وعن مناضلين يعيشون في الخفاء، مطاردين من قبل البوليس الاستعماري[49]، ولأول مرة تطرح تساؤلات محددة وصريحة عن الهوية الوطنية وعن مفهوم الوطن، وعن الهوية الحقيقية للجزائريين[50].

وقد تأكد هذا التوجه الجديد في أعمال الكاتب اللاحقة، لاسيما في روايتي "الحريق" (1954)[51]، و"مهنة الحياكة" (1957)[52] اللتين

47 Mohamed Dib «La grande maison », Seuil, Paris 1952 .

48 باستثناء رواية "إدريس" للحمامي، المشار إليها أعلاه، التي ظلت تشكل حالة خاصة.

49 يمثلهم في الرواية حميد سراج.

50 وسط الزيف الذي كانت المدرسة الفرنسية تلقنه للأطفال الجزائريين. يطرح المعلم الجزائري حسن ـــ الذي ينطق الفرنسيون اسمه "أسن" ـــ على تلاميذه سؤالا عن مفهوم الوطن، ويروح الأطفال ببراءة يتبارون في الإجابة عن السؤال بما حفظوه من كتبهم الدراسية، ويضطر المعلم أن يصحح لهم المعلومات المزيفة التي لقنوها، ويتوجه إليهم في حديثه باللغة العربية، التي يندهش التلاميذ وهم يسمعونه يتحدث بها أمامهم لأول مرة، ليقول لهم "ليس صحيحا ما يقال لكم من أن فرنسا هي وطنكم"، راجع: "الدار الكبيرة" ترجمة الدكتور سامي الدروبي. دار الطليعة. بيروت 1968 ص26.

51 Mohamed Dib «L'incendie », Seuil, Paris 1954 .

52 Mohamed Dib «Le métier à tisser », Seuil, Paris 1957 .

تشكلان امتدادا وتكملة لـــ" الدار الكبيرة"، فقد كشفت الأولى عن عالم البؤس في الريف، ومعاناة الفلاحين من الفقر المدقع والاســتغلال الفاحش، وقهر المعمرين لهم كلما حاولوا أن يحتجوا علــى وضــعهم المزري، وصورت الثانية حياة الحرفيين في المدن، التي لم تكن تختلف في شيء عن حياة الفلاحين البائسة، إلا في نوع المهنة ونوعية المستغل.

وظهرت في هذه الفترة نفسها أعمال روائية أخرى لكتاب آخرين، تسير في الاتجاه نفسه الذي سارت فيه أعمال محمد ديب الأولى، نذكر منها على الخصوص رواية"نــوم العــدل"(1955) لمولــود معمــري، و"نجمة"(1956) لكاتب ياسين، فقد كشفت الأولى عن حالة التخلف والفقر والاستغلال والحرمان التي كانت تعاني منها القــرى القبائليــة المنعزلة في رؤوس الجبال، تحت وطأة الجهل والتقاليد المتحكمة في حياة الناس من جهة، ووطأة الاستعمار واستغلاله لحالة الجهل والتخلــف والخلاف فيما بينهم من جهة أخرى، بما يخدم مصالحه ويــضمن لــه استمرار التحكم في مصائر العباد وأقواهم، في حين تعرضت الروايــة الثانية لحالة البطالة والفقر المدقع الذي يعيشه الجزائريــون في المــدن، والاستغلال والمهانة التي يتعرض لها العاملون باليومية في وُرش المعمرين وضياعهم الواقعة على أطراف المدن، وهو ما يــضاعف إحــساسهم بالظلم، ويدفع بعضهم إلى التمرد وربما إلى ارتكاب جرائم قتل[53].

---

53 هذه حال أبطال رواية"نجمة": لخضر ومصطفى ومراد ورشيد، فكلهم تمردوا على سلطة المستعمر ورفضوا الإهانة، وعاشوا حياة التشرد والملاحقات البوليسية والسجون، وقد وجد بعضهم نفسه مدفوعا لارتكاب الجريمة، مثل مراد الذي لم يستطع احتمال الظلم والإهانة التي تعرضت لهما خادمة عربية تعمل عند المقاول "ريكار"، حين حاولت العروس وبعض المدعوين لحفل زفاف المقاول إرغام الخادمة العربية على شرب الخمر، وح وضربوها ضربا مبرحا، فتدخل مراد بقوة ليخوض معركة ساخنة لوحده انتهت بمقتل المقاول وعروسه . راجع: « Nedjma » VII, p25 à 27.

وقد تناول الكاتب أيضا في جانب من الرواية مظاهرات 8 مـــايو 1945، التي وقعت في سطيف وخراطة وقالمة وراح ضحيتها عشرات الآلاف من الجزائريين، وصوَّر وقائع من القسوة والوحشية التي قمعت بها تلك المظاهرات[54] ، فكانت هذه الأعمال الروائية بمثابة المؤشر الذي يشير إلى ما آلت إليه أوضاع الجزائريين من التردي والفساد، والمُحذِّر من مغبة ما كان وشيك الوقوع ، ألا وهو انفجـــار ثـــورة التحريــر الكبرى في فاتح نوفمبر 1954. علما أن هذه الروايـــات لم تنـــشر في الجزائر، وإنما نشرت في فرنسا، وفي دور نشر معينة ومعروفة[55] ، حيث وجدت تعاطفا معها من قبل مثقفي اليسار الفرنسي خاصة، والمثقفين المتنورين بوجه عام، ووجدت رواجا لدى جمهور القراء الفرنـــسيين، وهذا ما عجَّل بظهور أعمال روائية أخرى، لنفس المؤلفين المذكورين، ولمؤلفين آخرين، تعززت بهم وبأعمالهم هذه النزعة الاحتجاجية الـــتي عرف بها الأدب الجزائري الفرنسي اللسان في فتـــرة الخمـــسينيات، لتتحول مع الوقت إلى نزعة نضالية ثورية في أعمال كاتـــب ياســين اللاحقة، ومالك حداد ، وآسيا جبار، في توافق مع الأحداث السياسية التي تطورت بداية من سنة 1954 إلى كفاح مسلح دام سبع ســنوات ونصف ، بحيث لم يعد هناك ما يدعو إلى أية مهادنة للاستعمار، أو أية مصالحة معه ، إلا على أساس انفصال الجزائر عن فرنسا، واســتقلالها

---

54 وشارك الكاتب نفسه في تلك المظاهرات بمدينة سطيف، وقبض عليه وسجن وطرد من الثانوية بسبب ذلك .راجع: Mohamed Ismaïl Abdoun «Kateb Yacine» Coll. Classiques du monde S.n.e.d Nathan Alger-Paris1983, p3.

55 ولاسيما من‌شورات"سوي" Seuil التي تأتي في مقدمة دور النشر التي نشرت للجزائريين وشجعت أدبهم ، بالإضافة إلى دور : جوليار، ودونوال، وكوريا، وبلون. راجع إحصاء عبد الكبير الخطيبي في: «Le roman maghrébin», pp32-33.

عنها استقلالا تاما[56]، وقد عبر الدكتور صالح قادر ــ أحـد أبطـال رواية"التلميذ والدرس" ــ عن هذا المعنى بكثير من الدقـة والإيجـاز، حين اعتبر أن حياته الحقيقية قد بدأت مع مظاهرات 8 مـايو 1945 الدامية[57].

وهذا هو المعنى الذي عبرت عنه الأعمال الروائية اللاحقة التي ظهرت بدء من سنة 1958، مثل رواية"الإنطباع الأخير"(1958) لمالك حـداد، التي تعد أولى الروايات التي صورت وقائع الثورة المـسلحة، و"صـيف إفريقي"(1959) لمحمد ديب، التي قدمت نماذج مـن صـور المقاومـة الشعبية، أبطالها فلاحون من الأرياف، وحرفيون في المـدن، وشـبان وفتيات، مثقفون وأنصاف مثقفين وأميون، وعرضت لوحات دامية مما كانت تقوم به القوات الفرنسية من قنبلة بالطائرات، وقصف بالمدفعيـة للقرى والأرياف، وتشريد لسكان تلك القرى، وما كانت تفعله تلـك القوات نفسها في المدن من قمع وترهيب للسكان الآمـنين، وتعـذيب للمناضلين والثوار الذين يقعون بين أيديها، وزج بالأبرياء في غياهـب السجون والمحتشدات.

وقد عاد ديب إلى تصوير أحداث الثورة مـن جديـد في روايتـه اللاحقة:"من يذكر البحر"(1962)، ولكن بأسلوب مغاير، حيث لجأ فيها إلى استعمال الرمز والتكثيف الشديد للأحداث، ليعبر بذلك عن

---

56 ويبدو أن هذه القناعة كانت قد نضجت في ذهن كل الأنتليجانسيا الجزائرية كلها، حتى لدى أولئك الذين عرفوا بصبرهم وطول نفسهم مع الاستعمار، مثل الزعيم فرحات عباس الذي صرح في سنة 1953 قائلا: "لم يبق من حل سوى الرشاش":
Cité par Bouba Mohammedi , «La société algérienne avant l'indépendance dans la littérature.. » , p18 .

57 مالك حداد"التلميذ والدرس" ترجمة سامي الجندي، دار الطليعة،بيروت1962ص19.

أجواء التوتر والرعب التي كانت تسود المدن، وعن حالة الخراب والدمار التي آلت إليها القرى والمداشر.

و يرسم مالك حداد جو الحرب هذا في روايتيه" التلميذ والدرس"(1960) و"رصيف الأزهار لم يعد يجيب"(1961)، ولكن بطريقة مختلفة عن طريقة ديب، حيث يركز على جو القلق والتوتر الذي يطبع الحياة العامة أكثر مما يركز على الأحداث والوقائع، ويجعل أبطاله يعيشون ذلك القلق والتوتر، ويعانون الحرب وآثارها ، مثل ما كان خالد بطل"رصيف الأزهار" ((يعاني الحرب كما يعاني صداعا في الجمجمة)) [58]. وتقول"فضيلة" في رواية"التلميذ والدرس": ((أنا شقية ..))، ويعلق الدكتور"قادر" على ذلك بقوله: ((كنت أنتظر هذه الكلمة لأنها وحدها تلخص تاريخ وطن)) [59]. وعلى العموم، فقد كتبت هذه الأعمال كلها أثناء ثورة التحرير، من موقف ملتزم ومنحاز إلى الثورة[60].

وبإصدار حداد لديوانه الأول"الشقاء في خطر"(1956)، يكون هذا الشاعر قد أعطى للشعر المنظوم بالفرنسية من قبل الجزائريين دورا رائدا ومتميزا في التغني بالثورة والتحريض على مقاومة المستعمر بالكلمة الشعرية المعبرة والمؤثرة، وكان الشعر قبل هذا التاريخ متخلفا عن الرواية في هذا المجال، وقد جاء ديوانه الثاني"اسمعني وأناديك"(1961) ليعزز مكانة الكلمة الشعرية الملتزمة، ويؤكد قدرة الشاعر الخارقة على

---

58 Malek Haddad « Le quai aux fleurs ne répond plus », p34 .

59 مالك حداد "التلميذ والدرس" ص 47 .

60 وقد انضم الكتاب بأقلامهم إلى الثورة، كما كلف بعضهم من قبل قيادة الثورة، مثل مالك حداد، بمهمات ثقافية وإعلامية في بلدان عديدة في أوروبا والبلاد العربية والعالم مثل تلك الرحلة التي قادته في ربيع 1961 إلى القاهرة ودمشق.

الإبداع، وهو الشيء الذي جعل الشاعر الفرنسي الشهير"لويس أراغون" يعجب به ويصفه بأنه من طيور الأغصان العليا[61].

وتنتمي معظم الأعمال الروائية التي ظهرت بعد الاستقلال، وحتى نهاية سنوات الستينيات تقريبا إلى هذا الاتجاه الذي وصفناه بالاتجاه الملتزم والمنحاز إلى الثورة، وقد اتخذت لها كإطار عام أحداث ووقائع الثورة المسلحة، من تصوير لعمليات المقاومة الفدائية في المدن مثل ما نجد في رواية"أطفال العالم الجديد"(1962) لآسيا جبار، وضرب القرى والمداشر بالمدافع والطائرات، وتهديم المنازل على رؤوس سكانها مثل ماهو الحال في رواية"الأفيون والعصا"(1965) لمولود معمري، ووصف الحياة الصعبة داخل المعتقلات والسجون وتنظيم عمليات الهروب منها كما نجد في روايتي"أصابع النهار"(1967) لحسين بوزاهر و"أسلاك الحياة الشائكة"(1969) لصالح فلاح.

ويمكن وصف هذه الأعمال بأنها كانت تصور كلها بطش الاستعمار وبشاعة أعماله من جهة، وتشيد من جهة أخرى بكفاح الشعب، وتتغنى بأمجاده ومآثره القديمة والحديثة، وتعمق الإحساس بالوعي الوطني ووحدة الأمة، وتلتقي مع كتابات وأبحاث تاريخية واجتماعية تاريخية ظهرت في هذه الفترة[62].

61 ملك أبيض العيسى، ترجمة ديوان مالك حداد"الشقاء في خطر"، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط 2. بيروت1979، ص23.

62 مثل كتابات محمد الشريف ساحلي عن الأمير عبد القادر ، وعن تشويه الاستعمار للتاريخ الجزائري ، وكذا كتابات مصطفى الأشرف عن الأمة والمجتمع، وقد اعتمدنا بعضها كمراجع في هذا البحث .

وفي مجال المسرح سارت معظم المسرحيات التي ظهرت في هذه الفترة بدورها في هذا الاتجاه الثوري، وأهمها، حسب اهتمام النقاد بها وحسب الصدى الذي أحدثته، تلك التي قدمها كاتب ياسين مثل مسرحية"الجثة المطوقة" و"الأجداد يزدادون ضراوة" التي عرضت على خشبة المسرح أثناء الثورة التحريرية في بروكسيل، ثم نشرت مع نصوص أخرى بعنوان"دائرة الانتقام"(1959). وهناك أعمال أخرى لقيت صدى أقل، مثل مسرحية"أصوات في القصبة"(1960) لحسين بوزاهر، ومسرحية"الميلاد" و"الزيتونة"(1962) لمحمد بوديا، و"احمرار الفجر"(1969) لآسيا جبار ووليد قرن، وكذا مسرحية"الرجل ذو النعل المطاطي"(1970) لكاتب ياسين، التي عرضت على خشبة المسرح الوطني الجزائري سنة 1969 بلغتها الأصلية(الفرنسية)، ثم باللهجة العامية. وحتى إن ابتعد المؤلف في هذه المسرحية عن الجزائر من حيث المكان، فإنه لم يبتعد عن الثورة كموضوع، حيث يتخذ من كفاح الشعب الفيتنامي ضد الاستعمار الفرنسي موضوعا لها. غير أننا نلاحظ أن معظم المسرحيات التي سبقت الإشارة إليها كانت قد عرضت خارج الجزائر، وفي أوروبا بالتحديد، على جمهور غير الجمهور الجزائري، أما التقليد الذي سار عليه المسرح في الجزائر، في مختلف مراحله ــ ومنه ما قدمته فرقة"جبهة التحرير الوطني" أثناء الثورة المسلحة ــ فهو تقديم العروض باللهجة العامية الجزائرية، ولذلك لم يكن للمسرح الناطق باللغة الفرنسية حضور قوي في صالات العرض الجزائرية ، وظل معظم ما كان يكتب منه بهذه اللغة نصوصا موجهة للقراءة لا للتمثيل ، ولم تكن تجد لدى الجمهور إقبالا على قراءتها مثل ذلك الذي كانت تلقاه الرواية ، فكان هذا أحد الأسباب الرئيسية ــ من

ضمن أسباب أخرى ـــ التي جعلت كاتب ياسين يتخلى عن كتابة مسرحياته باللغة الفرنسية، ليكتب ويقدم عروضه بالعامية الجزائرية ((التي يفهمها جميع الجزائريين ، في أغلبيتهم الساحقة))[63].

وقد تبعه في هذا المضمار تلاميذ وأتباع، كتبوا بدورهم بالعامية، ويأتي في مقدمتهم سليمان بن عيسى الذي بدأ الكتابة في سنوات السبعينيات بنقل بعض مسرحيات كاتب ياسين من الفرنسية إلى العربية العامية، ثم تحول إلى التأليف، وقدم عدة أعمال مسرحية لاقت نجاحا كبيرا، أهمها مسرحية"بوعلام زِد القدَّام"(1975)، و"بابور غرق"(1983)، و"أنت خويا وأنا أشكونَ؟ "(1990)، وقد عاد في السنوات الأخيرة إلى الكتابة بالفرنسية من جديد، ليؤلف ويعرض، ابتداء من سنة 1991، عدة مسرحيات له في بلجيكا[64].

أما بالنسبة للقصة القصيرة باللغة الفرنسية ، فمثلها مثل الشعر ، لم تحظ بالأهمية ولا بالأولوية لدى الكتاب والقراء على السواء ، وتأتي في الدرجة الرابعة من حيث الاهتمام بها بعد الرواية والشعر والمسرحية[65] ، وقد ظهرت متأخرة بالقياس إلى الرواية والشعر ، وكان محمد ديب رائدها الأول بمجموعته الأولى " في المقهى" (1955)، التي نقابل فيها العديد من شخصيات ثلاثيته الروائية، مثل"عمر"، والعمة"حسناء"

63 «Kateb Yacine , un homme , une oeuvre, un pays », Entretien réalisé par Hafid Gafaiti . Coll. Voix Multiples . Laphomic. Alger 1986 , p10.

64 Achour Chorfi «Mémoire algérienne: dictionnaire biographique», Ed. Dahlab . Alger 1996, p135 .. P135 .

65 هذا ما يستنتج من قول الدكتور عبد الله ركيبي حين يقول: ((على أن الملاحظ أن الباحثين عندنا يتعرضون لمناقشة هذا الأدب، إنما تنصب عنايتهم بالدرجة الأولى على الرواية والشعر والمسرحية ويغفلون الحديث عن القصة القصيرة بالفرنسية)) ، راجع : د. عبد الله ركيبي "القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر"، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة 1969، ص246 .

و"ابنة العم الصغيرة"، حيث يقدم محمد ديب إضافات جديدة يتعلق بعضها بأحداث كان قد أشار إليها في الثلاثية بمجرد إشارات سريعة، كزواج"ابنة العم الصغيرة"، الذي يخصه بقصة مستقلة هي قصة "زواج بديع"، وبعضها بالتطور الذي حدث في حياة الأبطال أو في وعيهم ، مثل الطفل عمر، الذي استنتج بصفة تلقائية في هذه المناسبة ـ وهو الذي طالما عانى آلام الجوع ـ أن السعادة في الحياة ليس أساسها الأكل، ولكن الشعور الداخلي بالمتعة[66]، وقد اتخذت القصة القصيرة بالفرنسية في الجزائر بعد الاستقلال، ككثير من الأعمال الروائية والشعرية في هذه الفترة، حرب التحرير كموضوع رئيسي لها[67]، وكان محمد ديب في مجموعته القصصية الثانية"الطلسم"(1966) سباقا مرة أخرى في هذا المجال. ويتأكد التركيز على موضوع الثورة التحريرية في كل مرة يظهر فيها عمل قصصي جديد، لاسيما في أعمال الكتّاب الذين اشتهروا بكتابة القصة القصيرة، على قلتهم، مثل قدور محمصاجي في مجموعته"زهور نوفمبر"(1969)، ومولود عاشور في مجموعاته"الناجي"(1971)، و"عباد الشمس"(1973)، و"آخر موسم للعنب»(1975)، و" أيام المعاناة"(1983) وكلها لمولود عاشور، إذ تشكل فيها القصص المتعلقة بالثورة نسبة عالية جدا.

---

66 د. عايدة بامية"تطور الأدب القصصي الجزائري 1925ـ1967 "ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982، ص379.

67 نفسه، ص382.

ويلاحظ عموما بشأن القصة المكتوبة بالفرنسية في الجزائر ضعف مساهمة الروائيين الكبار في كتابتها[68] ، وكثرة من كتبوا فيها، على تنوع اختصاصاهم الأصلية، من شعراء ، ومسرحيين ، وصحفيين، وكتاب مقالات، بحيث لم يتعد أغزرهم إنتاجا في هذا الفن، وهو مولود عاشور، أربع مجموعات قصصية، ومع ذلك تذهب الباحثة "عايدة بامية " إلى القول بأن القصة الجزائرية باللغة الفرنسية ((أظهرت بعض التفوق على نظيرتها العربية ..لأنها لم تعمد إلى استخدام نفس القدر من الشعارات والتعابير المتبادلة وأن لهجتها كانت أقل دعائية ووعظا)) [69]، ولكنها تستدرك بعد ذلك لتسوق قولا لجان ديجو ــ وهو أكبر مختص في الأدب الجزائري باللغة الفرنسية ــ ينتقد فيه هذه القصة ، ويقول عنها ((إنها مليئة بالصيغ المكررة والعبارات المتداولة)) [70].

هذا بالنسبة لما أنتجه الكتاب على المستوى الإبداعي ، لاسيما في مرحلة ما قبل استعادة الاستقلال الوطني ، أما على المستوى النقدي والتنظيري فإنه لم يظهر في المقابل نقاد ودارسون جزائريون متميزون لهذا الأدب ، حيث ظل يعاني من فراغ كبير في هذا المجال، وظلت تصريحات الكتاب ولقاءاتهم في بعض المناسبات مع الصحافة أو الجمهور هي المرجع الرئيسي لرصد توجهات هذا الأدب، وتسجيل مواقف كتابه إزاء مختلف القضايا الأدبية أو القضايا السياسية على

---

68 لمحمد ديب مجموعتان:"في المقهى" 1955، والطلسم (1966)، ولمولود معمري مجموعة واحدة نشرت بعد وفاته"توقفات" « Escales » (1996)، ولرشيد ميموني "حزام الغولة" (1990)، ولكاتب ياسين، وبوجدرة، وبوربون قصص قليلة متفرقة لم تجمع في مجموعات .

69 عايدة بامية " تطور الأدب القصصي الجزائري" ص 390 .

70 المرجع نفسه، ص 390 .

السواء، وهي تصريحات — رغم أهميتها بالنسبة للدارس — تتسم في الغالب بطابع الظرفية ، والارتجال، والذاتية، ولا تكون دائما معبرة عن الواقع الفعلي ، وقلما نجد لهؤلاء الكتاب نصوصا ذات طابع تنظيري، أو تأملي، تعبر عن فهم الكاتب للوظيفة الإبداعية لكتابته، أو عن تصوره للرسالة الاجتماعية أو السياسية التي يحملها. وحتى حينما وجد هذا الأدب عناية على مستوى المتابعة النقدية، والدراسة المتخصصة، فإن هذه المهمة تكفل بها مؤرخون وباحثون فرنسيون، أمثال "جان ديجو"، و"شارل بون" و"جاكلين أرنو"، و"كريستيان عاشور"[71].

غير أن هذا لا ينفي وجود أطروحات جامعية حول هذا الأدب، قدمت هنا وهناك ، لباحثين جزائريين، ولا سيما في العقود الأخيرة، ولكن ظل معظمها غير منشور، كما جرت في بعض المناسبات مناقشات متفرقة على صفحات الجرائد والمجلات، بأقلام كتاب جزائريين حول قضايا أدبية وفكرية معينة، وحول بعض الروايات، نذكر منها على الخصوص تلك المناقشات التي جرت في أوائل الخمسينيات حول رواية"الربوة المنسية" لمولود معمري عقب صدورها في أكتوبر 1952، وقد اشترك في النقاش جزائريون، ومستوطنون، وفرنسيون من المتروبول، فهلل لها بعض الشبان الجزائريين، كما يذكر

71 هذه الأخيرة جزائرية من أصل فرنسي، وقد استعنا كثيرا في بحثنا هذا — كما هو ملاحظ في الهوامش — بما كتبه هؤلاء الباحثون عن أدب الجزائريين باللغة الفرنسية. ومن جهة أخرى ، نسجل أيضا أن ما كتب عن هذا الأدب باللغة العربية، وما ترجم منه إليها إنما كتب وترجم على يد العرب المشارقة، ولاسيما سوريا ولبنان ومصر، إلا استثناءات قليلة تمت في الجزائر وتونس ، وفي المغرب مؤخرا .

محمد الصالح دمبري[72]، وراحوا يتجادلون حول موضوعها وأحداثها، ويطرحون تساؤلات حول مراميها، وحول ما إذا قصد الكاتب منها نقد المجتمع التقليدي، أم أراد أن يعبر بها عن نزعة إقليمية عنده (النزعة البربرية)، أم قصد الكشف عما تعانيه الطبقة الفلاحية من شقاء واستغلال؟ على أن هناك من انتقد لجوء الكاتب في روايته إلى التلميح، وأعرب عن أمله ((أن يكون في المستقبل أكثر التزاما من حيث مواقفه السياسية))[73].

كما رحبت صحافة المستوطنين الأوروبيين بالرواية، وكال لها صحافيوها المديح ((واتخذوا من أصل مؤلفها القبائلي ذريعة لخدمة أغراضهم الاستعمارية))[74]، فأشادوا بالقرابة الفكرية التي اكتشفوها في الرواية بين الأوربيين والقبائل، وبالحساسية التي يتمتع بها الكاتب ((التي تشبه حساسية الفرنسيين)) وعدُّو الرواية نجاحا كبيرا لرسالة التعمير التي جاؤوا لنشرها في الجزائر[75].

وقد حدث رد فعل قوي من قبل الأوساط الوطنية الجزائرية عن هذا المديح المشبوه للرواية، تمثل أساسا في مقالات كتبها محمد الشريف ساحلي، ومحفوظ قداش ومصطفى الأشرف، فوضع الأول لمقاله عنوانا مثيرا هو"ربوة التنكُّر"، وطالب فيه الروائي بتوضيح موقفه، والدفاع عن نفسه، ولاسيما حول ما أشيع عن رعاية المارشال"جوان"

---

72 محمد الصالح دمبري"مجادلات حول الربوة المنسية لمولود معمري"، ترجمة حنفي بن عيسى، مجلة"الثقافة"، الجزائر، العدد 102، 1989.

73 نفسه، ص40 .

74 نفسه، ص41 .

75 نفسه، ص42 .

لروايته[76] وأدان الثاني الرواية بشدة، وقال ضمنيا ما معناه أنه ما دامت الرواية قد وجدت استقبالا حسنا في الصحافة الاستعمارية، فهذا معناه أنها سيئة بالنسبة لنا[77]، ولام الكاتب على صمته ((وذكّره بأن الظروف الخاصة التي تعيشها الجزائر لا تسمح باتخاذ مواقف غامضة، أو تجاهل مشاكل الساعة))[78]، في حين رأى مصطفى الأشرف أن معمري ((زخرف الحقائق الجزائرية عن قصد وألبسها ثوبا فولكلوريا، جعل روايته أقرب إلى الأدب الموسوم بالصبغة الاستعمارية))[79].

وقد عرفت السنوات الأولى من الاستقلال بعض المناقشات الفكرية على صفحات الجرائد، وأشهرها تلك المناقشة التي أثارها مقال لمصطفى الأشرف نشره سنة 1963 في مجلة"الأزمنة الحديثة" الفرنسية بعنوان"مستقبل الثقافة في الجزائر"[80]، ودارت حول قضايا تتصل بالثقافة والأدب، وشارك فيها مراد بوربون، ومحمد بوديا، وبشير حاج علي، ومالك حداد، ومحمد حربي[81].

---

76 وقد استجاب معمري لهذا الطلب بعد طول صمت، كما يوضح دميري، وأنكر وجود أية علاقة له بالمارشال جوان راجع دميري ، انفسه ص 44.

77 Abdelkabir Khatibi , "Le roman maghrébin". p25.

78 "مجادلات حول الربوة المنسية لمولود معمري"، ص44 . ويبدو أن هذا النقد قد أثر تأثيرا إيجابيا في مولود معمري ، فجاءت روايته الثانية "نوم العدل" (1955) معبرة عن موقف معاد من الاستعمار بشكل لا لبس فيه , انظر: Abdelkabir Khatibi , "Le roman maghrébin". p26.

79 نفسه ، ص 26 .

80 Mostefa Lacheraf «L'avenir de la culture algérienne» in «Les Temps modernes», N°209, Octobre1963, pp720-745.

81 Cf: «Révolution Africaine» N°s: 45,46,47,48,49,50, 57 du 7-14-21-28 Décembre1963 et du 4-11-29 Janvier1964 successivement, et «El-Moudjahid» n°s 157 du 7/12/63 - 160 du 28/01/64.

وكانت وجهات النظر متباينة جدا حول القضايا المطروحة، وتحول النقاش في الأخير إلى مهاترات واتهامات شخصية، عدها مالك حداد شيئا محزنا، لأن الحوار الذي دار بين أطراف النقاش ((لم يناقش القضايا الجوهرية التي تمس الثقافة مفهوما وإنتاجا وتوجها ولغة، ولكنه انصب على قضايا أخرى جزئية))[82].

والحقيقة أن مالك حداد، كان أسبق في طرحه لموضوع مستقبل الثقافة والأدب في الجزائر، قبل وقف القتال بشهور عديدة، وذلك في مقاله المطول الذي نشره سنة 1961، وأعطاه عنوان"الأصفار تدور في فراغ"، وأهداه لروح الشيخ عبد الحميد ابن باديس، وسنعود في الفصل الموالي لنستعرض ونناقش أهم ما جاء في هذا المقال، نظرا للأهمية التي تكتسيها موضوعاته في العديد من القضايا الحيوية المتعلقة بالكاتب، والكتابة، ولغة الكتابة، ومستقبل الأدب والثقافة في الجزائر.

وقد تجددت المناقشة حول القضايا التي أثارها الأشرف في مقاله المشار إليه، وقبله مالك حداد، وحول قضايا أخرى، ولاسيما قضية اللغة، وأهمها تلك الندوة التي أدارها محمد الصديق بن يحي، ونشرتها يومية«المجاهد» بالفرنسية، ودار موضوعها حول التعريب واللغة الفرنسية، واللغة العربية ومستقبل الأدب الجزائري، وشارك فيها مولود معمري، وآسيا جبار، ومحمد الشريف ساحلي، ومحمد بوديا، وجان سيناك. وقد تباينت فيها الآراء أيضا، ولم تخرج بنتيجة[83].

---

82 راجع عرضا لهذه المناقشة في كتاب د. عبد الله ركيبي "الفرانكوفونية مشرقا ومغربا" نشر دار الأمة، الجزائر 1993 من ص 259 إلى 264.

83 نفسه، ص264.

وبعد الانقلاب الذي أطاح بنظام الرئيس بن بلّة في 19 يونيو 1965 وقيام النظام العسكري بقيادة هواري بومدين، تفرق أعضاء"جمعية الكتاب" التي كانت قد تأسست في 28 أكتوبر 1963[84]، لاسيما كُتّابها باللغة الفرنسية، وفضل معظمهم المنفى الاختياري، وكان المنفى في الغالب هو فرنسا، وكانت الأسباب في الواقع غير محددة وغير واضحة، نظرا للتوجه الفكري لدى معظمهم، الذي كان توجها "ثوريا"[85]، أي أنه كان يتفق مع توجهات البلد السياسية في ذلك الوقت، وهذا ما يجعل اختيارهم العيش خارج الجزائر"لأسباب سياسة" أمرا غير محدد وغير واضح، ولكن كانوا على العموم، يشتكون من عدم توفر المناخ الديمقراطي الذي يمكنهم من التعبير عن أفكارهم بحرية.

وبدأ يظهر بعد منتصف الستينيات، ضمن أدب الجزائريين المكتوب باللغة الفرنسية، توجه جديد، لاسيما في الرواية، غلبت عليه النزعة السياسية الانتقادية، ولذلك أسماه أحد الباحثين بأدب"النزعة الاحتجاجية، الاجتماعية والسياسية"[86]، ونشر معظم هذا النوع الاحتجاجي في فرنسا، نذكر منه على الخصوص أعمال محمد ديب الروائية التي ظهرت في الفترة ما بين 1968 و1973: "رقصة

84 Ghani Merad «La littérature algérienne d'expression française » , p182.

85 جاء في ميثاق الاتحاد الصادر عن الجمعية العامة بتاريخ 1963/10/28 ، التي أنشئ فيها"اتحاد الكتاب الجزائريين" ((إننا نلتزم ببعث ثقافة وطنية، ذات طابع شعبي في منطلقها وفي مرماها، متشبعة بالروح العلمية، ملتزمة بالنهج الثوري كما رسمه ميثاق طرابلس)). راجع نص"ميثاق الاتحاد" في:
Ghani Merad «La littérature algérienne d'expression française » , p183.

86 Voir Guy Daninos « Les nouvelles tendances du roman algérien de langue française » Ed. Naaman Sherbrooke, Québec, Canada 1979, p121 et 130.

الملك"(1968) و"إله أرض البربر"(1970) و"معلم الصيد"(1973)، ورواية مراد بوربون"المؤذن"(1968)، و"التطليق"(1969)، و"ضربة شمس"(1972) لرشيد بوجدرة، و"موت صالح باي"(1980) لنبيل فارس. فكل هذه الأعمال الروائية يجمعها قاسم مشترك واحد يتمثل في النقد الشديد اللهجة للأوضاع السياسية والاجتماعية في الجزائر، حتى وإن ركزت على هذا الجانب أو ذاك، أو اختلفت الطرق الفنية التي تعبر بها.

وقد استمر هذا التوجه الانتقادي أو الاحتجاجي حتى بعد وفاة بومدين في أواخر شهر ديسمبر 1978، ونجد ذلك بارزا في روايات رشيد ميموني خاصة، مثل رواية"النهر المحول"(1982)، التي يشير عنوانها إلى المضمون الذي عبرت عنه الرواية، وهو تحول الثورة على يد العسكر عن مسارها النضالي ذي الطابع الشعبي، وعن أهدافها الاجتماعية الطموحة، و"طومبيزا"(1984)، التي تسير في الاتجاه نفسه، ولكن تحمل مرارة أكبر، وتنتقد الأوضاع الاجتماعية بحدة أقوى، حيث يتعلق الأمر بحرمان مزدوج بالنسبة للبطل الذي يعاني من الفقر والاعتلال الصحي من جهة، ومن النبذ الاجتماعي من جهة أخرى، لأنه جاء إلى هذا العالم نتيجة عملية اغتصاب لأمه، التي ضربت إلى حد الموت، وفارقت الحياة إثر ولادته.

وكذا الأمر في روايات الطاهر جاوت، ولكن برمزية أكثر إيغالا وغموضا، وبلهجة أقل حدة، مثل روايته" الباحثون عن العظام"(1984) وإلى حد ما رواية"مترَوع الملكية"(1981)، التي يقترب فيها وضع بطله إلى حد كبير من وضع بطل رواية "طومبيزا"، حيث يعاني بدوره من

أزمة هوية حادة، نتيجة تجريده من وسيلة التعبير الأساسية التي هي اللغة، ويرظف الكاتب الرمز في هذا العمل على نطاق واسع، ويعطي لنفسه حرية كبيرة في خلط الأساليب السردية، ليرسم لبطله وضعا مأساويا مؤثرا[87].

واستمر هذا الاتجاه في الظهور حتى بعد مظاهرات أكتوبر1988 وصدور دستور23 فبراير 1989 الذي سمح بالتعددية السياسية. ولعل أبرز رواية ظهرت في هذه الفترة هي رواية" شرف القبيلة" (1989) لرشيد ميموني، التي رصد فيها السلوكات التي كان يقوم بها مسؤولو وإطارات ومناضلو"الحزب الواحد"، التي كانت تتميز، حسب ما تصورها الرواية، بالنفاق وتشجع على انتشار الانتهازية والرشوة والجهوية. كل ذلك في شكل كاريكاتوري ساخر.

هذا هو التوجه الذي ساد كتابات الجزائريين باللغة الفرنسية بعد منتصف عقد الستينيات بوجه عام، لكن مظاهر هذا التوجه تعددت وتنوعت، ولم تقف عند حدود المعارضة السياسية البحتة أو نقد الأوضاع الاجتماعية والفساد الإداري، فمنذ السبعينيات طرحت مسائل أخرى، لعل أهمها مسألة الهوية الوطنية، والهوية الأمازيغية بالتحديد، التي عبرت عنها بشكل مباشر بحوث مولود معمري اللغوية والأنتروبولوجية على الخصوص[88]، وبشكل غير مباشر روايته الأخيرة

---

87 لهذا تبدي السيدة كريستيان عاشور تحفظا على اعتبار "مترروع الملكية" رواية، حتى وإن نشرت على أنها رواية. راجع :
Christiane Achour «Anthologie de la littérature algérienne de langue française», p141.

88 راجع في هذا الصدد على الخصوص كتابه: « Culture savante, culture vécue », Ed. Tala, Alger 1991 .

"العبور"(1982)، كما طرحها غيره في أعمال أدبية مختلفة، تتراوح بين التصريح والتلميح، وبين المباشرة والرمزية، مثل ما نجد في مسرح كاتب ياسين عامة الذي يتميز بأسلوب استفزازي، يسخر فيه من الدين الإسلامي[89]، ويهاجم اللغة العربية الفصحى، ولا يعتبرها لغته أو لغة الشعب الجزائري[90]، وهي لغة ميتة في نظره، مثلها مثل اللاتينية[91]، ومثل أعمال نبيل فارس الروائية، مثل"ذاكرة الغائب"(1974)، ومثل "المنفى والحيرة"(1976)، التي تطرح العديد من الأسئلة حول الهوية الجزائرية"المستلبة"، والثقافة"الأصيلة" المغيبة، وكذا الأمر في بعض أعمال الطاهر جاوت كروايته"متروع الملكية" التي سبقت الإشارة إليها، وروايته"اختراع الصحراء"(1987)، التي يتخذ فيها من سيرة المهدي ابن تومرت البربري أساسا لنقد التاريخ الإسلامي في منطقة المغرب، ويطرح أسئلة إشكالية تتعلق بالهوية الجزائرية، ويحاول أن يسقط وقائع ذلك التاريخ على واقع الحركات الإسلامية في العصر الحاضر.

في حين ظل هناك أدب مهادن للسلطة، صدر معظمه في الجزائر، يتناول موضوعات صارت تقليدية، مثل تصوير أحداث الثورة التحريرية التي سبق أن وقفنا عندها في بعض الروايات، وفي المسرح، والقصة القصيرة، ونذكر في هذا الصدد من الروايات المتأخرة "المغارة المتفجرة"(1979) لآمنة مشاكرة، و"التمزق"(1980)

---

89 نذكر منها على الخصوص مسرحياته: "مسحوق الذكاء" و"محمد خذ حقيبتك"، و"حرب الألفي سنة" إلخ. وكلها تصب في هذا الاتجاه .

90 Hafid Gafaiti « Kateb Yacine , un homme , une oeuvre, un pays », (Entretien) , p56 .

91 Ibid, p61 .

و"الامتحان الأخير"(1983) لمحمد شايب، و"عصابة الأطلس"(1983) و"أسود الليل"(1985)، و"الأطلس يحترق" 1987 لعز الدين بونمور.

كما ظل هناك دائما أدب يأخذ موضوعاته من الواقع المعيش، ويرصد التحولات الاجتماعية والسياسية التي كانت تحدث في ذلك الحين[92]، وهناك موضوع ظل حاضرا على الدوام في الروايات الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، ونعني به موضوع السيرة الذاتية للمؤلفين، نذكر منها رواية"الشمس تحت الغربال" (1982)[93]، و"النظرة المجروحة"(1987)، وكلاهما لرابح بلعمري، و"راس المحنة" (1991) لعبد الرحمن الوناس.

وفي مطلع التسعينيات، ومع صعود المد الإسلامي في هذه الفترة، ودخوله بقوة معترك السياسة، أخذت تظهر أعمال روائية في هذا الأدب تنتقد هذا المد نقدا لاذعا، وتصوره في شكل خطر سياسي واجتماعي داهم، يهدد الديمقراطية والحريات العامة، ومن ثمة تدعو بشكل صريح ومباشر إلى التصدي له ومحاربته بكل الوسائل[94] وتعد أعمال رشيد ميموني القصصية والروائية الأخيرة أبرز النماذج في هذا الصدد، مثل بعض نماذجه في مجموعته القصصية"حزام الغولة" (1990)

---

92 مثل موضوع الإصلاح الزراعي الذي شرع في تنفيذه تحت اسم "الثورة الزراعية" في بداية السبعينيات وأسال كثيرا من الحبر.

93 Rabah Belamri « Le soleil sous le tamis », Publisud, Paris 1982 .

94 وقد أصدر ميموني في هذا الصدد كتابا ينتقد فيه الإسلاميين بشكل مباشر بعنوان "عن البربرية بوجه عام ، والأصولية بالخصوص" : «De la barbarie en général et de l'intégrisme en particulier. Ed. Père aux Clercs, France 1992 . وكان رشيد بوجدرة قد سبقه إلى نقد الإسلاميين بكتيّب مماثل يحمل عنوان: "فيس الحقد"، أو بترجمة حرفية: "جبهة الحقد الإسلامية للإنقاذ": Rachid Boudjedra «Le fis de la haine » , Ed. Bouchène , Alger 1992 .

وروايته "اللعنة"(1993) التي تتخذ من اعتصام الإسلاميين في ساحة أول مايو في شهر يونيو1991، واستيلائهم على قسم الاستعجالات في مستشفى مصطفى، بعد صدامهم مع قوات الأمن، محورا لها.

والحقيقة أن نقد الدين كما يتجلى في فهمه وتطبيقه في الواقع، وكذا نقد رموزه ممثلة في الزعامات الدينية التقليدية، ليس جديدا في كتابات الروائيين الجزائريين باللغة الفرنسية، بدء برواية "بولنوار" لرشيد زناتي في الثلاثينيات، مرورا بـ"المؤذن" لمراد بوربون في الستينيات، و"اختراع الصحراء" للطاهر جاوت في الثمانينيات، ولكن أسلوب النقد هو الذي يتغير حسب وجهة نظر الكاتب وعقيدته السياسية، وحسب حركة الظواهر الاجتماعية أيضا، والتغيرات السياسية التي يتجلى فيها الدين.

وقبل أن ننهي الحديث عن التطور الذي عرفه أدب الجزائريين باللغة الفرنسية، لابد لنا أن نشير إلى أسماء كتّاب جدد من أصل جزائري برزوا في فرنسا خلال العقدين الأخيرين وهم في معظمهم من أبناء العمال المهاجرين، ممن أصبحوا يعرفون باسم "البور" [95] أو "الجيل الثاني" من المهاجرين الجزائريين، أمثال زليخا بوقرط، و علي غالم، ومهدي شارف، و أ. زيتوني، وجانيت لشمط ، وآكلي تاجر، ومحمد كتري، وناصر كتان وغيرهم، فبحكم أصولهم الجزائرية كثيرا ما يتناولون موضوعات لها صلة من قريب أو بعيد بالجزائر والجزائريين، حتى وإن تعلقت تلك الموضوعات بجوانب من صميم الحياة اليومية في المجتمع

95 كلمة مولدة مجهولة الأصل، تطلق على أبناء الجيل الثاني من المهاجرين الجزائريين.

الفرنسي المعاصر[96] وهم في نظرنا، يشكلون بوجه من الوجوه، امتدادا وتطورا طبيعيا لأدب الجزائريين المخضرمين باللغة الفرنسية، لاسيما ما تعلق منه بالهجرة الجزائرية في فرنسا، حتى وإن أنكروا هم هذا الامتداد ورفضوه بقوة[97]، مع فارق في المستوى الفني لهذا الأدب، إذ يحكم عليه بعض الباحثين بأنه أدب متمرد، لا يعترف بالقواعد الفنية، ولا حتى بالقواعد اللغوية[98].

ومهما يكن مستوى هذا الأدب، ومهما يكن رفض أو قبول كتاب هذا الجيل الانتماء إلى المخضرمين من الكتاب الجزائريين بالفرنسية، فإنه من السهل على الملاحظ المحايد إدراك الصلة التي تربط بين أدب هؤلاء وأولئك، في العديد من الأوجه، وأبرزها الشخصيات التي يصورونها والأبطال الذين يصنعون أحداث رواياتهم. ومن هنا نطرح سؤالا نراه على قدر كبير من الأهمية فيما يخص التوجه الذي يمكن أن يتوجهه الأدب الجزائري باللغة الفرنسية مستقبلا، وهو ألا يكون أدب "البور" هذا مؤشرا قويا نحو التطور الطبيعي لأدب الجزائريين المكتوب بالفرنسية؟ أعني الاندماج شيئا فشيئا في المجتمع الفرنسي، وفي الأدب الفرنسي ليصبح في يوم من الأيام جزء لا يتجزأ من الأدب الفرنسي؟

---

96 كثيرا ما تصور أعمالهم الحياة"المغلقة" للمهاجرين في الأحياء التي يقطنونها، والتمييز العنصري الذي تمارس ضدهم وضد أبنائهم فيما يخص فرص التعليم والتكوين، والعمل، كما تتحدث عن العادات والتقاليد العربية الإسلامية داخل الأسر المهاجرة، كصوم رمضان والاحتفال بالعيد، وتتناول أيضا العلاقات مع جيرانهم من غير العرب أو المسلمين، وكذا العلاقات العاطفية فيما بينهم وبين أبناء وبنات المهاجرين الآخرين، أو بينهم وبين أبناء وبنات الفرنسيين، والعوائق الإثنية، والدينية والأسرية التي تقف في طريق مثل هذه العلاقات إلخ .

97 Christiane Achour « Anthologie de la littérature algérienne de langue française » , p184 .

98 Ibid,p184 .

وما يدفعنا إلى هذا التساؤل الوجيه في نظرنا هو ما ذهب إليه أحد الباحثين المرموقين في الأدب والثقافة المغاربية بالفرنسية، وهو "ألبير ميمي" الذي قال: ((إن أدب المستعمَرين باللغات الأوروبية ، محكوم عليه، فيما يبدو، بالموت في سن مبكرة))[99] . وهو يعني أنه أدب ارتبط ميلاده وتطوره بالظاهرة الاستعمارية، وكذلك سيكون موته مرتبطا بزوال الظاهرة.

هذا من حيث التطور الذي عرفه هذا الأدب في مراحله المختلفة، التي يمكن أن نميز فيها أربع مراحل رئيسية ، مرحلة ما بين الحربين، وهي مرحلة البداية التي كانت متعثرة فنيا، ومتذبذبة سياسيا، والمرحلة التي تمتد ما بين نهاية الحرب العالمية الثانية وقيام ثورة التحرير في فاتح نوفمبر 1954، وهي مرحلة التململ والقلق وترقب ما سيحدث، حيث كانت كل المؤشرات في هذه الفترة تنبئ بأن شيئا ما سوف يحدث[100] ، ومرحلة الثورة التي لم يكن فيها أمام الكتاب أي مجال للتردد أو الحياد، وقد، ومرحلة ما بعد الاستقلال التي عرفت تنوعا كبيرا في المواقف والرؤى حول مختلف القضايا الاجتماعية، والتوجهات السياسية والفكرية، وحول القضايا الفنية أيضا، كما عرفت تأثرا بالأحداث السياسية الكبيرة التي مرت بها الجزائر[101] وخاصة انقلاب 19 يونيو 1965 وأحداث أكتوبر 1988.

---

99 Albert Memmi « Portrait du colonisé » , Ed. J.J. Pauvert. Utrecht, 1966 , p147.

100 عبرت عن هذا التململ بالخصوص رواية "الحريق" لمحمد ديب.

101 تتفق هذه المراحل إلى حد كبير مع المراحل التي ذكرها "فرانتز فانون في كتابه "معذبو الأرض" بخصوص تطور وعي المثقفين الأفارقة كما يتجلى من خلال إنتاج الكتاب المستعمَرين، باستثناء المرحلة الرابعة التي واكبت مرحلة الاستقلال الوطني (التي لم يتنبأ بها فانون، ولم تمهله الأيام لكي يلاحظها في الواقع) فيذكر أنه =

أما من حيث التطور الكمي لهذا الأدب، وبقطع النظر عن نوعية الإنتاج المنشور من حيث القيمة الفنية، على أساس أن النشر في حد ذاته لا يعد مقياسا للجودة ، فنلاحظ أنه ظهر منه في الفترة ما بين الحربين العالميتين عدد محدود من العناوين لا تزيد في مجموعها عن عشرة ما بين أعمال روائية وشعرية[102] ، ثم راح العدد يزداد باضطراد، بحيث نشر ــ حسب إحصاء للسيد جان ديجو ــ في الفترة ما بين سنة 1945 و1962 ما مقداره 86 عملا موزعا على النحو التالي: 32 رواية، و40 مجموعة شعرية، و12 مسرحية ومجموعتان قصصيتان[103] ، وفي فترة مساوية تقريبا للفترة المذكورة، أي ما بين و 1962 و1978، نشر 184 عملا موزعا كالتالي: 44 رواية و108 مجموعة شعرية و20 مسرحية و12 مجموعة قصصية[104] ، نشر حوالي ثلث العدد الإجمالي المذكور منه

- في مرحلة أولى يبرهن المثقف المستعمَر على أنه هضم ثقافة المستعمِر المحتل، فآثاره توازي آثار أمثاله الغربيين خطوة خطوة، وفي مرحلة ثانية يهتز المستعمَر فيقرر أن يتذكر نفسه.. إنه الآن ينتشل من أعماق ذاكرته مشاهد قديمة من طفولته، ويعود إلى أساطير عتيقة فيحاول إعادة تأويلها على ضوء استيطيقا مستعارة، وفي مرحلة ثالثة تسمى مرحلة المعركة نرى المثقف المستعمَر بعد أن حاول أن يغرق في الشعب يعمد إلى عكس ذلك، إنه الآن بدلا أن يغفو غفوة الشعب يستحيل إلى موقظ للشعب، إنه الآن ينتج أدب معركة. ومع ذلك يحذر فانون من نسيان شيء جوهري وهو اللغة والتقنية التي يستعيرها المستعمَر من المستعمر فإذا نسي الكاتب هذه الحقيقة فإنه يكتفي بأن يكسو هذه الأدوات بثوب يريد له أن يكون قوميا، ولكنه كالأدب الغربي الذي يتكلم عن البلاد الأخرى . راجع :

Frantz Fanon « Les damnés de la terre » Ed. E.N.AG , Alger 1987, pp193-194 .

102 ستعرض جان ديجو معظم عناوينها وأسماء كتابها في: «La littérature algérienne contemporaine » Coll. Que-sais-je , P.U.F Paris 1975, pp58-60

103 Jean Déjeux «Situation de la littérature maghrébine de langue française », p67 .

104 Situation de la littérature maghrébine de langue française , p67 .

في الجزائر[105]، ونشر الباقي في فرنسا أساسا، وفي بلجيكا، وكندا، وسويسرا بنسب متفاوتة[106].

ونلاحظ أن الإنتاج الإجمالي قد تضاعف بأكثر من مرتين، بزيادة قدرها 37.5 بالمائة في الإنتاج الروائي، في حين تضاعف الإنتاج الشعري بأكثر من مرتين ونصف المرة، والمسرحيات بأكثر من مرة ونصف، والقصص بست مرات. ولا نمتلك إحصائيات دقيقة وشاملة عن هذا الأدب بعد سنة 1978، وحسب تتبع الباحث لما يصدر منه في السوق الوطنية فقد سجل تراجع كبير في مجال الشعر والمسرحية والقصة القصيرة، ابتداء من منتصف الثمانينيات، قد يصل إلى درجة الصفر في بعض السنوات بالنسبة للشعر[107]، في الوقت الذي واصلت فيه الرواية تقدمها، وسجلت رواجا في المبيعات، وتنوعا في الموضوعات، وعرفت توجها جديدا نسبيا هو معالجتها للموضوعات التاريخية، التي كانت شبه معدومة في الفترات السابقة[108].

وسبب تراجع الأنواع الأخرى يعود أساسا لعدم إقبال الجمهور على قراءتها، وهو ما دفع بالناشرين ــ مع إفلاس الشركة الوطنية

105 Situation de la littérature maghrébine de langue française , p73 .

106 يقف احصاء "ديجو" السابق الذكر في سنة 1978، ولم نعثر في غيره إلا على إحصائيات جزئية تتجاوز هذا التاريخ، لذلك لم نأخذ بها.

107 وهذا ينطبق على الإنتاج الأدبي باللغة العربية أيضا.

108 نذكر منها على الخصوص: رواية "أسوار الحرية" (1985) لرشيد قاهار: Rachid Kahar « Les remparts de la liberté », E.N.A.L Alger 1985 التي يدور موضوعها حول ثورة المقراني والحداد سنة 1971، ورواية "ألف وثمان مائة وثلاثين" (1986) لعبد الرزاق هلال Abderrezak Hellal « Dix huit cent trente », E.N.AL Alger 1986.: التي تدور حول الغزو الفرنسي للجزائر كما هو واضح في العنوان. وكذا رواية "الموتة الأولى لحسين داي" (1990) لـ م.ك. بوقرة: M.K. Bougurra « La première mort de Hussein - Dey » , Ed. E.N.A.P , Alger 1990

للنشر والتوزيع ، وانفتاح سوق الطبع والنشر على المستثمرين الخواص — إلى التخلي عن نشرها . أما تضخم عدد العناوين التي صدرت منها في السابق فيعود إلى سياسة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، التي لم يكن النشر فيها مدروسا دراسة اقتصادية تستجيب لقانون العرض والطلب، وإنما كان يخضع لاعتبارات أخرى ، سياسية حينا، ونخبوية حينا آخر ، وداخلة حينا في نطاق الصراعات اللغوية التي كانت قائمة[109] ، مما أدى مع مرور الوقت إلى تضخم أعباء الشركة، وتكدس إنتاجها في المخازن ، وعجل بإفلاسها وتصفيتها أخيرا. وما نشر من هذا الأدب في الخارج يخضع بدوره لاعتبارات سياسية وثقافية ، وترعاه المنظمة العالمية لنشر وحماية اللغة الفرنسية في العالم، التي توجد أهم مراكزها — بعد فرنسا — في كندا وبلجيكا، وسويسرا. لكن لا يفسر هذا الكم من العناوين الصادرة من هذا الأدب بالعوامل التي ذكرناها آنفا فحسب، إذ كان هناك أيضا عامل انتشار التعليم على نطاق واسع بعد الاستقلال، وقد ظلت لغة التعليم الأساسية في مختلف مراحله، بما في ذلك التعليم الابتدائي هي اللغة الفرنسية، ولم يشرع في تطبيق التعريب الفعلي إلا ابتداء من سنة 1971، وكان ذلك بشكل تدريجي بطيء، صعودا من السنوات الابتدائية إلى الثانوية، ولم تصدر النصوص الرسمية المتعلقة بـ"المدرسة الأساسية" التي تعد بحق مدرسة جزائرية في لغتها ومحتوى برامجها إلا في سنة 1976، ولم يشرع في تطبيقها ميدانيا

109روى لي مسؤول في الشركة المذكورة أن بعض أعضاء لجان القراءة، من مناصري التيار الفرانكوفوني، كانوا يقومون بتصحيح النصوص التي تعرض عليهم بالفرنسية من الأخطاء اللغوية، ويعالجون ضعف أسلوبها ، ويوصون بنشرها بعد ذلك، تشجيعا لكتابها الناشئين، وتقوية لصفوف التيار الفرانكوفوني.

إلا في الموسم الدراسي 1981/1980[110] . أضف إلى هذا كله المحيط المفرنس الذي كان يشمل الإدارة، والاقتصاد ، ووسائل الإعلام ، ووسائط الترفيه والتثقيف، وكذا انفتاح البلد على فرنسا ـــ بلد المستعمر السابق ـــ انفتاحا اقتصاديا وسياحيا كبيرا مما أوجد مناخا ملائما ساعد على تطور الإنتاج الأدبي والثقافي باللغة الفرنسية من حيث الكم، أما من حيث النوع فقد ظل الكتاب المخضرمون، الذين بدأوا الكتابة قبل الاستقلال ، يمثلون صفوة كتاب هذا الأدب وظلت أعمالهم الأدبية أجود ما أنتج فيه .

* * *

110 الطاهر زرهوني"التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال"، ص52.



الفصل الثالث
إشكالية الانتماء والهوية

من أهم الإشكاليات التي أثيرت وتثار حول الأدب الذي كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية في الفترة الاستعمارية ، إشكالية هوية هذا الأدب، وإلى أي جهة ينبغي أن ينسب؟ أيعد أدبا فرنسيا، كما يرى بعضهم، نظرا إلى اللغة التي كتب بها، وإلى الجمهور الذي كان يتوجه إليه أم يعد أدبا جزائريا باعتبار"الروح" التي كتب بها، كما يقول آخرون؟ وفي كلا الحالين: أيعد أدبا قوميا فرنسيا (في الحالة الأولى) حتى ولو كتبه فرنسيون بالجنسية المكتسبة لا بالأصل عن بلد ليس هو فرنسا في نهاية الأمر؟ أو أدبا جزائريا (في الحالة الثانية) حتى ولو كتب باللغة الفرنسية؟ ومهما كانت الإجابة فإنها تفتح الباب على إشكالات جديدة، وتطرح أسئلة جديدة ليس من السهل الإجابة عليها، أو التوفيق بين محتوى الإجابة وبين مفهوم الهوية القومية والأدب القومي.

وكما لا يخفى علينا فإن هذه الظاهرة، ظاهرة الكتابة بلغة المستعمر، ليست خاصة بالجزائر وحدها، فقد عرفتها بنسب متفاوتة معظم بلدان إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، التي كانت خاضعة في يوم من الأيام للاستعمار الفرنسي ـــ ومازال بعضها خاضعا لهذا الاستعمار حتى اليوم ـــ كما أنها ليست ظاهرة خاصة بالاستعمار الفرنسي وحده،

فقد وجدت في أغلب البلدان التي احتلتها الدول الأوروبية في القارات الثلاث، حيث توجد اليوم آداب مختلفة كتبت وتكتب في تلك البلدان باللغات الإنكليزية، والفرنسية، والإسبانية، والبرتغالية، وإلى حد ما باللغة الهولندية، أي بلغات الدول الاستعمارية الأوروبية التقليدية التي بدأت هجمتها على القارات الأخرى بعد اكتشاف أمريكا وطريق رأس الرجاء الصالح.

وعليه، فإن الأسئلة التي طرحت وتطرح فيما يتعلق بالأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية هي أسئلة مطروحة أيضا بالنسبة للأدب الآسيوي، والإفريقي، والأمريكي اللاتيني المكتوب باللغات الأوروبية المشار إليها أعلاه. ولكي تجد لها جوابا موضوعيا، ينبغي أن تعالج، حسب رأينا، في هذا الإطار التاريخي الجغرافي السياسي، مع الأخذ بعين الاعتبار في الوقت نفسه، بظروف كل بلد، وبخصوصياته اللغوية والثقافية، وبطبيعة الاستعمار الذي خضع له.

وهذا التمييز له أهمية كبيرة، إذ هناك فرق كبير بين بلد له لغة وطنية واحدة مشتركة مكتوبة، كما كان الحال في الجزائر، وبلد له لُغات متعددة كالهند أو باكستان مثلا، وبلد ثالث ليس له إلا لهجات غير مكتوبة مثل ما هو الشأن في العديد من البلدان الإفريقية، ففي الحالة الأولى تكون لغة المستعمر عاملا سلبيا يعمل على مزاحمة لغة البلد، وعلى إضعاف مركزها الاجتماعي ، ودورها الثقافي والحضاري، ويخلق ازدواجية لغوية وصراعات ثقافية وطبقية، في حين يمكن أن تلعب لغة المستعمِر في الحالة الثانية دورا إيجابيا، كعامل توحيد ثقافي،

وسيلة تفاهم مشتركة كانت مفقودة من قبل بين أبناء البلد الواحد[1]، وقد تكون عامل تطوير وتحديث للغات واللهجات المحلية، وهذا ما يفسر أن العديد من هذه البلدان اتخذت لغة المستعمر لغة وطنية رسمية.

كما أن طبيعة الاستعمار أيضا يمكن أن تشكل عاملا حاسما، فهناك فرق بين الاستعمار الاستيطاني وبين الحماية، وبين الاستعمار الفرنسي مثلا والاستعمار الإنكليزي، فالأول يعمل على هدم البنيات اللغوية والثقافية التي كانت قائمة من قبل ليُحِل محلها بنيات أخرى لا علاقة لها في الغالب بلغة البلد وثقافته، أما الثاني فيعمل على إبقاء البنى الثقافية القديمة، ويركز على البنية الاقتصادية ، وعلى التحديث الثقافي النخبوي[2]. وحيث أن قضية كهذه تتجاوز الحدود السياسية واللغوية للبلدان المعنية، فإنها تدخل بطبيعتها في اختصاص الأدب المقارن، الذي أخذ على عاتقه منذ نشأته في القرن الماضي الخوض في مثل هذه الإشكاليات ذات الطابع الدولي.

غير أننا نلاحظ، ومنذ الوهلة الأولى ، أن المقارنين الفرنسيين — الذين كانوا سباقين في مجال الدراسات الأدبية المقارنة، وفي وضع قواعدها ومناهجها، وفي توجيهها أيضا الوجهة التي أرادوها لها — قد أغفلوا إغفالا تاما الحديث عن أدب المستعمرات، سواء منها المستعمرات الفرنسية أو المستعمرات الأوروبية الأخرى، وتركزت

---

1 هذا الدور يمكن أن تقوم به إحدى اللغات الوطنية أيضا، إذا توفرت الإرادة السياسية لدى أبناء البلد، حتى وإن كانت أقل تطورا من لغة المستعمر .

2 راجع في هذا الصدد الفصل الأول من كتاب أستاذنا الدكتور عبد الله ركيبي "الفرانكوفونية مشرقا ومغربا" وعنوانه "بين الفرانكوفونية والأنجلوسكسونية" الذي عقد فيه مقارنة وافية بين طبيعة الاستعمار الإنكليزي الاستعمار الفرنسي، من ص15 إلى ص33.

بحوثهم أساسا على نماذج وأمثلة من القارة الأوروبيــة، وتناولــت في الغالب الأعم علاقات التأثير والتأثر بين الأدب الفرنسي مــن جهــة، والأدب القومي لأحد البلدان الأوروبية الأخرى مــن جهــة ثانيــة، وبالأخص العلاقة مع الآداب القومية الكــبرى، كــالأدب الألمــاني، والإنكليزي، والروسي، والإيطالي، والإســباني، دون أن يغفلــوا في الوقت نفسه البحث في العلاقة مع آداب قومية أخرى محدودة الانتشار والرقعة الجغرافية، كالأدب الهولندي، والبولندي، والبرتغالي[3]. إلا أنهم قلما خرجوا عن ذلك التقليد الذي يمركز البحوث في القارة الأوروبية ويجعل الأدب الفرنسي حاضرا دوما في أي بحث[4].

ومع هذا فإننا لا نستطيع أن نرجع الإغفال المشار إليه ، إلى هذه المركزية الأوروفرنسية وحدها، إذ توجد هناك أسباب أخرى نرى أن لها دورا في هذا الإغفال ، أهمها ذلك التقليــد الــذي جعلــه المقارنون الفرنسيون قاعدة لا يمكن خرقها من قبل الباحثين، وهــو أنه لا يصح إجراء المقارنة بين أدبــين قــوميين إلا عــبر الحــدود

---

3 وقد عاب عليهم الأستاذ"ريني ويليك" هذه النظرة القومية الضيقة، ووصفها في شيء من السخرية بــأنها عملية ((مسك للدفاتر الثقافية))، وبأنها ((الرغبة في تنمية مدخرات أمة الباحث عن طريق إثبات أكبر عدد ممكن من التأثيرات التي أثرتها أمته على الشعوب الأخرى)). راجع: رينيه ويليك"مفاهيم نقدية"، سلسلة"عالم المعرفة" الكويتية، ترجمة د. محمد عصفور، شباط ــ فبراير 1987، ص368.

4 يكفي إلقاء نظرة على أكثر الكتب الفرنسية تداولا في"الأدب المقارن" لأشهر الأساتذة في هذا الميدان، مثل بول فان تيغم، وجان ماري كاري، وماريوس فرانسوا كويار، وكلود بيشوا و أ.م. روسو، للتأكد من هذه المركزية الأوروبية/الفرنسية. والوحيد الذي ثار على هذا التقليد هو الأستاذ إتيامبل في كتابه"مقالات في الأدب العام". راجع:
Marius-François Guyard «La littérature comparée» Coll. Que-sais-je, P.U.F Paris 1978 p6.

اللغوية[5]، وهذا ما يتعارض مع كون أدب المستعمرات — في حالة النظر إليه كأدب قومي أجنبي — قد كتب باللغة المشتركة مع المستعمِر.

وهناك سبب آخر نراه أيضا من وراء هذا الإغفال، وهو وضع تلك المستعمرات"القانوني" كبلدان تابعة للدولة أو الدول المستعمِرة، مما يجعل من الأدب الذي ينتجه أهلها، من وجهة نظر هؤلاء الباحثين ، فرعا من الأدب القومي للمستعمِر، لا أدبا قوميا أجنبيا قائما بذاته[6]، والدليل على ذلك، فيما يخص الجزائر، أنَ القواميس الفرنسية الأدبية، وكذا المؤلفات ذات الطابع التأريخي العام، قد تعاملت مع الكتّاب الجزائريين باللغة الفرنسية، في طبعاتها قبل سنة 1962، ككتّاب فرنسيين، وصنفتهم كفرنسيين على هذا الأساس[7]، بل إننا قد نجد مثل هذا التصنيف في مؤلفات أحدث ، تعود إلى ما بعد استقلال الجزائر بسنين عديدة [8].

---

5 Claude Pichois et A.M. Rousseau « La littérature comparée » Armand Colin. Coll. U2 Paris 1971, p175. وقد تأثر العديد من المقارنين العرب بهذه النظرة الفرنسية، ويأتي في مقدمتهم د. محمد غنيمي هلال، الذي يؤكد بدوره على أن موضوع الأدب المقان هو ((دراسة مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة (...) والحدود بين تلك الآداب هي اللغات)) راجع: د. محمد غنيمي هلال"الأدب المقارن" دار العودة. بيروت 1983، ص9.

6 هذا بالنسبة للاستعمار الاستيطاني على الخصوص، كما كان الحال في الجزائر، حيث كانت فرنسا تعد الجزائر أرضا فرنسية، والجزائريين رعايا فرنسيين أو "فرنسيين مسلمين".

7 د. عايدة بامية "تطور الأدب القصصي الجزائري"، ص53 .

8 هذا ما نجده عند الناقد المعروف "جان ريكاردو" في كتابه "الرواية الجديدة" الذي يضع فيه كاتب ياسين ضمن كتاب هذه الرواية من الفرنسيين. راجع : Jean Ricardou « Le nouveau roman », Ed. Seuil, Coll. M. (Ecrivains de toujours) Paris 1978, pp 6-7.

وحتى ندرك أبعاد المشكلة من أساسها، ونتعمق في فهمها ، ينبغي أن نذكر بأن مسألة الانتماء إلى الجزائر قد طرحت، من الناحية التاريخية قبل مطلع القرن العشرين من قبل المستوطنين الفرنسيين، وكان هناك من بينهم من ولد في الجزائر، الذين أرادوا، بعد أن تم لهم انتزاع الأرض من أهلها، أن ينتزعوا منهم الانتساب إليها أيضا، فوصفوا أنفسهم بـ"الجزائريين"، وكتبوا أدبا أرادوه أن يكون من "داخل الجزائر"، يتمتع باستقلاليته، في مقابل الأدب الذي كتبه"عن الجزائر" كتّاب من"الخارج"[9]. وقد أكد"ميزات" ــ وهو أحد أبرز وجوه ذلك الأدب الاستيطاني المستقل[10] ــ هذه الصفة حتى بالنسبة لبطل قصصه الشهير"كاغايو" حين يُسأل:أأنتم فرنسيون؟ فيجيب "لا، نحن جزائريون"[11].

وقد نتج عن التصريحات والمناقشات والجدال الذي دار منذ بداية القرن العشرين وإلى بداية العشرينيات، بين المستوطنين من جهة، وبينهم وبين منابر أدبية في"المتروبول"، حول وجود"أدب استيطاني" في الجزائر، إلى بعث ما يشبه"مدرسة أدبية" اتخذت من مجلة"فرنسا الكبرى" و"الحياة"، و"ميركور دو فرانس"، و"مجلة العالمين"، وإلى حد

9 Jean Déjeux « La littérature algérienne contemporaine », pp11-12 .

10 هو "أوغيست روبيني : Auguste Robinet "المشهور بـ "ميزات : Musette " ، من مواليد الجزائر(1862 ــ 1930)، نشر على مدى عشرين سنة سلسلة من قصص "المغامرات"، تصور مشاهد ومواقف "فكاهية" من حياة بطله "كاغايو"، الذي يقدمه الكاتب كنموذج يعكس عقلية مجتمع المستوطنين الجدد ، ويتصف بالقوة الجسدية، وحب النساء، وهو ((مشاكس وعنصري وديماغوجي)) راجع:
Jean Déjeux « La littérature algérienne contemporaine», p23

11 PadhilaYahiaoui «Roman et société coloniale , dans l'Algérie de l'entre deux-guerres.. » Ed. ENAL-Gam , Alger-Bruxelles. 1985 . p17.

ما جريدة "الوقت"(لوتان)، منبرا لنشر أفكارها، وهي الأفكـار الـتي تبلورت شيئا فـشيئا، لتعـرف فيمـا بعـد بحركـة "الجـزأرة" : (L'algérienisme)[12] .

وفي هذا السياق أصدر المستوطنون سنة 1906"مختارات من الشعر الجزائري"[13] لم يكن من بين شعرائها في الواقع اسما واحـدا جزائريـا فعلا، أي من أبناء البلد الأصليين، وتكرر نشر مثل هذه المختـارات الشعرية سنة 1920، والقصصية سنة 1925[14] ، وفي هذه المرة الأخيرة، وتحت تأثير التغيير الذي جاءت به قوانين 4 فبرايـر 1919، خـرج ناشرو"المختارات" عن التقليد المعمول به من قبل، ليضموا على احتشام اسما واحدا من" الأهالي" هو اسم عبد القادر حاج حمو[15] ، ولكن دون أن يتخلوا عن أطروحاقم الاستعمارية المعتادة، حيث نجـد "لـويس برتران"، الأب الروحي للكتاب المستوطنين، يعلن بكـل سـرور في المقدمة أنه ((تحقق في هذه "المختارات" ما كان يأملـه منـذ خمـسة وعشرين عاما، وهو ميلاد إفريقيا اللاتينية))[16] .

وتكريسا لهذا الاتجاه الاستيطاني في الأدب أنشأ الكتاب المستوطنون هياكل تنظيمية تسنده، وتقاليد تعطيه شخصيته المتميزة واسـتقلاليته عن"المتروبـــول"، فأسسوا في سنة 1921 جمعية أدبية أطلقوا عليهـا اسم "جمعية الكتاب الجزائـريين"، ومجلـة تنطـق باسـم الجمعيـة

---

12 Ibid, p61-62.
13 «La littérature algérienne contemporaine », p26 .
14 «La littérature algérienne contemporaine ». p27-28.
15 صاحب رواية "زهراء امرأة المنجمي" التي أصدرها سنة 1925 ، كما ذكرنا في الفصل السابق ، وتعد أول رواية يكتبها جزائري باللغة الفرنسية.
16 «La littérature algérienne contemporaine », p29.

سموها"إفريقيا" [17]، وأنشؤوا "جائزة أدبية"، أطلق عليها فيما بعد اسم "الجائزة الكبرى"، ظلت تمنح سنويا إلى سنة 1954، باستثناء بعض سنوات الحرب العالمية الثانية [18].

وقد وجد من بين هؤلاء الكتاب فئة تتعاطف مع"الأهالي"، حاولت أن تتفتح على محيطهم ، وأن تقترب منهم ، بل ، وتتقرب إليهم، وتتعلم لغتهم، وتكتب عنهم قصصا وروايات، وتدافع أحيانا عن بعض قضاياهم، لأنها اقتنعت ، فيما بدا من توجه هذه الفئة — وقد تمكن المحتلون من بسط سيطرتهم الكاملة على مقدرات البلد، واطمأنوا إلى تفوقهم الساحق على الأهالي — بأنه لا بد من منح فرصة لهؤلاء الأهالي لكي يسهموا بدور ما في حياة المستعمرة، حتى ولو كان دورا هامشيا، والسماح لكل من يبدي منهم استعدادا بالاندماج في المجتمع الاستيطاني الجديد، وهذا ما برز على الخصوص في كتابات "ألبير تروفيموس" و"ستيفان راوول" و"إيزابيل إيبرهاردت"، و"ماكسيمليان هيلر"، و"لوي لوكوك"، الذين اهتموا بتصوير العادات والتقاليد والاحتفالات الدينية لدى المسلمين ولدى اليهود، وكذلك اعتنوا بتصوير حياة المستوطنين اليومية في القرى وفي المدن الداخلية الصغيرة، ونقل جانب من علاقاتهم مع"الأهالي"، ومع بعضهم البعض، وعالجوا بعض المسائل التي تمس بصفة عامة المجتمع الاستيطاني المتعدد الأعراق والديانات، وأولوا اهتماما خاصا بمسألة الزواج بين مختلف

---

17 وأنشأوا بعدها عدة مجلات أخرى ، منها مجلة "الجزائر : Algéria" و"المجلة اللاتينية" و"مجلة إفريقيا الشمالية". راجع:
«Roman et société coloniale , dans l'Algérie de l'entre deux-guerres.. », p24 .

18 «La littérature algérienne contemporaine», p25 .

الطوائف، ولاسيما بين المسلمين والمسيحيين من جهة[19]، وبين اليهود والمسيحيين من جهة أخرى[20]، ويرجع التركيز على هذا الجانب بالذات، حسب ما نرى، لأهمية التزاوج المختلط في بعث التقارب والتفاهم والانسجام، في أوساط المجتمع الجديد الذي كانوا يتصورونه ويدعون إليه، والقائم على تعدد الأعراق والديانات، من جهة، ومن جهة أخرى، إلى ما في هذا الجانب العاطفي من مادة درامية غزيرة ملائمة للفن الروائي، تجد في الصعاب والعقبات التي يلقاها المتزوجون من طائفة غير طائفتهم معينا لا ينضب.

وقد اتخذوا أحيانا مواقف مناهضة لسياسة المستوطنين الجائرة إزاء الأهالي، ولكن ليس إلى درجة التشكيك في الأسس التي تقوم عليها سياسة الاستيطان في حد ذاتها، أو أيديولوجيته بشكل عام[21]، وبالرغم من ذلك فإن زملاءهم من المحافظين لم يكونوا راضين عنهم، واتهموهم

---

19 وهو الموضوع الذي سيشكل محورا رئيسيا في روايات الجزائريين باللغة الفرنسية في الفترة ما بين 1925 و1952. (راجع الفصل السابق)

20 «Roman et société coloniale.. », p28.

21 هؤلاء الكتاب "لوي لوكوك" و "ألبير تريميفوس" و"إيزابيل إيبرهاردت"، و"ماكسيمليان هيلر"، وأبرز الأمثلة على التعاطف مع الأهالي نجده في أعمال هاتين الكاتبتين، ففي رواية "البحر الأحمر" (1923) على سبيل المثال، لماكسيمليان هيلر — وهي يهودية قسنطينية — نجد دفاعا قويا عن أبناء جلدتها من جراء ما يلقونه في مجتمع المستوطنين الأوروبيين من نزعة العنصرية و"معاداة السامية"، ودفاعا في الوقت نفسه عن ظلم المستوطنين للسكان المسلمين، وقد جعلت بطل روايتها وهو محام يهودي شاب ينتحر نتيجة فشله في الدفاع عن أحد المسلمين الذين انتزعت منهم أرضهم ظلما، أمام مؤامرات المستوطنين الذين عرفوا كيف يفشلون مسعاه أمام القضاء الاستيطاني المتحيز. راجع :
Fadhila Yahiaoui « Roman et société coloniale , dans l'Algérie de l'entre deux-guerres.. », 29.

بالانحياز إلى الأهالي، وأطلقوا عليهم لأجل ذلك اسم"محبي الأهالي" أو الأهاليون (Les indigénophiles).

والواقع أن كتاباتهم كانت ذات طابع"إشفاقي" كما وصفها أحد الباحثين ((تحاول أن تكشف الفقر والمعاناة التي يعيشها الأهالي، وفي ذات الوقت تكشف جمال هذا الفقر من موقف بورجوازي رومانسي سياحي متفرج))[22].

في الوقت نفسه ، ظلت فئة من حركة كتاب "الجزأرة " تتمسك بالأطروحات الاستعمارية السابقة عن الحرب العالمية الأولى، التي وضع أسسها وعمل على نشرها"لويس برتران" و"ميزات " على الخصوص، في أعمالهما الروائية، وفي كتاباتهما الأخرى، ذات الطابع التحريضي المباشر، وذلك منذ ما قبل مطلع القرن، ويأتي على رأس هذه الفئة المحافظة الكاتب"روبير راندو"[23] ، الذي كان يرفض تماما فكرة دمج المسلمين مع غيرهم من الطوائف الأخرى التي تشكل المجتمع الاستيطاني، ولأجل موقفه المتصلب هذا، اعترض"الأهاليون" على ترشيحه لـ"الجائزة الأدبية الجزائرية"، وكانت حجتهم أنه"انفصالي" لا يشاركهم في فكرة"دمج الأهالي" التي كانوا يدعون إليها[24].

---

22 محمد أمين الزاوي"الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية"رسالة ماجستير نوقشت بجامعة دمشق سنة 1984، ص55.

23 روبير راندو (1873 ــ 1950) ، وإسمه الحقيقي "روبير آرنو" كاتب روائي، أشهر أعماله:"المستوطنون"(1907)، و"الجزائريانيون"(1911) و"كاسار البربري"(1921)، أسهم بآرائه النظرية في وضع أسس الأدب الاستيطاني في الجزائر ، وكان عضوا بارزا في حركة"الجزأرة". راجع: La littérature algérienne contemporaine », p26.

24 Fadhila Yahiaoui «Roman et société coloniale , dans l'Algérie de l'entre deux-guerres..», 21.

ويلاحظ في قصص وروايات هؤلاء الكتاب، ولاسيما من عرفوا بتعاطفهم مع الجزائريين، ظاهرة تداخل اللغات، ولاسيما الفرنسية والعربية منها، بدرجة ملفتة للنظر، فاقوا فيها من سبقوهم من رواد "الأدب الاستيطاني المستقل"، وبالخصوص "ميزات"، كما ألمحنا آنفا، مع الفارق في الرؤية والهدف من استعمال هذا التداخل اللغوي[25]، بحيث نجدها مليئة بالتعابير والمفردات والأسماء والأمثال والتشبيهات العربية، وهو ما يلاحظ حتى في عناوين الحكايات والقصص، مثل أعمال "لوي لوكوك" على الخصوص[26]، كـ "سيدي غراب" (1923)، و"خمسة في عينك" (1924)، و"كاين" (1930)[27]، وهو ما شكل في حد ذاته ظاهرة لغوية كانت محل اهتمام بعض الباحثين[28].

وفي منتصف عقد الثلاثينيات، ومع صعود اليسار في فرنسا إلى سدة الحكم، ممثلا في "الجبهة الشعبية"، عرف أدب المستوطنين في الجزائر

---

25 لقد كان "ميزات"، يتكلف خلق "لغة" خاصة في كتاباته ، أطلق عليها اسم لغة "السابير" تختلط فيها المفردات والتعابير الفرنسية بالإيطالية والإسبانية، بل، والعربية والعبرية والبربرية، بدافع إثبات الذات، وتأكيد استقلالية مجتمع المستوطنين الأوروبيين في الجزائر عن لغة الفرنسيين في فرنسا، أما ظاهرة تداخل اللغات لدى مدرسة "الجزأرة"، فترجع أساسا لشدة التصاق أعمالهم بالواقع، وعنايتهم بتصوير العادات والتقاليد المحلية، ووصف مختلف مظاهر الحياة اليومية لـ "الأهالي".

26 "لوي لوكوك" (1885 ــ 1932) أحد أهم كتاب حركة "الجزأرة" كما يصفه "جان ديجو"، وأحد الذين عرفوا بتعاطفهم القوي مع الجزائريين، وقد عمل بكل ما في وسعه على تغيير نظرة المستوطنين إلى "الأهالي". راجع :
Jean Déjeux « La littérature algérienne contemporaine », p31-32.

27 Fadhila Yahiaoui « Roman et société coloniale , dans l'Algérie de l'entre deux-guerres.. », p32 .

28 راجع في هذا الصدد الملحق الإحصائي الدقيق الذي وضعته السيدة "كريستيان عاشور" بالتعابير العربية المستعملة في قصص وروايات أشهر هؤلاء الكتاب ، في كتابها:
"Abécédaires en devenir; idéologie coloniale et langue française en Algérie" p 541 à 578.

بدوره نقلة نوعية استحوذ فيها كتاب يساريون على توجيه مسار الحركة الأدبية فيما أصبح يعرف بـ"مدرسة (مدينة) الجزائر" الأدبية، وهو الاسم الذي أطلقه عليها"كابريال أوديسيو"، أحد زعمائها البارزين، أو"مدرسة شمال إفريقيا للأدب" حسب التعديل الذي أدخله "ألبير كامو" على اسمها[29].

تميزت"مدرسة الجزائر" هذه من الناحية الأدبية عن سابقتها بتحول مركز الاهتمام لدى كتابها من وصف العادات والتقاليد وحياة القرى والأرياف والمدن الداخلية، إلى التركيز على موضوع البحر والشمس والحياة في المدن الساحلية، وكان لألبير كامو بكتاباته الوصفية الأولى ممثلة على الخصوص في كتابه" أعراس"(1938) ثم بأعماله الروائية والقصصية اللاحقة، ولاسيما"الغريب"(1942) و"الطاعون"(1947)، دور بارز في إرساء أسس هذه المدرسة الأدبية، بفضل النماذج الفنية الرائعة التي قدمها من خلال تلك الأعمال.

وما يميز هذا الوصف بالنسبة لألبير كامو، أنه لم يكن وصفا سطحيا أو محايدا، ولكنه كان تفاعلا كاملا مع الطبيعة، وتواصلا عبر الحواس، يعكس فلسفة في الحياة، ونظرة إلى الكون والوجود، تجلت أول ما تجلت في"أعراس" التي عبر فيها عن إحساس قوي بالطبيعة، وتفاعل مع عناصرها، ورصد لكل ما يصدر عنها، وامتزاج كامل بها، وإقبال غير هياب على بهجة الحياة والتلذذ بمتعها، إنه نوع من"زواج الإنسان بالطبيعة"، بالمعنى الشهواني الذي توحي به كلمة"الزواج"، وهذه، كما

29 Fadhila Yahiaoui « Roman et société coloniale , dans l'Algérie de l'entre deux-guerres.. », p29.

يقول أحد النقاد، هي الدلالة التي يوحي بها عنوان كتابه"أعــراس"[30].
وقد عبر عن هذا المعنى في أماكن متفرقة من الكتاب، مثل ما نجــد في هذه الصورة الرمزية المكثفة حين يقول:

((بحر وبراري وصمت، وروائح هذه الأرض، إنني أمتلئ بحياة شمّية وأعض على ثمرة العالم التي قد صار لونها بلون الذهب، وقد اهتز كياني من الإحساس بعصارتها الحلوة القوية، وهي تسيل على شفتي))[31].

ويعطي لإحساسه هذا بعدا تاريخيا لا يتوقف عند حدود اللحظــة الحاضرة ، وذلك عبر تأملاته وهو يطوف بين آثار الرومان في"تيبازا" و"جميلة" ((هذا التداخل بين الريح والشمس، الــذي يمــزج النــور بالخرائب (الآثار)، إنه شيء يتشكل ليعطي للإنسان أداة اختبار لهويته في مقابل عزلة المدينة الميتة وصمتها))[32].

ويؤكد هذا الإحساس بالتاريخ في موضع آخر ، وهو يتجول على شاطئ البحر، بين ضجة المصطافين وحركتهم المليئة بالحياة والحيوية، حين يقول: ((...اليوم، وعلى امتداد هذا التاريخ، فإن ركض الفتيان على شاطئ المتوسط يلتقي مع الحركات الرائعة لرياضيي"ديلاس"))[33].

ولشدة غرامه بالشمس والبحر اختار الكاتب لبطل روايته"الغريب" اسم"مورسو" القريب من اسم"جان ميرسو" الذي كان كامو يوقع به

---

30 Albert Camus « Noces à Tipaza » in « Noces » , Ed. Gallimard , Paris 1950, p27.

31 Noces à Djémil p32 .

32 L'été à Alger, p52 .

33 Ahmed Taleb Ibrahimi «Camus vu par un algérien» in «De la décolonisation à la révolution culturelle» , S.N.ED Alger 1973 , p168 .

مقالاته الصحفية سنة 1939، كما يذهب إلى ذلك صديقه إيمانويل روبلس، وهو اسم منحوت من كلمتي "شمس" و "بحر" (Mer-Soleil)[34].

ونلاحظ في روايته "الغريب" أيضا أن الشمس والبحر يتخذان بعدا رمزيا قويا، بحيث يصبحان وجها للحياة والموت معا، فقد ارتكب "مورسو" جريمته حين قتل الرجل العربي على الشاطئ وهو واقع تحت تأثير حرارة الشمس وانعكاس أشعتها على سطح البحر، كما ذكره حر ذلك اليوم بحرارة اليوم الذي دفن فيه أمه: ((وشعرت بحبات من العرق تتجمع على أهدابي. كانت الشمس كشمس ذلك اليوم الذي دفنت فيه أمي، ومثل ذلك اليوم شعرت بصداع في جبهتي على الخصوص، وكل عروقي كانت تنبض بقوة تحت جلدها، وبسبب لفح ذلك الحر الذي لم أعد أحتمله، تقدمت خطوة إلى الأمام. كنت أعرف أنها حركة حمقاء ، لأنني كنت أعلم أن خطوة إلى الأمام لا يمكن أن تخلصني من الشمس، ومع ذلك تقدمت خطوة ، خطوة واحدة إلى الأمام ... وعميت عيناي خلف هذا الستار من الدموع والملح، ولم أعد أحس إلا بدقات الشمس على جبهتي ... وأخذ كل شيء يتأرجح أمامي، ونفث البحر كتلة من الهواء سميكة ولاذعة، وبدا لي كما لوكانت السماء قد فُتحت على اتساعها لتمطر لهبا، وتوتر كياني كله ، وقلصتُ يدي علَى المسدس، فاستجاب الزناد، ولمست بطن المسدس المصقول، وهنا، وفي دوي جاف وحاد في آن واحد ، بدأ كل شيء..))[35].

---

34 Ibid p171.

35 Albert Camus «L'étranger» Ed. Gallimard, Coll. (Le livre de Poche), Paris 1957 , p90 .

غير أن"مدرسة الجزائر" هذه، حتى وإن اختلف توجهها السياسي عن المدرسة السابقة، وطبعت في الظاهر بطابع اليسار المناهض للفاشية، فإنها لم تكن تحمل من الفكر الثوري ما يجعلها تعيد النظر في الأطروحات الاستعمارية السابقة، فلم تبتعد من حيث الاسم عن حركة "الجزأرة"، بحرصها على تأكيد جزائريتها بربط اسمها بالجزائر، كما أن أساسها ظل استعماريا خالصا، مثلها مثل الحركة المذكورة[36].

إن النموذج الذي قدمته"مدرسة الجزائر"، وعبر عنه"كامو" وجماعته، باعتباره رؤية فنية، ومذهبا أدبيا، لا يختلف في واقع الأمر في جوهره عن دعوة" لويس برتران" قبله إلى بعث حضارة الرومان القديمة في شمال إفريقيا، أو ما كان يصر"برتران" على تسميته بـ" حضارة

---

36 وقد سجل لنا التاريخ بالوقائع كيف أن الجمهوريين في القرن التاسع عشر كانوا أسوأ بالنسبة للجزائر من الملكيين، كما أن اليسار الرسمي الفرنسي لم يكن أفضل من اليمين، لأن اليمين كان على الأقل صريحا وواضحا، ففي عهدهم وقعت كل التجاوزات، وخاصة بعد عودة الجمهوريين إلى الحكم سنة 1871 (راجع الفصل الأول من هذا البحث). كما ينبغي أن نذكر هنا أنه في أول فرصة أتيحت لليسار الفرنسي للوصول إلى سدة الحكم، أصدرت حكومة"ليون بلوم" سنة 1937 قرارا يقضي بحل حزب"نجم شمال إفريقيا" الذي كان حليفا لها منذ نشأته إلى وقت قريب من ذلك العهد، واعتبرت نشاطه خطرا على الشعب، واتهمته بالتعامل مع الفاشية والنازية. والحكومة اليسارية نفسها كانت قد رفضت في سنة1936، نزولا عند رغبة المستوطنين الأروبيين= = مطلب حزب"فيدرالية المنتخبين الجزائريين" بمنح المثقفين الجزائريين والضباط الذين خدموا في الجيش الفرنسي حق المواطنة الفرنسية La citoyenneté française وحق التصويت في الانتخابات التي تجري في البلد، دون التخلي عن دينهم الإسلامي، وهو الشيء الذي ولّد لدى زعماء هذا الحزب شعورا قويا بالخيبة، ورد فعل جعلهم يغيرون نظرتهم في مسألة"الاندماج"، ليطالبوا بحق الاستقلال الداخلي. راجع في هذا الصدد ، على التوالي: يوسف مناصرية"الاتجاه الثوري في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين العالميتين 1919ـ1939"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988، ص85. وعمار بوحوش"المهاجرون الجزائريون في فرنسا" ص103، 104.

إفريقيا اللاتينية"، حتى وإن بدت دعوة كامو وجماعته محايدة، وبعيدة عن تعصب "برتران" وعنصريته، بل إنها قد تبدو في ظاهرها دعوة إنسانية (Cosmopolite)، تعمل على تقارب الشعوب، وتحاول أن تتخطى الحدود القومية الضيقة إلى الانفتاح على كل سكان المتوسط، بلا استثناء ولا إقصاء، والحقيقة أنها كانت إلى حد ما كذلك في شقها الذي يتحدث عن وضع أسس أدب متوسطي، يقوم على عناصر طبيعية تشترك فيها كل الشعوب المطلة على المتوسط من بحر أزرق فسيح، وشمس ذهبية ساطعة، وخضرة غابية تبهج القلب وتمتع النظر، ولكن سرعان ما تكشف الدعوة في شقها الثاني عن وجهها التسلطي المركزي الأوروبي (Eurocentriste) المبَّيت، وذلك حين يجعل المبشرون بها هذا الديكور الطبيعي يستمد روحه من القيم الفكرية والحضارية اليونانية والرومانية، أي الأوروبية، ويتجاهلون تماما بقية الحضارات المتوسطية الأخرى التي ازدهرت على الشاطئ الشرقي والجنوبي للمتوسط، وسبقت في معظمها الحضارتين اليونانية واللاتينية إلى الوجود بعشرات القرون، ونعني بها الحضارة الفينيقية، والفرعونية، وحضارة قرطاج ونوميديا.

وقد عبر زعماء المدرسة عن هذا المعنى منذ انطلاقتهم الأولى، بحيث أن"غابريال أوديزيو"[37] على سبيل المثال، كان لا يخالف"لويس برتران" في ادعائه بأن المتوسط هو"بحيرة لاتينية"، ويتعمد أن ينطق العبارة باللاتينية مثله، ويسندها إلى ضمير جماعة المتكلمين فيقول: (Mare nostrum) (بحرنا) ليؤكد على عراقة ملكية المتوسط لحضارة

---

37 غابريال أوديزيو(1900ـ ..) روائي وشاعر وأحد المؤسسين البارزين لمدرسة الجزائر

اللاّتين، ولكنه لا ينسى فقط أن يذكّر "برتران" بأن المتوسط ((كـان بحرا إغريقيا قبل أن يكون لاتينيا))[38].

ويذهب معظم زعماء مدرسة الجزائر هـذا المـذهب، ويـأتي في مقدمتهم ألبير كامو، الذي قال في محاضرة له ألقاها سنة 1937، وبدا فيها بدوره كأنه يصحح لـ"لويس برتران" فكرته عن "إفريقيا اللاتينية" ((لا ينبغي أن يوضع في روما ما كان قد بدأ في أثينا، كما أنه لابـد من إيجاد حضارة مشتركة بين كل سكان ضـفاف المتوسـط))[39]. ونلاحظ هنا كيف أن كامو يتحدث عن كل سكان ضفاف المتوسط، ولكنه يكتفي بذكر الحضارتين اليونانية واللاتينية، ولا يشير حتى مجرد الإشارة إلى الحضارات المتوسطية الأخرى. وقد تميز كامو أكثر مـن زملائه الآخرين بقدرته على تجسيد تـصوراته النظريـة في أعمالـه الإبداعية التي أشرنا إلى بعضها آنفا[40].

38 Roman et société coloniale., p30 .
39 Roman et société coloniale.,, p30
40 تجسد مشروعه النظري في شقه الأول في"أعراس" حين راح يستنطق الآثار الرومانية في"تيبازا" و"جميلة" ، ويتغنى بالديكور الجميل الذي كان يحيط بها من بحر وغابة، وشمس مشرقة ، ثم في روايتي "الغريب" و"الطاعون"، وواصل مشروعه في شقه الثاني باستلهامه من الميثولوجيا اليونانية ومن التاريخ الروماني عدة أعمال أدبية اصطبغت بطابع فلسفي، مثل أسطورة"سيزيف"(1942) التي حاول أن يجسد من خلالها فلسفة العبث (L'absurde) التي عرف بها، و"كاليغولا" (1945) التي عالج فيها مشكلة الاستبداد، من خلال استعراض وقائع من حكم الأمبراطور الروماني الطاغية كاليغولا، في تلميح واضح إلى شخصية"هتلر" و"ميسوليني" اللذين ابتليت بهما أوروبا الحديثة، وقد شكل كل ذلك خلفية فكرية متكاملة لدى الكاتب تستمد قيمها من الثقافة الغربية القديمة وتعبر عن أوضاع أروبا في العصر الحاضر.

وانطلاقا من فكرة الحضارة المتوسطية هـذه، يحسب "إمانويل روبلس" نفسه مواطنا "متوسطيا"[41]، ولكنه مثل "كامو" لا يرى من المتوسط إلا الأرض المحتلة التي يقف عليها (الجزائر)، والضفة الشمالية من المتوسط: ((إنني ابن الجزائر بقدر ما أنا ابن إيطاليا أو اليونان أو إسبانيا))[42].

ولم يكن "كامو" وهو المدافع العنيد عن الحرية، يتصور حتى مجرد التصور، انفصال الجزائر عن فرنسا[43]، وقد ظل على موقفه ذاك إلى أن مات سنة 1960، والثورة الجزائرية على أشدها، بل لقد وقف موقفا مضادا من كفاح الشعب الجزائري، وقد عبر عن ذلك في ندوة صحفية له عقدها بستوكهولم عام 1957، بمناسبة تسلمه لجائزة نوبل للآداب، فأجاب على سؤال شاب جزائري طلب منه أن يوضح موقفه من "حرب الجزائر" بقوله: ((إنني أومن بالعدالة، ولكنني أدافع عن أمي قبل دفاعي عن العدالة))[44].

وواضح من قوله هذا أنه يعترف ضمنيا بعدالة القضية الجزائرية، وحق الشعب الجزائري في الحرية، ولكن عاطفته الوطنية (دفاعه عن أمه "فرنسا") تمنعه من الوقوف إلى جانب العدالة.

---

41 "إيمانويل روبلس" من أصل إسباني ، ولد سنة 1914 بوهران ، له ما يقارب العشرين عملا أدبيا، تتوزع بين الرواية والقصة والمسرح، أشهرها رواية "أعالي المدينة" ومسرحية "مونسيرا" . .

42 Roman et société coloniale, p31 .

43 ((لأن انفصالهما ــ حسب تصوره ــ سيقضي عليهما معا بشكل أو بآخر)) :
Cité par Ghani Merad « La littérature algérienne d'expression française» p36.

44 Ahmed Taleb Ibrahimi « Camus vu par un algérien » p178 .

وإذا كانت هذه العبارات، غامضة بعض الشيء، وقابلة لأن تؤول بشكل من الأشكال لصالح الكاتب، بسبب الأسلوب الأدبي المكثف الذي استعمله فيها، فإن تصريحاته الصحفية الأخرى لم تكن لتقبل أي تأويل ((ينبغي أن ينظر إلى مطلب الاستقلال الوطني الجزائري في جزء منه كتعبير عن هذه الأمبريالية العربية الجديدة التي تدعي مصر، من موقع الثقة في قواها، أنها تشكل طليعتها))[45].

أما بعض زملائه الآخرين فقد تغير موقفهم من قضية الشعب الجزائري تغيرا جذريا، وخاصة"إيمانويل روبلس". وقد ذهب بعضهم إلى الوقوف في صف الثورة الجزائرية بلا تحفظ مثل ما فعل"جان سيناك"[46]، و"هنري كريا"[47]، اللذين عبرا عن تجندهما لخدمة القضية الجزائرية عن طريق الكلمة، وأطلق الأخير على نفسه وعلى رفاقه من مناصري الثورة الجزائرية اسم"جيل 54"[48]، في إشارة واضحة إلى السنة التي انطلقت فيها شرارة الثورة التحريرية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن دعوة"مدرسة الجزائر" إلى إيجاد أدب متوسطي يستمد خصائصه من الطبيعة المتوسطية، وروحه من الحضارة اليونانية والرومانية، قد وجدت لها صدى وتقبلا في حينها لدى العديد من المثقفين المغاربة من حاملي الثقافة الفرنسية، كما وجدت لها صدى

---

45 Ibid, p179 .

46 الشاعر"جان سيناك" من مواليد1926 ببني صاف، اشتغل في التدريس وفي الصحافة الأدبية والإذاعة، أصدر ما يزيد عن عشرة أعمال أدبية معظمها دواوين شعرية، ذهب ضحية جريمة غامضة في نهاية أوت 1973.

47 الشاعر"هنري كريا" أو "هنري شريعة"، لأنه نحت اسمه من اسم جبل الشريعة في أعالي البليدة، ولقبه الحقيقي هو"كوشان" ولد سنة 1913 من أم جزائرية وأب فرنسي، أصدر ما يزيد عن خمسة عشر ديوانا شعريا ، وساهم بالكتابة في مجال الرواية والمسرح والمقالة.

48 « La littérature algérienne d'expression française » Sous la direction de Albert Memmi « La poésie algérienne de 1830 à nos jours » , Mouton, Paris 1963, p63

حتى في بعض البلاد الواقعة خارج الهيمنة الثقافية الفرنسية، وبالأخص في مصر، حين حمل لواءها الدكتور طه حسين، ولكن من منظور آخر [49]، دون أن يحصر نطاقها في مجال الأدب وحده، وذلك في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر"، الذي نشره سنة 1938، حيث عبر فيه عن ((إيمانه بأن مستقبل الثقافة في مصر يتعلق بالانتماء إلى البحر المتوسط وإلى الغرب(...) وهي النظرة التي يشاركه فيها "الفرانكوفونيون" (الجزائريون والمغاربة)، ودعاة الاتجاه إلى الغرب وحضارته، سواء منهم من أحس بالانبهار أمام تفوقه أم من لم يشعر بذلك، واعتبر هذا أمرا مفيدا وصالحا لتطورنا وخروجنا من المأزق الثقافي والحضاري الذي تعيشه الأمة العربية)) [50]. وبالطبع لم يتحقق مستقبل الثقافة في مصر على النحو الذي رسمه طه حسين، ولكن مشروعه أو ما يماثل مشروعه وجد من يدافع عنه في مصر، وفي البلاد المغاربية، ومازال إلى يومنا هذا من يؤمن به هنا وهناك [51].

---

49 كانت دعوته تلك، كما فسرها الدكتور عبد الله ركيبي على سبيل الترجيح: ((نوعا من تحرير الفرد والمجتمع من "عقدة الغرب" ومن مركب النقص تجاهه ، بحيث يصبح المصري هو نفسه مندمجا في هذه الثقافة وفي هذه الحضارة لا عالة عليها أو تابعا لأصحابها)) راجع: د. عبد الله ركيبي "الفرانكوفونية مشرقا ومغربا" ص217.

50 نفسه، ص217 ـ 218 .

51 في هذا الصدد ظهر بالجزائر العدد الأول من مجلة جديدة بالفرنسية(نوفمبر1997) تصدر عن دار "مارينور" بعنوان « Escales» "تعنى أساسا بنشر الثقافة المتوسطية" . أما على الضفة الأخرى من المتوسط فقد شهد النصف الثاني من العام السنة المذكورة (1997) في إيطاليا وحدها مؤتمرين، عقد أحدهما في نهاية شهر أكتوبر بنابولي نظمته قيادة البحرية الإيطالية، يتعلق بالنشاط البحري في الفترة ما بين القرنين 12 و16، والآخر في الأسبوع الثالث من شهر نوفمبر في باليرمو حول موضوع"أدب البحر المتوسطي"، وشارك في كلا المؤتمرين ممثلون من أوروبا والبلاد المغاربية ومصر، ويظهر من تعاليق هؤلاء المشاركين التي نشرتها الصحافة أن النوايا لم تكن دائما حسنة. راجع على التوالي

ومن البديهي أن الكتاب الجزائريين في هذه المرحلة لم يكونوا بمعزل عن "مدرسة الجزائر"، كما لم يكونوا من قبل بمعزل عن حركة "الجزأرة" التي سبقتها، فقد كان معظمهم ينتسب إليها بشكل مباشر أو غير مباشر، سواء بتبني أطروحاتها الفكرية، أو عن طريق توظيف جمالياتها في الكتابة الإبداعية، وقد كان عبد القادر حاج حمو من أوائل الأعضاء في"جمعية الكتاب"، ثم أصبح نائبا لرئيس الجمعية المذكورة، كما حصل على عضويتها في وقت لاحق البودالي سفير، ومحمد زروق، وجميلة دباش على سبيل المثال[52]، كما كانوا وغيرهم من الكتاب الآخرين مثل رابح زناتي، ومحمد ولد الشيخ، يسيرون من الناحية الفنية على خطوات تروفيموس، ولوكوك وإيبيرهاردت، وهيلر، في كتابة ما عرف بـ"الرواية الإثنوغرافية"[53] التي راجت على الخصوص في العشرينيات والثلاثينيات، بحيث لم تكن تختلف رواياتهم عن روايات المستوطنين إلا في كونها تعكس((صورة ذاتية للإنسان الجزائري))[54]، وفي المرحلة اللاحقة كان كاتب ياسين ومحمد ديب ومالك حداد ومصطفى الأشرف ومحمد الشريف ساحلي ينتمون

جريدتي: "الخبر" بتاريخ 22 و11/23/ 1997، وجريدة El-Watan بتاريخ 1997/11/19.
ويرى بعض الملاحظين أن اللقائين اللذين تما بين بعض مثقفي اليسار العربي والأوروبي والإسرائيلي في غرناطة بإسبانيا سنة 1992، وفي أوسلو 1977، على هامش محادثات السلام الفلسطينية/الإسرائيلية، يدخلان أيضا في هذا الاتجاه المتوسطي.

52 « Situation de la littérature maghrébine de langue française »,p17.

53 وحصل بعضهم على جوائز مختلفة بما فيها"الجائزة الكبرى"، مثل عبد القادر حاج حمو وجان عمروش المذكورين. كما حصل العديد من الكتاب الجزائريين الذين اشتهروا في عقد الخمسينيات بدورهم على جوائز مثل ديب، وفرعون ومعمري. راجع في هذا :
Jean Déjeux « Bibliographie méthodique et critique de la littérature algérienne de langue française 1945 -1977 » , S.N.E.D Alger 1979, p21 à 23 .

54 Ahmed Lansari « Mohammed Ould Cheikh, un romancier algérien des années trente», O.P.U Alger 1986, pp42-43.

إلى اليسار، مثلهم مثل كامو وروبليس وسيناك وكريـا، ويناضـلون أحيانا في حزب واحد، ويعرفون بعضهم بعضا معرفة شخصية، ولهم صداقات حميمة أحيانا[55]، وزمالة في العمل، وكانت لهـم لقـاءات ومناقشات أدبية[56]، وكانوا يحررون، أو ينشرون مقالات وإبـداعات في العديد من الصحف والمجلات جنبا إلى جنب[57]، ولم يكونوا أبـدا يختلفون، في أسوأ الأحوال، عن زملائهم من الكتاب المـستوطنين في الأشكال الفنية، فقد ظلوا في معظم الأحيان يستلهمون موضـوعات رواياتهم من التراث المحلي، ويسردونه بشكل تقليدي أو تعليمـي، ولم يحاولوا أبدا الخروج عن الشكل أو النموذج المتداول الذي يكتب بـه المستوطنون، وقد استمروا في الكتابة على هذا المنوال حتى في عهـد الثورة التحريرية، بحيث تمكنوا من تقديم نموذج ثوري على مـستوى المضمون مستلهم من الثورة نفسها، ولكنهم على مستوى الـشكل لم

---

55 روي محمد ديب في حوار إذاعي له بعض ذكرياته مع ألبير كامو، ولقاءاته المتكررة معه كلما زار العاصمة، ومن تلك الذكريات أمسية قضياها معا ذات يوم ربيعي من سنة 1950 بنواحي تيبازا التي كان كامو يحبها كثيرا، وتحدث عن جوانب من شخصية كامو التي تتميز بالمرح وحب الحياة، وذكر أنه بعد الغداء، راح كامو، وقد لعبت برأسه الخمرة يسير على سور الميناء الضخم، ويرقص ويغني مثل طفل. (مقتطف من حوار إذاعي مطول مـع محمد ديب (يمتلك الباحث شريطا مسجلا منه)، أجرته معه إذاعة فرنسا الثقافية : France Culture وأذيع في شهر ماي من سنة 1997.

56 مثل ذلك اللقاء الذي انعقد في الفترة ما بين 23 فبراير و13مارس 1948 بـ"سيدي مدني" قرب البليدة، وأشرفت على تنظيمه"مصلحة الحركات الشبانية والتربية الشعبية"، وكان من ورائه ألبير كامو الذي شارك فيه بحماس، وحضره من الكتاب الجزائريين على الخصوص محمد ديب. راجع:
Jean Déjeux « Mohammed Dib , écrivain algérien » Ed. Naaman. Sherbrooke. Québec. Canada 1977,p9.

57 مثل جريدة Alger Républicain و L'action ومجلات : Afrique و Simoun و Soleil و Terrasses وغيرها. وقد اشتغل كل من محمد ديب وكاتب يسن كمحررين ومراسلين بصحيفة "Alger Républicain" التي كان يعمل بها كامو نفسه

يتمكنوا من التخلص من النموذج التقليدي المتداول، وأصبح التباعد صارخا بين مضمون ثوري حقيقي وشكل"فقير"، ومتعجل في الغالب[58]، ولم يشكل الاستثناء في هذا"التباعد" إلا كاتب ياسين في روايته"نجمة"[59].

وكانوا يتوجهون جميعا إلى قارئ واحد، أو رأي عام واحد هو القارئ الفرنسي، والرأي العام الفرنسي بشقيه: الفرنسي في فرنسا، والاستيطاني في الجزائر، ليقولوا بعض الحقائق[60]، أما القارئ الجزائري فلا مجال للحديث عنه في الفترة المتحدث عنها، في ظل واقع تعليمي لا تتاح فيه الفرصة في التعليم الابتدائي إلا لحوالي6 % من مجموع الأطفال الجزائريين الذين كانوا في سن الدراسة آنذاك، أما التعليم الثانوي والجامعي فإن النسبة فيه كانت ضئيلة جدا إلى درجة لا تستحق الذكر[61]، يضاف إلى هذا الجانب المستوى المعيشي الضعيف لمعظم الجزائريين، وهو ما كان يقف حائلا دون وجود هذا القارئ، بحيث كانت القراءة محصورة في عدد محدود من الموظفين وأنصاف المتعلمين من التجار وملاك الأرض، وهم من القلة بحيث لا يشكلون جمهورا قارئا، ولا رأيا عاما يعتد به.

من هذا كله، وبسبب هذه التسميات التي تنتسب كلها إلى الجزائر، وهذا التداخل بين المدارس الأدبية في المفاهيم والمنطلقات الفكرية،

---

58 Abdelkabir Khatibi « Le roman maghrébin » , p15.

59 Ibid,p15.

60 Jean Déjeux «Mohammed Dib , écrivain algérien» p13. Et Albert Mémmi Anthologie des écrivains maghrébins d'expression française», Ed. Présence Africaine , 2ème édition, Paris 1965 , (Introdution) p18.

61 راجع الطاهر زرهوني"التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال" ص22.

وهذا التلاقي على المستوى الجمالي بين الكتاب، بالرغم من تباين أصولهم الإثنية، واختلاف انتماءاتهم الاجتماعية والدينية، بالإضافة إلى وسيلة التعبير، أي اللغة التي كانت تشكل العنصر الأساسي المشترك بين الجميع، جاء سوء الفهم في المقصود لدى كل طرف بـ"الأدب الجزائري"، وفي تحديد من هو"الكاتب الجزائري"؟ ومن هنا جاء التنازع على من يصح أن يتصف بهذه الصفة، والكل يدعي لنفسه هذا الشرف.

هذا ما دفع ببعض الصحف والمجلات المتخصصة مثل مجلة"الأخبار الأدبية" الفرنسية إلى القيام سنة 1960 باستفتاء في هذا الصدد، شارك فيه مجموعة كبيرة من الكتاب الجزائريين والمستوطنين، وكان من بينهم محمد ديب ومولود فرعون، ومالك حداد، وهنري كريا، وكابريال أوديزيو، وجول روا، وجان بيليكري، وروجي كوريل، وغيرهم من الأسماء المعروفة[62]، وكان السؤال الرئيسي يدور حول: من هو الكاتب الجزائري؟ وقد نص السؤال بالكامل على ما يلي: حينما يذكر اسم الكتّاب الجزائريين فإنه غالبا ما يراد به الكتّاب من الأصل الأروبي، مثل ما يراد به، وبنفس القدر الكتّاب المسلمين العرب أو

62 يذكر ألبير ميمي في مقدمة "مختارات من أدب الكتاب المغاربة ذوي التعبير الفرنسي" أنه سبق للصحيفة نفسها"الأخبار الأدبية" أن نشرت في عددها الصادر بتاريخ 15 أكتوبر 1953 تحقيقا للسيد ب. كرونو جعل محوره التساؤل عما إذا كان لـ"أدب شمال إفريقيا" خصائص تميزه عن الأدب الفرنسي، وتوصل إلى نتيجة أنه لا يوجد من الناحية العملية ما يميزه عنه. راجع :
Albert Mémmi, « Anthologie des écrivains maghrébins d'expression française », Ed. Présence Africaine, Paris 1965, 2ème édition, p12.

القبائل، فهل تقدّرون أنتم أن عبارة "الكتّاب الجزائريين" لا تحمل أي لبس في معناها؟[63].

وقد اتفق معظم المستفتين على أن هناك بالفعل لبسا في العبارة، لكنهم اختلفوا اختلافا شديدا في تعليل أسباب اللبس، وقدم المستوطنون على الخصوص أسبابا واهية، وتفادوا ذكر الحقائق التاريخية التي نتج عنها، فرده بعضهم، مثل"روني جاك كلو" إلى الثورة الجزائرية التي كانت آنذاك في عامها السادس، ومع ذلك يطلق عليها هذا الكاتب وغيره من المستوطنين عبارة"الأحداث" الأخيرة[64]، كما رده بعضهم الآخر مثل"جول روا" إلى"تنوع أصول الكتاب الجزائريين" الذي يرى فيه، من ناحية أخرى، دليلا على الثراء الروحي للجزائر"[65]، في الوقت الذي راح فيه بعضهم الآخر يغلف رده بعبارات إنشائية فضفاضة ومضللة، مثل"روجي كوريل" الذي وصف الجزائر بأنها ((مخدر أسود وأبيض، يقتل ويحيي..)) وأنه يتحتم ((على من ربطوا مصيرهم بها أن يغضوا الطرف عن"خيانتها" لهم مع غيرهم، كما يتغاضى (حرفيا: يتواطأ) العشاق الأذكياء، على خيانة معشوقة على قدر كبير من الجمال والبلادة))[66].

وقد استفز هذا القول وشبيهه من الأقوال الشاعر مالك حداد الذي عاد مجددا إلى موضوع الاستفتاء المذكور في مقاله المطول" الأصفار

---

63 Marissel André « Les écrivains algériens s'expliquent » , in « Les Nouvelles littéraires » du 13 Octobre 1960. Cf: Jean Déjeux « Bibliographie méthodique et critique de la littérature algérienne de langue française 1945 - 1977 », p27 .
64 Malek Haddad « Les zéros tournent en rond », p24 .
65 Ibid,p25.
66 Les zéros tournent en rond,p26.

تدور في فراغ"، ليرد على "كوريل" بقوله: ((إن الجزائر ليست عشيقتنا المشتركة، إنها أمنا، ولا يمكن ارتكاب "زنا المحارم" في أسرتنا))[67].
وكان قبل هذا قد اتهم المجلة التي أجرت الاستفتاء بـ ((إخفاء حقائق شديدة الصراحة))[68]، ثم راح يناقش العديد من إجابات الكتاب المستوطنين، واتهمهم بدورهم بتجاهل وضعهم كجزء من الأقلية التي تحتل البلد، وتجاهل ما كان يحدث آنذاك في الجزائر[69].

وأبى مالك حداد إلا أن يرد على موضوع الاستفتاء نفسه، فبدأ رده بهذه العبارة الحاسمة: ((ليس جزائريا بالمرة كل من أراد ذلك))[70]، لأن المسألة أعمق بكثير من مجرد الاختيار، أو العيش المشترك مع آخرين، فوق رقعة واحدة من الأرض، فالكاتب، كما يوضح، هو نتاج التاريخ أكثر مما هو نتاج الجغرافيا[71]، وإذا كان لابد من الانتماء على أساس "الجغرافيا" فإن انتماء الكاتب إلى قوم لا يقاس إلا بمساهمته، بلا تحفظ وبلا تأنيب ضمير، في الكفاح السياسي والعسكري لأولئك القوم[72]، تماما مثل ما فعل هنري كريا، وجان سيناك اللذان وقفا، رغم أصولهما الأوروبية، إلى جانب كفاح الشعب الجزائري بكل وضوح، وتجاوزا بذلك حاجز التردد[73]، فاستحقا بذلك شرف الانتساب إلى الجزائر.

---

67 Ibid,p26.
68 Ibid, 24
69 Ibid, p23.
70 Ibid,p32.
71 Ibid,p32.
72 Les zéros tournent en rond,p25.
73 Ibid,p28.

أما الانتماء على أساس التاريخ فهو شيء يختص به الكتّاب"الأهالي" من ذوي الأصل العربي/البربري، وهو العامل الذي يجعلهم يختلفون عن الكتاب المستوطنين حتى وإن استعملوا لغة واحدة مشتركة. يقول:

((إن هناك فرقا شاسعا بين غابريال أوديزيو وجان عمـــروش، وبـــين روبليس وديب، وجول روا وكاتب ياسين، وروجي كوريل وآيت جعفر، بالرغم من حقيقة أنهم جميعا يكتبون الفرنسية))[74].

والتاريخ بالطبع ليس هو ذلك الامتداد الزمني الضارب في ماضـــي الشعوب والأمم، ولكنه حياة الشعوب والأمم نفسها عبر العـــصور، وممارساتها اليومية، وما تحمل في طياتها من قيم وأخـــلاق وعـــادات، وتأتي في مقدمة تلك الممارسات اللغة، والمعتقد الـــديني، ثم الطبـــائع والأخلاق التي تترسب عبر العصور لتصنع لتلك الشعوب والأمم طبيعة أخرى، ومن هنا يرجع مالك حداد سبب الاختلاف المشار إليـــه في الاستفتاء إلى عامل اللغة بالدرجة الأولى، وبالتحديد لغة الأم، حيث يقول: ((إن ما يفرق بين الكتّاب الأهالي والمستوطنين ليس المواقـــف السياسية(...) ولكنه الحنين إلى لغة الأم بالنسبة إلينا، التي فطمنا عنها، وأصبحنا أيتامها بلا منازع))[75].

ثم يضيف إلى عامل اللغة عاملين آخرين هما الـــدين: ((إن طـــابع الإسلام الذي طبع حياتنا بطابع لا ينمحي، يميزنا كذلك عن بعـــضنا البعض، وإن كان لا يفصلنا))[76]، وعامل الطبع أو الأخلاق المتوارثة: ((إن لنا أساليب في التفكير والإحساس، وما إلى ذلك من تـــصرفات،

74 Ibid, p32.
75 Ibid, p32.
76 Les zéros tournent en rond,p33.

هي أشياء خاصة بنا. فحتى لو عبرنا بالفرنسية فإننا ننقـــل حلمنـــا، وغضبنا، وشكوانا الصادرة من أعماق قرون وقرون من تاريخنا))[77].

وعلى العموم، فإن الغموض في مسألة"من هو الكاتب الجزائـــري" هو من وجهة نظر مالك حداد ناتج عن مجرد ظرف تاريخي طـــارئ أوجده الاحتلال الفرنسي للجزائر، وهو لا محالة زائل مـــع الوقـــت، لاسيما أن تباشير الاستقلال كانت في ذلك الوقت (1961) كانـــت تلوح في الأفق، ومن الطبيعي أن تستعيد اللغة العربية، اللغة الرسمية للبد مكانتها في كل المجالات الثقافية والفكرية : ((وســـيتعلم الجزائريـــون المنحدرون من أصول فرنـــسية أنفـــسهم هـــذه اللغـــة، ليلتحمـــوا بمواطنيهم))[78]، وحينها ((سيكون للجزائر كتابها الحقيقيـــون، الـــذين يمثلونها بحق، أما جيلنا نحن ، فلن يكون حينئذ سوى جيل انتقالي))[79].

ونلاحظ أنه حتى تاريخ إجراء الاستفتاء الأدبي المـــذكور، كـــان السؤال يطرح بشأن جنسية الكاتب لا بشأن جنـــسية الأدب نفـــسه الذي كان يُكتب، كما كان الأمر يتعلق بما يكتب باللغة الفرنسية لا غير، أما ما كان يكتب بالعربية آنذاك، أو ما كتب منه منذ الاحتلال أو قبل الاحتلال الفرنسي، فقد كان يُتجاهل تماما كأنه غير موجـــود، فإن ذكر شيء من أدب الجزائر وثقافتها في العصور الخوالي ذكر مـــا كتب منه قبل دخول الإسلام إلى شمال إفريقيا، وتردد اسم"أبوليوس" و"أغوسطينوس"، و"تريتيليانوس" ، و"فيليكس مينوسيوس"[80]، الـــذين يعدهم"لويس برتران" وأضرابه المؤسسين الأوائل لإفريقيـــا اللاتينيـــة

---

77 Ibid,p33.
78 Ibid,,p37.
79 Ibid p38.
80 Cf. Jean Déjeux «La littérature algérienne contemporaine », p4.

المسيحية، وهو أسلوب تعوّد الفرنسيون على استعماله إزاء كل ما يشكل مقومات الشعب الجزائري من ثقافة ولغة وتاريخ وغير ذلك. ولم يطرح موضوع "الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية" أو "الأدب الجزائري ذو التعبير الفرنسي" كما يسميه بعضهم، إلا بعد استعادة الاستقلال الوطني، في مقابل "الأدب الجزائري المكتوب باللغة العربية".

والحقيقة أن مالك حداد كان بنظرته الاستشرافية للمستقبل سباقا لطرح مشكلة هوية الأدب الذي كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية في الفترة الاستعمارية، وكان رأيه كما سبق أن استعرضناه واضحا لا لبس فيه ، إنه لا ينفي جزائريته بحكم جزائرية من كتبوه، وكذلك بحكم الروح التي كتب بها، والتي عكست في الغالب الأعم ، وبشكل تلقائي، القيم الروحية والأخلاقية الأصيلة للشعب الجزائري، ولكنه في الوقت نفسه لم يعده أدبا قوميا **(Une littérature Nationale)** أصيلا، كما هو الحال بالنسبة للأدب المكتوب باللغة العربية، ونظر إليه على أنه أدب ظرفي وانتقالي، يمثل مرحلة عابرة في تاريخ الجزائر.

وقد أكد مالك حداد موقفه هذا في مناسبات أخرى مثل ما جاء في كلمته التي ألقاها بدمشق في مايو سنة 1961، حيث قال: ((كما كان على بعض فناني السينما الصامتة أن يختفوا، وأن يتركوا أماكنهم لممثلي السينما الناطقة، فإن على الكتاب الجزائريين الذين ينتمون إلى جيلي، ولهم تكوين ثقافي كتكويني، أن يتركوا أماكنهم اليوم أو غدا، في ظرف قصير أو طويل، ولكنه أكيد على أية حال، للكتاب

الجزائريين باللغة العربية، وأن يقنعوا بترجمة أعمالهم (إلى اللغة العربية) في بلدهم. إننا كتّاب جزائريون منفيون في اللغة الفرنسية)).[81]

ويضيف في الكلمة نفسها: ((إن على كاتب ياسين، ومحمد ديب، وفرعون، ومعمري، و واري، وآسيا جبار، إذا كانوا واعين هذه الحقيقة، أن يخضعوا لهذا القدر، لهذه السيرورة التاريخية التي لا مناص منها، ألا وهي: الاختفاء أو التكيف مع الوضع الجديد)).[82] وقد ظل مالك حداد على موقفه هذا بعد الاستقلال، وردده في بعض كتاباته الصحفية التي نشرها في جريدتي "النصر" و"المجاهد".[83]

أما عن تسميته بـ"الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية" أو "الأدب الجزائري ذو التعبير الفرنسي"، فإن مالك حداد يرفضه، وقد عبر عن هذا الرفض في حوار له أجرته معه جريدة "لاكسيون" التونسية بتاريخ 1972/01/16، وأعطى له اسما آخر قلبه رأسا على عقب ليصبح: "الأدب الفرنسي ذو التعبير الجزائري"[84]، وهو اسم لم يستعمله قبله أحد، ويلخص به وجهة نظر في غاية الدقة والإيجاز، فهو يؤكد من جهة على "الروح" الجزائرية التي كتب بها، وتجلت من خلال المضمون الذي عبر عنه، ولكنه يعده فرنسيا بالنظر إلى وسيلة التعبير، ألا وهي اللغة التي كتب بها.

---

81 Malek Haddad «La liberté et le drame de l'expression chez les écrivains algériens» Ministère de la culture et de l'orientation nationale, Damas, Juin 1961 , p15.

82 La liberté et le drame de l'expression chez les écrivains algériens. P16.

83 Situation de la littérature maghrébine de langue française, p81.

84 Ibid, p84.

ومن الملاحظ هنا، أن مالك حداد كان متفردا في الاهتمام المبكر بهذه المشكلة، كما أن تعبيره عنها كان صريحا إلى درجة أثارت ردود فعل معارضة لدى معظم زملائه الكتاب الآخرين، بل ردود فعل مستنكرة وغاضبة أحيانا، وهذا ما نلمسه مثلا في تصريح صحفي لمحمد ديب، رد به على عبارة مالك حداد الشهيرة" اللغة الفرنسية هي منفاي"[85]، فقال: ((إنه بفضل اللغة الفرنسية قد تجنبنا الوقوع في مخاطر الجهوية... وإنني كجزائري، لا أحس بأية مأساة في استعمالها، ومن يدعون ذلك إنما يخفون بذلك ضعفهم))[86].

لكن نظرة محمد ديب تغيرت مع الوقت، ليعود فيلتقي بعد أكثر من ثلاثين عاما مع مالك حداد في شعوره بالمنفى والاغتراب في اللغة الفرنسية وفي المجتمع الفرنسي، وهذا ما عبر عنه بمرارة في أحد تصريحاته في سنة 1993، حين قال: ((إن رغبة التجذر في عالم غير عالمك تتكسر أمام عدم تمكنك أبدا من لقاء مجتمع. يجب الاعتراف بما هو بديهي: ستبقى دائما جزء من أولئك المهاجرين البوهيميين الذين نصبوا خيامهم على مشارف مدينة، فإذا هم متهمين بسرقة دجاج السكان الأصليين))[87].

أما مولود معمري فيرد على عبارة مالك حداد بقوله: ((يجب أن لا نبكي ونشعر بالضياع لأننا نكتب باللغة الفرنسية، فأنا شخصيا إذا

85 Les zéros tournent en rond, p21.
86 Cité par Abdelkabir Khatibi in « Le roman maghrébin » , pp37-38.
87 محمد ديب في تصريح له لأسبوعية"Ruptures" الجزائرية نشرته في عددها 1993/02/16 وأعادت نشره جريدة المجاهد الأسبوعية مترجما إلى العربية بقلم جيلالي خلاص، في عددها 1699 بتاريخ 1993/02/26.

كتبت باللغة الفرنسية فإنني لا أشعر بأية عقدة نقص، فالكاتب مهما كانت اللغة التي يكتب بها إنما يقوم بعملية ترجمة لعواطفه وأفكاره هو(...) إنني أقول: إن هذه فرصة، بل إنها ثروة للثقافة الجزائرية))[88].

وهذا بالتقريب هو رأي كاتب ياسين، الذي ينظر إلى اللغة الفرنسية على أنها أولا وقبل كل شيء"وسيلة تعبير"[89]، وثانيا على أنها هي أيضا "لغة جزائرية"[90]، أما الثقافة الفرنسية ((فلا يمكن لها إلا أن تؤجج فينا الظمأ إلى الحرية والأصالة))[91].

والحقيقة أن هؤلاء الكتاب وغيرهم ممن لم نذكرهم، حتى وإن خالفوا مالك حداد الرأي نظريا، ورأوا في كلامه مبالغة كبيرة، ونوعا من"المازوشية" أو تعذيب الذات، فإنهم على المستوى العملي، وحينما نتتبع التحولات التي حدثت في حياتهم ككتاب، نجدهم قد عاشوا بدورهم"المأساة" ذاتها التي تحدث عنها مالك حداد، وعانوا جميعا الإحساس نفسه بالقلق والحيرة والتردد، وقد نتجت فصول هذه المأساة عن التحول الذي حدث على الساحة الجزائرية بعد استعادة الاستقلال الوطني، الذي أفرز واقعا سياسيا واجتماعيا وثقافيا جديدا تماما، ووجد الكتّاب أنفسهم حيارى أمام هذا الواقع الجديد بوجوهه المتعددة، ولاسيما في علاقتهم المباشرة ككتاب بينهم وبين هذا الواقع، حيث وجدوا أنفسهم في مواجهة سؤال أساسي وحاسم: لمن يكتبون؟ أيكتبون للفرنسيين كما كان الحال من قبل؟ وماذا سيقولون لهم وقد

---

88 نقلا عن سعاد محمد خضر"الأدب الجزائري المعاصر" منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت 1967، ص90 .

89 La littérature algérienne d'expression française, p147.

90 Situation de la littérature maghrébine de langue française, 85.

91 Ibid. P85 .

استقل البلد وانتهى الأمر، ولم يعد هناك صراع عسكري أو سياسي مباشر بين الجزائريين وبينهم؟ أم يكتبون للجزائريين؟ لكن في هذه الحال من سيقرأ ما يكتبون إذا كانت الأمية عند ما غادر الفرنسيون الجزائر قد بلغت نسبة 85 بالمائة، وتصل إلى 90 بالمائة في الأوساط الريفية؟[92] وبأية لغة سيكتبون؟ أبالفرنسية لغة عدو الأمس؟ ولكن سيصل صوتهم إلى الجزائريين وهم يعرفون أن اللغة الفرنسية لا يفهمها إلا حوالي 8 بالمائة من الجزائريين، ولا يستطيع أن يقرأ بها إلا حوالي نصف هذا العدد؟ أم يكتبون بالعربية؟ ولكنهم يجهلون هذه اللغة جهلا يكاد يكون تاما، وحتى لو تجاوز بعضهم عقبة الجهل بالعربية فإن عدد القراء بهذه اللغة لن يكونوا أكثر من4 %.

هذه في تصورنا هي الأسئلة المحيرة التي يكون هؤلاء الكتاب قد طرحوها على أنفسهم غداة الاستقلال، بوعي منهم أو بغير وعي، بشكل واضح ومحدد أو مبهم ومشوش، خفي أو علني، الشيء الوحيد المؤكد بالنسبة إلينا هو أن هذا القلق والحيرة والتساؤل قد انعكس على حياتهم ككتاب، وأثر تأثيرا قويا وبارزا للعيان على وتيرة إنتاجهم الإبداعي وعلى نوعيته، فقد لجأ مالك حداد إلى الصمت المطبق، وعمل بمقولته الآنفة الذكر ((على الكتاب الجزائريين الذين ينتمون لجيلي... أن يتخلوا عن أماكنهم للكتاب باللغة العربية))، ولم يصدر أي عمل إبداعي في فترة الاستقلال إلى أن توفي سنة 1978. واتجه محمد ديب إلى الكتابة التجريدية الرمزية، وأخذ يبتعد في رواياته شيئا

92 Abdellah Mazouni «Culture et enseignement en Algérie et au Maghreb» Ed. Maspéro, Paris 1969.

فشيئا عن الجزائر زمانا ومكانا وشخوصا، حتى بلغ أقصى حدود الاغتراب في"ثلاثية الشمال" التي تجري أحداثها في أقصى شمال أوروبا (فنلندا)[93]، وهذا اكتسب أدبه طابعا إنسانيا لا يختص ببلد معين، ولا يوجه إلى قارئ بعينه، وإنما إلى قارئ عالمي مفترض، وقد اضطره هذا التحول الجذري في أدبه إلى نشر أعماله لدى ناشر جديد هو دار"سندباد"، والتخلي عن دار"سوي" التي نشرت له معظم أعماله السابقة، لأن أدبه الجديد لم يعد يتلاءم مع نوعية الأدب الذي تنشره هذه الدار.

كاتب ياسين من جهته وقع في حيرة من أمره بين رسالته الاجتماعية، باعتباره كاتبا ملتزما يؤمن بـ"حتمية" انتصار الثورة الاشتراكية العالمية، ويحتاج للتبشير بها في أوساط العمال والفلاحين إلى لغة تواصل بينه وبينهم، لكن حاجز الأمية ـــ كما يقول ـــ كان يقف حائلا بينه وبين جمهوره[94]، ولذلك قرر، بعد طول صمت دام ثلاثة عشر عاما[95]، التخلي نهائيا عن الكتابة بالفرنسية، لأنها غير مفهومة لدى الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري، وبالأخص لدى جمهور الفلاحين والعمال، الذي يتوجه إليه بالخطاب[96]، كما وقف موقف الرفض من استعمال اللغة العربية الفصحى، لأنها هي أيضا غير مفهومة لأغلبية الشعب، وهي لغة أجنبية، في نظره، مثل الفرنسية[97]،

93 تتكون من "نوم حواء" و"ثلج من رخام" وصحراء بلا تعاريج". وقد صدرت كلها عن دار Sindbad على التوالي في سنوات: 1989 ، 1990 ، 1992 .

94 Hafid Gafaiti «Kateb Yacine, un homme, une oeuvre, un pays», p10.

95 Ibid. P8.

96 Ibid. P10.

97 Ibid.P56.

ولذلك اتجه منذ بداية سنوات السبعينيات إلى كتابة المسرحية باللهجة العامية الجزائرية.

والحقيقة أن كاتب ياسين كان قد أحس قبل غيره من الكتاب الآخرين، منذ صباه المبكر، بالمأساة، وعبر عنها، وذلك حين قرر والده ذات يوم إدخاله المدرسة الفرنسية، أو حسب تعبيره: ((حين قرر أن يلقي به بين فكي الوحش)) [98]، وقد عبر عن ذلك بطريقة رمزية غاية في قوة الدلالة، حين تحدث عن"القطيعة" المؤلمة التي أحدثتها المدرسة الفرنسية بينه وبين أمه، فبسبب غيابه معظم ساعات النهار في المدرسة، وانشغاله بمراجعة دروسه وإنجاز واجباته في البيت، انقطع الحديث بينه وبين أمه أو كاد، ولم يعد له متسع من الوقت لسماع حكاياتها وأشعارها الشعبية الممتعة، وكانت الأم شاعرة بالعربية العامية، فكانت تجلس إلى جانبه وهو منهمك في مراجعة دروسه وإنجاز واجباته، تنقل نظرها في صمت بينه وبين كتبه وأوراقه، حتى أنها اقترحت عليه ذات مرة ــ من أجل إعادة التواصل بينهما ــ أن يعلمها اللغة الفرنسية، ولم يكن ذلك ممكنا، فكان هذا بالنسبة إليه بمثابة ((قطع السرة مرة أخرى)) [99] بينه وبينها، وقد اختار أن ينهي روايته"المضلع النجمي" بهذه العبارة: ((..وهكذا فقدت أمي وفقدت كلامها في آن واحد، وهما الكنزان اللذان لا يقبلان الاستلاب، ومع ذلك فقد سلبا مني)) [100].

مولود معمري بدوره عاش أزمة التعبير هذه، فقلّت أعماله الإبداعية بشكل محسوس، وتباعدت تواريخ صدورها، بحيث لم يصدر في الفترة

---

98 Kateb Yacine «Le polygone étoilé» Ed. du Seuil, Paris 1966 , p180.
99 Ibid. P181.
100 Ibid, p182.

الممتدة ما بين سنة 1965، وهي السنة التي أصدر فيها رواية"الأفيون والعصا"، ووفاته سنة 1989، إلا رواية واحدة هي"العبور" سنة 1982، ومسرحيتين لم يكن لهما ذلك الصدى الذي أحدثته رواياته، وهما: "المأدبة"سنة 1973، و"ريح الجنوب" سنة 1982، كما نشر بعض قصص قصيرة في أوقات وأماكن متفرقة، جمعت بعد وفاته ونشرت بالجزائر سنة 1996 بعنوان" توقفات".

ويعتقد معمري، مثل كاتب ياسين، بوجود أربع لغات في الجزائر، ويصور وضعها على النحو التالي: المستوى الأول وتأتي فيه اللغة العربية"الكلاسيكية"، وهي اللغة الرسمية وفي الوقت نفسه"اللغة التي هي ليست لغة أي أحد من الجزائريين"، وفي المستوى الثاني نجد اللغة الفرنسية، ووضعها القانوني غير واضح لكنها تتمتع بمكانة مرموقة"لأنها لغة التعامل اليومي"، وتأتي في المستوى الثالث والأخير اللغتان الشعبيتان: العربية الجزائرية والأمازيغية، وهما لغة الحديث اليومي لكل أفراد الشعب، غير أنهما لا تتمتعان بأي وضع قانوني رسمي[101]. ومن هنا اتخذ مولود معمري موقفا شبيها جدا بموقف كاتب ياسين من "الوضع اللغوي في الجزائر"، وانصرف بجهوده انصرافا كليا إلى النضال من أجل"القضية الأمازيغية"، والعمل على دراسة وتدريس وتطوير اللغة القبائلية، ووضع قواعد لها[102]، وإحياء تراثها الثقافي القديم،

---

101 Mouloud Mammeri « L'expérience vécue et l'expression littéraire en Algérie » in « Culture savante, culture vécue » p154 .

102 أصدر في هذا الصدد" تاجرومت نتامازيغت Tajerrumt n Tamazight " ، أو أجرومية اللغة الأمازيغة " عن دار: (Maspéro. Paris 1976) ، و"مختصر قواعد اللغة البربرية": Précis de grammaire berbère ، سنة 1988 عن مطبوعات "أوال" أو "الكلمة"، وهي "دفاتر الدراسات البربرية" التي أسسها معمري باريس وصدر منها -

ودراسة الفلكلور القبائلي خاصة والأمازيغي عامة، فأصدر أبحاثا ودراسات عديدة في هذا المجال، وترجم إلى اللغة الفرنسية أشعارا وقصصا من التراث الشعبي الشفوي القبائلي[103].

وتمر آسيا جبار بالأزمة نفسها ، وتعترف بها صراحة، بل وتردد تعبير مالك حداد عن هذه الأزمة حين تستعمل لفظ "المنفى" فتقول: ((لقد كان منفانا الأول لغويا، وكان ذلك منذ عهد الصبا))[104]، وكانت تعد الازدواجية اللغوية ((نوعا من العرج المزدوج))[105]. وللتغلب على هذه الأزمة حاولت حين تكتب أن تلائم بين موروثها الثقافي العربي وبين قواعد اللغة الفرنسية، فكانت تبحث عن الصيغ التي تتناسب وتلك المستعملة في العربية، كتقديم الفعل على الفاعل، والموصوف على الصفة، ووضع المفعول به في غير موضعه المعتاد، لأن ذلك له علاقة ـــ حسب رأيها ـــ بحساسية المغاربة وطريقة استيعابهم الخاطف للأشياء[106]، وكانت تفضل استعمال صيغة"اسم الفاعل" (Participe présent) في سردها للحدث الروائي، وتبذل جهدا مضنيا في سبيل ذلك ((لأنه الصيغة الأكثر ملاءمة في الفرنسية لترجمة الأزمنة المتعددة التي تتعايش في الضمير العربي في آن واحد))[107].

- عشرة أعداد في الفترة ما بين 1985 و1989. وكان قد أصدر أيضا سنة 1973 بالجزائر قاموسا مزدوج اللغة بعنوان"أماوال" أمازيغي فرنسي ـــ فرنسي ـــ أمازيغي.

103 اصدر منها بالخصوص"أشعار قبائلية سنة 1969 عن دار"ماسبيرو" بباريس، ومجموعتين من الحكايات الشعبية القبائلية سنة 1980، عن دار "بورداس" وهما على التوالي: "ماشاهو" و "تالم شاهو".

104 Cité par Jean Déjeux in « Situation de la littérature maghrébine de langue française », p87.

105 Assia Djebar « Poèmes pour l'Algérie heureuse » , S.N.E.D Alger 1969, p2.

106 «Situation de la littérature maghrébine de langue française »p 87.

107 Ibid. P87.

وقد انقطعت آسيا جبار عن الكتابة الروائية منذ سنة 1967، أي بعد إصدارها لرواية"القبرات الساذجة" «Les Alouettes naïves»، وانصرفت إلى مجالات تعبيرية أخرى، فبدأت بكتابة الشعر، وأصدرت "قصائد للجزائر السعيدة"، لتنتقل إلى الإخراج المسرحي، فالكتابة المسرحية حيث أصدرت بالاشتراك مع وليد قرن مسرحية "احمرار الفجر"، ثم إلى التحقيقات الاجتماعية الشبيهة بالتحقيقات الصحفية، لتصدر"نساء مدينة الجزائر في بيوتهن"، وأخيرا اشتغلت بالسينما، حيث أخرجت فيلما بعنوان" نوبة نساء جبل شنوة" سنة 1979، وشريطا تلفزيونيا بعنوان"الزردة وأغاني النسيان" عرضه التلفزيون الجزائري سنة 1982.

وفي هذا التنوع في اهتمامات الكاتبة، بعد أن عرفت كروائية، وتنقلها من فن إلى آخر، ما يترجم ــ في نظرنا ــ أزمة التعبير التي عاشتها وعاشها الكتاب الجزائريون باللغة الفرنسية في فترة ما بعد الاستقلال بصفة عامة، هذه الأزمة التي اتخذت لها أشكالا مختلفة من كاتب إلى آخر كما مر معنا. وفيما يخص آسيا جبار، نستطيع أن نجد لأزمتها أدلة أخرى، ومنها تصريح أدلت به بشأن فيلمها"نوبة نساء جبل شنوة "، الذي كان من المفترض أن تنجزه في شكل رواية، حين قالت: ((ما فعلته هو أنني مررت من الأدب المكتوب إلى الأدب الشفوي))[108]، وهو تصريح يقربها كثيرا من موقفي كاتب ياسين ومولود معمري في تخليهما عن التعبير الكتابي ليلجآ إلى التعبير الشفوي.

---

108 Situation de la littérature maghrébine, p88.

هذا على العموم موقف الكتاب"المخضرمين" الذين بدؤوا الكتابة في العهد الاستعماري من مشكلة التعبير، وهذه هي مأساتهم حسب تعبير مالك حداد، حتى وإن رفض العديد منهم تسميتها بـ" المأساة". وجدير بنا أن نذكّر هنا بحقيقة أن هؤلاء الكتاب لم يكن لديهم خيار في مسألة استعمال اللغة الفرنسية، لأنها كانت اللغة الوحيدة ـ عدا العامية ـ التي يتقنونها ويستطيعون الكتابة بها، ولم يكن في مقدورهم الكتابة باللغة العربية حتى لو أرادوا ذلك، بل لم يكن في مقدورهم إتقانها والكتابة بها ـ لو حاولوا تعلمها والكتابة بها ـ بالقدر الذي يتقنون به اللغة الفرنسية ويعبرون بها[109]. ومن هنا فقد كان هذا الجيل برمته معذورا، ولم يكن في حاجة إلى تقديم مبررات عن اختياره الكتابة بالفرنسية، لأنه لا يملك الخيار أصلا، فإما أن يكتب بهذه اللغة الوحيدة التي يمتلكها، وإما أن يصمت، ومبرره معروف ومفهوم، فقد كان هو نفسه ضحية نظام التعليم الاستعماري الذي حرمه وحرم أجيالا عديدة من الأطفال الجزائريين من تعلم لغتهم العربية، ولكن الغريب في الأمر هو موقف بعضهم من اللغة العربية، كما أوضحنا سابقا، فهو موقف يتميز بكثير من التناقض وعدم الانسجام مع حقائق التاريخ، ومع مضمون الأدب الذي كتبوه، ومع القضايا الوطنية التي تبنوها ودافعوا عنها. فمن ينكر منهم أن تكون اللغة العربية لغة الشعب الجزائري ويعدها لغة أجنبية، يلتقي بالضرورة مع موقف الاستعمار

109منهم من حاول ذلك مثل مالك بن نبي الذي تعلم اللغة العربية على كبر، في الفترة التي عاش فيها في القاهرة في سنوات الثورة التحريرية، وكتب بها الجزء الثاني من"شاهد القرن"، وبعض المحاضرات التي كان يلقيها في ملتقيات"الفكر الإسلامي" التي كانت تنظمها وزارة الشؤون الدينية بالجزائر ، ولكن ظل الفارق كبيرا بين كتابته بالفرنسية وكتابته بالعربية.

الذي كان يعدُّ اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر، وكذلك يعدُّ جاهلا أو مكابرا من يعدُّ اللغة العربية غريبة عن الشعب الجزائري وغير مفهومة لديه، وهو الذي احتضنها طيلة أربعة عشر قرنا، فحفظها وحفظته، وكانت له ولشخصيته وثقافته وعاء ووجاء طيلة القرون المذكورة، وهو يلتقي في هذا الرأي مرة أخرى مع آراء المستشرقين الفرنسيين حين يقسمون بدورهم اللغة العربية اليوم إلى لغة"كلاسيكية" قديمة، ولغة فصحى حديثة، ولغة عامية متداولة في الحديث اليومي [110]، كما يعد مكابرا أيضا من يسوي بين لغة مكتوبة ذات حضارة عريقة مثل اللغة العربية، وبين لهجة عامية بسيطة مازال يبحث لها عن حروف تضبط بها، ولا تستطيع أن تعبر إلا عن أبسط الحاجات اليومية، وحتى في هذه الحاجات البسيطة تحتاج إلى الاستعارة من العربية أو الفرنسية، بل إنه يفضل اللهجة العامية على اللغة العربية بدعوى أنها غير مفهومة، وأنها ليست لغة الشعب مرة أخرى. إن مثل هذه التناقضات الصارخة لا يمكن تفسيرها إلا بوجود أزمة تعبير حادة يعاني منها، وينكرها في الوقت نفسه هؤلاء الكتاب، وقد حاولنا أن نبين ذلك من خلال أقوالهم وأفعالهم.

110: راجع في هذا الصدد الفصل الأول من كتاب المستشرق "دانييل ريق"، الأستاذ السابق بجامعة السوربون الموسوم بـ"قرنان من الاستشراق أو اللغة العربية في فرنسا منذ القرن الـ19"، الذي يذهب هذا المذهب ويقول بوجود ثلاث لغات عربية: كلاسيكية قديمة، وفصحى حديثة للكتابة، وعامية للتعامل اليومي، ويضرب مثالا على ذلك بقوله: ((إن الرجل العربي اليوم ينتقل من قراءة جريدة معاصرة إلى مخطوطة من الماضي، في الوقت الذي يدير فيه شؤون حياته اليومية بعاميته المعتادة)). راجع :
Daniel Reig «Homo Orientaliste, la langue arabe en France depuis le 19è siècle». Maisonneuve et la Rose, CoL. Islam et Occident, Paris1988, p25.

أما فيما يخص الجيل الجديد من هؤلاء الكتاب باللغة الفرنسية، الذين برزت أسماؤهم بعد الاستقلال، وهم فئتان ـــ كما مر معنا في الفصل السابق ـــ فئة تعيش في الجزائر وتكتب عن الجزائر، ونشرت كل أعمالها أو بعض أعمالها في الجزائر، وفئة تعيش خارج الجزائر وتنشر أعمالها في فرنسا وكندا وبلجيكا وسويسرا. فهذه الفئة الأخيرة من الكتاب لا تعنينا، لأنها لم تعد تكتب عن الجزائر إلا عرضا، والعديد منهم تخلوا عن الجنسية الجزائرية، وانصرفوا إلى الكتابة عما يعنيهم كأقلية تعيش في المجتمع الفرنسي خاصة، أو عما يعني ـــ في أحسن الأحوال ـــ جاليتهم المغاربية التي ينحدرون منها، ولم يعد يربطهم بالجزائر في الواقع إلا أصولهم أو بعض علائقهم الأسرية، أو الترسبات الثقافية التي ورثوها عن أهاليهم، فهي تطفو على السطح بالضرورة في كتاباتهم.

أما الفئة الثانية، وهم الكتاب الذين يعيشون في الجزائر، ويكتبون عن الجزائر باللغة الفرنسية، فينبغي أن ينظر ـــ من وجهة نظر منطقية ـــ إلى مسألة الكتابة بهذه اللغة عندهم على أنها موقف سياسي منهم، ومسألة اختيار واعٍ ومقصود، قبل أن يكون اختيارا فنيا، لأن هذا الجيل كانت له فرصة ـــ على عكس الجيل السابق ـــ لتعلم اللغة العربية، وكل كتّابه أو جلهم يمتلكون اللغة العربية بقدر ما يسمح لهم بالكتابة بها، أو على الأقل يسمح لهم بتطوير معرفتهم بها إلى درجة الإتقان. والحقيقة أننا لا نمتلك نصوصا أو تصريحات لهؤلاء الكتاب تؤكد أو تبرر سبب اختيارهم للكتابة باللغة الفرنسية، ولكن عدم وجود مثل هذه التصريحات لا ينفي وجود الموقف السياسي ولا

الاختيار الواعي والمقصود عندهم، وبناء عليه، يمكن أن تطرح العديد من الأسئلة في هذا الصدد، كأن نسأل مثلا: أهو موقف من اللغة العربية في حد ذاها مثل ما فعل كاتب ياسين ومولود معمري اللذين اعتبراها لغة أجنبية؟ أم هو تعبير عن رغبة في استمرار احتلال اللغة الفرنسية لموقعها المتميز في الجزائر كما كانت في عهد الاستعمار، واقتناعا بأهمية الدور الذي يمكن أن تلعبه اللغة والثقافة الفرنسية في الجزائر المستقلة؟ وفي كلا الحالين، وفي جميع الأحوال الأخرى الممكنة، وبقطع النظر عن نوعية الأجوبة المحتملة، فإنه لا يصدر عنهم في أحاديثهم اليومية في الصحافة ما يدل على وجود أدنى شك لديهم في أن ما يكتبونه بهذه اللغة ليس أدبا جزائريا. بل إنهم لم يعودوا يتطرقون بالحديث إلى هذا الموضوع، باعتباره أمرا بديهيا ولا يحتاج إلى نقاش.

الكاتب الوحيد من بين هؤلاء الذي كسر القاعدة هو رشيد بوجدرة الذي تحول إلى الكتابة باللغة العربية ـــ علما أنه كان ومازال أغزرهم إنتاجا، وأوسعهم شهرة ـــ وذلك عندما أصدر في سنة 1981 روايته الأولى باللغة العربية، بعنوان"التفكك"[111]، وهذا بعد ما كان قد نشر سبع روايات باللغة الفرنسية، لاقت كلها رواجا كبيرا[112]. وفي

111 نشر طبعتها الأولى في دار ابن رشد ببيروت سنة 1981، وطبعتها الثانية بالشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982، (279 صفحة).

112 وقد أصدر بعد "التفكك" سلسلة من الروايات كلها باللغة العربية، وهي على التوالي: "المرث"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر (1984)، "ليليات امرأة آرق" المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر(1985)، "معركة الزقاق" المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر (1986)، "فوضى الأشياء" دار بوشان، الجزائر (1990)، و"تيميمون" دار الاجتهاد، الجزائر (1994). وكان يقوم بعد نشرها باللغة العربية، بترجمتها إلى اللغة الفرنسية وينشرها في منشورات Denoël بباريس التي كان يرتبط معها بعقد طويل المدى.

رأيه، الذي عبر عنه في العديد من المناسبات، أن تحولـه إلى الكتابـة باللغة العربية هو شيء طبيعي ولا يحتاج إلى أي تفسير. وقـد ظلـت حالة التحول هذه لدى بوجدرة من الكتابة بالفرنـسية إلى العربيـة، الحالة الوحيدة والاستثنائية، التي لم تتكرر لحـد الآن بـين الكتـاب الجزائريين باللغة الفرنسية، وإنما حدث العكس حينما كتـب بعـض الروائيين الذين يكتبون بالعربية بعض أعمالهم بالفرنسية*.

أما النقاد والدارسون، والمهتمون بوجه عام بهذا الأدب المكتـوب باللغة الفرنسية في الجزائر، فإن نظرتهم إلى هويـة هـذا الأدب جـد متباينة، فهناك من يعده "جزائريا" وكفى، مع الحرص على تمييزه دائما بـعبارة "المكتوب بالفرنسية" أو "ذو التعبير الفرنسي"، ولم يشغل نفسه كثيرا بطرح السؤال: لماذا هو جزائـري. وهـذا موقـف البـاحثين والمؤرخين الفرنسيين عموما، الذين بحثوا في هذا الأدب أو أرخوا له، ويأتي في طليعتهم الأب جان ديجو، والأستاذ شارل بون، وفي سكوتهم هذا ما يتسع للعديد من التأويلات، ولعل أقرب هذه التأويلات الـتي تتبادر إلى الذهن أن في وصفهم لهذا الأدب بـ"الجزائري" تأكيدا منهم بطريقة ضمنية على عدم اعتباره" أدبا فرنسيا"، وفي هذه الحال يصبح السؤال الذي طرحناه آنفا أمرا ضروريا: لماذا هو أدب جزائـري؟ كمـا يفهم أيضا من عبارة "المكتوب بالفرنسية" أو" ذو التعبير الفرنسي" بأنه تمييز له عن الأدب الجزائري المكتوب بالعربية، أو ذاك المنقول شفويا بالعربيـة العامية، أو بالأمازيغية، وحتى في هذه الحال يظل طرح السؤال، والإجابـة

---

* مثل مرزاق بقطاش ومحمد ساري.

عليه ضروريان: كيف اكتسب جزائريته؟ وهل يتساوى في اكتساب هذه الصفة ما كتب منه بلغة أهل البلد وما كتب بلغة أجنبية؟

ويلتقي مع الباحثين والمؤرخين الفرنسيين الباحثون الجزائريون، ومعهم الباحثون المغاربيون الآخرون الذين كتبوا عن هذا الأدب باللغة الفرنسية، أمثال غني مراد، وكريستيان عاشور، وعبد الكبير الخطيبي، وألبير ميمي، فهم يعدونه بدورهم "جزائريا" أو "مغاربيا" ـــ بحسب الموقف ـــ ولا يتساءلون هم كذلك عن "جزائريته" أو "مغاربيته" إلا قليلا[113]، مع ما يمكن أن يحمله استعمالهم لهذا الوصف من قصد أو دلالة مغايرة[114]، كما استعملوا من جهتهم المصطلحات نفسها التي استعملها الباحثون الفرنسيون، وخاصة مصطلح "الأدب الجزائري باللغة الفرنسية" أو "الأدب الجزائري ذو التعبير الفرنسي"، وهو ما كرس

114 منهم على الخصوص: غني مراد الذي عالجه في فصل خاص في ما أسماه "المشكلات المتضمنة" في هذا الأدب ، وخص بالمعالجة: مشكلة "اختيار اللغة"، و"القومية الأدبية"، و"الجهوية والعالمية"، ولكنه اعتمد أساسا على استعراض وتأكيد ما قاله الكتاب المبدعون في هذا الصدد، وكذا فعل عبد الكبير الخطيبي في ما أسماه "البنى التحتية الأدبية والمشكلة اللغوية"، ولا نرى داعيا هنا لاستعراض ما قالاه، أو مناقشته لأنه لا يشكل في الواقع إلا تكرارا وتأكيدا لوجهات نظر الكتاب في هذه المشكلات، وهي وجهات النظر التي سبق لنا أن استعرضناها وناقشناها في الصفحات السابقة. راجع بالخصوص:

Ghani Merad «La littérature algérienne d'expression française » P147 à 167.

115 كأن يكون قصد الباحثين الفرنسيين من عدم اعتباره فرنسيا انطلاقا من عدم وجود صلة مباشرة له بالأدب الفرنسي إلا في لغته ، فهو إذن غريب عنه، ويشبه في وضعه من هذه الناحية الأدب البلجيكي أو السويسري المكتوب بالفرنسية، في حين قد يكون قصد الجزائريين والمغاربة من نسبته إلى الجزائر أو بلاد المغرب، هو رفض الهيمنة والاحتواء الذي قد يشكله الأدب الفرنسي على هذا الأدب . راجع :

Abdelkabir Khatibi , « Le roman maghrébin » P31 à 41 .

بصفة نهائية تقريبا هذا الاسم، وجعله متداولا في الاستعمال اليومي في الصحف وفي أحاديث المثقفين كلما تطرقوا إلى هذا الموضوع.

أما الباحثون باللغة العربية الذين تعرضوا لمناقشة هـــذا الموضـــوع، فينقسمون إلى اتجاهين رئيسيين: اتجاه ينكر الهوية العربية لهـــذا الأدب، بحكم اللغة التي كتب بها، ويرى أنه ((ليس ممكنا اعتبار رواياتهم (أي الكتاب) باللغة الفرنسية جزء من التراث الثقافي العـــربي))[115]، ومـــن هؤلاء من ((وضع الكتّاب الجزائريين في صف واحـــد مـــع الكتّـــاب الفرنسيين الذين ولدوا هم أيضا على أرض الجزائر وعاشوا فيهـــا))[116]، ويستند أصحابه في ذلك إلى وجهة نظر مدرسة الأدب المقارن الفرنسية نفسها، التي تلحق الأدب ـــ مهمـــا كانت جنسية كاتبه ـــ بالأمـــة التي تتكلم اللغة التي كتب بهـــا ذلـــك الأدب، وتعـــده مـــن أدبهـــا القومي[117]، وهناك اتجاه آخر يذهب إلى العكس من هذا تماما، ويمثله أساسا الدارسون والمترجمون العرب الذين درسوا هذا الأدب أو نقلوا بعض النصوص منه إلى اللغة العربية، وذلك حين يقول بعضهم: ((هذا الأدب المغربي ليس من الأدب الفرنسي في شـــيء))[118]، وإنمـــا هـــو ((أدب جزائري بكل معنى الكلمة..))[119]، و((أدب وطني ملتزم (...)

---

187. 1980، ص.دار المعارف بمصر"بانوراما الرواية العربية الحديثة" 116 د. سيد حامد النساج

117 د. عبد الله ركيبي "القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر"، ص243 .

118 راجع : د. محمد غنيمي هلال "الأدب المقارن"، ص9.

119 د. سامي الدروبي، مقدمة ترجمته لثلاثية محمد ديب "الدار الكبيرة والحريق والنول"، دار الطليعة ، بيروت 1968، ص5.

120 د. نور سلمان "الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرر" ، دار العلم للملايين، بيروت 1981، المقدمة ص 15 .

وقطعة من التراث المعرفي العربي))[120]، وحينما ينقل إلى العربية إنما يعاد بذلك إلي "اللغة الأم"[121]. وقد ذهب باحث عربي من أصحاب هذا الاتجاه إلى إصدار بيان في هذا الصدد يدافع فيه عن "جزائرية" هذا الأدب[122]، وينتقد مدرسة الأدب المقارن الفرنسية في أطروحاتها "الأورومركزية" التي يرى أن "المنطق الاستعماري" يحكمها، وهو المنطق الذي يؤدي إلى إلغائها لجنسية الأدب الجزائري "العربية" لتلحقه بالأدب الفرنسي[123].

وواضح في نظرنا أن كلا الاتجاهين يبالغ في إنكار أو إثبات الهوية العربية لهذا الأدب، إما بدافع الحماس للعروبة، أو بدافع التعاطف مع القضية الجزائرية[124]. ففي الوقت الذي يختزل فيه أصحاب الاتجاه الأول المشكلة كلها في عامل اللغة، ويعدونها العامل الأساسي والحاسم في انتسابه إلى الأدب الفرنسي، ويجدون في مدرسة الأدب المقارن الفرنسية سندا لهم وحجة، يتجاهل أصحاب الاتجاه الثاني هذا العامل،

---

121 هذا رأي محمد أمين الزاوي في "الرواية الجزائرية ذات الرسم الفرنسي" المقدمة ص ج.
122 ملكة أبيض العيسى ، مقدمة ترجمتها لمسرحيتي "الجثة المطوقة" و "الأجداد يزدادون ضراوة" المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1979، ص15.
123 صاحب هذا البيان هو د. عز الدين المناصرة، الأستاذ السابق بجامعات عنابة وقسنطينة وتلمسان، وهو بعنوان "بيان الأدب المقارن، إشكاليات الحدود". راجع النص الكامل للبيان المذكور في "أعمال الملتقى الأول للمقارنين العرب الذي نظمه معهد اللغة العربية وآدابها بجامعة عنابة، في الفترة ما بين 8 و12 جويلية 1984، حول موضوع "الأدب المقارن عند العرب، المصطلح والمنهج"، نشر ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1991، من ص 115 إلى ص138.
124 نفسه ، ص120، 121 .
125 تشكل هذا الاتجاه أثناء الثورة الجزائرية المسلحة ، ومثله أساسا المترجمون العرب الذين نقلوا نصوصا من هذا الأدب إلى اللغة العربية ، كنوع من التعاطف مع كفاح الشعب الجزائري ، ويبدو أن تعاطفهم هذا كان له بالغ الأثر في تشكيل رأيهم فيه

ويسقطونه من حسابهم، ليجعلوا منه"أدبا عربيا خالصا". وهناك تيــار وسطي يتحدث عما يسميه"الروح" الجزائرية أو العربية التي كتب بها، ويلخصه هذا القول لإبراهيم الكيلاني: ((فهذا الأدب وإن كتب بلغة فرنسية فهو يعبر من وراء الحجاب اللغوي عن أعمق الأسس الروحية والاجتماعية التي يقوم عليها ماضي الشعب الجزائري وحاضره)) [125].

ويقترب هذا الرأي الوسطي كثيرا من رأي بعض النقاد والمؤرخين الجزائريين [126] مثل الأستاذ محمد الميلي الذي تحدث عن هذه"الــروح" لدى "بعض" الكتاب الجزائريين باللغة الفرنسية، هذه الــروح الــتي استمدت أصالتها وعمقها في رأيه ((من تأثير البيئــة التقليديــة والأم الجزائرية (...) وتلك الروح (هي) الــتي جعلتــهم ينجحــون (أي الكتاب) في التخلص من التأثير السلبي للثقافة الفرنسية، ويعبرون عــن رفضهم للاحتلال حتى باللغة الأجنبية)) [127]، ومثل الدكتور أبو القاسم سعد الله، الذي يميز بدقة بين وصف هذا الأدب بـــ"الجزائري" ووصفه بـــ "القومي" أو الوطني [128]، ويرفض أن يوصف بهذه الصفة الأخيرة: ((فهو جزائري على أساس الأرض التي ولد فيها، ولكن لا يمكــن في نظري أيضا أن يقال عنه بأنه أدب قومي، إذا كنا نعني بالقومية الكيان

---

126 د. إبراهيم الكيلاني"أدباء من الجزائر"، سلسلة"اقرأ "، نشر دار المعارف بمصر، العدد 192. ديسمبر 1958، ص28.

127 وتقترب أيضا، إن لم نقل تتفق تماما مع رأي بعض الكتاب أنفسهم، ولاسيما رأي مالك حداد، الذي قدمناه آنفا، حين تحدث في"الأصفار تدور في فراغ" عن الفارق الأساسي بين كتابات الجزائريين والفرنسيين.

128 محمد الميلي"فرانتز فانون والثورة الجزائرية" الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، بيروت، لبنان 1973، ص50.

129 نلاحظ مرة أخرى أن لفظ قومي تودي هنا معنى: وطني. راجع الفصل الأول.

الحضاري للأمة الذي تشكل اللغة قاعدة أساسية فيـه))[129]، وكـذا الدكتور عبد الله ركيبي الذي يميز بدوره بين الأدب الذي كتـب في المرحلة الاستعمارية وبين الذي كتب بعد الاستقلال، ففي بحث له عن القصة القصيرة الجزائرية يعود تاريخه إلى سنة 1967[130]، كان قد أفرد فصلا لهذا اللون الأدبي الذي كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية، وعـده أدبا جزائريا[131]، لكنه في كتابه الأخير"الفرانكوفونية مشرقا ومغربا"، ومع إصرار بعض الكتاب على اختيار الكتابة باللغة الفرنـسية بعـد الاستقلال، أو الاستمرار في الكتابة بها، وتجاهلهم لكل التغير الـذي وقع في المجتمع الجزائري في العقود الثلاثة الماضية، نراه يتخذ موقفا آخر مغايرا من هذا الأدب، ويعلل ما كان قد أصدره عنه من أحكام بقوله: ((قد تكون الأحكام السابقة خاضـعة لظـروف الكفـاح الـوطني التحرري، الذي كان في حاجة إلى كافة الأسلحة، ومنها القلم الوطني، والكلمة المناضلة الشريفة، بأية لغة كتبت، أما الآن فإن ما يكتب بهذه اللغة الأجنبية هو شذوذ عن القاعدة، وخروج عن الواقـع الطبيعـي المألوف، بل تحدٍّ سافر للتاريخ والثوابت))[132].

و نميل من جهتنا كثيرا إلى الموقف الوسطي الذي لا يتجاهل التاريخ وملابساته، ولكنه في الوقت نفسه لا يسقط مـن حـسابه الحقـائق الأخرى. فالشيء الذي لا يمكن الاختلاف فيه أن هذا الأدب قد ولد

---

130 د. أبو القاسم سعد الله "تجارب في الأدب والرحلة" الموسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983 ص176.

131 د. عبد الله ركيبي"القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر"، المقدمة، ص7.

132 نفسه، الفصل المتعلق بـالأدب الجزائري بالفرنسية، من ص 240 إلى ص273

133 د. عبد الله ركيبي "الفرانكوفونية مشرقا ومغربا"، ص 89 .

على الأرض الجزائرية، بأقلام جزائرية، في ظروف استعمارية قاسية وغير طبيعية، في الوقت الذي كان فيه المحتلون يستعدون للاحتفال بمرور قرن من الزمن على استيلائهم على الجزائر، وقد شاء له المحتلون أن يكون شاهدا ودليلا على "ثمار" الرسالة الثقافية والحضارية التي ادعوا أنهم جاؤوا لنشرها في الجزائر، وحققوا غرضهم الدعائي في أول الأمر[133]، لكن سرعان ما انقلب السحر على الساحر، وتحول هذا الأدب في مرحلة لاحقة ــ قبيل الثورة التحريرية المسلحة وأثناءها ــ إلى وسيلة نضالية للكفاح ضد المستعمر، وللتعريف بالقضية الجزائرية في العالم، وكل هذه الحيثيات تجعل من هذا الأدب أدبا "جزائريا"، سواء من حيث الولادة، أو المحتوى، أو النسب[134]. لكن هذا لا ينسينا من جهة ثانية بأنه كتب بلغة المستعمر، وأنه لم يكن كله أدبا نضاليا، ولا كله مشرفا لأصحابه[135]، كما أنه كتب لقارئ غير القارئ الجزائري، وهناك من جهة أخرى من الجزائريين من يحاول اليوم أن يتخذ من الماضي النضالي لبعض الأدباء الجزائريين باللغة الفرنسية ذريعة للدفاع عن وجود هذه اللغة في الجزائر، وعن استمرار الكتابة بها، ومن

---

134 حققوا ذلك حينما وجدوا من الجزائريين من ساعدوهم في ذلك، وأشادوا في كتاباتهم وتصريحاتهم بـ"أفضال" الاستعمار على الجزائر، وبرسالته الحضارية والثقافية.

135 يتحدث محمد ديب في هذا الصدد عن غياب الأب بالنسبة لأدب الجزائريين باللغة الفرنسية، أما الأم فهي الجزائر الحاضرة في وجدان كل كاتب "مسلم"، ولذلك لا يعاني هذا الكاتب ــ حسب ما يرى ديب ــ من مشكلة الهوية مثل الكاتب اليهودي المنحدر من أصل جزائري، الذي تخلى عن جنسيته سنة 1871 بمقتضى قانون "كريميو" الشهير. (مقتطف من الحوار المشار إليه آنفا الذي أجرته إذاعة فرنسا الثقافية مع ديب)

136 احتفل بعض الكتاب الجزائريين باللغة الفرنسية ــ مثل عبد القادر حاج حمو ومحمد ولد الشيخ ــ مع المستعمرين بمرور قرن على احتلالهم للجزائر، وألقوا خطبا بهذه المناسبة على المنابر الرسمية. راجع :
Jean Déjeux « Situation de la littérature maghrébine de langue française », p18 .

ثمة تكريس الواقع الموروث من عهد الاستعمار، واعتبار الأدب المكتوب بالفرنسية في الجزائر أدبا وطنيا، على قدم المساواة مع الأدب المكتوب باللغة العربية. ومن الجزائريين أيضا من مازال إلى يومنا هذا يعد اللغة الفرنسية"غنيمة حرب" يجب الحفاظ عليها والاستفادة منها، بل يعد اللغة الفرنسية لغة وطنية، ويطالب بمساواتها دستوريا مع اللغة العربية[136]، وهذا ما يجعلنا نتعامل مع هذه المسألة بشيء من الحذر حتى لا نقع في الشطط، فنقول إنه لا يمكن بأية حال من الأحوال الفصل بين هذا الأدب وبين الظروف التاريخية التي صنعته، ومن هنا فهو بإيجابياته وسلبياته على السواء أدب جزائري، وهذا ما جعلنا نثبت له هذه الصفة في عنوان بحثنا هذا، ولكنه لا يمكن لنا بأية حال من الأحوال أن نعده أدبا قوميا، بحكم اللغة التي كتب بها، حيث أن الأدب القومي لا يكون بغير اللغة القومية، واستنادا إلى نص الدستور الجزائري، فإنه لا توجد هناك لغة وطنية رسمية للجزائر سوى اللغة العربية، وعليه، فإن حقيقة كون هذا الأدب مكتوبا باللغة الفرنسية، وهي لغة أجنبية في الجزائر من الناحية الرسمية، يمنعه من أن يكون أدبا قوميا.

* * *

137 لقد شاعت هذه العبارة"اللغة الفرنسية غنيمة حرب" واستعملها بعض الأدباء في حواراتهم الصحافية، كما استعملها بعض الساسة ورؤساء الأحزاب الجزائريين، بحيث تصعب نسبتها إلى شخص بعينه. راجع في هذا الصدد: جريدة "السلام" الصادرة بتاريخ الثلاثاء 1991/01/01عن موضوع:"المساواة بين العربية والفرنسية"، بقلم الزاوي العربي.

الفصل الرابع
الهوية الهجينة والاندماج المستحيل

نتناول بالتحليل في هذا الفصل مجموعة من الروايات ظهرت في الفترة ما بين 1929 و1948، وهي على حسب تواليها في الظهور: "العلج" لشكري خوجة و"مريم في النخيل" لمحمد ولد الشيخ، و"بولنوار الفتى الجزائري" لرابح زناتي، و"ليلى فتاة من الجزائر" لجميلة دباش، وهي روايات تنتمي من الناحية الفنية، بلا استثناء، إلى الرواية الإثنولوجية التي ظهرت في الجزائر في عقد العشرينيات، وتنتمي من حيث مضمونها إلى ما يطلق عليه بعض الباحثين مصطلح"رواية الأطروحة"[1]، وما يهمنا هنا هو هذا الجانب، فهي تعالج كلها موضوع"الاندماج" أو ما يمكن أن نعبر عنه بالتخلي عن الهوية الأصلية (الجزائرية) والتحول إلى هوية الآخر (المستعمر الفرنسي)، وهي المسألة التي شغلت أغلبية المثقفين الجزائريين بجميع اتجاهاتهم ومشاربهم لمدة تزيد عن ثلاثة عقود، وأسالوا بشأنها الكثير من الحبر بين مؤيد ومتحفظ ومعارض*، فلا غرو إذن أن تنعكس هذه المسألة في الإبداع الروائي وتشكل موضوعه الرئيسي.

---

1 Cf . S.R Suleiman «Le roman à thèse ou l'autorité fictive» Cité par A. Lanasri in «Mohammed Ould Cheikh, un romancier algérien des années trente» O.P.U Alger 1986, p43, 63, 71.

* راجع الفصل السابق.

ومثل ما اختلف المثقفون عامة بشأن هذه المسألة، اختلف الروائيون بشأنها وتباينت مواقفهم منها، وانعكس ذلك الاختلاف في أعمالهم الروائية، غير أن ذلك الاختلاف بينهم لم يصل إلى حد التعارض الكلي، كقبول"الاندماج" بلا قيد أو شرط، أو رفضه بشكل صريح وواضح، لأنهم في نهاية الأمر متشبعون كلهم بالثقافة الفرنسية، ويحملون إعجابا شديدا بمنجزات العصر التي أدخلها الفرنسيون إلى الجزائر، ولديهم اقتناع كامل بأن تقدم الجزائريين ودخولهم عصر الحضارة الحديثة يمر لا محالة عبر هذا الطريق، أي طريق القبول بـ"الاندماج" للحصول على الحقوق السياسية، وتبني "العصرنة" بالتفتح على الثقافة الفرنسية التي تشكل في نظرهم السبيل الموصل إلى الحضارة الحديثة. غير أنهم، وعلى اختلاف تصوراتهم للمسألة، ودرجة الحماس للفكرة، كانوا يتفقون جميعا على ضرورة الحفاظ على الهوية الجزائرية، التي تتجسد أساسا في الدين واللغة والتقاليد، ولم يكن يعترض على ذلك حتى من تجنس منهم بالجنسية الفرنسية، مع أنه يفترض فيهم أن يكونوا، بحكم وضعهم كمتجنسين، من دعاة الاندماج الكلي*.

ومع ذلك، فإن هؤلاء الكتاب لم يكونوا يؤمنون جميعا بالقدر نفسه بفكرة الاندماج، ولا كانوا بالقدر نفسه من الحماس لها، ويأتي شكري خوجة في مقدمة من كانوا يظهرون شكهم في جدوى الاندماج، بسبب رفض المحيط الاجتماعي له، سواء من قبل

* مثل رابح زناتي صاحب رواية "بولنوار الفتى الجزائري" الذي تجنس بالجنسية الفرنسية سنة 1903. راجع: Dictionnaire des auteurs maghrébins. P212

الجزائريين أو الأوروبيين، وعدم استعداد هؤلاء على الخصوص بقبول من يحاول الاندماج فيهم من الجزائريين[2]، وقد عبر خوجة عن ذلك من خلال وقائع وأحداث رواية "مامون.." التي سبق لنا أن تناولناها بشيء من التفصيل في الفصل السابق، وأكد موقفه في رواية"العلج، أسير بربروسيا" بشكل أقوى وأعمق، وذلك حينما عالج المسألة في إطار يتجاوز مجرد تغيير الانتماء من مجتمع إلى آخر، إلى تغيير العقيدة الدينية مقابل حصول الفرد على حريته.

ويشارك الكتَّاب الآخرون شكري خوجة انشغاله الكبير بعامل الرفض الاجتماعي للاندماج دون أن يذهبوا معه إلى آخر الشوط في تشاؤمه من مستقبل الاندماج، إذ كان هذا الرفض يشكل بالفعل تحديا حقيقيا لكل من يحاول خرقه، وأولهم أبطال رواياتهم الذين كانوا يمثلون في مجملهم نموذج المثقف الجزائري الذي نال حظا وافرا من الثقافة الفرنسية، ويمتلك وعيا عاليا، وكفاءة مهنية ممتازة، وقدرا من الأفكار الجديدة، وحماسا للتطور بالمفهوم الذي كان شائعا في ذلك الوقت، فيصطدم من جهة بمجتمعه الأصلي بجدار الجهل والتخلف الاجتماعي والفكري، وعدم القدرة على التجاوب مع أفكاره الجديدة، ويصطدم من جهة بمجتمع المستوطنين الأوروبيين بالتجاهل الكلي وعدم الاستعداد لأي تفهم لظروفه، أو تعاون معه، أو تقدير

---

2 وقد بينا من قبل أن هذا الرفض لا يرجع للاختلاف بين الجاليتين في العرق أو اللون أو العقيدة الدينية فحسب، ولكن يرجع أيضا إلى الحفاظ على الامتيازات التي كان يتمتع بها الأوروبيون من دون المسلمين، فإذا فتح المجال واسعا للاندماج، وتساوى الجميع في الحقوق والواجبات ضاعت منهم تلك الامتيازات، أما رفض المسلمين للاندماج فبدافع المحافظة على الهوية الوطنية بكل أبعادها. راجع الفصل السابق.

لمواهبه، أو تثمين لمؤهلاته. هـذا إذا لم يقابـل بـالمواقف المعادية والتصرفات العنصرية السافرة.

تلك هي حال أبطال هذه الروايات، التي برع بعض الكتـاب في تصوير ملابساتها إلى درجة المأساة، ويتجلى ذلك بشكل خـاص في روايتي شكري خوجة "مامون.." و"العلج.."، ورواية رابـح زنـاتي "بولنوار..". أما محمد ولد الشيخ وجميلة دباش فقد كانـا حريصين دائما على إنهاء رواياتهما بنهاية سعيدة ومتفائلة، رغم العراقيل التي يصادفها أبطالهما في كفاحهم من أجل تحقيق مثلهم العليا في الحياة.

وهناك ظاهرة ملفتة للنظر نراها تتكرر في معظم الروايات المذكورة، وتشكل فيها جميعا المحرك الرئيسي للأحداث من الناحية العاطفية، ألا وهي ظاهرة الزواج المختلط، الذي يتم دائمـا بـين بطـل الرواية (الجزائري) وبين بطلتها (الفرنسية)، التي تنتمي بـالطبع إلى المجتمع الاستيطاني الأوروبي. وهذه الظاهرة، وإن شكلت متكأ فنيا للروائيين يساعدهم على تلطيف الأجواء التي ينقلونها للقارئ، ويدفع بالأحداث نحو التطور، فإن لها أيضا دلائل عديـدة مـن الناحيـة الاجتماعية والفكرية، نستطيع أن نلحظها من خلال السياق الروائي في العديد من الحالات التي صورها هؤلاء الكتاب، منها أولا : تكافؤ المستوى الثقافي بين البطل وشريكة حياته، لأنه يندر أن يجد البطل شريكة له تكافئه في مستواه التعليمي والثقافي إلا في الوسـط الأوروبي، وثانيـا: تـشبعه بالأفكار"الجديدة" التي تعلمها في المدرسـة الفرنـسية وفي الثانوية والجامعة عن معنى الحياة العصرية، والتطور الحضاري، والحياة الزوجية التي تختلف تماما عن مفهوم الحياة الزوجية في مجتمعه الأصلي، وثالثـا:

تعبير البطل المثقف، المتطور، بزواجه من أوروبية عن رفضه للـــزواج التقليدي الذي تحركه في الغالب ـــ حسب النماذج التي قدمها هؤلاء الكتاب ـــ المصالح المشتركة بين والدي العروسين، ولا يقام فيـــه أي وزن لمعانى الحب والتفاهم والانسجام الضروري الذي يحقق ســعادة الزوجين.

ذلك هو المعنى الذي عبر عنه مثلا رفض "مامون" للـــزواج الـــذي عرضه عليه والده من ابنة أحد أصدقائه "القياد"، رغم أنها كانت على قدر من التعليم والثقافة الموسيقية ((.. إنه لم يعد يريد نظـــرة الريـــف الهمجية (Barbare)، ولا عادات العرب الخشنة هذه))[3]، وذلك هـــو المعنى الذي عبر عنه الراوي في "بولنوار، الفتى الجزائري" حين وصـــف حال البطل، بعد أن أرغم على الزواج من قبل والـــده بابنـــة أحـــد أصدقائه، ولما يبلغ سن الرشد، بأنه ((حال كل المثقفين المـــسلمين، أو على الأقل حال خريجي المدرسة الفرنسية الذين لا يجرأون على الزواج المختلط، الصعب التحقيق، فينكفئون على بنات ملتهم اللائي يـــبقين محرومات، وبعيدات عن صورة رفيقة العمر التي يحلمون بهـــا))[4]. وفي أول فرصة يمتلك البطل فيها زمام أموره بنفسه يطلق زوجته هذه التي يجد العيش معها مستحيلا بسبب فارق الثقافة، ليتزوج بأوروبية تعرف عليها في الشمال الفرنسي، وأحبها، ووجد فيها الزوجة المناسبة له في مستواه الثقافي وفي تفكيره المتحرر[5].

---

3 Chukri Khodja «Mamoun.. » , p88.
4 Rabah Zénati «Bou-El-Nouar, le jeune algérien» , p132.
5 Ibid. p202.

هذا على مستوى النص، لكن هناك تفسيرات أخرى وتـأويلات للزواج المختلط تتعدى حدود النص إلى ما وراءه، ومن ذلك ما يسميه ألبير ميمي:"حب المستعمر والحقد على الـذات" حيث ((تكـون أولى محاولات المستعمَر في تغيير وضعه بتغيير جلده))[6]، ونفسر "تغيير الجلـد" هنا بمحاولة التحاق الاندماجي بالمستعمر عن طريق الزواج بأوروبية، بدافع"رفض الـذات وحب الآخر"((وهما صفتان مشتركتان في كـل مرشح إلى"الاندماج"، وشديدتا الارتباط ببعضهما في هـذه المحاولـة التحررية، بحيث يبرز حب المستعمِر في شكل مشاعر مركبة تتـراوح بين الخجل من الذات والحقد عليها))[7].

ويمكننا أيضا أن نؤول هذا الإلحاح الشديد على الزواج المخـتلط، الذي يصوره هؤلاء الكتاب في صورة تحرر شخصي، وتفتح ثقـافي، وتسامح ديني، ونزعة إنسانية — وإن كانت دائما في اتجاه واحد — على أنه تصور منهم لحل معضلة ما كان يسمى بـ"مشكلة تعـايش الأعراق" في المجتمع الاستعماري، وهو تصور جـد مبـسط، وجد طوباوي، إن لم يكن جد ساذج على الصعيد السياسي، لأنه يقفز على حقائق سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وتاريخية ودينيـة أكبر بكثير من مجرد بعث مجتمع هجين تختلط فيه دماء الأعراق، فتنتهي معه التناقضات، وتزول أسباب الصراع في المجتمع الاستعماري. إن هـذا الطرح يتناقض أصلا مع وجود النظام الاستعماري نفسه، لأنه نظـام قائم أساسا على مبدإ الصراع، وقهر الشعوب، واحـتلال أراضـيها، والهيمنة على مقدراتها عن طريق القوة، فكيف يطلب من نظام قـائم

6 Albert Memmi «Portrait du colonisé» p156.
7 Ibid, p157.

على هذا الأساس الظالم أن يحقق العدالة والمساواة بين من ينتمون إلى جنسيته ويجسدون مبادئه في الميدان وبين من يناصبونه العداء ويهددون نظامه بالزوال؟.

على أية حال، هذا هو المشروع الاجتماعي السياسي الذي تقدمه هذه الروايات ذات"الأطروحة" الاندماجية في نهاية الأمر، وهذا هو المجتمع المثالي الذي كان يتطلع كتابها إلى إيجاده، ويرون مستقبل الجزائر مرهونا ببعثه إلى الوجود، رغم ما كانوا يبدونه من شك أو تشاؤم أو يأس، ذلك الشك والتشاؤم واليأس الذي لا نرى باعثا له في الواقع إلا الشعور بالضعف والضآلة لدى هذه النخبة أمام ضخامة القوى المضادة، وليس قلة الإيمان بالفكرة، وإلا لما استمرت طيلة ثلاثة عقود من الزمن تدعو بكل إصرار إليها.

إن تحليلنا للروايات التي ذكرناها في بداية الفصل سيسمح لنا باستعراض مختلف التصورات الفكرية التي أعطتها النخبة لمضمون "الاندماج"، والأغراض التي كانت تنتظرها من الاندماج، والمراحل التي مرت بها الفكرة، والإشكالات التي طرحتها، والمعوقات التي كانت تعترض سبيل تجسيدها في الواقع، وأخيرا النتائج التي أسفرت عنها. وسنتبع في ذلك التسلسل الزمني لظهور الروايات من سنة 1929 إلى 1948.

"العلج ، أسير بلاد البرابر"لشكري خوجة [8].

اختار المؤلف أن ينقل القارئ في هذه الرواية إلى حوالي منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، أيام حكم الباشا خير الدين بربروس للجزائر،

---

8 Chukri Khodja « El-Euldj, Captif des Barbaresques ». Ed. I.N.S.A.P Algerv1929. Réédité par l'O.P.U . Coll. Textes anciens. Alger 1992

ليجري حوادثها بمدينة الجزائر في تلك الفترة، ومن خلال ذلك حاول أن يرسم صورة للمدينة ولحياة الناس آنذاك فيها.

وهذه هي الرواية التاريخية الوحيدة ـ فيما نعلم ـ التي كتبها جزائري باللغة الفرنسية، وستظل حتى عهد قريب الرواية التاريخية الوحيدة، أو بعبارة أدق: الرواية التي وظف فيها كاتبها التاريخ كمادة روائية[9]، لأن المؤلف لم يكن غرضه تقديم درس تاريخي للقارئ عن الفترة المذكورة، ولكنه كان يهدف إلى أخذ درس من التاريخ، أو استخلاص العبرة من حوادثه. وبالفعل، فإن هناك أدلة عديدة في الرواية ـ ستتضح لنا فيما بعد ـ تشير إلى أن المؤلف قد وجد تشابها كبيرا بين الأوضاع السياسية في جزائر منتصف القرن الخامس عشر وجزائر العشرينيات من القرن العشرين، فأغراه ذلك بكتابة هذه الرواية، وبإجراء نوع من المقارنة غير المباشرة، سمحت له، بفضل التباعد الزمني، أن يعبر بشكل أفضل، من خلال ماض تولى وانتهى، عن أوضاع حية كان يعيشها الناس في زمانه، بالإضافة إلى أن الحديث عن الماضي يعطيه حرية أكبر، ليقول ما لا يستطيع قوله لو تحدث بشكل مباشر عن عصره الحاضر.

وقد عمد المؤلف في بداية الرواية إلى استعمال أسلوب التهجم على الحكام الأتراك الذين كانوا يحكمون الجزائر، ووصفهم بأسوإ النعوت

---

9 ذكرنا في الفصل الثاني من الباب الأول من هذا البحث عناوين بعض الروايات التاريخية باللغة الفرنسية، مثل "أسوار الحرية" لرشيد قاهار، التي صدرت عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة 1985، و "الموتة الثانية لحسين داي" لـ م. ك. بوقرة الصادرة عن المؤسسة الجزائرية للطباعة بالجزائر سنة 1990. وعلى العموم فإن كتابة الرواية التاريخية في الجزائر نادرة الوجود، سواء بالفرنسية أو بالعربية.

ونسب إليهم أشنع الأعمال، بما يرضي القــارئ الفرنــسي عمومــا والمستوطن في الجزائر بصفة خاصة، ويتفق والصورة التقليديــة الــتي يحملها عنهم، فهم بصفة عامة: برابرة، غلاظ القلوب، جفاة الطبــع، دمويون، يعيشون على القرصنة البحرية، ويعترضون ســبيل الــسفن التجارية الأوروبية في عرض البحر، ليجردوها مما تحمــل، ويبيعــون ركابها كعبيد أو يبقونهم كرهائن إلى أن يفتديهم أهاليهم أو حكوماتهم بالذهب.

وكنوع من الإثارة لشد انتباه القارئ افتتح الكاتب روايته بمــشهد السفينة الفرنسية"الرجاء" وهي تدخل ميناء الجزائر مخفورة مــن قبــل الرايس "كاتشاديابلو" ورجاله، الذين هاجموها في عرض البحر بالقرب من جزيرة مايوركا، وقادوها عنوة ببحارتها إلى الجزائر. وإمعانــا في الإثارة، وإكمالا للصورة الفظيعة التي أراد رسمها في ذهن القارئ عن هؤلاء"القراصنة" الأتراك، يبدأ بعرض مشاهد من معاملتــهم الخــشنة للأسرى الجدد، الذين شرعوا في مغادرة السفينة المخطوفة، والأســرى القدامى الذين جيء بهم ليفرغوا حمولتها، قبل أن ينتقل إلى قصر خــير الدين الذي كان ــ كما صوره ــ أشدهم فظاظة وقسوة، حيث كان ينزل العقوبات القاسية حتى بأقرب المقربين إليه، لمجرد خطــإ تافــه أو كلمة تفوه بها دون قصد سيء أو نقد لــشخص الحــاكم أو لنظــام حكمه.

وفي هذا السياق، يعرض حادثتين وقعتا في مساء ذلك اليوم، يؤكد فيها دموية هذا الحاكم وقسوته، وانتهت كلتاهما بإصداره أمرا بإعدام الشخص المعني. الأولى تتعلق بالرايس "كاتشا ديابلو " نفسه، الذي عاد

في الصباح يجر السفينة الفرنسية إلى ميناء الجزائر فأقام له الباشا خير الدين بهذه المناسبة حفل عشاء في قصره تكريما له على هذا الانتصار، لكنه، وفي لحظة من لحظات ذلك الجو البهيج ثارت ثائرة الباشا، وانقلب على الرايس المحتفى به، وأمر الحراس بتقييده لإعدامه في صبيحة اليوم التالي، والسبب هو أنه تجاوز حدود اللياقة، وتفوه في حضرة الباشا، وهو سكران، بكلمة نابية باللغة الإيطالية، على سبيل المزاح، أتبعها بحركة من يده تدل على معناها. ويأبى المؤلف إلا أن يسوق على لسان خير الدين ما يؤكد همجيته ، وتلذذه بسفك الدماء، فيقول موجها كلامه لوزيره ((إنني متعطش إلى الدماء، فمنذ خمسة عشر يوما والخازوق معطل عن العمل، ولابد له أن يعمل، و"كاتشاديابلو" يعرض نفسه لتغذية منبع الموت، فنفذ بلا مماطلة)) [10].

ولأن الرايس "كاتشاديابلو" كان من طينة خير الدين، كما يصوره الكاتب* ، ولا يشعر نحو رئيسه بأي احترام، فإنه، وقبل أن يسوقه الحرس إلى جناح الإعدام رد على الباشا بسيل من الشتائم، وذكّره بجرائم عديدة ارتكبها هو وأخوه عروج، وفي مقدمتها الاستيلاء على عرش إمارة الجزائر عن طريق الجريمة والغدر [11]، غير أن الباشا ظل

---

10 El-Euldj , Captif des Barbaresques, p17.

* لا يقصد بالطينة هنا الأصل، لأن اسمه يدل على أن أصله إيطالي، ويؤكد ذلك كلامه باللغة الإيطالية.

11 يتهمه أنه وأخاه قد غدرا بسالم بن التومي رأس أعيان مدينة الجزائر ، وقتلاه في حمام ليستوليا على عرش الإمارة . راجع: « El-Euldj.. », p16. لكن المؤرخين لا يشيرون إلى هذا الاغتيال ، ويذهبون إلى القول بأن أعيان مدينة الجزائر ، وعلى رأسهم سالم بن التومي قد بايعوا عروج بالإجماع على إمارة الجزائر، فرفض في المرة الأولى، وبايعوه ثانية فقبل بها راجع الفصل الأول من الباب الأول من هذا البحث .

هادئا ولم يصدر عنه، بعد أن أعطى أمره وانتهى الأمر، ما يدل على أنه تأثر بشيء من كلامه، أو فكر لحظة واحدة في مراجعة قراره.

والحادثة الثانية تتعلق بمصطفى لوعيل، أحد المفاوضين التجاريين الكبار، الذي تجرأ بدوره وانتقد المعاملة السيئة للأسرى المسيحيين، حينما كان على رصيف الميناء يتابع بصحبة خوجة باش أحمد، المكلف بتوزيع العبيد، إنزال حمولة السفينة الفرنسية، فكان جزاؤه أن أمر الباشا، بعد أن بلغه انتقاده، بإعدامه هو أيضا، وبالبساطة نفسها التي أمر بإعدام الرايس "كاتشاديابلو" بها. ونفذ أمر الإعدام في الرجلين معا في صبيحة اليوم التالي بالخازوق، الذي مزق أحشاءهما في وقت واحد[12].

ونعتقد أن الكاتب قد لجأ في البداية إلى استعمال هذا الأسلوب المبالغ فيه والمتحامل على الأتراك، من أجل كسب ثقة القارئ، وتنويم يقظة الرقابة، والدليل على ذلك أن هذا التهجم سيختفي بعد قليل، ليقدم لنا حياة عادية يسودها النظام والأمن، وتنعم بالرخاء والهناء. فقد صور أسواق المدينة نشطة، ومتاجرها مليئة بالسلع، ومدارسها مشرعة الأبواب، ومساجدها عامرة بالمصلين، والحقول المحيطة بها تعج بالفلاحين والعبيد المنهمكين في أعمال الزرع والقلع، ولا شيء فيها يثير الريبة، أو يبعث على الخوف، أو يفسد على الناس حياتهم ويعكر صفوها.

وبعد هذا المدخل المثير والمتحامل على الأتراك، يغتنم الكاتب الفرصة ليمرر رسالة ـــ ما نظن أنها جاءت عفو الخاطر ـــ وذلك

12 «El-Euldj.. » p26.

حينما أثار في ثنايا الحوار الذي أشرنا إليه آنفا بين خوجة باش أحمد ومصطفى لوعيل، على لسان هذا الأخير، موضوع نشأة القرصنة البحرية، ليشير إلى ما يفيد أن القرصنة نشأت في فرنسا سنة 1400 م وأنها كانت شائعة في كامل أنحاء أوروبا، بتشجيع من حكوماتها، واستفحل أمرها بعد اكتشاف القارة الأمريكية، حيث كان القراصنة الأوروبيون يهاجمون السفن المحملة بالذهب العائدة من العالم الجديد[13]، وهو الكلام الذي يفهم منه أن القرصنة أصلا اختراع أوروبي[14].

والحقيقة أن هذا النهج المراوغ، إن صح التعبير، قد اتبعه الكاتب في كامل الرواية، وهو نهج مقصود منه، استعمله كنوع من التقية والتمويه من جهة، وكوسيلة تمكنه من إيصال وجهة نظره في مختلف القضايا التي يعرض لها في روايته من جهة أخرى. وهو في الواقع نهج مقبول من الناحية الفنية، ومتداول بين الروائيين، كما أن له أحيانا أسبابا سياسية خارجة عن الفن، كتلك الظروف التي كتب فيه شكري خوجة روايته، وهي ظروف أقل ما يقال فيها أنها تعطيه مبررا لانتهاج هذا الأسلوب. ونستطيع أن نجد أدلة عديدة في الرواية تؤكد هذا الأسلوب المموه، وتثبت عكس ما يحاول الكاتب أن يعبر عنه في الظاهر، حتى بالنسبة للأتراك الذين كنا نظن أن الكاتب قد اتخذ منهم منذ البداية، موقفا معاديا واضحا ونهائيا، والدليل على ذلك شخصية

13 «El-Euldj..» p22.

14 تجدر الإشارة هنا إلى أن كلمة Corsaire الفرنسية التي تعني رحل عصابات بحرية، هي من الأصل الإيطالي Corsa التي تعني الملاحقة تعود إلى القرن 12 الميلادي، (راجع قاموس Petit Robert مادة Corsaire) وقد يكون أصلها مشتقا من اسم جزيرة الكورس (كورسيكا) الفرنسية.

إسماعيل حاجي نقيب الصّاغة، وهو شخصية مهمة وفاعلة في أحداث الرواية، الذي أعطاه المؤلف صورة لا غبار عليها في معاملته للأسير (البطل)"برنار لوديو"، إن لم نقل صورة مشرفة لرجل يتمتع بكل المقومات التي يفترض أن تجعل منه رجلا جبارا متكبرا، مثل الأصل التركي الذي يضعه في طبقة الأشراف، والمال الكثير، والنفوذ لدى الحكام وأصحاب القرار، والمكانة الاجتماعية المرموقة لدى الخاصة والعامة من الناس، ومع ذلك كله، فإنه كان في غاية الإنسانية والمعاملة الحسنة لأسيره وعبده"لوديو"، معاملة خليقة برجل مسلم مثله، يحرص على التعامل مع الآخرين حسب قواعد الشرع والدين. وانطلاقا من واجبه كمسلم ـــ كما قال لأسيره ـــ عمل على ترغيبه في الدخول في الإسلام، ووعده أن يمنحه حريته إن هو أسلم، وأن يجعل منه مساعدا له في أعماله، وذكر له العديد من المزايا التي سيحصل عليها بإسلامه. ويتضح لنا من كلام إسماعيل حاجي مع أسيره، أن تلك المزايا التي كان يحاول أن يغريه بها ليدخل في الإسلام، هي في الواقع مزايا كان يتمتع بها كل الأسرى المسيحيين الذين دخلوا قبله في الإسلام. يقول له: ((انظر حولك، ألا ترى المسيحيين الذين دخلوا الإسلام أكثر مني سعادة؟ الكل يقدرهم ويحترمهم، ولا أحد يستطيع أن يعتدي على كرامتهم)) [15].

وهذا يعني أن الحكام الأتراك، كانوا في هذا الإجراء منصفين، وهم بهذا يطبقون مع عبيدهم وأسراهم، بمؤازرة من الشعب وتأييده، تعاليم الإسلام الذي لا يميز في المعاملة بين مسلم وآخر، ويجعل جميع الناس

---

15 « El-Euldj.. », p44.

سواسية كأسنان المشط، فإذا دخل أحدهم الإسلام صار واحدا من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم.

وحين علم إسماعيل حاجي من زوجته بتعلق ابنته زينب بأسيره "لوديو"، ثار في أول الأمر، وهدد بقتل الأسير، ولكنه بعد أن استشار صديقه لطيف أفندي، هدأت نفسه بعض الشيء، وعاد من جديد يدعو"لوديو" إلى الإسلام، مدفوعا في هذه المرة، ليس بواجبه كمسلم فحسب، ولكن تجنبا للفضيحة أيضا، وتكفيرا عن ذنبه إزاء ابنته الوحيدة التي أحس أن له ضلعا في افتتانها بهذا الأسير المكتمل الرجولة، حين وضعه في خدمته داخل داره[16]، ومن ثمة راح يمارس عليه ضغوطا مختلفة عن طريق ناظر عماله، إلى أن أسلم في الأخير، فأعتقه فعلا، وزوجه بابنته عملا بنصيحة لطيف أفندي.

ولطيف أفندي هذا نفسه كان نموذجا آخر قدمه المؤلف للتركي المتحضر، فقد بدا لنا من حواره مع صديقه إسماعيل حاجي ذا عقل متفتح، ورأي متحرر وصريح، وصاحب نظر بعيد[17]. يتجلى ذلك في هذا الموقف الإنساني من الأسير، والرأي الصائب الذي أشار به على صديقه إسماعيل، بدفعه إلى الدخول في الإسلام، وتزويجه بابنته. ولو كان على شاكلة الأتراك الذين تحدث عنهم المؤلف في البداية لحرّضه على قتل"العبد"، أو جلده بالسياط حتى الموت، أو أي عقاب آخر يتفق ووضع الأسير والعبد على السواء، اللذين كانا مجردين من أية حقوق في ذلك المجتمع.

---

16 «El-Euldj.. », p54.
17 Ibid, p53,54.

وكان المؤلف قد عرض علينا من قبل شخصية مثالية أخرى هي شخصية مصطفى لوعيل الذي أمر الحاكم بإعدامه، فقد كان يتمتع بكل مميزات الرجل المتحضر، من ضمير حي، وعقل مثقف، وشجاعة أدبية كبيرة جعلته يجهر بالحق في دولة سلطان جائر. ولئن كنا لا ندري أهو تركي أم جزائري الأصل، فإن ذلك لا أهمية له في نظرنا ما دام يعيش بين الأتراك كواحد منهم، ويتمتع في دولتهم بصفة المفاوض التجاري الكبير.

وهناك حادثة تاريخية مهمة تعرض لها المؤلف في ثنايا الرواية، وفيها يبدو جليا كيف أخفق في محاولة إخفاء عاطفته الدينية والوطنية بأسلوب التمويه الذي أشرنا إليه، وذلك حين تحدث عن الحملة البحرية الضخمة على الجزائر التي قادها"شارل كان" امبراطور إسبانيا سنة 1541، وهي الحملة التي تتزامن والفترة التي تجري فيها أحداث الرواية، فوصف أسباب تلك الحملة بعبارات واضحة لا تقبل التأويل، إنها غزو مقنَّع، ورغبة من"شارل كان" في التوسع والاستعمار، حتى وإن حاول أن يبرر غزوه ببعض الحقائق التي لا يمكن نكرانها، لكنها في الوقت نفسه ليست هي الأسباب الحقيقية. يقول: ((بدعوى أن حكومات بربروسيا تتعاطى القرصنة بلا عقاب ــ وهذا صحيح ــ ولكن، وعلى الخصوص، برغبة غير معلنة في غزو العالم، أعدَّ شارل كان سنة 1541 حملته الشهيرة على الجزائر))[18].

ونلاحظ هنا أن الذرائع التي برر بها"شارل كان" غزوه للجزائر سنة 1541 هي الذرائع ذاتها التي برر بها حكام فرنسا غزوهم للجزائر سنة

---

18 «El-Euldj.. » p118.

1830، كما كانت نواياه هي نواياهم، لكن المؤلف لا يذكرها صراحة ويتركها لتفهم ضمنيا عن طريق التداعي والمقارنة الذهنية، لأن مجرد التطرق إلى حملة"شارل كان" على الجزائر تستدعي في ذهن القارئ تلقائيا حملة الفرنسيين عليها سنة 1830.

ولا يكتفي المؤلف بهذه التلميحات أو الإسقاطات التي تتحدث عن شيء وتشير من طرف خفي إلى شيء آخر، فقد حرص المؤلف على إظهار رد الفعل الشعبي إزاء غزو"شارل كان"، حيث يشير لأول مرة إلى"الشعب" الذي أخرج السلاح، وهب للدفاع عن نفسه وأرضه في تكاتف مع الحكام الأتراك ضد العدوان الخارجي، لاسيما أن مدافع"شارل كان" كانت تزرع الموت في الشوارع بلا تمييز بين التركي وغير التركي، ولم يتخلف عن تلبية نداء الجهاد إلا الشيوخ والعجزة، الذين لجؤوا إلى المساجد، يحتمون بها ويقيمون الصلوات، ويرفعون الدعوات إلى الله ليرد عن البلد عدوان المعتدين[19].

ونلاحظ أن الكاتب يستعمل كلمة"الشعب" (Le peuple)، حينما يتحدث عن المقاومة الشعبية، ولا يجاري المستوطنين الأوربيين في استعمال كلمة (La population)، التي كانوا يحرصون على استعمالها دائما كلما تعلق الأمر بالجزائريين، وهي تعني التجمعات السكانية، ويتعمدون استعمالها بقصد واضح وهو إنكارهم الضمني أن يكون الجزائريون يشكلون شعبا.

ولا يفوت الكاتب أن يبرز جانبا من فعل المقاومة الشعبية للجنود الإسبان، التي كانت ترهقهم بمناوشاتها الجانبية أثناء زحفهم نحو أعالي

19 «El-Euldj..» p119.

الجزائر، وعند انسحابهم منها، وتحرشها بهم طوال النـــهار، وطـــوال ساعات الليل((فبعد تعب رحلة بحرية طويلة لم يتمكنوا حتى من أخذ بعض الراحة، فقد كان المور (الجزائريون) يتحرشون بهم، ويطلقـــون النار من بنادقهم القوية، ليمنعوهم من النوم))[20].

وعلى لسان حسن آغا قائد الجيش يشيد الكاتـــب بـــدور هـــذه المقاومة، ويؤكد التكاتف الذي أشرنا إليه آنفا بين الشعب وبين القيادة التركية، ويستعمل القائد بدوره لفظ"الشعب" وعبارات أخرى تعبر كلها عن روح وطنية حقيقية، بعيدة تماما عن صورة "القراصنة" الـــتي ألصقها بهم أعداؤهم الأوروبيون. يقول: ((بلى، إنني أريـــد لهـــؤلاء الجنود المتهورين أن يتمكنوا من عبور الحراش والحميز، ويذهبوا وراء البحار ليقولوا أن بلدنا ليس محميا بقدرة الله فحـــسب، ولا بتكـــوين سهوله الجافية، ووديانه الموبوءة، ولكنه محمي أيضا بشعب شـــجاع لا يهاب الخطر ولا الموت))[21].

وكان الكاتب قد أعطانا في البداية ما يشبه الخلاصة في حملة "شارل كان" هذه، التي لا يتردد في وصفها بالحملة الفاشـــلة علـــى جميـــع المستويات، مثلها مثل حملته على تونس سنة 1535 ((التي لم يخـــرج منها إلا بنتيجة واحدة إيجابية بقيت عالقة في ذاكرة الناس، وهي أنـــه تمكن من تحرير عشرين ألفا من الأسرى المسيحيين))[22]، وهي نتيجـــة إيجابية لأنها عملت على تحرير الإنسان. وكأني بالمؤلف يريد أن يقول: إن كل أعمال الغزو والعدوان مآلها الزوال والنسيان، ولا يبقى عالقـــا

20 «El-Euldj.. », p123.
21 Ibid p126.
22 Ibid p118.

في الذاكرة إلا العمل الخيِّر الذي يحرر الإنسان من العبودية والأسر، مهما كان جنسه أو دينه، ويرتقي به نحو ما يحقق إنسانيته بشكل أقوى.

ويبقى الخط الرئيسي الموجه لرواية"العلج" هو قبل كل شيء موضوع"التجنس" الذي كان يشكل وموضوع"الاندماج" قضية الساعة على عهد الكاتب، ويجسد إشكاليته الأسير الفرنسي"برنار لوديو" الذي أصبح يدعى"عمر لوديوس" بعد إسلامه، وأصبح بحكم وضعه الجديد، وزواجه من ابنة إسماعيل حاجي، واحدا من أهالي مدينة الجزائر، وواحدا من عامة المسلمين. لكن، هل يمكن أن يحدث هذا حقا؟ وهل يستطيع شخص في ظروف"برنار لو ديو"، وهو العبد الأسير، أن يدخل الإسلام بكامل إرادته وعن اقتناع تام بما أقدم عليه؟ وهل يكفي حقا أن يدخل الشخص في ديانة قوم غير قومه، ويتزوج منهم، ويعيش بين ظهرانيهم فترة من الزمن ليصبح واحدا منهم؟ هل يستطيع فعلا أن ينسى عقيدته الأولى التي نشأ عليها، وبلده الذي رأى فيه النور لأول مرة، وذكرياته فيه، وأسرته وأهله، ويقطع صلته بكل ذلك الماضي، حلوه ومره، كأن شيئا لم يكن؟ ذلك هو المستحيل، وهذا ما أراد الكاتب ــ ببساطة ــ أن يقوله في روايته.

إن"برنار لوديو" لم يدخل الإسلام بإرادته الحرة، فوضعه كأسير وعبد يتناقض والإرادة الحرة، ثم إنه تعرض لضغوط عديدة، يأتي في مقدمتها ــ بالطبع ــ وضعه كأسير وعبد، الذي كان يدفعه إلى البحث عن أية وسيلة تخرجه من جحيم الأسر والعبودية، ولم تكن أمامه وسائل كثيرة لتحقيق ذلك، فقد كان أمامه ثلاثة خيارات لا

أكثر: إما المغامرة بالهرب عن طريق البحر وهي وسيلة خطرة وغير مضمونة العواقب، وقد جربها بعض الأسرى وعادت عليهم بنتائج وخيمة، أو دفع فدية لحكومة الباشا خير الدين، وهي باهظة القيمة لا يقدر عليها إلا قلة من الناس، أو الدخول في الإسلام وهو الأمر الوحيد المتاح له. كما تعرض أيضا لضغط قوي من قبل إسماعيل حاجي ــ كما بينا آنفا ــ اتخذ في الأول طابع الترغيب، ثم تحول إلى ترهيب بعد أن علم حاجي بتعلق ابنته بأسيره، ويتجلى لنا مدى ذلك الضغط النفسي الذي مارسه عليه سيده من خلال شكواه لصديقه وشريكه السابق في الزنزانة"ألبير كويزيني"، الذي صادفه في باب عزون وهو في طريقه إلى الحقل، حيث بادره بهذه العبارة اليائسة: ((لقد حوصرت يا صديقي..)). وفهم صديقه أنه يحاول أن يختلق مبررا لاعتناق الإسلام، ويبحث له عن تأييد معنوي منه يتغلب به على تردده، وكان"لوديو" قد لمّح له في أحاديث سابقة بمثل هذا الاحتمال، وكان يرفض هذه الفكرة حتى ولو على سبيل المزاح، ولذلك رد عليه في حسم: ((إنك تطلب مني المحال..))[23].

وبالرغم من هذا الرد الحاسم من"كويزيني"، الذي بدا كأنه يضع حدا مسبقا لأي نقاش في الموضوع، إلا أن الحوار تواصل بينهما، وجاء في جزء منه ما يلي:

23 ينبغي أن يكون الفرق واضحا لنا بين"الاندماج" L'assimilation و"التجنس" La naturalisation ، فالأول يعني أن يندمج الشخص (أو الجالية) في مجتمع ما غير مجتمعه الأصلي مع الاحتفاظ بعقيدته ومقومات هويته الأساسية ، أما الثاني فيقصد به التخلي عن كل مقومات شخصيته بما في ذلك الإسم والعقيدة الدينية ، وقد كان كلا الخيارين مطروحين على الجزائريين .

ـــ أقسم لك أني ما اعتزمت هذا العزم إلا من أجل أن أمحي ألوان العذاب والمذلة التي يعاني منها الأسرى.

ـــ إنه جبن.

ـــ إنني لا أخاف الأتراك ولكن أخاف من الشقاء الذي يسببونه[24].

ومن هنا يتضح لنا جانب آخر من الضغوط التي كان يعاني منـــها البطل، وهي في هذه المرة ضغوط مضادة آتية من الأسرى الآخـــرين، ولاسيما من أولئك الذين كانوا يجاورونه في السجن، وظلوا على صلة به بعد أن غادره، حيث كانوا يلتقون به أثناء قيامهم بأعمال السخرة في الأسواق والحقول، من أمثال صديقه وابن بلده "كويزينيي"، ومثل الإسبانيين"فرانكو كاسبيرو"، والقس "سابليرو". ومن هذا الحوار أيضا يتضح لنا أن اعتناق"لوديو" الإسلام لم يكن عن شـــك وارتيـــاب في عقيدته المسيحية، أو لأنه وجد في الإسلام ما يستجيب لحاجات مـــا روحية لم يجدها في النصرانية، ولكنه كان بالدرجة الأولى هروبا مـــن الأسر والعبودية، وبالدرجة الثانية نتيجة للضغوط التي مارسها عليـــه إسماعيل حاجي بصفة خاصة، والمحيط الاجتماعي المسلم الذي كـــان يعيش فيه بصفة عامة. وسنجد فيما بعد وقائع وتصريحات عديدة تثبت أن إسلامه لم يكن إلا إسلاما شكليا قصد به التخلص من ربقة الأسر والعبودية، أما في دخيلة نفسه فقد ظل على إخلاصه لعقيدته المسيحية. وهذا ما يفسر من ناحية أخرى جزء كبيرا من صراعه المرير مع نفسه، وتردده الكبير في الإقدام على تلك الخطوة التي نوى أن يخطوها، وهي الدخول في الإسلام، فقد كان مشغولا طوال الوقت بـــالتفكير، مـــن

---

24 «El-Euldj.. » p56.

جهة، في بارقة الأمل هذه التي سيستعيد بها حريته ويتخلص من ذل الأسر والعبودية، وبالتفكير، من جهة أخرى، في بلده، و في زوجته وأطفاله، وفي أهله ومعارفه، حيث سيكون اعتناقه للإسلام معناه قطع الصلة بينه وبينهم نهائيا. كما كان يفكر أيضا في رد الفعل لدى أصدقائه ومعارفه من الأسرى الآخرين الذين لا يتوقع منهم إلا أن يحتقروه وينبذوه ويرموه بالجبن والخيانة مثل ما فعل صديقه "كويزينيي".

وقد ظل في هذه الدوامة من التفكير أياما وليالي، لا يهدأ له بال، ولا يغمض له جفن، ولا يرتاح له جنب، إلى أن وضع ذات يوم حدا لتردده وصراعه مع نفسه، وذلك حين قصد جامع كتشاوة، وأشهر إسلامه أمام جمع غفير من المسلمين جاؤوا لأداء الصلاة[25].

وبطبيعة الحال سر إسماعيل حاجي كثيرا عندما بلغه خبر إسلام أسيره "لوديو"، وأعتقه كما وعده، وزوجه بابنته بعد عملية الختان التي أجريت له طبقا للشريعة الإسلامية[26]، واتخذه مساعدا له في إدارة أعماله، ولم يساوره أدنى شك في صحة إسلامه. وهو هنا يتصرف وفق القاعدة الشرعية المعروفة التي تقول بأن الحكم على العباد يكون على الظواهر، والله وحده يتولى السرائر.

وقد تعزز مركز "عمر لوديوس" عند صهره حينما ولد له ولد ذكر اختار له اسم يوسف، وحينما بلغ الولد سن الدراسة تولى الجد الإشراف بنفسه على تعليمه وتنشئته بالصورة التي أرادها له، وهي أن

25 «El-Euldj..» p57.
26 Ibid, p70.

يجعل منه عالما متبحرا في العلوم الشرعية، ومفتيا يفتي الناس في أمور دينهم. وكان له ما أراد، رغم معارضة"لوديوس" ((الذي خشي أن يرى ولده يضيع منه إلى الأبد وسط الأمواج الملاطمة للمحيط الإسلامي))[27]، لكنه برر معارضته بعدم رضاه عن الصورة التي كان عليها"الطلبة" في ذلك الزمان، فقد كانوا في نظره ((يضيعون وقتهم في قضم أشعار لا جدوى منها"، ويظهرون في تجمعاقم"كأنهم ينمُّون.. "))[28].

غير أن"لوديو"، وإن تخلص من حالة الأسر والعبودية المادية التي كان يعيشها بجسده، فإنه لم يتمكن من التخلص من حالة الأسر المعنوي والعبودية الروحية، فقد ظل دائما يحس بعذاب الضمير، وبالندم على تخليه عن عقيدته المسيحية. وقد صرح بذلك في العديد من المرات لصديقه"ألبير كويزينيي"، ومن ذلك قوله له ذات مرة: ((إنك تعرف جيدا أنني نادم على كل ما فعلت، ولحسن الحظ أنني وجدت فيك الشخص الذي أبوح له بسري، وأخلص نفسي من تأنيب الضمير الذي لم أعد قادرا على كتمه في دخيلة نفسي دون ألم))[29]. كما صارح زوجته بحقيقة ما يشعر به عندما لاحظت اكتئابه ووجومه، وسألته في استنكار "إن كان قد ارتكب جريمة قتل؟" فأجابها قائلا: ((إن ضميري يعذبني، يا زينب (...) لقد ارتكبت ذنبا أكبر من جريمة القتل، لقد قتلت دينا هو ديني))[30].

27 «El-Euldj.. » p83.
28 Ibid p81.
29 Ibid, p83.
30 Ibid, p85.

وقد افتضح أمره يوم أن غزت جيوش "شارل كان" مدينة الجزائـر، فظن أن ساعة الخلاص قد أزفت بالنسبة إليه، وبالنسبة لكل الأسـرى المسيحيين، ولكنه أصيب بصدمة قوية عندما شاهد انسحاب الجنـود الإسبان وهم يجرون وراءهم أذيال الخيبة والخذلان، وفقد على إثرهـا أعصابه. وفي مسجد كتشاوة الذي شهد نطقه بالشهادتين منذ أكثـر من عشرين عاما، قام وسط دهشة المصلين الذين تجمعوا فيه لإقامـة صلاة الخوف يرسم علامة الصليب، ويودي الصلاة المسيحية. وقد أبى الكاتب ــ وكأنه يمعن في إظهار سخرية الأقدار ــ إلا أن يجعل إمـام المصلين بالجامع في ذلك اليوم هو إبنه يوسف، الذي أصبح مفتيا[31].

والشيء المؤكد، أن الكاتب كان هنا يحاول أن يسقط حال هـذا الأسير الفرنسي، وحال الأسرى المسيحيين الآخرين ــ سواء منـهم أولئك الذين استسلموا للإغراءات والضغوط، أو أولئك الذين ضلوا صامدين ومتمسكين بعقيدهم ــ على حـال الجزائـريين في ظـل الاستعمار الفرنسي، ويقارن بطريقة غير مباشرة، محنته بمحنتهم، حين طلب إليهم بدورهم أن يتخلوا عن دينهم، وعن مقومات شخصيتهم، ليكونوا مسيحيـين فرنسيين، وتعرضـوا بسبب ذلك لمختلف أنواع الضغوط، وسياسات الترغيب والترهيب، بالتبشير المسيحي المباشـر تارة، وبإغراءات الحصول على حق المواطنة الفرنسية تـارة أخـرى، والحصول على الحقوق المدنية والسياسية مرة ثالثة، وهكذا.

والواقع أنا إذا تأملنا أوضاع هؤلاء الأسرى علـى عهـد الحكـم التركي في الجزائر، وأوضاع الجزائريين في عهد الاحتلال الفرنـسي،

---

31 «El-Euldj.. »p120.

فإننا نجد تشابها قويا على أكثر من صعيد، فهناك الحكم التركي الأجنبي ـــ من وجهة نظر المؤلف على الأقل ـــ الذي يقابله حكم الاحتلال الفرنسي، وهناك طبقة تتحلق حول الحاكم، وتتكون من كبار موظفي الدولة، وضباط الجيش، ورؤساء البحر، ومعظم هؤلاء من الأتراك، يضاف إليهم الوسطاء، والمضاربون، والتجار الكبار، الذين ترتبط مصالحهم جميعا بالنظام القائم، تقابلها طبقة مماثلة في نظام الحكم الاستعماري، تتكون من كبار موظفي الدولة، وجنرالات الجيش، وبقية المستفيدين الآخرين، من سماسرة، ومضاربين، وملاك الأراضي، وأصحاب المال والأعمال، وكلهم أوروبيون، وتأتي في الدرجة الدنيا طبقة العبيد من الأسرى الأوروبيين الذين ازداد عددهم مع مرور الوقت، بسبب الحرب البحرية التي اتسعت دائرتها بعد خروج المسلمين من الأندلس، فأصبحوا يشكلون احتياطيا كبيرا من اليد العاملة، يقومون بأعمال السخرة في الميناء، وفي الأسواق والمحلات التجارية، وفي البساتين والحقول، وفي المنازل، وكان هذا بالضبط هو وضع الجزائريين في عهد الاحتلال الفرنسي، حيث أصبحوا يقومون بكل تلك الأعمال مثل العبيد، وكانوا في حكم أسرى الحرب الذين لا يتمتعون بأية حقوق مدنية أو سياسية، مع وجود فارق وحيد، هو أن عدد العبيد قد تضخم في هذه المرة ليصبح بضعة ملايين من البشر، عوض بضعة آلاف مثل ما كان في عهد الأتراك، كما انعكس الوضع بالنسبة للسيد والمسود، بحيث أصبح الأوروبيون هم السادة وأهل البلد هم العبيد.

ومن هنا نرى أن الكاتب حينما طرح في روايته هذه إشكالية "الاندماج" و"التجنس"، إنما كان يطرح في الواقع إشكالية الحرية والعبودية كوضع إنساني، بصرف النظر عن الجنس الذي ينتمي إليه الإنسان، أو الدين الذي يعتنقه، أو الزمان أو المكان الذي يعيش فيه، ومن ثمة فهو يطرح سؤالا فلسفيا دقيقا ومحددا هو: هل في إمكان العبد أو الأسير أن يختار حقا بكامل إرادته، وأن يكون له رأي في اختياره، في حين أن وضعه كعبد يتناقض أصلا مع فكرة الاختيار وحرية الرأي واتخاذ القرار؟

والجواب العملي عن هذا السؤال أعطاه الكاتب من خلال بطل روايته"برنار لوديو"، الذي اضطرته ظروفه القاهرة أن يتظاهر بما ليس فيه، وأن يعيش ما يزيد عن العشرين عاما حياة مزدوجة، معلقة بين عقيدتين، ومجتمعين، وبلدين، وحضارتين، وزوجتين، وأسرتين، يعاني من القلق النفسي، ومن الخوف أن يفتضح أمره، ويظهر في أعين من احتضنوه وأحسنوا إليه، وجعلوه واحدا منهم، مخادعا ومنافقا وناكرا للجميل، ويكون بذلك عرضة لإقامة الحد عليه، وهو القتل في هذه الحال، باعتباره مرتدا عن الدين، ويعاني من جهة أخرى من تأنيب الضمير إزاء دينه الأصلي، وبلده، وأهله، والأسرى الآخرين، وبني قومه بصفة عامة، بالإضافة إلى شعوره بالدونية والعجز من احتقار هؤلاء له وإنكارهم لما فعله، ونبذهم له.

وهذا بالضبط هو واقع الحال بالنسبة للجزائري الذي تستهويه الإغراءات، أو يستسلم للضغوط ويقدم على"التجنس". هذا ما يريد أن يقوله الكاتب ضمنيا. لن يكون إلا"برنار لوديو" معكوسا، يعاني

من نبذ بمجتمعه الأصلي، ومن رفض بمجتمعه الجديد، ومن القلق النفسي، والعزلة، وعذاب الضمير، وينتهي به الأمر إلى الانهيار النفسي والجنون. لماذا ؟ لأنه يفتقر إلى الشرط الرئيسي للوجود الإنساني وهو الحرية، فبدون الحرية لا يستطيع الإنسان أن يختار حقا بكامل وعيه وإرادته. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الإنسان لا يمكن له أن يكون شيئا آخر غير ذاته، مهما طرأ على حياته من جديد، ومهما غير من تفكيره ومعتقداته ونمط عيشه، إذ لا يعقل أبدا أن يمسح ذاكرته نهائيا، كأنما ولد من جديد، ويتخلص من كل أفكاره السابقة، وعواطفه، وتجاربه في الحياة، وروابطه العائلية، وعاداته التي نشأ عليها، ومعتقداته الدينية وغير الدينية التي كان يعتنقها. إن ذلك في نظر الكاتب هو المستحيل.

"مريم بين النخيل" لمحمد ولد الشيخ[32]:

موضوع هذه الرواية هو أساسا قصة حب جد عادية – إذا نحن جردناها من الجانب المغامراتي فيها – تنشأ بين شاب جزائري مثقف

---

32 محمد ولد الشيخ (1906 – 1938)، ينتمي إلى قبيلة أولاد سيدي الشيخ التي اشتهرت بمقاومتها للاستعمار الفرنسي في الجهة الجنوبية الغربية من الجزائر، ولد في مدينة بشار، في 1906/02/23 وبها تابع دروسه الابتدائية في المدرسة الفرنسية، ثم بعث به والده الآغا الشيخ بن عبد الله إلى وهران لمواصلة الدراسة الثانوية، لكن جو المدينة المشبع بالرطوبة لم يلائم صحته، وكان يعاني من مرض السل، الذي تمكن منه بسرعة، ولم تفده كثيرا تلك الرحلات الاستشفائية التي قام إلى أماكن عديدة داخل الجزائر وخارجها، وخاصة إلى حمام بوحنيفية الطبيعي، وحمامات "فيشي" بفرنسا، حيث توفي بتاريخ30/01/ 1938 عن عمر يناهز الثانية والثلاثين. أعماله المنشورة:"أغنيات لياسمينة"(شعر)1930، و"مريم بين النخيل" (رواية) 1936، ومسرحية"شمشون الجزائري" التي نقلها محي باش تارزي إلى العامية، وقدمها على خشبة المسرح سنة 1937. وله بعض القصص القصيرة التي نشرها في منتصف العشرينيات مع بداية عهده بالكتابة في الصحافة المحلية.

هو أحمد المسعودي، الذي يصفه الكاتب بأنه جزائري "متطور"، وبين فتاة فرنسية هي "مريم ديبيسي"، التي جاءت نتيجة زواج مختلط بين ضابط فرنسي يدعى "ليون ديبيسي"، النقيب في جيش الاحتلال، وامرأة جزائرية تدعى خديجة.

وتنتهي الرواية في الأخير ــ مثل ما يتوقع القارئ في مثل هذا النوع من قصص الغرام التقليدية ــ بزواج أحمد ومريم، وذلك بعد سلسلة من المغامرات، والجهود المضنية التي يقوم بها الأبطال، فتكون هذه النهاية السعيدة تتويجا لجهودهم وتضحياتهم، بالرغم من شدة المعاناة وقوة الخصم.

وقد ربط الكاتب بين هذه القصة الغرامية وبين "قصة" أخرى حقيقية، جرت وقائعها في ذلك الوقت، هي قصة احتلال القوات الفرنسية لواحة "تافيلالت"، الواقعة في الجنوب الشرقي للقطر المراكشي، في منتصف يناير من سنة 1932. وقد لخص الكاتب بنفسه موضوع الرواية، وربط بين القصتين على النحو التالي: ((إنها قصة شعب عاش القمع طويلا من طغاة برابرة، وقصة شابين جزائريين من شباب القرن العشرين، عربي متطور، وفرنسية. فعلى الرغم من الأحكام العرقية المسبقة، فإن الصداقة قربتهما من بعضهما، والحب وحَّد بينهما)) [33].

والحال أن هذا الربط بين القصتين قد جاء من الناحية الفنية مفتعلا ومتعسفا، لأن المصادفة تلعب فيه دورا رئيسيا، وذلك حينما جعل الكاتب طائرة البطلة ــ التي كانت تهوى الطيران وتمارسه ــ تتعطل

33 Mohammed Ould Cheikh «Myriem dans les palmes», en guise de prologue.

في سماء" تافيلالت"، وتنزل نزولا اضطراريا على أرضها، فيقبض عليها وعلى مرافقها الميكانيكي رجال"بلقاسم نكادي"، الذي كان يسيطر على الواحة، ويتزعم الثورة ضد الفرنسيين وسلطان مراكش معا. ومن هنا تبدأ مغامرة أبطال الرواية: مريم الأسيرة، وحبيبها أحمد مسعودي، وأخوها"جان حفيظ"، الضابط في مخابرات جيش الاحتلال الفرنسي، وكذا زهراء زوجته، الذين التحقوا خفية بتافيلالت بعد أن بلغهم خبر وقوع مريم في الأسر، وراحوا يعملون، كل من جهته، ثم بالتعاون بعد ذلك فيما بينهم، من أجل إطلاق سراح الأسيرة، من بين أيدي القوى المضادة، التي تتمثل أساسا في"الطاغية" بلقاسم ورجاله، ومعهم منافس أحمد مسعودي على حب مريم، المرتزق ومهرب السلاح"إيباطوف"، الروسي الأصل، الذي وجد فرصة سانحة للانتقام من مريم بعد أن نبذته وفضلت عليه"بيكو" عربي ــ على حد تعبيره[34] ــ.

غير أن الربط بين القصتين قد جاء ــ على الأرجح ــ ربطا اضطراريا بالنسبة للكاتب، مثل هبوط الطائرة في أرض الواحة، وإلا لكان قد قدم قصة حب عادية جدا، وهزيلة، لا إثارة فيها ولا جاذبية، أو سردا جافا لوقائع تاريخية لا علاقة لها بالفن الروائي، فيما لو اقتصر على غزو القوات الفرنسية للواحة لا غير. والظاهر أن دافعه لكتابة الرواية، كما صرح في المقدمة ((إنما من أجل أن يسر به رواد دعاة

34 هذه اللفظة"بيكو" يقصد بها التحقير، ومعناها الأصلي (الإيطالي): "التيس"، وينعت بها العربي عامة لسواد شعره وسمرة بشرته، بالإضافة إلى الدلالات الأخرى التي تلصق بهذا الحيوان.

التقارب الفرنسي الإسلامي (...) دون الإضرار بالحقيقة التاريخية، أو بعادات تافيلالت))[35].

وعلى الرغم من التفاصيل التاريخية الكثيرة التي ضمنها الكاتب صلب الرواية عن واحة تافيلالت، وعن هجوم القوات الفرنسية عليها، فقد أبى إلا أن يقدم في الأول مدخلا منفصلا عن الرواية من تسع صفحات، عن تاريخ الواحة منذ تأسيسها عام 140 هجرية، من قبل الخوارج الصفرية، الذين أطلقوا عليها اسم "سجلماسة"، وهو الاسم الذي عرفت به في القديم[36]، مرورا بمختلف أطوار تاريخها، تحت حكم المرابطين، فالموحدين، فالمرينيين، فالزيانيين، وصولا إلى العصر الحديث حين صارت تابعة لحكم "الشرفاء" أو أسرة العلويين، مع إيراد تفاصيل عن الثورات التي وقعت فيها، ومختلف الاضطرابات التي شهدتها حديثا، إلى أن احتلها الفرنسيون في آخر الأمر[37].

---

35 « Myrièm dans les palmes», Avant-propos, pIV.

36 يشير المؤلف في الهامش إلى مصدر معلوماته بهذا الشأن، فيذكر مقالا للسيدة "مارت كوفيون" بعنوان "التافيلالت وجبل سارهرو" نشر في مجلة "الرحالة"، عدد مارس/أبريل 1933، كما يذكر أيضا أنه استفاد من المعلومات الشفوية التي زوده بها بعض أهل الواحة أنفسهم. راجع مقدمة الرواية: pV .

37 ولا ينسى المؤلف أن يسوق ضمن هذه المعلومات تأويلا يتناقله الناس عن الاسم الحديث للواحة، الذي يتركب من كلمتين: هما "توفوا" و"لا،لا" وهو خلاصة الحوار الذي دار بين الرجل الصالح الحسن بن قاسم رأس الشرفاء الذي جاء به سكان الواحة من البقاع المقدسة وبنوا له "زاوية"، وزوجوه منهم، ووعدوه بربع غلتهم من التمر إن هو خلصهم من مرض البيوض الذي أصاب نخيلهم فدعا لهم، فاستجاب الله لدعائه وخلصهم من مرض النخل، ولكنهم أخلفوا وعدهم له، فقال لهم "توفوا" فأجابوه "لا،لا"، فسميت الواحة منذ ذلك الحين "توفولالا " أو "تافيلالت" وهي رواية مهلهلة وغير مقنعة كما هو واضح في سياقها.

وفي هذا المدخل التمهيدي الطويل يأتي المؤلف على ذكر العديد من الحكام الذين تعاقبوا على حكم الواحة، وزعماء الثورات والانقلابات التي حدثت فيها، ويركز بشكل خاص على شخصية بلقاسم نكادي الذي سيكون له دور رئيسي في أحداث الرواية، لكونه آخر حكام الواحة، وهو الذي سيجابه بجيشه في مطلع سنة 1932 قوات الفرنسيين التي جاءت للاستيلاء على الواحة، وكان بلقاسم قبل استيلائه على الحكم يتولى قيادة جيش زعيم آخر ثورة قامت في تلك المنطقة قبل استيلاء الفرنسيين عليها، وهو المدعو "مبارك أوشتو" من قبيلة آيت سملال، الذي ثار على حكم العلويين وادعى أن روح الولي"محمد نفروتن" قد حلت فيه، فاتبعه الناس ولقبوه باسم"مولاي محمد نفروتن"، وحقق انتصارات سريعة على حاميات السلطة المركزية، لكنه سرعان ما فقد الثقة في قائد جيشه بلقاسم ((الذي لم يكن ينتظر إلا مبررا للتخلص من رئيسه الرهيب، فقتله برصاصة في الرأس))[38].

وينسب المؤلف لبلقاسم جرائم أخرى قام بها بعد ذلك، منها اغتياله لمنافسه الآخر على زعامة الثورة وقيادة الجيش"علي أومامـا"، وقتله أيضا لمولاي لحسن ممثل المخزن (الحكم المركزي) ولحبر وتاجر يهوديين، وحكمه بالإعدام على أناس أبرياء، والاستيلاء على أموالهم[39].

---

38 « Myriem dans les palmes », pXI.
39 Ibid, pXII.

وبهذا يكون المؤلف قد رسم مسبقا في ذهن القارئ صورة في غاية السوء عن هذه الشخصية، وقدمها على أنها شخصية دموية تثير الرعب في قلوب سكان الواحة، وتحكمهم بقبضة من حديد، وبهذا يكون المؤلف قد وجه القارئ أيضا إلى الاستنتاج الممكن والوحيد في هذه الحالة، وهو أن استيلاء القوات الفرنسية على الواحة، إنما جاء ليخلص أهلها من ظلم هذا الطاغية، ويشيع السلام في ربوعها، ويؤمن أهلها على أرواحهم وأرزاقهم.

والواقع أن المؤلف قد قال هذا صراحة في أكثر من مناسبة في ثنايا الرواية، ومنها قوله على سبيل المثال في معرض حديثه عن تافيلالت بعد احتلالها: ((إن الأهالي يتمتعون اليوم بأمن لم يعرفوه من قبل أبدا، أما عن "القصوريين" الأغنياء فإنه ليس في إمكانهم إلا أن يباركوا الهيمنة الفرنسية التي خلصتهم من اعتباط الطغاة)) [40]. وكان قد ردد هذا المعنى نفسه عند حديثه من قبل عن مدينة"بشار" بالجنوب الغربي الجزائري، التي قال عنها إنها لم تكن قبل دخول الفرنسيين إليها إلا "موقعا مميزا لقطاع الطرق" [41]، لكنها احتلالها من قبل الفرنسيين سنة 1903 بقيادة العقيد بيارون ((لم يعلن عن دمار جديد، ولا عن قامع جديد، بل على العكس من ذلك فإن مجيئهم قد فتح عهدا جديدا للعدالة والسلم والرفاهية بالنسبة للسكان، الذين كانوا مندهشين عندما أعلموهم أنهم يستطيعون من الآن فصاعدا أن يعملوا دون خوف من

40 « Myriem dans les palmes »,, p66.
41 Ibid, p42.

أعمال السلب أو الغارات والاستعباد، وأن وجود فرنسا النبيلة والعادلة يضع حدا لتجاوزات الطغاة الذين تسلطوا عليهم قرونا))* .

ويكرر المؤلف هذا المعنى أيضا على لسان قائد الجيش الفرنسي الذي دخل واحة تافيلالت حين يقول: ((لقد بدأ اليوم عهد جديد بالنسبة إليكم، عهد العدالة والسلام والسعادة. وستعرفون الأمن، والرفاهية التي كنتم تجهلونها تحت الحكم الاعتباطي. فبرعاية فرنسا سوف تتمكنون من الآن، من التنقل بحرية في البلد، ومن التجارة))[42] .

والغريب أن هذه الحجة نفسها هي التي قدمها المستعمرون الفرنسيون في بيان لهم موجه للجزائريين غداة احتلالهم للجزائر[43] ، وهاهي الحجة نفسها تتكرر بعد أكثر من قرن، مما يعني أنها كانت جزء أساسيا من أيديولوجية الاستعمار، يقدمها دائما كمبرر لاحتلال الأرض، ولاستمرار وجوده، ولا يفعل الكاتب هنا شيئا سوى أنه يكرر هذه الحجة ويرددها، انطلاقا من قناعته الشخصية بأن الاستعمار جاء فعلا لينشر الحرية والعدالة، وليخلص الشعوب من الظلم والعبودية والفقر، ويهيئ لها أسباب الحضارة والتقدم.

---

* ويجدر بنا أن نوضح ونصحح هنا بأن قطاع الطرق الذين يشير إليهم المؤلف ليسوا في الحقيقة إلا أبناء تلك المناطق من قبائل أولاد جرير ، والبرابر ، وبني قيل ، والشعانبة ، وبني منيع ، الذين كانوا يقاومون الاستعمار ويمنعونه من دخولها ، وقد قطعوا بالفعل طريق قوافل تموين الجيش الفرنسي الذي كان قد استولى على عين صالح سنة 1902، وتوغل نحو الجنوب ، ووقعت بين هذه القبائل والجيش الفرنسي عدة معارك أهمها معركتا 20 أوت، و2 سبتمبر 1903 في منقار بمنطقة بشار، واستولى المقاومون فعلا على قافلة التموين الفرنسية .راجع: محمد بن حمو "دور التبشير والاستشراق في الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر" رسالة ماجستير ، نوقشت بكلية الآداب، جامعة عين شمس ، جمهورية مصر العربية سنة 1989، ص123.

42 « Myriem dans les palmes », p248.

43 جاء في البيان المذكور ((إن الفرنسيين "سيحررون" الجزائر من الطغيان التركي)). راجع: د.أبو القاسم سعد الله "الحركة الوطنيةالجزائرية ، ج2 ، ص17.

هذا على المستوى الأيديولوجي، أما على المستوى الفـني، فـإن الصورة التي قدمها المؤلف لبلقاسم تجعل القارئ يتوقع للبطلـة الـتي وقعت في قبضة هذا الحاكم الطاغية أسوأ الاحتمالات، ويجعله يتعاطف معها ومع بقية الشخصيات الأخرى التي جاءت لتخلصها.

والحقيقة أن هذه الرواية بـسبب نهجها المؤيـد لـسياسة التوسـع الاستعماري تمثل أكثر النماذج الروائية التي ظهرت في هذه الفترة تطابقـا مع الأطروحات الأيديولوجية الاستعمارية، كما تعد أكثرها تبشيرا بفكرة الاندماج عن طريق الزواج المختلط، الذي يبدو أن المؤلف يقدمه كوصفة سحرية لحل مشكلة اختلاف الأعراق. ومن هنا فإن الكاتب يقدم، حسب رأي أحد الباحثين، "رواية ذات أطروحـة" (Roman à thèse)[44]، وهـذا النوع من الروايات كما يعرفها باحث آخر: ((رواية واقعية (تقوم علـى أساس جمالية الشبيه بالواقع، وعلى العرض) تتوجه للقـارئ خـصوصا، كحاملة لرسالة تعليمية، وتترع نحو تبيين حقيقـة مـذهب سياسـي أو فلسفي أو علمي أو ديني))[45].

ويضيف الباحث نفـسه في مكـان آخـر: ((إن الاسـتقطاب الأيديولوجي في هذا النوع من الروايات يتمظهر كموضوع أساسي، وفي الوقت نفسه كمبدإ بنوي منظّم))[46].

ويستنتج من هذا التعريف أن كاتب هذا النوع من الروايات، يأتي بأفكار جاهزة ليضعها في قالب فني معين مثل الفن الروائي، لإبلاغها

44 A. Lanasri «Mohammed Ould Cheikh, un romancier algérien des années trente» ,O.P.U Alger 1986, p43.

45 S.R Suleiman «Le roman à thèse ou l'autorité fictive» Cité par A. Lanasri, p63.

46 Ibid, p71.

عن طريق ذلك الفن إلى القارئ، ومن هنا يصبح الفن مجرد وسيلة لا أكثر، لإيصال تلك الأفكار إلى المتلقي، ويحتل الفن لأجل ذلك الدرجة الثانية من حيث الأهمية. وحرصا من الكاتب على إيصال أفكاره بكل وضوح، نراه يلجأ إلى الاستعانة بمختلف الشروح والمقدمات والتوضيحات وما إلى ذلك، مما يعد خارجا تماما عن أصول الفن، مثل الاستهلال الذي أشرنا إليه في مطلع هذه الرواية، وذلك المدخل التاريخي الطويل، والتوضيح الذي وضعه في الأول بعنوان"قبل البدء".

ومن هذا الحرص أيضا، ونظرا للصفة الإلزامية التي يفرضها الكاتب على الفن الروائي، بحيث يتصرف في تطور الأحداث بما يجعلها تتطابق مع التصور الذهني المسبق الذي يحمله، تأتي الأخطاء في مثل هذه الأعمال، وتبرز التناقضات بين منطق الكاتب ومنطق الأحداث الروائية، أو بين ما يقال أو يتصور ذهنيا، وبين ما تسفر عنه تطورات الأحداث في الرواية، وهذا ما نلمسه في رواية"مريم بين النخيل".

ويمكن أن نقف عند مظهرين لهذا التناقض الرئيسي، الأول يتعلق بوقائع التاريخ المحض، والثاني بأحداث الرواية نفسها. فعلى مستوى التاريخ، نستطيع أن نلمس من خلال العرض الذي قدمه الكاتب نفسه تحيزه لصف المستعمرين، وتحامله على كل من قاوم أطماعهم التوسعية، وأولهم بلقاسم الذي صوره في صورة وحش كاسر، لا يتردد في الفتك حتى برئيسه وأقرب المقربين إليه، ولا في قتل الأبرياء ليستولي على أموالهم، وحرص على إلصاق صفة المجرم به كلما أورد اسمه

تقريبا، وعلى نعته بما كان ينعته به أعداؤه، مثل تلك العيوب الجسمية التي عرف بها، كوصفه بالأعرج، والأخن*.

والواقع أن المؤلف لا يقدم الأسباب التي من أجلها قتل بلقاسم ضحاياه، أو الأسباب التي جعلته يستولي على أموالهم، والحالة الوحيدة التي تحدث فيها عن الظروف التي قتل فيها بلقاسم رئيسه مبارك تبين أن الدافع كان بسبب الوشاة الذين أوغروا صدر زعيم الثورة على قائد جيشه، كما تبين أنه لم يقتله غيلة ولكن دفاعا عن نفسه ((فمن أجل النيل من مكانة بلقاسم لدى رئيسه، أبلغ حساده نفروتن أن نكادي (بلقاسم) يمتلك الواحة بأكملها تقريبا (...) فالتحق نفروتن حينئذ ببلقاسم ووبخه توبيخا شديدا، ثم مد يده إلى مسدسه، وحين رأى بلقاسم حياته في خطر، وهو الذي لم يكن ينتظر إلا مبررا للتخلص من رئيسه الرهيب، قتله برصاصة في الرأس))[47].

وعن المبررات التي جعلت الفرنسيين يقررون احتلال الواحة، يتحدث المؤلف عن ثلاثة أسباب رئيسية، الأول هو ثورة مبارك نفروتن وإعلانه الجهاد(؟)، وتأييد بعض القبائل البربرية له وبعض سكان القصور من أهل سفلات[48]، والثاني هو قتل الثوار للجنرال "كلافيري" وأربعة من مرافقيه في جبل أرال سنة 1928[49]، والثالث هو انعدام الأمن في المناطق المتاخمة لتافيلالت، ووقوع غارات على القوافل التجارية التي تعبر المنطقة[50].

---

* الأخن هو الذي يصدر غنة من أنفه أثناء الكلام.

47 « Myriem dans les palmes », pXI.
48 Ibid, pIX.
49 Ibid, pXIII.
50 Ibid, pXII.

غير أن حديث المؤلف نفسه عن تلك المبررات، وذكره لبعض التفاصيل المتعلقة بها، تجعله يكشف ــ دون قصد منه ــ الدوافع الحقيقية للغزو، فإذا كان مبارك قد أعلن الجهاد فضد من أعلنه إن لم يكن ضد المحتلين الفرنسيين؟[51]، وكانوا قد أقاموا قاعدة عسكرية في بشار، ومركزا متقدما للمراقبة في تيغمارت[52]، فبأي غرض أقيمت مثل هذه القاعدة؟ وهذا المركز كان متقدما بالنسبة لمن؟ ولأي شيء؟ لاسيما إذا علمنا أن قوات من هذا الجيش كانت قد عبرت الحدود سنة 1916 لتشارك إلى جانب قوات السلطان في قمع الثورة في تافيلالت في السنة المذكورة، وهو ما دفع بقبائل آيت حمو، وآيت عطة، وأهل "الريق" إلى اعتراض سبيل تلك القوات[53].

أما بخصوص الجنرال "كلافيري" المقتول، أليس غريبا وجود رجل بالصفة العسكرية، والرتبة التي يحملها في أرض أجنبية بالنسبة إليه، وفي مناطق جبلية معزولة؟ ماذا كان يفعل هناك إن لم يكن في مهمة تجسسية ولأغراض عدوانية؟[54]. أليس في هذا كله أدلة على أن مصدر التهديد كان في حقيقة الأمر من الجيش الفرنسي على سكان تافيلالت والجنوب المغربي كله، وليس العكس كما حاول المؤلف أن يوهمنا؟ وقد اتضحت النوايا الحقيقية، وتجسدت في الميدان باحتلال القوات

---

51 علما أنهم كانوا قد فرضوا حمايتهم على القطر المراكشي قبل ثلاثين عاما من هذا التاريخ (في 1912).

52 Myriem dans les palmes », pIX.

53 Ibid pIX.

54 نجد في الرواية أيضا أن النقيب "ديبيسي" قد قتل في حرب الريف ، وابنه جان ديبيسي، أحد أبطال الرواية، كان مسافرا في مهمة سرية في بلد الشلوح، وهذا ما يؤكد النشاط التجسسي لقوات الاحتلال في المنطقة. راجع: « Myriem dans les palmes », p18.

الفرنسية للواحة في 15 يناير 1932، وباحتلالها تمكنت تلك القوات من السيطرة على كامل الجنوب المغربي، نظرا لموقع الواحة الاستراتيجي الممتاز.

وأما عن السبب الثالث الذي ذكره المؤلف وهو اعتراض طريق القوافل من قبل عصابات مسلحة واستيلاء بلقاسم ورجاله على أموال التجار الذين كانوا يأتون إلى تافيلالت، فإنه يبدو أمرا غريبا حقا، ووجه الغرابة فيه يأتي من أن الواحة وما جاورها كانت تتزود عن طريق تلك القوافل بما تحتاج إليه من سلع لا تنتج محليا، وكانت السلطة تأخذ حقها من المكوس والأتاوات، كما كانت القبائل الجبلية تفرض بدورها أتاوة على القوافل العابرة مقابل حمايتها لها، وقد ذكر المؤلف أن السلطة المركزية نفسها كانت تدفع لتلك القبائل حق العبور[55]، فكيف يكون إذن بلقاسم ورجاله، أو القبائل الجبلية مصدر تهديد لتلك القوافل؟

فإذا أتينا إلى الجانب الفني في الرواية، فإننا نقف فيه على تناقض رئيسي، أساسه فكري، ولكنه انعكس سلبا على الناحية الفنية فيها، كما سيتضح لنا ذلك، ويتعلق بمسألة الزواج المختلط الذي تم في نهاية الرواية بين مريم"الفرنسية"، وأحمد"العربي"، الذي يقدمه الكاتب كنموذج"مثالي" لما ينبغي أن يكون عليه المجتمع"الجديد" المتكون من الأجيال الجديدة من الفرنسيين والجزائريين، من المحبة والوئام والانسجام، وهذا ــ حسب رأيه ــ بفضل التعليم العصري الذي وفرته المدرسة الفرنسية: ((فقد جاء على عكس الأجيال السابقة التي

55 «Myriem dans les palmes», pVI.

ظلت زمنا طويلا تعادي بعضها بعضا، فبدؤوا يفهمون بعضهم بعضا، ويحب بعضهم بعضا، وهذا بفضل التعليم، هذا النور العزيز الذي يفتح عقول البشر، ويقربهم من بعضهم بعضا، ويقودهم نحو السلام والحياة والسعادة)) [56].

والحقيقة أن المؤلف يقفز هنا على حقائق كثيرة، أهمها أن التعليم العصري الذي توفره المدرسة الفرنسية ـــ حسب زعمه ـــ لم يكن ميسورا إلا للقليل من الجزائريين كما بينا ذلك في الأول من خلال إحصائيات رسمية، في فترات مختلفة من عمر الاحتلال، وثانيها أن الأجيال الجديدة التي تحدث عنها ظلت على عدائها المستحكم لبعضها بعضا، مثلها مثل الأجيال التي سبقتها، لأنه لم يتغير شيء في الواقع يساعد على مثل ذلك التحول الذي يتحدث عنه الكاتب. وقد أوضحنا أيضا من قبل أن الجزائريين والمستوطنين الأوروبيين على السواء، كانوا يرفضون"الاندماج" ـــ إلا فئة قليلة منهم ـــ الأوائل حفاظا منهم على هويتهم العربية الإسلامية، والمستوطنون حفاظا على امتيازاتهم الاقتصادية والسياسية.

وبناء عليه ، فإن الأمر لا يتعلق بجيل بأكمله كما يقول الكاتب، ولكن بفئة قليلة من الناس، وهم في الغالب من أولئك المحظوظين، ممن كان وضعهم الاجتماعي جيدا، وظروفهم الاقتصادية حسنة، ومن ثمة فهم يتطلعون إلى وضع اجتماعي واقتصادي أفضل، ويعد الزواج المختلط بالنسبة إليهم* ، ولعب دور الأهلي"المتطور" الذي يقبل

---

56 L'avant-propos , pIV.

* الذي يتخذ في معظم الأحيان اتجاها واحدا ، وهو أن يتزوج الجزائري من الأوروبية، أما العكس فهو غير وارد .

بالاندماج في الآخر، أقصر طريق إلى الحصول على مثل هذا الوضع المتميز، ولكنهم يأبون أن يعبروا على مثل هذا المطمح بشكل صريح وواضح، ويتطوعون، عوضا عن ذلك — ودون أن يطلب ذلك منهم — للعب دور الوسطاء بين الجاليتين، ودعاة للتسامح الديني والمذهبي والأخوة الإنسانية، وما إلى ذلك من الشعارات البراقة التي كانوا يرفعوها، وعندما لا يجدون آذانا صاغية لدعوتهم، لا من هؤلاء ولا من أولئك، يتخذون من أنفسهم ضحايا لـ"لمتعصبين" من الطرفين، الذين لا يريدون أن يفهموهم أو يستجيبوا لدعوتهم.

هذا هو نموذج الشخصيات الرئيسية الذي نراه ينعكس في روايات هذه المرحلة، وهو النموذج الذي نراه يتكرر فيها باستمرار، وغالبا ما نلاحظ أن موقف الشخصية يتطابق مع موقف الكاتب تماما، بحيث يتحول كل واحد منهما إلى ناطق بلسان الآخر، ويصبح من الصعب على الدارس أن يميز بين الموقفين*، ويعد هذا التطابق عيبا فنيا في حد ذاته، أدى إليه الموقف الفكري المسبق للكاتب، الذي يدفعه إلى الحيلولة دون تطور الشخصية الروائية تطورا طبيعيا، ويجعلها أسيرة لقناعاته الفكرية.

ولا تقتصر رواية "مريم في النخيل" لمحمد ولد الشيخ على هذا العيب وحده، إذ نجد فيها أيضا ذلك التناقض الذي أشرنا إليه من قبل، ويتمثل في تقديمه من جهة لأطروحة الزواج المختلط كنموذج مثالي لتقريب الفرنسيين والجزائريين من الجيل الجديد ببعضهم بعضا، وإزالة

---

* هذا هو حال "مامون" لشكري خوجة، كما مر معنا، وهذا حال "بولنوار" عند رابح زناتي، كما سيأتي، وكذا حال "ليلى" و"عزيزة" عند جميلة دباش.

الفوارق العنصرية التي تؤدي إلى الكراهية والصراع بينهم، لكنه يكشف لنا من جهة أخرى، حين يشرع في التعريف بالشخصيات الرئيسية للرواية عن حالة، لم يقصدها، دون شك، تتناقض تماما مع النموذج المثالي الذي أراد أن يقنعنا به، ونعني بها حالة الزواج المختلط الذي تم في يوم من الأيام بين خديجة الجزائرية المسلمة والنقيب "ديبيسي" الفرنسي المسيحي، وكانت مريم بطلة الرواية وجان حفيظ أخوها ثمرة لذلك الزواج*. فالراوي يعلمنا منذ البداية ((أن خديجة ارتبطت بالنقيب ديبيسي في لحظة جنون، دون أن تفكر في المنغصات التي كان يخبئها لها اختلافهما في المشاعر والذوق والمعتقد، ولم تدرك غلطتها إلا عند ولادة جان. لقد أدركت غلطتها حينئذ ولكن كان الأوان قد فات.. وبعد خمس سنوات ولدت بنتا هي مريم)) [57].

وبالطبع ، فقد كان الاختلاف بين الزوجين قبل ولادة الأطفال يأخذ طابع اختلاف شخصي لا يؤثر بشكل مباشر على الشريك الآخر، ولذلك ظلت خديجة بعد زواجها من النقيب "ديبيسي" تمارس حياتها الدينية العادية كمسلمة، وتلبس اللباس الجزائري التقليدي [58]، لكن، بدأ الاختلاف بينهما بعد مجيء الأطفال يأخذ شكل الخلاف، حول اختيار أسماء المولودين، وهذا ما يفسر وجود اسمين للإبن "جان/حفيظ"، واسم توفيقي للبنت: مريم، الذي هو اسم مشترك

---

* لن نتناول الموضوع هنا من جانبه الديني ، على أساس أن الإسلام لا يبيح الزواج للمسلمة من غير المسلم ، فهذا ليس من اختصاصنا، ولكننا نتناوله كأمر واقع .

57 « Myriem dans les palmes », p19.

58 « Ibid p19.

بين المسلمين والمسيحيين. وتفاقم الخلاف بينهما، وتحول مع الوقت إلى صراع حقيقي حينما بدأ الطفلان يكبران، حيث كان كل واحد من الأبوين يرغب في أن يجعلهما على دينه، وبالطبع كانت الكلمة الفصل للرجل ((فقد كان يكره أن يرى زوجته تفرط في التحدث بالعربية مع طفليه، وتعلمهما"عادات بدائية"، كما لم يكن يتسامح معها في صحبتهما لها عند ذهابها إلى "المرابط"))[59]، وكان يقول لها: ((لا يمكنني أن أنشِّئ أطفالي على التعصب. لقد قلت لك هذا مرات عديدة. إنني أحب أن أنشِّئهم كما يحلو لي. وبناء عليه فإنني لن أعلمهم العقيدة المسيحية ولا القرآن.. فأنا صاحب فكر حر))[60]...((وهكذا لم تكن (خديجة) إلا امرأة غريبة في البيت، لا يحق لها أن تشرف على تعليم طفليها أو على مراقبة سلوكهما، سواء أكان حسنا أو سيئا، فوالدهما وحده الذي كان يتولى هذه المهمة، ويعد نفسه الكفيل الوحيد بهذا الواجب الحساس))[61].

لكن خديجة لم تسلم بالأمر الواقع، ولم تستسلم، ومن ذلك أنها اغتنمت فرصة غياب زوجها في إحدى المهمات العسكرية في الجنوب، لتختن ولدها وتطلق عليه اسمه الثاني"حفيظ"[62]، تأكيدا لرغبتها في أن ترى ولدها ينشأ على التقاليد العربية الإسلامية.

ويمكن القول أن مقتل زوجها في ثورة الريف بالقطر المراكشي هو الذي وضع حدا لذلك الصراع الذي كان قائما بينها وبينه،

59 «Myriem dans les palmes »,, p19.
60 Ibid, p21.
61 Ibid, p20.
62 Ibid, p22.

وأتاح لها الفرصة لكي تربي طفليهـــا بالطريقـــة التي تعجبهـــا، ((فمنذ أن توفي النقيب ديبيسي وهي تحاول أن تنقذ"جان" ومـريم من هذا الخطر الذي لا ينجو منه الأطفال المولودون مـــن الـــزواج المختلط إلا نادرا، وكانت لا ترى الخلاص إلا في الدين، الذي ينير عقول البشر ويهذب أخلاقهم، وكانت ترغب بقـــوة في أن توجـــه طفليها نحو اعتناق الإسلام، ولكن بدون الضغط عليهما حتى لا تصدم مشاعرهما)) [63].

وكانت الخطوات العملية التي قامت بها، بعد أن استشارت أحـــد الشيوخ المعروفين بعلمهم وتقاهم، هو أن خصصت لطفليها دروســـا لتعليمهما اللغة العربية والقرآن الكريم [64]، وبهذا التدبير مكنتهما مـــن الحصول على تعليم مزدوج يجمع بين الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة التي تربطهما بأمهما من جهة، والثقافة الفرنسية التي تربطهما بوالدهما من جهة أخرى.

والتناقض بيِّن على المستوى الفكري بين ما يدعو إليه الكاتـــب وبين ما قدمه من خلال هذا النموذج من الزواج المخـــتلط الـــذي كان الصراع فيه على أشده بين الزوجين، وكان الأطفال فيه هـــم الضحايا، والتناقض بيِّن أيضا على المستوى الفني بين ما يمكـــن أن يكون هذان الطفلان قد تعرضا له من الحيرة والتمـــزق النفـــسي بسبب صراع الأبوين، وبين الصورة التي رسمها لهما كبطلين مثاليين

---

63 Ibid, p23.
64 «Myriem dans les palmes», p24,25.

لا يعانيان من أية عقد، ولا من أي صراع نفسي، أو أية تناقضات في السلوك نتيجة التربية والثقافة المزدوجة التي نشآ عليها[65].

إن اعتماد الكاتب على التصور المثالي المسبق لأبطاله جعله يقدم نماذج"كاملة خالية من العيوب، و"ثابتة" لا تعرف التغير أو التطور، فجان حفيظ مثلا، الذي سار على خطوات والده، وأصبح عسكريا، يصفه بأنه ((جندي باسل، يستحق كل التشريف.. كان يحسن العربية والشلحية، ويعرف عادات البربر وطرائق عيشهم))[66]، كل هذا جاء به الكاتب كتمهيد في بداية الفصل الثاني من الرواية، من أجل الاضطلاع بالمهمة التي سيقوم بها البطل في الأخير، حينما يستغل بطله صفاته ومعارفه هذه في التسلسل إلى واحة تافيلالت لإنقاذ أخته مريم من الأسر، ولا ندري من أين جاءته كل تلك المعارف بلهجات البربر وعاداتهم وطرائق عيشهم التي يتحدث عنها الكاتب، إذا علمنا أن جان/حفيظ نشأ في وهران وعاش في وسط معظمه من الأوروبيين؟

ولا شيء بعد هذا يفاجئنا في هذه الشخصية التي نجدها شخصية مثالية في كل شيء، في قيامها بواجبها العسكري على الوجه الأكمل، وفي حبها وولائها لفرنسا، وفي دفاعها عن التوسع الاستعماري في المنطقة، إلى غير ذلك: ((فرنسا التي تحمي المسلمين وتعطيهم بلا حساب، وتحمل إليهم طرائق التقدم (...) لقد استفاد

---

65 لقد أهمل الكاتب الحديث عن حالة التمزق والحيرة التي لا شك أن هذين الطفلين كانا يعانيان منها بسبب الصراع الذي كان قائما بين الأم والأب، ويعد إهمال هذا الجانب النفسي في الرواية من قبل المؤلف عيبا فنيا آخر يضاف إلى عيوبها الأخرى.

66 « Myriem dans les palmes », p29.

العرب كثيرا من اتصالهم بالفرنسيين، ففرنسا هي الوحيدة من بين كل البلدان، التي تبعث إليهم بالمربين، وتعرض عليهم حمايتها)) [67].

وعلى العموم، نجد هذه الشخصية مسطحة، وموغلة في النمطية. ولا تختلف شخصية مريم عن شخصية أخيها في نمطيتها وسطحيتها وثباتها، بحيث لا نعرف شيئا عنها إلا ما نراه في الظاهر. كل ما نعرفه عنها أنها فتاة بورجوازية، تحي حياة مترفة، وتعيش لهوايتها الغريبة بالنظر إلى جنسها وإلى زمانها الذي عاشت فيه (بداية الثلاثينيات) ألا وهي حبها لرياضة الطيران، وقيادتها للطائرات، وهذه الهواية الغريبة هي التي قادتها إلى تافيلالت، وإلى وقوعها في الأسر. أما أحاسيسها ومشاعرها وأحلامها فتظل مجهولة بالنسبة للقارئ، حتى قطعها لعلاقتها بخطيبها الأول"إيفان إيباطوف" جاءت مفتعلة وغير مقنعة، كما جاء تعلقها بأحمد مسعودي وقبولها بالزواج منه غير مقنع، باستثناء دوره في تخليصها من الأسر ـــ كما سنبين بعد قليل ـــ فاستحق أن يثير إعجابها، ولا نقول حبها. ومن الناحية العملية لم يكن هناك شيء مشترك بينهما، كالهواية مثلا، أو الثقافة (فقد كانت ثقافته عربية وثقافتها غربية في الأساس) أو حتى في المظهر الخارجي (كان يلبس برنسا وثيابا جزائرية تقليدية) [68]، ناهيك عن الأصول الاجتماعية المختلفة، والمستوى المادي غير المتكافئ، وكل ما ربط بينهما أنه كان يأتي بين الحين والآخر ليعطيها دروسا في اللغة العربية [69]، ويحفظها بعض السور القصيرة من القرآن الكريم [70].

---

67 Ibid, p164.
68 «Myriem dans les palmes », p28,29.
69 Ibid, p25.
70 Ibid, p31.

ومن الإشارات السابقة التي سقناها عن أحمد مسعودي في علاقته بالبطلة، نكون قد لاحظنا أيضا أن شخصيته جاءت باهتة أيضا وغير مكتملة فنيا، وقد جاء تخليصه للبطلة من الأسر غير مقنع هو الآخر، وفيه افتعال شديد، فبعد الجهود الكبيرة التي بذلها جان حفيظ وزوجته زهراء في التعرف على مكان الأسيرة، والحيل التي احتالوا بها، وكانوا على وشك أن تثمر جهودهم بإ طلاق سراحها، يأتي أحمد مسعودي في آخر لحظة متنكرا في زي فارس مغربي، ليصادف تنظيم حلبة مبارزة بين الفرسان نظمها بلقاسم حاكم الواحة، وجعل جائزتها للفائز الظفر بالأسيرة الفرنسية، ويصادف أيضا أن يبارز غريمه "إيباطوف" ـ الذي كان يأمل أن يظفر بها، وينتقم منها لرفضها الزواج منه ـ ويتغلب عليه، وتكون مريم من نصيبه هو، وهكذا خلصها من الأسر، واستحق الزواج منها. علما أنه لم يسبق للمؤلف أن أشار من قريب أو بعيد أن أحمد مسعودي كان فارسا، أو أنه كان مدربا على استعمال السيف، إلى جانب ثقافته الواسعة التي أشار إليها من قبل ووصفه له بأنه كان "متطورا".

ونستنتج من هذا الاستدراك الذي أتى به المؤلف في الأخير أنه إنما لجأ إليه من أجل أن يسند لأحمد مسعودي دورا بطوليا يليق به كبطل، ويجعله مستحقا في نظر القارئ للفوز بالبطلة في نهاية الرواية، تماما مثل ما كان يفعل الروائيون الكلاسيكيون حينما ينهون رواياتهم نهايات من هذا القبيل، تتسم بالمبالغة والإثارة.

وبهذا يكون الكاتب قد قدم لنا رواية غير مقنعة من الناحية الفنية، مثل ما كانت غير مقنعة من حيث الأطروحات الفكرية، وقد

تضافرت الناحيتان ــ كما أوضحنا آنفا ــ في التأثير السلبي المتبادل فيما بينهما لتأتي على هذه الصورة الفجة.

"بولنوار، الفتى الجزائري"[71] لرابح زناتي*.

الذي يطلق عليه مصطلح"رواية الأطروحة"[72]، بل، لعل فكرة "الأطروحة" تتجلى فيها أكثر من أية رواية أخرى في هذه المرحلة، نظرا للبراعة التي جسد بها الكاتب أفكاره، وللقدرة التي أبداها في ربط تلك الأفكار بتطور الأحداث والشخصيات في الرواية، رغم التكلف الواضح في نسج تلك الأحداث، بسبب الأطروحات الجاهزة، وإخضاع تطور الأحداث للتصور المسبق الذي أشرنا إليه آنفا، فهي إذن على غرار ما رأينا في روايات شكري خوجة ومحمد ولد الشيخ، تحمل رسالة اجتماعية وسياسية معينة تريد تبليغها، وتطرح مثلها

---

71 R et A. Zénati Bou-el-Nouar le jeun algérien». Ed. «La Maison des livres», Alger 1945.

(*) رابح زناتي (1877 ـ 1952) ولد بتاوريرت الحجاج (العزازقة)، تجنس بالجنسية الفرنسية سنة 1903. تخرج من مدرسة المعلمين ببوزريعة وعمل مدرسا. شارك كجندي في الحرب العالمية الأولى، وكان أحد مؤسسي جريدة "صوت المستضعفين" (La voix des humbles) سنة 1922، ثم أسس جريدة "الصوت الأهلي " (La voix Indigène) بقسنطينة سنة 1929. نشر إلى جانب روايته "بولنوار" كتاب "المشكلة الجزائرية كما يراها أحد الأهالي: « Le Problème algérien vu par un indigène » (في 182 صفحة) سنة 1938، وكتاب "كيف ستموت الجزائر الفرنسية" (Comment périra l'Algérie française » (في 140 صفحة) سنة 1938 أيضا ، تحت إسم مستعار هو "حسان". توفي بتاريخ 15 أكتوبر 1952. ولا يفوتنا أن نلاحظ هنا أن رواية بولنوار موقعة بحرفي R و A زناتي، حيث يذكر المؤرخ"جان ديجو" أن A هو الحرف الأول من اسم ابنه "أكلي" المحامي، مما يفهم منه أنه تأليف مشترك بين الوالد والإبن، ولكن"ديجو » لا يعطي أية معلومات أخرى عن هذا الاشتراك، راجع:
J. Déjeux «Dictionnaire des auteurs maghrébins de langue française », p212.

72 Ibid, p212.

مسألة"الاندماج" كرهان سياسي، وكمشروع مجتمع لمستقبل الجزائر، وهي كما رأينا في الروايات السابقة لا تناقش الاندماج في حد ذاتـه، ولا تطرح أية تساؤلات أو بدائل بشأنه، كبديل الاستقلال الـوطني مثلا، وكأنما حالة الاحتلال هي الوضع النهائي والأبـدي للجزائـر، ولذلك فهي لا تبحث إلا في الوسائل التي تحقق الاندماج، ومن ثمـة تبحث في المعوقات التي تقف حجر عثرة في طريقه.

ومن هنا ينطلق الكاتب في تقديم"أطروحة" تحقق في نظره الاندماج بين المجتمعين الجزائري والاستيطاني، وترتقي بالإنسان "الأهلـي" إلى مستوى"المستوطن" الأوروبي، أو الفرنسي عامة، ولا يحدث هـذا ـــ كما يتصور ـــ إلا بالتبني الكامل لمناهج العصر الحديث: ((إن مستقبلنا هو التبني الكامل لمناهج العلم الحديث والتقنيات الجديدة... فالحداثـة ضرورة))[73] وبالتعليم العصري الذي يحرر العقول ويرفـع المـستوى الاجتماعي والاقتصادي للجميع: ((فلو أتيحت للأهالي فرصة التعليم بشكل عادي لكانوا اليوم على هيئة أخرى مختلفة، ولشكلوا وحدات اجتماعية تضمن لهم الرفاهية الذاتية وتزيد من قوة فرنسا))[74].

لكن التعليم الذي يقترحه الكاتب ليس أي تعليم، وإنمـا"التعلـيم المزدوج" الذي يكون حلقة وصل بين الثقافتين: العربيـة الإسـلامية، والفرنسية الغربية، وبين المجتمعين: المسلم والأوروبي[75]. ولا يقتـصر الغرض من التعليم على الحصول على التقنية والعلوم وتقارب الثقافتين

73 «Bou-el-Nouar le jeun algérien » p157.
74 Ibid, p149.
75 Ibid, p162,163.

والشعبين، ولكن أيضا لترقية المجتمع المسلم وتطويره، وتخليصه من الجهل والقدرية، والتقوقع والجمود.

هذه باختصار هي "الأطروحة" التي يقدمها المؤلف على الصعيد النظري، ثم يعمد إلى تجسيدها عمليا من خلال أحداث الرواية وتطورها، التي سمحت له بعرض مختلف المواقف الفكرية، وتصوير التقاليد الاجتماعية، والممارسات اليومية لمختلف أوجه الحياة، ومن ثمة أعطته الفرصة لبلورة التناقضات، وإبراز العيوب، ونقد الممارسات الخاطئة، ومعالجتها. وفي هذا المستوى، قدم الكاتب نموذجا روائيا في غاية البساطة والنمطية، بحيث اتخذ من حياة البطل إطارا عاما لروايته تتبَّعه فيها منذ ولادته إلى دخوله المدرسة القرآنية، فالمدرسة الابتدائية الفرنسية، فالثانوية، فالتعليم العالي، إلى أن أصبح مثقفا كبيرا، وكاتبا صحفيا، وزعيما سياسيا.

والحقيقة أن الكاتب نجح إلى حد بعيد في التعبير عن أطروحته، التي جعل التعليم فيها الشرط الأساسي للتطور الاجتماعي والحضاري، وذلك بالربط المحكم بين التقلبات التي عرفتها حياة بطله وبين مراحل تعليمه المختلفة، ونضوجه الفكري، بحيث كان تأثير العملية التعليمية حاسما ومباشرا على حياته، رغم أنه لم يتمكن دائما، بل لم يتمكن في معظم الحالات، من تكييف حياته بحسب أفكاره.

يبدأ من ميلاد البطل "بولنوار" في أحد الأرياف الجزائرية، لأحد المزارعين الكبار بناحية "عين الروينة" يدعى بوضياف، الذي يقيم بهذه المناسبة في اليوم السابع حفلا كبيرا يدعو إليه الوجهاء وكبار القوم، ولا يستثني من الدعوة المستوطنين الأوروبيين الذين كانوا يمتلكون

أراضي في تلك الناحية، أو يعملون في الإدارة المحلية، ويجد المؤلف في هذا الاحتفال مناسبة لنقد العادات الجزائرية التي تحتفل بالمولود الذكر، وتقيم له الولائم، ويعمل الأهل على إخفائه خوفا عليه من أعين الحساد، ويكتبون له التمائم حتى لا تتعرض له الجن بالأذى[76]،في حين أهم لا يحتفلون بميلاد البنت، ولا يخشون عليها من العين أو الجان[77]، وهذا ما حدث حين ولدت"وريدة" أخت بولنوار بعد عامين من ذلك، حيث مرت المناسبة في صمت، دون أن تطلق زغرودة واحدة، أو يسمع طلق ناري واحد[78].

وحينما يدخل بولنوار المدرسة القرآنية تكون مناسبة للكاتب لكي يستعرض فيها حال تلك المدارس البائسة، المظلمة، والمعرضة للبرد شتاء والحرارة الشديدة صيفا[79]، وطرق التعليم البدائية التي كانت متبعة في تلقين القرآن، بحيث لا يعوّل فيها إلا على الذاكرة وحدها دون فهم، ويتحول الأطفال معها إلى آلات مسجلة[80]، وطرق العقاب الفظة التي يمارسها المعلمون على التلاميذ، وهي كلها مقصورة على العقوبات البدنية، وأشدها قسوة تلك الآلة الرهيبة التي تدعى"الفلقة"[81].

ولا ينسى الكاتب أن يعرض حال الفقر التي يعاني منه معلمو القرآن، فهم يعيشون أساسا على زكاة"العشر" والصدقات، والهبات التي يتكرم بها عليهم الأهالي الميسورون، وهم قلة[82]، أما أجرهم التي

76 «Bou-el-Nouar.. », p19.
77 Ibid, p21.
78 «Bou-el-Nouar.. », p23.
79 Ibid, p34.
80 Ibid p45.
81 Ibid, p35.
82 Ibid, p36

يدفعها أولياء التلاميذ فهي من الزهد بحيث لا تنفعهم في شيء، ولذلك يلجؤون إلى القيام بأعمال جانبية أخرى تعينهم على صعوبات العيش، مثل كتابة التمائم والرقى، وقراءة القرآن في الجنائز والمقابر، والقيام بمهمة الطبيب في غياب الطبيب الحقيقي، إلى غير ذلك من المهمات[83].

هذا هو وضع معلمي القرآن، بالرغم من التقدير والاحترام الذي يحظون به لدى الأهالي، لأنهم يعلمون كلام الله، والعلم الشريف[84]، ولكن الأهالي لا يستطيعون أن يدفعوا عنهم الفقر لأنهم هم أنفسهم فقراء، وما يدفعونه لهم إنما هو تضحية منهم ينتزعونها من لقمة عيشهم. ويتجلى احترام الناس وتقديرهم للتعليم القرآني في العديد من المظاهر، كالثقة الكبيرة التي يضعونها في معلمي القرآن، وتقديمهم لهم على غيرهم في المناسبات، واستشارتهم في مختلف شؤون الحياة، بما في ذلك طلب الشفاء عند المرض على أيديهم.

لكن يتميز الاحتفال بختم القرآن عن كل تلك المظاهر بما يخصون به المعلم والتلميذ من التكريم والتبجيل، وبما يقدمونه من البذل والعطاء، لاسيما إذا كانوا ميسورين، وهذا ما فعله بوضياف حين ختم ابنه بولنوار حفظ القرآن الكريم، فقد أقام حفلا كبيرا دعا إليه كل وجهاء عين الروينة، بمن فيهم المستوطنين الأوروبيين مثل ما رأينا في الاحتفال بميلاد بولنوار، وقد أثنى صديقه قاضي البلدة على تلك المبادرة منه، حتى وإن كان بوضياف قد فاته جانبها الاجتماعي/السياسي الذي رآه القاضي، وهو ((أنه جمع تحت سقف واحد، وحول مائدة مشتركة، في

83 Ibid p36.
84 Inid, p41.

تضامن محلي كامل، الفرنسيين والأهالي، مما يمكن اعتباره بداية لوفاق ودي أوسع))[85].

وعندما أدخل الفتى بولنوار إلى المدرسة الفرنسية، بتشجيع من القاضي لصديقه بوضياف، بعد ما أبدي بولنوار نفسه رغبته في الدخول إليها، وتبرمه بطرق التعليم الفظة في المدرسة القرآنية[86]، يستعرض المؤلف تخوفات والد بولنوار من المدرسة الفرنسية، وهي تخوفات تذكرنا بتلك التي أبداها والد"مامون" في رواية شكري خوجة، من أن يرى ابنه ينساق وراء شرب الخمر، أو يمرق عن الدين[87]، لكن تشجيع صديقه القاضي ونصائحه له تبدد في الأخير مخاوفه، وتجعله يرسل ابنه إلى المدرسة الفرنسية.

ويحلو للمؤلف هنا أن يجري مقارنة غير مباشرة بين المدرسة القرآنية البائسة والمدرسة الفرنسية المبنية على طراز عصري، والمجهزة بالكراسي والطاولات، والمضاءة بالكهرباء، والمزينة بالصور، مما يبعث الانشراح في نفوس الأطفال ويجعلهم يقبلون على التعليم بكل سرور: ((كانت مدرسة عين الروينة تتشكل من بناية أنيقة، يضم جناحاها الفصول الدراسية، ومركزها سكنات المعلمين، وهي بعيدة بما فيه الكفاية عن الشارع، وهو ما سمح بتهيئة فناء فسيح غرست به أشجار دلب رائعة(...) وكانت مساحة الفناء تمنح الأطفال حرية الألعاب الكبيرة، وألعاب المجموعات بكل راحة في الفصول الجميلة، ويحميهم سقف كبير، بني مستندا للجناح الأيمن، من تقلبات الشتاء وحرارة الصيف.

85 «Bou-el-Nouar.. ».p87.
86 Ibid, p40.
87 «Bou-el-Nouar.. »,p53, 59.

وكانت الفصول الدراسية واسعة ومضيئة من الجانبين، ومزينة بذوق روعي فيه أن يسهل المهمة التربوية للمعلمين))[88].

يضاف إلى هذا طرق التعليم الحديثة، وتكوين المعلمين الجيد، ومعاملتهم الحسنة للتلاميذ ((.. ويلتقي مع هذا الجو البهيج لطف وبراعة الزوجين"فونتان" البيداغوجية، اللذين جعلا من مدرسة القرية هذه مكانا يدخله التلاميذ بثقة. إنهم يحبون السيدة والسيد "فونتان"، ويستمتعان باللقاء بهما كل صباح))[89] *.

وفي المدرسة الفرنسية يجد المؤلف فرصة لعرض مشكلة الاحتكاك العنصري بين أطفال المستوطنين وأطفال الأهالي، وهنا يبرز الدور الإيجابي الذي يستطيع أن يضطلع به المعلم في تربية الأطفال منذ الصغر على التسامح والتعايش مع الذين يختلفون عنهم في الدين أو العرق أو اللون، وهذا هو الدور الإيجابي الذي كان يقوم به السيد "فونتان" ليس مع التلاميذ في المدرسة فحسب، ولكن في مجتمع القرية الصغيرة ككل، المكوّن من الجزائريين والمستوطنين[90].

وهذا الدور الإيجابي للمعلم نجده يتكرر مع أساتذة الثانوية، ممثلا بشكل خاص في شخصية الأستاذ"دورتان"، وذلك عندما ينتقل البطل

88 Ibid, p66.
89 Ibid, p66

* ولا تفوتنا هنا ملاحظة أن المدرسة القرآنية كانت لا تتمتع بأي دعم من السلطات الاستعمارية، وأنها كانت محاربة، ومضيقا عليها من الأجهزة الإدارية والأمنية، في حين أن المدرسة الفرنسية كانت- - إحدى أسلحة الاستعمار، ووسيلته للتغلغل داخل أوساط الأهالي، ولذلك كانت تعطى لها كل المساعدة، كما أوضحنا في الفصل الأول من الباب الأول. إلا أن هذا كله يغفله المؤلف هنا ولا يشير إليه من قريب أو بعيد، كأن البؤس الذي كانت تعاني منه المدرسة القرآنية جزء من تكوينها الأصلي، وبؤس معلميها برغبة منهم.

90 «Bou-el-Nouar.. » P70, 71.

إلى الدراسة الثانوية في المدينة، فقد وجد بولنوار في شخص الأستاذ"دورتان" الأب الموجه، والصديق المؤتمن على الأسرار، والمتفهم للمشكلات التي يعرضها عليه تلميذه، والمحاور المقنع له في القضايا الاجتماعية والفكرية، لاسيما أنهما كانا يلتقيان خارج الثانوية، وكان الأستاذ يستضيف تلميذه في بيته، ويتحاور معه في مختلف القضايا التي تشغل باله.

ويذكرنا هذا مرة أخرى بشخصية الأستاذ"رودومسكي" بالنسبة لـ"مامون"، كما يذكرنا بالاثنين معا تلك الحوارات والمناقشات المطولة التي كانت تجري بين الأستاذ والتلميذ، وهي حوارات كان المؤلفون يستغلونها لطرح مختلف المشكلات الاجتماعية والسياسية التي كانت تشكل موضوع الساعة في ذلك الوقت، وإبداء آرائهم فيها على لسان الأستاذ الذي يمثل وجهة نظر المستوطنين الأوروبيين المعتدلة، وتلميذه الذي يمثل وجهة نظر"المتطورين" من الأهالي، وهي طريقة، وإن حققت الغرض من الناحية الفكرية، وأوصلت رسالة المؤلف إلى القارئ، إلا أنها من الناحية الفنية تعد نوعا من الحشو، وضعفا كبيرا في تصوير الشخصيات، لاسيما أن المشكلات التي كان يطرحها التلميذ، والمستوى الناضج الذي كان يناقش به، تعد بكل المقاييس أكبر من سنه بكثير، مهما كان الذكاء الذي يتمتع به، ومستوى التعليم الذي تلقاه.

وفيما يلي نسوق مثالا من تلك المناقشات بين بولنوار والأستاذ "دورتان"، وسوف نلاحظ فيها كيف يتحول التلميذ المراهق، الذي مازال يدرس في مرحلة التعليم الثانوي، إلى محلل اجتماعي، ومفكر في شؤون السياسة والاقتصاد:

بولنوار: ... لكن كيف يمكن يا سيدي أن تتم مساواة اقتصادية في الجزائر والأهالي يتقوقعون في روتينهم، ويزدادون فقرا في كل يوم، مستسلمين لقدر يحرمهم من أية روح مبادرة وأية نية في النهوض؟

الأستاذ: مع أن مستقبلهم كله مرهون بالنهوض الاقتصادي...

بولنوار: كيف تريدهم أن يحسِّنوا وضعهم؟ إنهم لا يملكون شيئا، ويصطدمون بكل أنواع الصعوبات المادية. لابد من مخطط إصلاحي من أجل إصلاح شعب، ولابد من جهود مالية وتعليمية.

الأستاذ: لماذا لا يعمل الأهالي مثل الأوروبيين، الذين كانوا غالبا ما يصلون إلى الجزائر وهم يلبسون أحذية"الخيش"، ولا يملكون فلسا واحدا في الجيب.

بولنوار: معذرة يا سيدي، لقد تلقوا المساعدات ومازالوا يتلقونها بشكل ما[91].

إن هذا النموذج من النقاش، على قصره، يدل دلالة واضحة أن الأفكار والآراء التي يتحدث بها البطل إنما هي أفكار وآراء المؤلف، لا أفكاره وآراءه هو، وكان في إمكان المؤلف أن يقدمها في عرض مقبول فنيا لو جاءت في شكل ردود أفعال غير ناضجة من البطل، أو حيرة لديه، وإحساسات مبهمة إزاء أوضاع معينة، أو في شبه تساؤلات لا يجد لها جوابا، إلا أن مؤلفي هذه المرحلة، وحرصا منهم على إيصال آرائهم إلى القراء، يأبون إلا أن يجعلوا من أبطالهم فلاسفة ومفكرين اجتماعيين وسياسيين.

91 «Bou-el-Nouar.. », p146.

ويتزوج بوضياف (والد البطل) من امرأة ثانية، فينتقل المؤلف لمعالجة ظاهرة تعدد الزوجات لدى المسلمين، ويحاول أن يظهر الآثار السلبية التي تترتب على مثل هذا الزواج، وأولها من ناحية أفراد الأسرة، فقد تأثرت الزوجة الأولى فاطمة (أم بولنوار) هذا الزواج وتألمت ألما نفسيا شديدا، كما تأثر بولنوار بآلام أمه وأصيب بانكسار نفسي[92]، ((وتنبه بوضياف بعد أن أشبع رغبته، إلى الخندق الذي حفره بينه وبين أهله. كانت حال ابنه على الخصوص تقلقه، كما كانت لياليه مع فاطمة مؤلمة، لا لأنه لم يعد يرغب فيها، ولكن لأن ضميره يروح في تلك اللحظات يؤنبه على خطئه في حقها))[93]. وحتى أصدقاء بوضياف، والناس البعيدون عنه لم يستقبلوا زواجه الثاني استقبالا حسنا، وقد علق عليه صديقه القاضي، وهو ينصرف من عنده، بعد أن أنهى تسجيل العقد، قائلا: ((ها هو ذا بائس قد حطم عائلة رائعة))[94].

وهناك مساوئ أخرى لتعدد الزوجات حاول أن يبرزها الكاتب منها الفارق الكبير في السن بين الزوج والزوجة الثانية، والحرب التي تتبع مثل هذا الزواج بين الزوجة الأولى والثانية، لاسيما إذا كانا يعيشان تحت سقف واحد مثل ما هو حال زوجتي بوضياف، والأحقاد التي يحملها الأطفال في قلوبهم نحو والدهم، ونحو الزوجة الثانية، ونحو أولادها فيما بعد، إلى آخره[95].

92 Ibid, p73.
93 يتوعد بولنوار أنه سينتقم من والده عندما يكبر، ينظر: «Bou-el-Nouar », p80.
94 «Bou-el-Nouar.. », p82, 108 et 122.
95 Ibid p109.

وهناك ما هو أسوأ من هذا كله إذا هدد مثل هذا الزواج بحدوث ما يمس الأسرة في الصميم، مثل زنا المحارم، وهذا ما كاد يحدث بين زوجة الأب التي انجذبت نحو ابن زوجها الشاب بولنوار، الذي كان يماثلها في السن، فقد تحرشت به عدة مرات، وراودته عن نفسه[96] لولا أنه كان أكثر وعيا منها، ولولا أن أم بولنوار فاجأت الزوجة الشابة وهي في موقف مريب مع ابنها، فسارعت إلى معالجة الأمر بأن طلبت من بوضياف تزويج ابنهما، تحصينا له من إغراءات ضرتها[97].

ويستجيب بوضياف بسرعة إلى طلب زوجته، كأنه أحس بحدوث شيء ما، مع أن الزوجة لم تطلعه على دافعها الحقيقي من وراء رغبتها المفاجئة في تزويج ابنهما، غير أن تزويج الإبن في سن مبكرة، ودون رغبة منه، يتيح المجال للمؤلف كي ينقد هذه الظاهرة أيضا لدى المسلمين، ويتطرق إلى النتائج التي تترتب عنها.

لقد كانت العادة لدى المسلمين الجزائريين أن يزوجوا أبناءهم وبناقم في سن مبكرة، ودون مشورقم ((فليس من عادة الأوساط المسلمة (الجزائرية) أن يتحدث الأب مع أولاده، حتى ولو كانوا معنيين بالأمر بشكل مباشر))[98]. والزواج غالبا ما يتم ــ حسب ما يذهب إليه المؤلف ــ لاعتبارات نفعية لا علاقة لها بالغرض الحقيقي من الزواج، بل تكون في معظم الأحيان على حساب سعادة الولد أو البنت، أو دراسته، إلخ .. فقد عولج الخطأ بالنسبة لبولنوار (وهو زواج الأب من زوجة ثانية في سن ابنه) بخطإ آخر هو تزويج الابن بدون

---

96 Ibid p81.
97 Ibid, p80.
98 «Bou-el-Nouar.. », p121.

رغبة منه، في سن مبكرة، وعلى حساب دراسته، بزوجة لم يعرفها من قبل، بحيث أنه: ((عندما دخل ليلة الزفاف وجد على سريره دمية))[99] ، وكان زواجا غير متكافئ من حيث الثقافة. قالت له زينة: ((إنــي لا أفهم دائما ما تقوله، لست متعلمة مثلك))[100] .

وكانت البنت نفسها ضحية، لأنها مازالت بدورها طفلة تقريبــا، وكانت يتيمة الأم، فعجل والدها بتزويجها نزولا عند رغبة زوجتــه، التي أرادت أن تتخلص من ربيبتها عن طريق الزواج[101] .

ومن وضعية زينة يتخذ المؤلف منطلقا للدفاع عن وضع المرأة الــتي كانت تتحمل عبء التقاليد، وتعاني من الجهل وعدم التقدير، وتربّى تربية القهر، بحيث تعوَّد منذ الصغر على تلقي الأوامر، من الأب والأم، ثم من الزوج، وتنشَّأ على الطاعة العمياء التي تقتل فيها شخـصيتها، وتجعل منها عبدا مسلوب الإرادة. يقول بولنوار معبرا عن هذا المعنى: ((إن لزوجتي روح العبد))[102] .

ويحس البطل بعد حصوله على شهادة البكالوريا أنه مازال في حاجة إلى المزيد من العلم والمعرفة، فيقرر السفر لهذا الغرض ـــ وعلى غـير المتوقع ـــ إلى تونس، وكان من المفروض أن يسافر إلى فرنسا، فهـذا هو الشيء المنطقي، على أساس أن تعليمه كان فرنـسيا في مختلـف مراحله، أما تحصيله بالعربية، فباستثناء حفظه للقرآن في الكتَّــاب، لا

---

99 Ibid p125.

100 Ibid, p127.

101 يفهم هذا كله من شكوى زينة لبولنوار في ليلة زفافهما، التي تختمه بقولها: ((لقد كنت دائما غير سعيدة في بيتنا، وكنت آمل أن أجد الخلاص هنا، ولكن أرى أن حظي هو أن أستمر في المعاناة)) راجع: «Bou-el-Nouar.. » p126.

102 «Bou-el-Nouar.. », p132.

نعثر في ثنايا الرواية على أية إشارة إلى مزاولته التعليم بالعربية في أية مؤسسة تعليمية، مما يجعلنا نستنتج أن ما حصل عليه هذه اللغة إنما كان اجتهادا وجهدا شخصيا منه.

ولا نفهم الداعي الحقيقي لهذه الرحلة إلى تونس إلا بعد أن نقرأ تلك المناقشات الطويلة التي يجريها البطل مع القاضي قبل توجهه إلى تونس ونقده المسهب للتعليم الزيتوني ولفكر الحركة الإصلاحية الدينية عندما ينتقل بعد ذلك إلى تونس، فحينئذ فقط نكتشف أن المؤلف إنما حوّل توجه بطله إلى تونس من أجل أن يجد ذريعة لنقد التعليم الزيتوني وفكر الحركة الإصلاحية. ويبين المؤلف ثقافة واسعة، واطلاعا دقيقا على الفكر الديني الإصلاحي الحديث في المشرق العربي وفي الشمال الإفريقي، ابتداء من جمال الدين الأفغاني الذي يصفه بأنه ((بالرغم من نزعته الثورية، فقد كان مفكرا، وكاتبا موهوبا، وبارعا في العمل الذكي))[103]، إلى محمد عبده الذي يرى فيه ((الرجل المعتدل، الذي كان له الفضل الأكبر في تقديم علاقات الإسلام بالغرب تقديما سليما))[104]، إلى رشيد رضا ((..الذي لعب دورا تحضيريا لتوليد الأفكار التي هزت وهز مصر ومجموع البلاد الإسلامية"؟"))[105]، ولكنه لا يذكر بالاسم أي مصلح ممن تأثروا بهم في الجزائر أو تونس.

وعلى الرغم من المديح الذي يكيله المؤلف لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ورشيد رضا إلى حد ما، إلا أنه يبدي على لسان القاضي (المُحاور لبولنوار) اختلافا كليا مع توجههم الفكري، باختلافه

103 «Bou-el-Nouar.. », p 161.
104 bid,., p161.
105 Ibid,, p161.

الجذري مع السلفية (باعتبارهم زعماء لها)، لأنها في نظره منغلقة على نفسها، ولا تقبل التغيير إلا من داخل الإسلام نفسه: ((فالسلفية تستبعد كل علاقة بالغرب، خشية أن تفسد الأيديولوجيات الأوروبية صفاء الدين)) [106] ، وهي تحمل في داخلها "تناقضا" أساسيا يمنعها من الاحتكاك بالعالم المحيط بها، ومن النظر إلى المستقبل ((يتمثل هذا التناقض في أنها تريد أن تتحضَّر برجوعها نحو ماض قدره أربعة عشر قرنا)) [107] .

ويجد المؤلف مناسبة لنقد التعليم الديني بأساتذته وطلبته في الزيتونة، عن طريق بطله الذي ينتقل بالفعل لمواصلة دراسته بها، فالتعليم كما رآه ((ليس إلا نتفا من كل شيء وتفسيرا للنصوص القرآنية، مع استطرادات لا حصر لها)) [108] .أما الأساتذة أنفسهم ((فلم يكونوا يفعلون شيئا سوى أنهم يعيدون"تسخين" ما كان قد قيل طيلة قرون)) [109] ، وأما الطلبة ((فقد اعتادوا على إجراء مناظرات فارغة، وعلى خصومات في مسائل لاهوتية، مطبوعة بطابع مذهبي)) [110] .

وكما هو متوقع، فإن بولنوار الذي تعود على نوع مختلف تماما من التعليم، لم يستطع أن ينسجم مع هذا الجو، وقد بدا شاذا في كل شيء في أعين طلبة الزيتونة وأساتذتها، في لباسه، وفي ثقافته، وفي أسئلته المحرجة للأساتذة ((فقد ترك في أنفسهم انطباعا سيئا ببذلته الإفرنجية، وأربطة عنقه الجميلة، وشعره المسرح بعناية، وهيئته الواثقة التي كانت

---

106 Ibid,,p163.
107 Ibid, p164.
108 «Bou-el-Nouar.. », p183.
109 Ibid , p183.
110 Ibid, p183.

تشبه محققا رسميا))[111]، وقد ظنه زملاؤه "جاسوسا فرنسيا"، وأحد الأساتذة حذرهم منه ((بمجرد أن علموا أنه يحمل شهادة بكالوريا التعليم الفرنسي))[112].

والبديل المثالي الذي يقدمه المؤلف، بطريقة غير مباشرة، من وراء كل هذا النقد للتعليم الزيتوني، وللفكر السلفي الإصلاحي، إنما هو فكر"المتطورين" من حاملي الثقافة المزدوجة، من أمثال القاضي صديق والده، خريج المدرسة الفرنسية العربية، الموظف الرسمي في الإدارة الفرنسية، الذي كان يحاور بولنوار ويدهشه بأفكاره المتطورة، وكذا المفتي التونسي الثائر على التعليم الزيتوني وأفكار السلفية، الذي يشبه في ذلك القاضي إلى حد بعيد، وأمثال بولنوار نفسه، الذي يقول له المفتي في إحدى زياراته له: ((إنك ثمرة ثقافتك المزدوجة، ولن تستطيع أن تكون غيرها))[113].

وبالطبع، فإن المؤلف يقدمهم كبديل لأنهم يشكلون، في رأيه، حلقة وصل بين الشرق والغرب، ويجمعون بين الثقافة العربية الإسلامية من جهة، والثقافة الغربية المعاصرة من جهة أخرى، ممثلة في الثقافة الفرنسية، التي تفتح لهم آفاق العصر، وتزودهم بفكر نقدي يعيد إلى الثقافة العربية الإسلامية وجهها المشرق، مثل ما كان الحال على عهد الكندي والفارابي والغزالي وبن رشد، الذين يشيد هم المؤلف، ويثني على جهودهم العلمية، وفكرهم المستنير، وتفتحهم على ثقافات

---

111 Ibid, p182.
112 Ibid, p182.
113 «Bou-el-Nouar.. »p185.

ولغات الشعوب الأخرى، التي لولا تفتحهم عليها لما كانت لهم كل ذلك الإنجازات العظيمة[114].

غير أن المؤلف لا يخفي تشاؤمه من مشكلة"المتطورين" وعقبتهم الكأداء التي وقفت دائما في طريقهم، وحطمت أحلامهم وآمالهم، ألا وهي مشكلة عدم التجاوب معهم على جميع المستويات، والشك في نواياهم، سواء من فئة المثقفين ثقافة عربية خالصة، كما رأينا مع طلبة وأساتذة الزيتونة، أو من قبل المستوطنين الأوروبيين، أو من الإدارة الاستعمارية التي لم تكن تقدم لهم أية مساعدة[115]، أو من الأوساط الشعبية التي كانت من جهتها تشك في نواياهم، ولا تثق في دعوتهم، بل إنها تشك حتى في إسلامهم. يقول بولنوار : ((فبمجرد أن تدعو إلى مناهج الغرب تصبح مشكوكا في إسلامك))[116]. ولا يجد تفسيرا لذلك إلا في كون الجماهير الشعبية قد استسلمت ـــ حسب رأيه ـــ "للقدرية طيلة قرون"، ولنوع من"اللامبالاة أفقدتها الوعي"[117].

هذا ما يفسر خيبة الأمل، وحالة اليأس التي وصل إليها بولنوار في نهاية المطاف، بعد أن بذل جهودا مضنية لإقناع الناس بمشروعه الإصلاحي، حيث كتب في الصحف، وقابل رؤساء الأحزاب، وأنشأ صحيفة خاصة، ولكنه فشل في ذلك على جميع الأصعدة الشعبية والرسمية[118]. وفشل في حياته الخاصة، حتى زوجته الفرنسية التي تزوجها بعد أن طلق زوجته الأولى (زينة)، وكان يظن أنه عثر في

114 Ibid, p188 à 190.
115 Ibid, p162 ,.
116 Ibid, p159.
117 «Bou-el-Nouar.. », p157.
118 Ibid, p193,194.

شخصها على المرأة المثالية التي كان يحلم بها، تغيرت نحوه هي أيضا بعد عام من الزواج، واضطر إلى تطليقها[119].

لقد وصل في الأخير إلى اقتناع تام بأن كل ما قام به في حياته كان عبثا ونوعا من الغرور والخيلاء: ((إن كل شيء يتوارى من تحت قدمي، كل شيء يناصبني العداء، كل شيء يقف ضدي ، أين هي أوهام أيامي الخالية؟ ماذا بقي من العمل العظيم الذي كنت أود القيام به؟ إنه في الحقيقة درس جيد لخيلائي. إن كل شيء ينتهي إلى العدم، وكل ما صنعته كبرياء الإنسان هو بلا قيمة، حيث أنه زائل))[120]. وهكذا فقد بولنوار الأمل في كل شيء: في الأهل، وفي الزوجة، وفي المجتمع، وفي كل القيم والمبادئ: الحداثة، والحرية، والعدالة، والأخوة الإنسانية، وكل ما كان يؤمن به ويدعو إليه[121].

"ليلى فتاة من الجزائر"[122] لجميلة دباش*.

---

119 Ibid p1205.

120 Ibid, p209.

121 Ibid p208,209.

122 Djamila Débèche « Leila , jeune fille d'Algérie », Imprimerie Charras, Alger 1948.

* جميلة دباش من مواليد بلدية غبراس بنواحي سطيف (تاريخ ميلادها مغفل في كل المراجع التي تعرّف بها) تقدمها بعض الكتابات كـ"أول روائية جزائرية"، اهتمت منذ سنة 1943 بالمسائل الاجتماعية والتربوية مثل وضع المرأة الاجتماعي ومسألة تعليم الجزائريين ،. أنشأت سنة 1947 مجلة نسوية بعنوان"Action"، ونشرت روايتين، الأولى بعنوان"ليلى فتاة من الجزائر" سنة 1948 (حسب النسخة التي بين أيدينا أو سنة 1947 حسب ما يذكر جان ديجو وكريستيان عاشور) والثانية بعنوان"عزيزة" سنة 1955، كما نشرت ثلاثة أبحاث عن التعليم والمرأة، وهي على التوالي"المسلمون الجزائريون والتمدرس" سنة 1950، و"تعليم اللغة العربية في الجزائر" و"حق المرأة الجزائرية في التصويت" سنة 1951.

تسير رواية"ليلى" هذه في الاتجاه الفكري والفني نفسه الذي سارت فيه الروايات السابقة التي تعرضنا لها بالتحليل من قبل، وعرفت بمصطلح "رواية الأطروحة"[123]، ولكن الجديد فيها أن مولفتها امرأة، والبطولة فيها أيضا لامرأة، ولذلك فإن محورها الرئيسي يدور حول المرأة ووضعها في المجتمع على خلاف ما رأينا في الأعمال السابقة، التي وإن عالجت بدورها وضع المرأة، إلا أنها لم تجعل منه المحور الرئيسي فيها، ولم تسند للمرأة إلا أدوارا ثانوية*.

ومهما يكن، فإن الخلفية الفكرية في جميع هذه الروايات هي واحدة، سواء أكان البطل رجلا أم امرأة، لأن نموذج البطل الذي تقدمه هو نفسه في جميع الحالات، وإن اختلف الجنس أو تباينت الأسماء والأماكن، إنه نموذج المثقف الجزائري الذي تعرفنا عليه من قبل، خريج المدرسة الفرنسية، الذي ينتمي إلى مستوى اجتماعي معين، ويحمل صفات معينة، وأفكارا معروفة مسبقا، تتمثل في إعجابه بالحضارة الأوروبية الحديثة، وإيمانه بفكرة"الاندماج" كخيار وحيد للشعب الجزائري، للخروج من حالة التخلف والحصول على حقوقه المشروعة في العدالة والمساواة مع المستوطنين الأوروبيين، مع الحفاظ في الوقت نفسه على هويته العربية الإسلامية، ومن هذا المنطلق تراه يناضل بكل ما أوتي من قوة الحجة لإقناع هؤلاء وأولئك بحتمية هذا

---

123 وكذا سارت في الاتجاه نفسه رواية"عزيزة" التي نشرتها المؤلفة سنة 1955، بالرغم من أن قيام ثورة أول نوفمبر قبل عام من هذا التاريخ كان يعني أن الأطروحة التي تحملها قد تجاوزها الزمن ، وهذا ما جعلنا نسقط الرواية الثانية من حسابنا، فضلا عن كونها تكرر الطرح السابق في رواية "ليلى".

* حتى بالنسبة لتلك التي حمل عنوانها اسم امرأة مثل"زهراء امرأة المنجمي" لعبد القادر احمو، إذ يكتشف القارئ بعد أن يطلع عليها أن زهراء لا تحتل إلا دورا ثانويا جدا.

الحل، ويجابه كل أنواع الصعوبات، والعراقيل، والجحود، وعدم الثقة، وسوء الفهم، بسبب تحجر العقليات في نظره، وتحكم التقاليد والعادات، وانتشار الجهل والتخلف، والفهم الخاطئ للإسلام من جهة أبناء جلدته من الجزائريين، وبسبب الأحكام المسبقة، والتعصب العرقي، وانعدام الثقة في المثقف الأهلي من جهة المستوطنين والإدارة الاستعمارية.

هذه هي صورة البطل "المتطور" كما تبدو في هذه الروايات بصفة عامة، حتى وإن اختلفت في التفاصيل، وهي صورة تنطبق تماما على شخصية "ليلى" بطلة رواية جميلة دباش، حيث تتكرر صورة مامون وبولنوار بصيغة المؤنث، وبالطبع ، فإن كونها امرأة يزيد من تعقيد المسألة أكثر فأكثر، ويجعل وضعها مع رواية"بولنوار، الفتى الجزائري" نلتقي مرة أخرى بهذا النوع في المجتمع أسوأ من وضع الرجل، بسبب تحكم التقاليد، التي تفرض قيودا أكثر على المرأة، في وسط متخلف، تسوده الأمية، وتحكمه الممارسات الإقطاعية. تقول ليلى شارحة أسباب سوء الفهم بينها وبين أفراد أسرتها: ((إنني لا أستطيع أن ألوم أسرتي ، إنها تظن نفسها على صواب. إن الداء جاء من كوني أنني أنا تطورت ، في حين أنهم هم ظلوا على هامش الحياة المعاصرة))[124].

إن ليلى هي ابنة أحد كبار ملاك النخيل في منطقة أولاد نايل بالجنوب الجزائري، كانت لها بفضل هذا الوضع الاجتماعي المتميز لوالدها فرصة الدخول إلى المدرسة الفرنسية، كما كان لها الحظ بفضل قدرة والدها من الناحية المالية وتفتحه الفكري من ناحية أخرى —

---

124 «Leila , jeune fille d'Algérie», p130.

بإعطائه الفرصة في التعليم للبنت مثل الولد ـــ في مواصلة دراستها بالجزائر العاصمة في معهد فرنسي للبنات ذي نظام داخلي، حيث قضت في هذا المعهد ثماني سنوات من الدراسة، وكانت تنتظر مستقبلا واعدا، يتناسب وثقافتها ووضعها الاجتماعي، إلا أن وفاة والدها المفاجئة جاءت لتقلب حياتها رأسا على عقب، وتجعلها في مواجهة عم متزمت ومتسلط، أصبح بحكم التقاليد الوصي عليها وعلى أملاكها بعد وفاة والدها.

استغل هذا العم صفته كوصي ليفرض عليها قيودا، ويلزمها بأمور تجردها من أية مزية اكتسبتها بفضل تعليمها وثقافتها، لتعيدها إلى حياة القرية الصغيرة المعزولة التي تتحكم فيها التقاليد البالية، وتسيطر فيها علاقات الإقطاع التي تنبني على الاستغلال والاستعباد، وتهمش المرأة في المجتمع ، وتقلص من دورها في الحياة النشطة ، لتجعل مهمتها لا تتعدى إنجاب الأطفال، والعناية بهم وخدمة زوجها، والقيام بشؤون بيتها الأخرى، أما ما يجري خارج البيت فيعد من شؤون الرجال وحدهم، ولا دخل للمرأة فيه من قريب أو بعيد.

سارع العم بعد وفاة أخيه، وبعث من يحضرها من العاصمة، مستغلا في آن واحد حادث وفاة والدها من ناحية، وانتهاء السنة الدراسية من جهة ثانية، وكان غرضه من إرجاعها إلى بيت العائلة بأولاد نايل أن يضرب عصفورين بحجر واحد، الأول أن يصحح وضعا كان يعده خطأ من البداية، ألا وهو خروج أخيه على التقاليد المتوارثة، بإقدامه على إرسال ابنته لتواصل تعليمها في العاصمة، والثاني أن يزوجها بابنه ليضمن بقاء إرثها تحت يده فلا يذهب إلى الأغراب إن هي تزوجت من خارج الأسرة.

ومنذ اليوم الأول لعودتها فرض عليها نظاما صارما، يلزمها بطاعة من عبر عنهم بقوله لها ((من حلوا بالنسبة إليك محل أمك ومحل المأسوف عليه، أخي العزيز والدك، الشيخ بن عبد الله)) [125]. وهو يقصد بصيغة الجمع في الخطاب نفسه ثم زوجته وزوجة أخيه الثانية، علما أن هاتين المرأتين لم تكونا في الواقع إلا ظلا له، وامتدادا لنفوذه، لأنهما كانتا تخافانه ولا تجرآن على مخالفة أمره في أي شيء. كما ألزمها بضرورة التقيد بالتقاليد الموروثة عن الأجداد، في اللباس، وفي السلوك، وفي كل شيء: ((...لابد أن يعوض الحايك والحجاب الألبسة التي كنت ترتدينها في مدينة الجزائر.. وعليه، فلابد لك أن تنسي ما تعودت عليه، لتتعودي من جديد على عاداتنا، عادات أجدادك)) [126].

كل هذه الإجراءات لم تكن إلا مجرد تمهيد للغرض الأساسي الذي عزم عليه العم، ألا وهو تزويجها من ابنه"حمزة "، بناء على اتفاق — كما أخبرها — تم بينه وبين أخيه المتوفى [127]، منذ أن كانت طفلة. قال لها: ((إنني سأتكفل بضمان مستقبلك. سأزوجك حسب تقاليدنا بالزوج الذي يسعدك. وقد فكرت منذ زمن بعيد، وأنت طفلة بعد، فيمن سيكون من نصيبك في يوم ما، وأظن أنه أصبح في إمكاني أن أقول لك أن ما كان مجرد مشروع غائم سيكون إن شاء الله حقيقة. إنه ابن عمك حمزة، ابني العزيز، إنه الزوج الذي يناسبك)) [128].

---

125 « Leila.. » p29.
126 Ibid p29, 30.
127 « Leila.. » , p34.
128 Ibid, p29.

وكان من المستحيل أن تقبل بهذا الوضع، وهي الفتاة المتعلمة التي تسلحت بسلاح العلم، واكتسبت ثقافة وخبرة، واحتكت بالحياة الأوربية في العاصمة داخل معهد البنات وخارجه، كما لم تكن بمعزل عن الحياة العربية في المدينة، التي كانت أكثر تحررا من قبضة التقاليد، وأكثر تطورا وتفتحا على العصر، حيث كانت تقضي أيام العطل والأعياد في بيت عمة لها كانت تسكن القصبة، وأرادت أن ترد على عمها وتناقشه ولكنه منعها، على أساس أن ما عرضه عليها لم يكن على سبيل الاستشارة وإبداء الرأي، ولكن على سبيل الإعلام، وبغرض التنفيذ لا غير. وأنهى مقابلته معها بقول مبطن بالتهديد والوعيد: ((..إن رضاي عنك ومقدار الهدايا التي سأغدقها عليك سيكون بقدر ما تبدين من الطاعة نحونا))[129]. إلا أن ليلى لم تسلم بالأمر الواقع، ولم تستسلم لإرادة عمها، بل، على العكس من ذلك طلبت منه أن تعرف مقدار ما تركه لها والدها من الإرث، وعرضت عليه، في آخر محاولة منها، مساعدته في تسيير ممتلكات العائلة، بفضل ما لديها من تكوين علمي يسمح لها بذلك[130]، وهو ما عده العم نوعا من التحدي له، وخروجا عن الدين والتقاليد، فتصدت له محاولة إقناعه بحجة الدين نفسه، وأوضحت له أن التقاليد هي التي تقول ببقاء المرأة في بيتها، وعلى الرجل أن يقوم بشؤونها[131]، أما الشريعة فإنها تسوي بين المرأة والرجل، ولا شيء يمنع المرأة من أن تسيِّر شؤونها بنفسها، وقد أعطاها التشريع الإسلامي حرية كاملة في مراقبة مالها. وبناء عليه، فإن المرأة

129 Ibid, p30.
130 « Leila.. », p31.
131 Ibid, p33.

يجب أن تكون بجانب الرجل لا قابعة في البيت[132]. لكن عمها لم يكن مستعدا لقبول حجة العقل ولا حجة الدين، بل إنه لم يكن، في الحقيقة، قادرا على الجدال، لا بمنطق العقل ولا بمنطق الدين، ولذلك رد عليها بضحكة استهزاء تلخص تعنته واحتقاره لآرائها، قبل أن ينهي كلامه معها بقوله: ((لا مجال لتطور المرأة هنا))[133].

والواقع أن البطلة قد فوجئت بمثل هذا الوضع الذي لم يكن ليخطر لها على بال، ولذلك لم تتهيأ له، ووجدت نفسها في ما يشبه المصيدة، لا تدري ما ذا تفعل ولا كيف تتصرف لتخرج منها. غير أن عجزها عن الفعل لم يمنعها من أن تعلن رفضها لمشروع عمها بشكل صريح وواضح. قالت لزوجة أبيها التي جاءت تحاول أن تقنعها بضرورة الانصياع إلى أوامر عمها: ((لا أحد يستطيع أن يرغمني على قبول قران لا أريده))[134]، بل إنها تحينت ذات مرة فرصة اجتماع عمها وابنه، أو العريس الموعود، لتقتحم عليهما الغرفة، على غير العادة المتبعة، وتعلن لابن عمها بصريح العبارة أنها لا تريده زوجا لها[135]، وهو ما أغضب عمها غضبا شديدا، وزاد من إصراره على تنفيذ ما عزم عليه. قال لها: ((إن الحلم الذي أبديته نحوك قد كافأتني عليه بالعقوق، ولذلك سنقيم حفَل زفافك في الشهر القادم، وحينئذ سيتولى حمزة أمرك))[136].

---

132 Ibid, p34.
133 Ibid, p36.
134 Ibid, p78.
135 « Leila.. », p83.
136 Ibid, p86.

وأثناء ذلك كتبت ليلى رسالة مطولة لصديقتها"مادلين لورمون"، شرحت لها فيها وضعيتها الصعبة، وخلافها مع عمها، وقد تمكنت من إيصال الرسالة خفية إلى مصلحة البريد عن طريق أخيها الصغير محمد[137]، وهي الرسالة التي حركت صديقتها التي كانت تكن لها إعجابا وحبا كبيرا، لتعمل على إخراجها من ورطتها، فطلبت من والدها، الصناعي"أندري لورمون"، أن يسافر إلى أولاد جلال، ويقابل الشيخ علي، ويفاوضه على اصطحاب ليلى معه إلى بجاية.

وتحاول المؤلفة في هذه المقابلة المتوترة بين العم والسيد "لورمون" أن تبين أن العم لم تكن تعنيه التقاليد في حد ذاتها بقدر ما كان يعنيه إرث ابنة أخيه، وما تمسكه بالتقاليد إلا لأنها تحقق له أغراضه المادية، فهو لا يريد لإرث ابنة أخيه أن يذهب إلى الأغراب، ومن أجل ذلك خطط لتزويجها بابنه، وقد عبر عن هذا صراحة لـ"أندري لورمون. قال له: ((إن ابنة أخي ليلى لها بالفعل بعض الأملاك، ولكن هذه الأملاك يجب أن تبقى في العائلة، ومشروع الزواج الذي خططنا له يضمن لنا تراثنا))[138].

ومعنى هذا أن مسألة الحفاظ على التقاليد وتماسك الأسرة لم تكن إلا ذريعة بالنسبة للشيخ علي للاستيلاء على إرث ابنة أخيه، بدليل أنه وافق بسهولة غير منتظرة على رحيل ليلى مع السيد "لورمون" بمجرد أن أعلنت له عن استعدادها للتنازل عن حقوقها في الإرث مقابل إعطائها حريتها في الذهاب[139]، وعجل باستدعاء الموثّق ليكتب عقدا

137 Ibid, p61.
138 Ibid, p116.
139 « Leila.. » , p117.

بذلك، حتى لا يكون أمامها أي مجال للتراجع في المستقبل[140]. ولـو كان حريصا فعلا على حماية العائلة وتقاليدها، والحفاظ على تماسكها، وعلى العمل بوصية أخيه، كما كان يتظاهر، لظل متمسكا ببقائها في البيت.

وكانت ليلى قبل ذلك، قد تمكنت من الاتصال بالسلطات الفرنسية المحلية في أولاد نايل، ظنا منها أن السلطات ستنصفها من عمها وتمنعه، بالخصوص، من تزويجها رغما عنها لشخص لا ترغب في الزواج منه، ولكن ظنها خاب في السلطات المحلية، وتبين لها أنها كانت متواطئة مع عمها. هذا ما يفهم من قولها في رسالتها لصديقتها"لورمون": ((قـال الشخص الذي شرحت له وضعيتي: إننا لا نستطيع، يا ابنتي، أن نفعل لك شيئا. إنك مسلمة، وعليك أن تعيشي حسب تقاليد أسـلافك.. ثم إن عمك قال لنا إنه قد أعد لك مستقبلا جيدا، وزيجة سعيدة مـع بن عمك))[141].

ولعل هذا ما يؤكد لنا أيضا ما ذكرناه آنفا من الشكوى المتكـررة للبطل"المتطور" من عدم تجاوب أبناء جلدته معه من جهة، وعدم تفهم وتعاون السلطات معه من جهة أخرى.

وفي محاولة مستميتة من البطلة في إظهار حقها، ومقاومة ظلم عمها ـــ قبل أن ترحل مع السيد لورمون ـــ حاولت أن تستفيد من زادهـا المعرفي، وراحت تبحث لها عما يؤيد حقها ويسقط وصاية عمها عنها من خلال النصوص التشريعية، ووجدت ضالتها في"المختصر الأساسي

140 Ibid, p119.
141 Ibid, p59.

للشريعة الإسلامية" لـ"مارسيل ديكلو"، ومنه نقلت الفقرة 291 الخاصة بالولي، بكاملها، ومما جاء فيها: ((إن القاضي يسقط حق الوصاية عن الولي الطبيعي والشرعي، وهو أب الأسرة أو الوصي، إذا قصَّر تقصيرا خطيرا في واجبه، أو كان تسييره ككل سيئا، أو ضيع جزء من المال، أو بذَّر مال القاصر أو قام بعمل فيه احتيال، أو لأن الأم الوصية عُرفت بسلوك غير طيب..)) [142].

ويبدو من إيراد النصوص الرسمية هكذا بحرفيتها داخل النص الروائي، أن الكاتبة تتجاوز في الكثير من الأحيان مجرد الاستجابة لمتطلبات الفن الروائي، لتتحدث إلى القارئ حديثا مباشرا، يدفعها إلى ذلك حرصها على إيصال أطروحتها إليه بكل الوسائل، ومضمونها هنا: أن الشريعة الإسلامية تحمي حقوق الموصى لهم، وتسقط عن الوصي حق الوصاية إذا ظهر منه ما يطعن في أهليته، كالتصرف السيئ في المال، أو السلوك الأخلاقي السيئ، حتى ولو كانت درجة قرابته منهم تصل إلى درجة الأبوة أو الأمومة.

وفي الحقيقة أن الكاتبة قد استعملت مختلف الأساليب لإيصال أطروحتها إلى القارئ، وأهمها إجراء الحوارات المطولة بين شخصيات الرواية، وهي تشترك بهذا مع من مروا معنا من كتاب الرواية في هذه المرحلة، كما استغلت بشكل خاص أسلوب الرسالة كأداة لتوصيل الأفكار، إلى حد المبالغة والإفراط. ونذكر هنا رسالتين منها على الخصوص، الأولى كتبتها ليلى لإحدى السيدات الفرنسيات جاءت في زيارة إلى الجزائر، وتعرفت على البطلة في بيت آل"لورمون"، ودار

142 « Leila.. » p36

بينهما حديث مطول عن الأوضاع في الجزائر، ولاسيما عن وضع المرأة "المسلمة"، التي لاحظت السيدة الفرنسية أنها لا تشارك في الحياة الاجتماعية[143]، فجاءت الرسالة بعد أن عادت السيدة الفرنسية إلى بلدها لتكون تتمة لذلك الحوار. والرسالة الثانية كتبتها البطلة بناء على طلب من وزير فرنسي (لم تحدد المؤلفة القطاع الذي يمثله) جاء في زيارة استطلاعية إلى الجزائر، وزار مصنع السيد"لورمون" في بجاية، حيث أصبحت ليلى مسؤولة عن مصلحة المستخدمين فيه، وقد أعجب الوزير بحديثها، وبأجوبتها عن أسئلته التي كانت تتعلق بالأوضاع الاجتماعية للأهالي، بحيث كانت لها وجهة نظر واضحة ومحددة في مختلف القضايا والمشكلات الاجتماعية والاقتصادية التي تطرق إليها الحديث. وحرصا من الوزير على تلك الأفكار والمقترحات التي بدت له جديدة ومفيدة عن واقع الأهالي، طلب منها أن تبعثها له مكتوبة، حتى يرى ما يمكن أن يدرجه منها ضمن برنامج وزارته الذي كان في طور الإعداد[144].

ملأت الرسالة الأولى صفحات عدة من الرواية، ناقشت فيها المؤلفة مرة أخرى موضوع الإسلام والتقاليد، فحاولت أن تقدم على لسان البطلة الدليل على أن الإسلام لا يمنع المرأة من المشاركة في الحياة الاجتماعية، ولا من العلم، ولا من العمل وممارسة التجارة، ولا من التطور بشكل عام، مثلها مثل الرجل. ثم راحت تسرد أمثلة من التاريخ الإسلامي في مختلف عصوره المزدهرة، وتذكر أسماء وأعمال نساء شهيرات، بدء من نساء النبي، وبناته وحفيداته، فتحدثت عن

144 « Leila.. », , p146.
144 Ibid p156.

نسائه، وخصت زوجتيه خديجة وعائشة بالذكر، حيث تقول عنهما: إنه وجد من الأولى المساندة والعون في بداية الدعوة، وواصلت الثانية مهمته التربوية بعد وفاته[145]. وبعدهما اشتهرت نساء أخريات، مثل ابنته فاطمة الزهراء التي اشتهرت بعلمها، وأسماء بنت أبي بكر، وعاتكة بنت زيد الأنصاري، وزبيدة زوجة هارون الرشيد، وبوران زوجة الخليفة المنصور، وعائشة بنت الخليفة المعتصم، وأم السعد بنت هيثم الحميرية في قرطبة بالأندلس، وقطر الندى في مصر المملوكية، وكلهن ساهمن في صنع الحضارة العربية الإسلامية ووصلن بها إلى قمة التطور[146].

وتشير البطلة أيضا إلى نهضة المرأة في العصر الحاضر، في تركيا ومصر*، لتخلص من كل ذلك إلى أن التقاليد البالية التي تراكمت عبر العصور، مع ما رافقها من جهل وانحراف عن الإسلام الصحيح، هي المسؤولة عن وضع المرأة المتخلف اليوم: ((...فأنت ترين يا سيدتي العزيزة أنه كان لدينا أيضا نساؤنا الشهيرات، اللائي ساهمن في ازدهار الحضارة الإسلامية، غير أنه، وعلى مر القرون، تعرضت روح الشريعة القرآنية إلى التحريف، فأبعدت المرأة شيئا فشيئا عن الحياة العامة))[147].

وتنهي رسالتها إلى الصديقة الفرنسية برأي تقول فيه ما معناه: إن نهوض المرأة المسلمة في شمال إفريقيا عامة، لن يكون إلا بتلاقي

---

145 « Leila.. »,, p150.

146 Ibid, p150, 152.

* ولكنها لا تذكر أي اسم لهن ، مما يعني أن المؤلفة كانت تسمع عن وجود نهضة نسوية في هذين البلدين ولكنها لا تعرف أسماء النساء اللائي يمثلنها ، ولا قرأت لهن.

147« Leila.. »,, p153.

الحضارتين الشرقية والغربية: ((فمن أجل ميلاد عالم أفضل، لابد أن تتكئ كل واحدة منهما على الأخرى)) [148].

والرسالة الثانية كانت أطول بكثير من الأولى، حيث شكلت بموضوعاتها المتعددة برنامجا اجتماعيا سياسيا كاملا، احتل مساحة من الرواية زادت عن اثني عشر صفحة [149]، وهو البرنامج الذي ترى أنه يسمح بالمساهمة ــ في حالة تنفيذه ــ للجزائريين بكل فئاتهم في"النهضة" التي تشهدها البلاد، وفي "جو الثقة" ((الذي يجب أن تسهم في صنعه كل العناصر السكانية دون تمييز في الرأي أو العرق أو الدين)) [150].

أوضحت في مستهل الرسالة مرة أخرى أن الإسلام لا يقف عائقا أمام تطور المرأة، وإنما المسؤول عن ذلك هو الجهل والتقاليد البالية [151]، ولا يمكن القضاء على هذين العاملين المعوقين للتطور إلا بالتعليم والتكوين. ومن هنا راحت تدعو إلى ضرورة العناية ببناء المدارس، ونشر التعليم على نطاق واسع، وتعليم البنت على الخصوص، والإكثار من إنشاء المدارس المهنية الخاصة بالبنات، وتشجيع كل مبادرة تهدف إلى تطوير المرأة وترقيتها. وتلاحظ هنا أنه يمكن الاستفادة في هذا الصدد من التجربتين المصرية والتركية [152] في معالجة بعض المسائل الاجتماعية الحساسة، كمسألة الحجاب [153]، ثم تتطرق بعد ذلك إلى

---

148 Ibid, p153.
149 Ibid, p158.
150 Ibid, p157 à 169
151 Ibid, p160.
152 «Leila.. » p165.
Cf. « Leila.. »,, p165

153 وهي ترى أنه ليس من الإسلام في شيء :

موضوعات أخرى، كتطوير الفلاحة والريف بشكل عام، نظـرا إلى طبيعة البلد الفلاحية، وكون معظم السكان يقطنون المناطق الريفيـة، وكذا العناية بالصحة وبالطفل حتى لا يكون عرضة للتشرد، وبالسكن الاجتماعي"لأنه لا يمكن بناء شيء صحيح على مدن الصفيح"، ومـا إلى ذلك من الميادين الاجتماعية التي ترى أنه لا يمكن إحراز أي تقدم اجتماعي إلا بالعناية بها وتطويرها[154].

ونلاحظ أن كلا الرسالتين موجهة إلى ما وراء البحر، أي إلى الرأي العام الفرنسي في فرنسا، وهو تقليد جرى به العرف في روايات هـذه الفترة الأولى، حيث كان هناك اعتقاد سائد أن فرنسيي "المتروبـول" يختلفون عن المستوطنين المقيمين في الجزائر، فهم أكثر تفهما وإنـصافا للجزائريين، وأكثرهم نزاهة وموضوعية وتمسكا بمبادئ العدالة والحرية والديمقراطية*.

ومع ذلك، فإن السيد"لورمون" يشكل من جهته استثناء، فهو يؤمن بضرورة المساهمة في تطوير اقتصاد المنطقة التي أقام بها مصنع الزيـت الذي يملكه، مع التطوير الذي ينوي القيام به للصناعة التحويلية الغذائية (مربى، خضر، لحم إلخ..) ففتح أبواب مصنعه للعمـال والعـاملات الجزائريين بدون تمييز، وكان مصنعه من الأهمية بحيث يشغِّل أكثر من ألف عامل وعاملة، وقد حاول أن يلعب دورا أكبر مـن مجـرد دور اقتصادي، فشجع عمل المرأة على الخصوص، وأقام، باقتراح من ليلى،

---

154 Ibid, p169.

* نجد نموذج فرنسي المتروبول المتفهم، النزيه، المنصف في شخصية مدير المنجم في"زهـراء زوجة المنجمي"، وفي شخصيتي الأستاذ"رودومسكي" وزميل الدراسة"دو ليـساك"، في رواية"مامون"، وفي شخصيتي الزوجين"فونتان" والأستاذ "ديرتان" في رواية"بولنوار".

مصلحة خاصة بالخدمات الاجتماعية والصحية[155]، وعين فيها طبيبا جزائريا شابا، وسبق لنا أن رأينا موقفه الشهم إزاء ليلى، حين لعب دور "المنقذ" لها من ظلم عمها، ومن قهر التقاليد التي كان يمثلها ذلك العم، فكان ــ كما صورته الروائية ــ نموذجا للمستوطن المثالي الذي يؤمن بضرورة التعايش والتعاون بين جميع السكان، وقد عبر عن ذلك ذات مرة بقوله: ((إن هناك أناسا طيبين في هذا البلد، وسيأتي يوم يكون فيه الطيبون من المسلمين، والطيبون من الفرنسيين في وفاق تام))[156].

وتلتقي البطلة ــ التي ليست هي في الواقع إلا ترجمانا لأفكار وآراء المؤلفة ــ في هذه النظرة مع السيد لورمون حين تعبر عن ضرورة نسيان التاريخ الدامي للاستعمار، والنظر إلى المستقبل وحده، والتعاون من أجل بنائه. تقول لصديقتها"مادلين لورمون": ((لابد من الضرب صفحا على الماضي، والمشي معا، اليد في اليد نحو مستقبل أكثر صفاء.. صفاء يصنعه اتحاد حضارتين))[157].

ونلاحظ هنا من جهة أخرى، أن المؤلفة تتبع طريقة الروائيين السابقين عنها حين تسخّر شخصياها الروائية لإيصال أفكارها الخاصة، وتجري على ألسنتهم حوارات، أو تكتب بأيديهم رسائل مطولة، تبث فيها آراءها في مختلف القضايا التي كانت تشغل المجتمع في زمنها، وهو الشيء الذي يقتل الشخصيات الروائية ويحولها إلى دمى خشبية يحركها المؤلف من وراء الستار. وقد سبق أن لاحظنا هذه الظاهرة في روايات

155 «Leila.. », p131,132.
156 Ibid, p99.
157 Ibid, p65

شكري خوجة ورابح زناتي على الخصوص، مع شخصيتي مامون وبولنوار، وهاهي الظاهرة نفسها تتكرر مع جميلة دباش في شخصية ليلى. والواقع أنه لا مستواها الثقافي (كانت طالبة في الثانوية) ولا سنها (كانت في الثامنة عشر) يسمحان لها باكتساب كل ذلك النضج الفكري الذي أظهرته في حواراتها، وفي رسائلها. وتختلف رواية جميلة دباش نوعا ما عن الروايات السابقة في نهايتها السعيدة، والمتفائلة بالمستقبل، حيث تتزوج ليلى من زميلها الطبيب الشاب يحي بن دريس، المشرف على مصحة المصنع، الذي كان، بدوره من أنصار"تطور" المسلمين الجزائريين[158]، وتعود بصحبته إلى أولاد جلال، بعد أن تلقت رسالة من أهلها أعلمتها بوفاة عمها الشيخ علي، وندمه معاملته لها ـــ كما قيل لها ـــ وهو على فراش الموت، وأعلن على رؤوس الأشهاد أحقيتها في ميراث والدها[159]. وفي أولاد جلال بنت ليلى مستوصفا لزوجها ليقوم فيه بمهمته الإنسانية، في الوقت الذي تفرغت فيه هي للإشراف على إدارة أملاكها.

158 «Leila.. » p179.
159 Ibid p190,191.

الفصل الخامس
من وعي الذات إلى التمرد

عقب كل حرب عظمى تتحرك السواكن على مستوى العالم كله، ويحدث تغير عميق في الخريطة الجيوسياسية الدولية، يكون له انعكاساته الإيجابية أو السلبية على الدول الكبرى والصغرى على السواء ، وفيما يخص الجزائر، فإنه مثل ما أحدثت الحرب العالمية الأولى تأثيرها على الأوضاع الداخلية، بحيث أدت بالخصوص إلى ظهور ما سمي بقوانين 4 فبراير 1919 ، التي ألغت قانون"الأهالي" ، وسمحت للجزائريين بإنشاء الأحزاب وممارسة النشاط السياسي، ومن ثمة سمحت لهم بحق التصويت والترشح للانتخابات المحلية، فإن الحرب العالمية الثانية أحدثت بدورها تأثيرات كبرى في الوضع السياسي الجزائري، فقد أفرزت واقعا آخر جديدا كان أكثر ملاءمة لمطالبة الجزائريين بحقوقهم المشروعة في الحرية وتقرير المصير، وقد ساعد على إيجاد مثل هذا الواقع عدة عوامل ، أهمها :

أولا: تراجع قوة ونفوذ القوى العظمى التقليدية في العالم، الممثلة في الدولتين الاستعماريتين الرئيسيتين بريطانيا وفرنسا، بعد حربين عالميتين أنهكت قواهما، وزحزحتهما إلى الخلف في اتخاذ القرارات الدولية، وراء قوى عظمى جديدة أصبحت تقود العالم، تأتي على رأسها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.

ثانيا: التوجهات السياسة للقوى العظمى الجديدة، المؤيدة لحق الشعوب المستضعفة في الحرية وتقرير المصير. وقد جاء في تصريح للرئيس الأمريكي "فرانكلين روزفلت"، إبان الحرب، باسم كل الحلفاء، ما يعبر عن هذا التوجه بوضوح حين قال: ((إن حقوق كل الشعوب، صغيرة كانت أم كبيرة، ستحترم عند تنظيم العالم الجديد))[1]. ومثل هذا التوجه الجديد بعث أملا كبيرا في نفوس الجزائريين، في التخلص من عبودية الاستعمار، والحصول على حق تقرير المصير.

ثالثا: مساهمة الجزائريين في الحرب بما يساوي تقريبا عدد الجنود الفرنسيين أنفسهم الذين جندوا في الحرب لتحرير فرنسا[2]، وهو الشيء الذي خلق وضعا شاذا ومتناقضا بالنسبة إليهم، عبر عنه حالهم قبل أن تعبر عنه ألسنتهم، إذ كيف يطلبون الحرية للآخرين، وي‌دافعون بدمائهم وأنفسهم عن أوروبا عامة ، وفرنسا خاصة، ضد تسلط الفاشية والنازية، في الوقت الذي كان يعيش فيه بلدهم وشعبهم تحت عبودية الاستعمار وتسلطه؟ وبالفعل، فقد اكتشف الجزائريون قوة الأمريكان عند نزولهم بالجزائر في 8 نوفمبر 1942 وعرفوا كيف يستفيدون منها ومن دبلوماسيتهم، فاتصلوا بقادتهم، وطلبوا منهم تأييدهم في إقامة حكم فدرالي بالجزائر يجمع المستوطنين الأوروبيين

---

1 من "بيان الشعب الجزائري" الموجه للسلطات الفرنسية ولقادة القوات الأمريكية والإنكليزية بعد نزولها بالجزائر في 8 نوفمبر 1942 . راجع : راجع : د. يحي بوعزيز "الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية من خلال نصوصه " ص84.

2 يذكر د. يحي بوعزيز، استنادا إلى الأرقام المقدمة من أركان الحرب العامة الفرنسية، أن نسبة الجنود الجزائريين في الجيوش الفرنسية، قبل نزولهم بفرنسا، كانت حوالي 54%. كما يذكر أن عدد الذين استدعوا منهم إلى الخدمة العسكرية من شهر ديسمبر 1942 إلى نهاية الحرب قد بلغ 140 ألف مجند. المرجع السابق ص 123 ،

والجزائريين[3]، وهو المطلب الذي بلوروه فيما بعد في شكل وثيقة سياسية، اقتصادية، اجتماعية تشكل تصورا للمستقبل السياسي للجزائر بعد الحرب، تقدموا بها للسلطات الفرنسية، بعد أن كلفوا فرحات عباس بصياغتها كتابيا، وعرفت باسم "بيان الشعب الجزائري"، وسلموا نسخة منها للقيادة العسكرية الأمريكية والإنكليزية بالجزائر، وبعثوا بنسخة إلى الجنرال"ديغول" في لندن، وبنسخة مماثلة للحكومة المصرية[4] وجاء هذا"البيان" كرد على الحاكم العام "دارلان" والجنرال"جيرو" من بعده، اللذين ظلا يلحان على ضرورة مساهمة"المسلمين الجزائريين" في التعبئة العامة، وتجنيدهم في الحرب إلى جانب الحلفاء[5]، فكان هذا"البيان"، بالنظر إلى الظرف الذي قدم فيه، ولأهمية المطالب السياسية التي جاءت فيه، بمثابة شروط مقابل العمل على تعبئة الجزائريين في جهود الحرب.

وقد لقي "البيان" المذكور تأييدا واسعا من مختلف الأحزاب والجمعيات والشخصيات الوطنية بمختلف انتماءاتها السياسية، وشكل شبه إجماع لمختلف القوى السياسية في البلاد[6]، مما اضطر الحاكم العام "مارسيل بيرتون"، الذي خلف الجنرال"جيرو" في منصب الحاكم العام، وتحت ضغط متطلبات الحرب، إلى الموافقة

---

3 Charles Robert Ageron " Histoire de l'Algérie contemporaine"p92.

4 "الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية" ص66.

5 " Histoire de l'Algérie contemporaine", p92.

6 باستثناء "حزب الشعب الجزائري" بقيادة الحاج مصالي الذي كان يطالب بالاستقلال التام للجزائر عن فرنسا، و"الحزب الشيوعي الجزائري" الذي أنشأ حركة مستقلة سماها "أصحاب الديمقراطية والحرية"، دافع فيها عن سياسة الاندماج. راجع: د. يحي بوعزيز "الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية.." ص97، 98.

على ما جاء في"البيان"، بعد أن أدخلت عليه بعض التعديلات[7].
لكن الجنرال"كاترو"، الذي خلف"بيرتون" في منصبه بعد أشهر قليلة، سرعان ما تنكر لما التزم به سلفه، وزاد على ذلك أن ألغى"القسم الأهلي" من"النيابات المالية" عندما رفض النواب المسلمون حضور اجتماع عام كان مقررا في 23 سبتمبر 1943، احتجاجا على تنكر الحاكم لما جاء في"البيان"، كما نفى فرحات عباس وعبد القادر السايح إلى الجنوب الوهراني[8].

ونظرا لما أحدثته مواقف"كاترو" من غليان في الأوساط الشعبية الجزائرية، فقد عاد وتراجع عن قراراته السابقة، فأعاد"القسم الأهلي" الذي ألغاه من النيابات المالية، وأصدر عفوا عن المنفيين، وأعد إصلاحات"تافهة"* لا يوجد فيها أي شيء من تلك المطالب التي ورد ذكرها في"البيان"، وعلى ضوء"إصلاحات" كاترو أصدر الجنرال "ديغول"، القائد الأعلى لقوات"فرنسا الحرة" في 7 مارس 1944 مرسوما يمنح الجنسية الفرنسية لحوالي 60 ألفا من الجزائريين، دون مطالبتهم بالتخلي عن عقيدتهم الإسلامية، ويقضي برفع تمثيل الجزائريين في المجالس المنتخبة بنسبة 1 إلى 3[9].

وبالطبع لم يرض هذا الإجراء الأحزاب السياسية الجزائرية، وقابلته بالرفض والاستنكار، وعدَّته دليلا قاطعا على عدم وفاء فرنسا

---

7 راجع نص الوثيقة وتعديلها في المرجع السابق الذكر، من ص 63 إلى 86.
8 "الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية"، ص96.
* حسب تعبير الدكتور يحي بوعزيز في "الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية.."
9 د. عمار بوحوش "العمال الجزائريون في فرنسا"، ص110، 111.

بالتزاماتها تجاه الجزائر[10]. ومن هذا الرفض والاستنكار نشأت حركة سياسية جديدة بزعامة فرحات عباس، انضم إليها أعضاء من"جمعية العلماء المسلمين "، وأطلقت على نفسها اسم"أحباب البيان والحرية"، وجعلت برنامجها السياسي هو الدفاع عما جاء في"بيان الشعب الجزائري"، والنضال من أجل تحقيق الإصلاحات التي جاءت فيه[11].

وبقدر ما خاب ظن"المعتدلين" الجزائريين من أمثال فرحات عباس في قيادة فرنسا الحرة التي ظنوا أنها ستنصفهم، بعد ما جربت عبودية الاحتلال الألماني لبلدها، وذاقت مرارة القهر على يد النازية، بقدر ما أحس التيار الوطني المطالب بالاستقلال التام عن فرنسا، بصحة موقفه وصواب رأيه في عدم مجاراة"البيانيين" في حسن ظنهم بقادة فرنسا، سواء منهم أولئك الذين كانوا يحكمون فرنسا قبل الحرب، أو الذين أصبحوا يحكمونها بعد الحرب[12].

وجاءت مجازر أول وثامن مايو من سنة 1945 لتؤيد وجهة نظر الاستقلاليين، تلك المجازر التي ذهب ضحيتها عشرات الآلاف من الجزائريين على يد المستوطنين الأوروبيين، في سطيف وقالمة وخراطة، وقد اختار المستوطنون عن قصد أن تبدأ المجازر من مدينة

---

10 المرجع نفسه ، ص111.

11 راجع أهداف حركة "أحباب البيان" في "الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية .." ص97.

12 يمثلهم خصوصا الزعيم مصالي الحاج الذي قال لفرحات عباس عندما عرض عليه تأييد "البيان": ((إنني لا أثق البتة في فرنسا لأنها لا تذعن إلا للقوة)) المرجع السابق ص 98.

سطيف التي شهدت ميلاد"بيان حزب الشعب الجزائري"، وصارت بذلك رمزا للمطالبة بالحقوق المشروعة للشعب الجزائري في تقرير مصيره، ليرهبوا الجماهير الشعبية، ويسكتوها عن المطالبة بالحقوق.

وبتلك الأعمال الفظيعة التي ارتكبوها، بدد المستوطنون كل أمل في إمكانية التفاهم والتعايش بينهم وبين الجزائريين، وقدموا لهؤلاء الدليل القاطع أن لا أمل في الحصول على حقوقهم المشروعة عن طريق العمل السياسي السلمي، وبذلك دفعوهم نحو الحل الجذري الوحيد الذي بقي أمامهم، ألا وهو اللجوء إلى العنف واستعمال القوة للحصول على تلك الحقوق، طبقا للمقولة الشهيرة: "ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة"، ومنذ ذلك التاريخ شرع الوطنيون الجزائريون بالفعل في الإعداد الجدي للثورة المسلحة[13]، التي اندلعت بعد أقل من تسع سنوات من تلك الأحداث المأساوية، أي في الفاتح من نوفمبر 1954.

* * *

حقا ، لقد شكلت تلك المجازر بوحشيتها قطيعة حقيقية مع المستعمر، على جميع المستويات، ومنها على مستوى الإبداع الفكري والأدبي، ففي السنوات اللاحقة التي أعقبت الحرب، تبددت من أذهان الجزائريين كل أوهام التعايش مع المستعمرين، ولم يعد هناك مجال لمثل تلك الكتابات المداهنة للمحتل، التي كانت تحاول استرضاء السلطات الاستعمارية، والتقرب من المستوطنين، والعزف على نغمة"الأخوة والمساواة بين الجميع"، على أمل

---

13 "الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية " ص103.

الحصول على مقعد إضافي ملحق (Strapontin) في النظام الاستعماري، والقبول، مقابل ذلك، وعن طيب خاطر، بالذوبان في كيان المستعمر، والتحول إلى مجرد ظل له، أو تابع. لقد أصبح مثل هذا الخطاب بعد الحرب، وبعد حدوث تلك المجازر خطابا لاغيا، لا يقنع أحدا، وظهرت في مقابل ذلك كتابات أخرى جديدة لجيل جديد من الكتّاب الجزائريين، بلهجة جديدة مغايرة لما كان عليه الحال في السابق، بحيث لم تعد تجامل المحتلين أو تداريهم أو تخطب ودهم، بل على العكس من ذلك كانت تنتقد النظام الاستعماري بشدة، وتندد بطبيعته الاستبدادية والاستغلالية والعنصرية، وتقدم كشاهد على ذلك ما وصلت إليه أوضاع الشعب الجزائري من تردٍّ كامل على جميع الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وتشكل أعمال محمد ديب، ومولود معمري، وكاتب ياسين في مجال الأدب الروائي نماذج حية لهذا النوع الجديد من الكتابة، كما تُعدُّ كتابات محمد الشريف ساحلي في مجال التاريخ[14]، ومالك بن نبي في مجال الفكر الاجتماعي الإسلامي[15]، مثالا آخر حيا عن هذه الروح الجديدة التي شاعت في مختلف الميادين الفكرية.

---

14 نشر في هذه الفترة "رسالة يوغرطة" سنة 1947، و"الجزائر تتهم" (1949)، و"التآمر على شعوب إفريقيا"(1950) و"عبد القادر فارس العقيدة"(1953). وصدرت كلها عن دار "النهضة" بالجزائر.

15 نشر"الظاهرة القرآنية"(1947)، و"خطاب عن شروط النهضة الجزائرية"(1949)، وصدرا بدوريهما عن دار"النهضة" بالجزائر و"دعوة الإسلام"(1954) عن دار "لوسوي" بباريس.

لقد كشفت الأعمال الروائية بالخصوص ــ كما ألمحنا آنفا ــ عن حالة البؤس الاجتماعي التي وصل إليها الشعب الجزائري، لاسيما في فترة الحرب الكبرى، التي طحنت معظم فئات الشعب، ووصلت بهم إلى حافة الكارثة من الناحية الاقتصادية، كما عـبرت هـذه الأعمال عـن وعي جديد، ونفس غير معهود في الكتابة، يتغلغـل إلى أعماق الشعب، ويسجل نبض الحيـاة اليوميـة في صـفوف الجماهير، ويصور معاناة الفلاحين والحرفيين في القرى والأريـاف خاصة، وفي المدن، ويعبر عن صراعهم اليومي مع شظف العـيش، وقسوة الطبيعة، وظلم السلطـات، واستغلال المستوطنين لجهدهم وعرقهم.

عبرت عن ذلك كله، وبكثير من البراعة والصدق الفني روايـة "الـدار الكبيرة" و"الحريق" و"النول" لمحمد ديب، و"الربوة المنسية" و"نوم العدل" لمولود معمري، و" نجمة " و"المضلع النجمي" لكاتب ياسين*، وقد جاءت في نفس ملحمي قوي، ينسجم وعمق المأساة الإنسانية التي عبرت عنـها، وجمعت إلى عمق التحليل براعة التصوير وجمال العبارة، مع ما هنالك من فروق في كيفية التعبير بين كاتب وآخر، تعود إلى طبيعة كل واحد منهم، وإلى مواهبه الشخصية التي تميزه عن غيره.

وسنحاول في هذا الفصل أن نرصد من خلال الروايات المذكورة، مظاهر ذلك التطور الذي حدث في الوعي، وتجلـى في الكتابـة،

* مع العلم أن هذه الرواية الأخيـرة قد نشرت بعد الاستقلال(سنة 1965)، وبفارق زمني قدره تسع سنوات من تاريخ صدور"نجمة"، وبالرغم من ذلك فإنه لا يمكننا فصلها عنها، إذ تمثل "المضلع النجمي" الجزء الثاني المكمل لـ"نجمة" بشخصياتها وأحداثها.

وتدرج مع تطور الأحداث السياسية التي عرفتها الجزائر في الفترة المتحدث عنها، من الإفاقة من الصدمة، ومداواة الجراح، وكفكفة الدموع، إلى محاولة تجاوز الواقع الأليم، برفضه، ثم بالثورة عليه، وكيف عبرت تلك الروايات عن ذلك كله. وسنركز أساسا — وتقيدا منا بإطار البحث — على العناصر التي تبرز الوعي بالذات القومية، وتعبر عن مقومات الهوية بشكل ما، باعتبار ذلك ملاذا كان الشعب يحتمي به، ووسيلة دفاعية في الوقت نفسه.

شكلت رواية"الربوة المنسية" لمولود معمري* التي صدرت سنة 1952، مع رواية"الدار الكبيرة" لمحمد ديب، التي ظهرت

* ولد مولود معمري في 28 ديسمبر 1917 في بني ينّي، بقرية تاووريرت ميمون ، بمنطقة تيزي وزو. زاول دراسته الابتدائية بمسقط رأسه، والتكميلية في الرباط بالمغرب، حيث انتقل هناك وهو في سن الحادية عشر ليعيش عند عمه، ومكث أربع سنوات ليعود إلى الجزائر ويدخل ثانوية"بيجو" بالعاصمة (الأمير عبد القادر حاليا)، ومنها انتقل لمواصلة الدراسة في ثانوية"لوي لوكران" بباريس، وكان ينوي الدخول إلى المدرسة العليا لتخريج الأساتذة، وهناك أدركته الحرب العالمية الثانية، فجند سنة 1939 في صفوف الجيش الفرنسي، وزاول تدريباته العسكرية بمدرسة الضباط بشرشال، ليحصل على رتبة مرشح. وسرح في أكتوبر 1940 بعد احتلال الألمان لباريس، ثم أعيد تجنيده سنة 1942 عند نزول قوات الحلفاء في شمال إفريقيا، وشارك في حملاتهم على إيطاليا وفرنسا وألمانيا، دون أن يشارك في العمليات العسكرية. وعاد إلى الجزائر سنة 1947 ليعين أستاذا بمدينة المدية، ثم في بن عكنون بالعاصمة . وبعد اندلاع ثورة التحرير غادر الجزائر سنة 1957 ليقيم مجددا في المغرب، ولم يعد إلا سنة 1962 بعد أن استعادت البلاد استقلالها، فعين أستاذا بالمدية، ثم بجامعة الجزائر، ومديرا للبحوث الأنتروبولوجية لما قبل التاريخ والإثنوغرافية ، وهو المنصب الذي ظل يشغله إلى غاية 1980، وفي سنة 1985 أسس بباريس دورية بعنوان"أوال" أي"الكلمة" بالأمازيغية، وهي مختصة في الدراسات البربرية، وأصدر منها إلى غاية وفاته حوالي خمسة أعداد. توفي في 26 فبراير 1989، في حادث سير بعين الدفلى، حيث اصطدمت سيارته بشجرة أسقطتها العاصفة، وكان حينها عائدا من المغرب، بعد أن شارك هناك في ملتقي حول اللغة الأمازيغية. أصدر أربع روايات هي:"الربوة المنسية"(1952) و"نوم العدل"(1955)، و"الأفيون والعصا"(1965)، و"العبور"(1982)، ومجموعة قصص بعنوان"توقفات" (Escales) صدرت بعد وفاته (1998)، ومسرحيتين هما: "المادبة"(1973) و"ريح الجنوب"(1982)، كما نشر أبحاثا عن الأمازيغية، وترجمات للأدب الشعبي القبائلي.

بعدهـــا بأيام قليلة[16]، حدثا أدبيا متميزا في أوساط المـــثقفين الجزائـــريين باللغة الفرنسية، بما حملتا من مضمون جديد، وبجرأتهما في طرح مـــسائل سياسية واجتماعية لم يتعود الروائيون على طرحها من قبل، ومن ذلـــك مثلا نقد رواية"الربوة المنسية" للعادات والتقاليـــد المتـــشددة في المجتمـــع القبائلي، والتحدث عن قيام علاقات عاطفية غير شرعية، في مجتمع مثـــل ذلك المجتمع، بين رجل أعزب وامرأة متزوجة، بل تعدى الأمر ذلـــك إلى الحديث عن قيام علاقة شاذة بين رجل وآخر[17]، ومن ذلك أيضا التطرق لأول مرة في روايات الجزائريين ، إلى موضوع النضال السياسي والنقابي ، للوطنيين الجزائريين في رواية"الدار الكبيرة"، من خلال شخـــصية"حميـــد سراج"، والتشهير بالقمع الذي كانت تمارسه الشرطة الفرنسية ضـــدهم. لذلك أثارت الروايتان ردود فعل متباينة ومتناقضة، بحسب مواقـــع الأشخاص وانتماءاتهم السياسية والعرقية، ففي الوقت الذي احتفت فيه الصحافة اليسارية الفرنسية والوطنية الجزائرية بروايـــة"الـــدار الكبيرة" لتنديدها بالاستغلال الاســـتعماري، والتزامهـــا بـــالخط السياسي الوطني، هاجمتها الصحافة اليمينية، وصحافة المـــستوطنين على الخصوص، وعدتها مجرد"مقالة هجائية"[18].

---

16 محمد الصالح دمبري"مجادلات حول الربوة المنسية" مجلة"الثقافة"(الجزائر)، العدد 102، 1989، ص43.

17 العلاقة بين"مناك" و"دافدا" زوجة آكلي من جهة، والعلاقـــة بين مناك والراعي"موح" من جهة أخرى، وقد أثارت هذه العلاقة الأخيرة بالخصوص سخط سكان قرية "بني يني" مسقط رأس المؤلف، ونفوا أن تقوم مثل هذه العلاقة الشاذة في قريتهم. راجع: "مجادلات حول الربوة المنسية"ص40 .

18 "مجادلات حول الربوة المنسية" ص43.

وكانت الأدوار مقلوبة بالنسبة للموقف من"الربوة المنسية"، فقد رحبت بها الصحافة اليمينية المعبرة عن وجهة نظر المستوطنين، وركزت في الإشادة بها على خصوصيتها المحلية، فوصفتها بـ"القصة القبائلية الجميلة"، وبـ"القصة المعبرة عن الروح القبائلية"[19]، وذهب بعض النقاد إلى أبعد من ذلك في إشادتهم بالرواية وكاتبها، حين عدُّوا ظهور كاتبها"الأهلي": ((نجاحا كبيرا لرسالة التعمير)) الفرنسية في الجزائر، وذلك بالنظر إلى المستوى الراقي للغة الفرنسية التي كتب بها روايته[20]، في الوقت الذي هاجم فيه الرواية مثقفو التيار الوطني الجزائري هجوما عنيفا، فوصفها محمد الشريف ساحلي بـ"ربوة التنكر"، وأدان محفوظ قداش مواقف الكاتب"الغامضة" فيها، و((تجاهله لمشاكل الساعة.. وصمته عن الأوضاع التي تعيشها الجزائر))، ووصفها مصطفى الأشرف بأنها((رواية فولكلورية...أقرب إلى الأدب الموسوم بالصبغة الاستعمارية))[21]، في حين رأى بشير حاج علي أن كاتب الرواية نفسه كان ضحية لألاعيب النظام الاستعماري ((الذي عمل على فصل المثقفين عن الشعب، وجعلهم ينسون دورهم داخل الحركة الوطنية في المرحلة الحالية(1953).))[22].

---

19 نفسه، ص41 .

20 نفسه، ص42 .

21 "مجادلات حول الربوة المنسية"، ص44 .

22 «Situation de la littérature maghrébine de langue française» , p150.

الربوة المنسية: ثورة على التقاليد وعلى الواقع المتخلف.

والواقع أن"الربوة المنسية" كانت بعيدة فعلا عن الانشغالات السياسية للجزائريين في مرحلة ما بعد الحرب العظمى الثانية، غير أنها من الناحية الاجتماعية لم تكن بعيدة أبدا عن الأوضاع الاجتماعية المتردية لحياة الأغلبية من الشعب الجزائري، ولا عن معاناة الناس من الفقر المدقع، والحاجة الشديدة التي ازدادت سوء بفعل الحرب، حتى أصبح همُّ الناس الأول هو الحصول على ما يسد الرمق ويحفظ النفس، وقد صور الكاتب ببراعة كبيرة أوجها عديدة من تلك الأوضاع المتردية، مما يجعل من قرية"تازغا" التي تجري فيها الأحداث نموذجا مصغَّرا يمثل معظم القرى والأرياف الجزائرية في تلك الحقبة، بل ويمثل المدن أيضا في تلك الظروف الصعبة، إذ أننا عندما نقارن الأوضاع البائسة لسكان قرية"تازغا" بتلك التي وصفها محمد ديب في"الدار الكبيرة" بمدينة تلمسان، وكانت أحداثها تدور هناك في الفترة نفسها،فترة الحرب العالمية الثانية، نجد أنها تتشابه كثيرا، ولا فرق بين هذه وتلك من حيث معاناة الشعب، وقسوة الحصول على رغيف العيش، وكل ما يمكن أن نجده من اختلاف إنما يرجع أساسا إلى طبيعة النشاط الحياتي الذي يمارسه الناس في القرية وفي المدينة.

لقد ضيَّقت الحرب على أهل القرية معيشتهم، وجعلتها أصعب بكثير مما كانت عليه، وحرمتهم من القوة العضلية لشبابهم الذين جنِّدوا قسرا في صفوف الجيش الفرنسي، وهو ما أثر سلبا على

خدمة الأرض التي هي مصدر رزقهم الرئيسي[23]، كما حرمتهم أيضا من تلك المساعدات المالية التي كان يبعث بها مهاجرو القرية لأهاليهم[24]، الشيء الذي جعل همهم الأول هو العمل على تأمين القوت اليومي للأفواه الجائعة، وهذا ما يقربهم كثيرا من سكان"دارسبيطار" في"الدار الكبيرة"*.

ومع هذا كله، فإن الكاتب في نهاية الأمر لم يقصد إلا كتابة قصة حب مأساوية، مستوحاة من البيئة المحلية القبائلية، وملتصقة بها أشد الالتصاق، نشأت بين شابين، هما"مقران" و"عزي"، في تلك الظروف الصعبة من فترة الحرب العالمية الثانية، وفي ذلك الإطار الاجتماعي المتزمّت لقرية"تازغا"، حيث ركز المؤلف على إبراز صراع الرجال والنساء في علاقاتهم العاطفية، بشكليها المشروع والمحرَّم على السواء، مع التقاليد المتشددة، التي لم تكن لتسمح بقيام تلك العلاقات إلا في حدود ضيقة، وضمن الشرعية الزوجية لا غير. وحتى في هذه الحالة الأخيرة، لم يكن للعواطف مكان إلا بما يحققه الزواج من الغرض النفعي المباشر منه، أي إنجاب الأطفال للحفاظ على النسب العائلي، وللمساعدة في الوقت نفسه في توفير رغيف العيش للأسرة، فإذا لم يحقق هذا الغرض فإن التقاليد، ممثلة

23 Mouloud Mammeri «La colline oubliée» , Ed. Plon , Paris 1952, reéd. Bouchène, Alger, (s.d.e)., p32.
24 Ibid, p56.

* يجسد مشكلة الجوع في رواية"الربوة المنسية" إبراهيم وزوجته سكورة وأطفالهما الخمسة، وإلى حد ما الراعي"موح" وأمه"تاسعديت"، وتذكرنا سكورة وأطفالها بشخصية لالا عيني وأولادها عمر وعويشة ومريم في"الدار الكبيرة "، حيث تكون سكورة مضطرة إلى القيام بالخدمة في بيوت الأقارب مقابل لقمة العيش التي يقدمونها لها ولأطفالها، وقليلا ما يقدمون لها نقودا مقابل ذلك.

هنا في الأهل والأقارب، تتدخل لإنهاء هذه العلاقة، وهذه هي الإشكالية التي يطرحها المؤلف في روايته، ويجعل منها الأساس الذي تقوم عليه. ومن هنا انتقده منتقدوه، وعدُّوا روايته غير مناسبة للمرحلة التي ظهرت فيها.

والحقيقة أنه يمكن لنا أن نتفهم مثل هذا النقد الذي وُجه للرواية حين نضعه في سياقه التاريخي الذي قيل فيه، ولكننا إذا صرفنا النظر عن تلك الظروف، فإننا نعُدُّه نقدا قاسيا لأن هذه الرواية، حتى وإن تشابهت مع الروايات الإثنوغرافية في بعض السمات العامة — وخاصة مع روايات مولود فرعون، التي تدور في البيئة القبائلية نفسها[25] — فإنها تختلف عنها اختلافا كليا من حيث المنطلق الفكري، ومن حيث الأهداف التي قصد إليها صاحبها.

إن تركيز الروايات الإثنوغرافية على وصف العادات والتقاليد، وهي أبرز السمات المشتركة فيها، يعد لدى كتابها هدفا في حد ذاته، انطلاقا من الغرض المحدد لها سلفا، ألا وهو جعل مختلف الإثنيات السكانية في البلد تتعرف على بعضها بعضا، وتتحاور، وتتفاهم، وتتعايش، ومن ثمة فقد كان كتَّابها يحرصون، حين

---

25 تعد روايات مولود فرعون بدورها روايات إثنوغرافية، حتى وإن جاءت متأخرة زمنيا عن موجة هذا النوع من الروايات، حيث يحتفي فيها الكتاب كثيرا بوصف العادات والتقاليد من منظور اندماجي بحت، يهدف إلى تعريف المجموعات السكانية المختلفة بعضها ببعض، بغرض التقارب والتفاهم، لتحقيق التعايش بينها في ظل النظام الاستعماري. وقد عبر مولود فرعون نفسه عن معنى قريب من هذا التوجه الفكري، حين بعث برسالة إلى صديقه الكاتب المستوطن "إيمانويل روبلس" بقوله: ((لقد كنتم أول من بادر بالقول: هانحن من نكون، ومن جهتنا ها نحن نرد عليكم قائلين: ها نحن من نكون، وهكذا بدأ الحوار بينكم وبيننا)) راجع:
Mouloud Feraoun « Lettres à ses amis », Editions du Seuil, Paris 1969, p154.

يصورون الحياة الاجتماعية لمجموعة إثنية معينة ـــ ولاسيما الكتّاب"الأهلانيين"، حين يتعلق الأمر بالمجموعة السكانية المسلمة ـــ أن يعرضوا أفكارها ومعتقداها بقدر كبير من الموضوعية والحياد، وبكثير من الدقة والأمانة، وكثير من الاحترام، تحاشيا منهم لإثارة أي نوع من الحساسية لدى المجموعة المتحدث عنها، وتحقيقا للغرض الذي كتبوا من أجله[26]، في حين أن عناية كاتب"الربوة المنسية"بوصف العادات والتقاليد كان بغرض معاكس تماما لهذا الاتجاه، أي أنه كان يكتب عنها بغرض نقدها، وإظهار ما فيها من تزمت، وما تنطوي عليه من أفكار ومعتقدات خرافية خاطئة ومتخلفة، تؤثر بشكل مباشر على الأفراد في المجتمع، وتقضي على سعادهم ومستقبلهم. إن ذلك هو ما نستخلصه من"مأساة" مقران وعزّي بطلي"الرواية، اللذين كانا يعيشان حياة زوجية سعيدة، ثم تتدخل التقاليد ممثلة في الأهل والأقارب، لتدوس بقسوة على عواطفهما، وتفرق بينهما.

لقد بدأت مشكلة الزوجين الشابين، بعد أن مر على زواجهما مدة زمنية كافية عادة لأن تحبل فيها المرأة، فأصبح وضعهما محرجا مع الأهل والأقارب، الذين راحوا يمارسون ضغوطا قوية عليهما، لأن هؤلاء الأهل والأقارب ـــ بحكم العرف والتقاليد الموروثة ـــ لم يكونوا قادرين على أن يتصوروا قيام حياة زوجية واستمرارها بدون أطفال، فكان على الزوجين ـــ من وجهة النظر هذه ـــ أن يجدا حلا لمشكلتهما، إما بالسعي لإنجاب الأطفال، وهذا هو

---

26 وقد سموا لأجل ذلك بـــ"محبي الأهالي" (Les indigénophiles) كما أوضحنا من قبل.

المطلوب والمرغوب، أو بالانفصال عن بعضهما إذا فشلا في ذلك، ولم يكن أمامهما أي خيار آخر*.

وحفاظا منهما على حبهما، نزل مقران وعزّي عند رغبة الأهل والأقارب، وأخضعا نفسيهما لعمليات علاجية تقليدية غريبة ومرهقة، وغير مجدية في نهاية الأمر، ولاسيما بالنسبة للمرأة، فهي التي تتحمل العبء الأكبر من هذه العمليات، سواء من حيث الجهد الجسماني، أومن حيث الضغوط النفسية، إذ يعتقد في هذه الأوساط القروية، عادة، أن عدم الإنجاب سببه المرأة، وبسبب هذا الاعتقاد قد يتزوج الرجل بامرأة ثانية، وثالثة، وربما بأكثر من هذا العدد، قبل أن يكتشف في الأخير أنه هو العقيم وليس الزوجة. كما يعتقد في هذه الأوساط أيضا، أن المرأة التي لا تنجب إنما ذلك عقاب لها من الله على ما يمكن أن تكون قد اقترفته من ذنوب عظيمة، وهذا ما كانت أم مقران تردده صباحا ومساء على مسمع كنّتها، فتزيد بذلك من آلامها النفسية ومن مشاعر الإحساس بالدونية لديها.

لهذا راحت "عزّي" تتشبث بأي بصيص أمل في سبيل إنقاذ حياتها الزوجية مع مقران، وتجرّب كل الوسائل التقليدية المعروفة ضد العقم، كما راحت تمارس طقوسا غريبة، عملا بـ "وصفات" من عجائز القرية، ولعل أغربها أنه كان يُحمل إليها كل مولود جديد في "تازغا"، وفي الأطراف المحيطة بها، تيمُّنا به، ونوعا من الفأل

* هذا بالنسبة لحالة هذين الزوجين، لأن والد مقران أصر على ضرورة طلاق ابنه من زوجته، لكن هناك حل ثالث معمول به أيضا في مثل هذا الوسط الريفي، وهو أن يقدم الرجل على الزواج من امرأة أخرى مع الإبقاء على الأولى.

الحسن. وفي هذا المنحى دائما، تحتَّمَ عليها ذات مرة — وعملا بنصائح العجائز — أن تحمل على ظهرها سلة كبيرة، وتطوف بها على الأبواب ((لتطلب صدقة من كل الأمهات، لامرأة لم يشأ الله أن يمنحها فضله، عسى أن تنقل لـ"عزي" واحدة من تلك الصدقات الرمزية خصوبة من تصدَّقت بها عليها)) [27].

وضمن هذا المسعى نفسه، يشد الزوجان الرحال إلى ضريح أحد الأولياء، ليتقربا إلى ساكن الضريح بالدعاء وتوزيع الهبات على خدم الضريح، والصدقات على الفقراء والمساكين، فتقف"عـزِّي" مرة أخرى موقفا ذليلا أمام ضريح الولي لـ"تعترف" له بـ"ذنوبها" — على طريقة الاعتراف الكاثوليكي تقريبا — وتتوجه إليه في تضرع ويأس، قائلة: ((يا سيدي يا عبد الرحمن، إنك تخليت عني، عارية أمام إرادة الله. أغثني. امنحني ولدا وسأعطيه اسمك: عبد الرحمان)) [28].

وانتظرت عزي"آثار بركة سيدي عبد الرحمان" ((ولكن مرت الأيام، ثم الأسابيع، ثم شهور الشتاء كلها، وعندما حل الربيع لم يكن هناك أي شيء قد تغير بالنسبة إليها)) [29].

وأمام سلسلة المحاولات المتعددة والفشل الذريع في كل مرة، لم يبق في جعبة العجوز"ناغني" قابلة القرية إلا"حضرة سيدي عمار" الصوفية، التي أشارت بها على الزوجين كآخر محاولة، ولم يكن أمامهما من خيار إلا العمل بمشورة العجوز، حتى وإن كانا، بسبب

.

27 «La colline oubliée »,, p69.
28 Ibid p70.
29 «La colline oubliée »,, p80.

ما لقيا من الفشل في المرات السابقة، غير مقتنعين بجدوى المحاولة، وتنقلا إلى مكان الحضرة، وتعرضت عزي مرة أخرى لامتحان عسير من الناحية النفسية، وسط"ممارسات همجية" كما يصفها الراوي[30]، لكن النتيجة كانت سلبية كسابقاتها.

ومن الواضح أن المحاولات التي قام بها الزوجان كانت فاشلة، لأنها لم تكن في الواقع علاجا للعقم، وإنما كانت مجرد معتقدات خرافية، وشعوذة، و"ممارسات همجية "، وكان لابد للزوجين، بعد كل ذلك العناء، أن يدفعا ثمن ذلك الجهل والتخلف، وأن يقبلا بمصيرهما المحتوم والمحدد سلفا من قِبل العرف والتقاليد، مثل ما يحدث في التراجيديا اليونانية تماما، حيث يتم الفصل بينهما في الأخير بالطلاق.

ولم تتم إجراءات الطلاق على يد الزوج، كما يقتضي الشرع، ولا حتى بحضوره، حيث ناب عنه والده فيها، وقام إمام المسجد ببقية الإجراءات، ولم يكن في استطاعة الابن أن يثور، أو يتمرد على إرادة الأب، الذي يستمد سيطرته على الأبناء من سطوة التقاليد والأعراف، وهي سيطرة مباشرة وكاملة في هذا المجتمع الأبوي. وهذا في نظرنا هو ما أراد المؤلف أن يبرزه ويندد به.

والحقيقة أن البطل"مقران" كان رافضا للطلاق، ولكن رفضه لم يتجاوز حدود التعبير عن ذلك في دفتر مذكراته الشخصية[31]، حيث يظل الرفض مجرد"حبر على ورق" وتنفيسا عن النفس، لا يتعدى

30 Ibid, p83.
31 « La colline oubliée »,, p92 .

إلى الرفض الفعلي. وقد وجد مقران في استدعائه مرة ثانية للخدمة العسكرية مهربا من المشكلة يعفيه من المواجهة، ويريحه إلى حد ما من تأنيب الضمير نحو زوجته التي عجز عن فعل أي شـــيء مـــن أجلها[32] *.

وعلى أية حال، فلئن لم تعبر هذه الرواية عن انـــشغالات آنيـــة مباشرة بالنسبة لمرحلة ما بعد الحرب، فإنها عبرت بالتأكيد عن حالة العزلة التي كانت تعيشها القرى والأرياف الجزائرية وعن تفـــشي الجهل، والتخلف، وعن انعدام الرعاية الصحية، وحملت في داخلها بذرة التمرد والثورة على ذلك الوضع الذي هو في النهاية من صنع السياسة الاستعمارية. فالاستعمار هو الذي فرض العزلة على تلك القرى والأرياف، وشجع على انتشار الجهل والأمية، بإبقائها على حالها كما كانت في القرن التاسع عشر، بلا طرق معبدة تربطهـــا بالحضارة والمدنية، وبلا مدارس تنير للناس عقولهم، وبـــلا مراكـــز طبية تغنيهم عن اللجوء إلى الشعوذة والخرافة. غير أن تقصير المؤلف في هذا الصدد ، جاء ـــ حسب رأينا ـــ من كونـــه لم يكـــشف بشكل واضح وصريح عن المتسبب الحقيقي في تلك الحالة المزريـــة التي كان عليها سكان القرى والأرياف ، ألا وهو الاستعمار ، كما أشرنا ، وهو الأمر الذي سوف يتداركه في روايته الثانيـــة "نـــوم العادل " ، كما سنحاول أن نوضح ذلك بعد قليل .

---

32 Ibid,p 113

* ونلاحظ هنا أن المؤلف يكرر الموقف نفسه في رواية "نوم العادل" حين يجعل بطله الرزقي يجد في استدعاء التجنيد مهربا له من "واجب" الزواج بزوجة أخيه المريض"محند" بعد وفاته، كما تقتضي التقاليد .

نوم العادل: الوجه الآخر للاستعمار.

وبالفعل، فإن النقد الذي وجه إلى المؤلف عن روايته الأولى، واتهامه بالانغلاق على نفسه في حدود مجتمع القرية القبائلية، وعدم تعرضه لنقد النظام الاستعماري بشكل مباشر، قد كان له أثره الملموس في عمله على تجاوز كل ذلك في رواية"نوم العادل" وذلك بتوسيع مجال رؤيته لكي تتجاوز حدود القرية الضيقة إلى البعد الوطني، وكذلك بتنديده بالنظام الاستعماري وسياسته الجائرة إزاء"الأهالي"، من خلال مواقف وأحداث في غاية البراعة من حيث دقة التصوير وقوة الإبلاغ.

ومع ذلك كله فقد ظل الحيز المكاني الرئيسي في هذه الرواية الجديدة هو القرية القبائلية، حتى وإن تغيرت أسماء الأماكن والشخصيات، كما ظل وصف العادات والتقاليد ونقدها هو ميدان الكاتب المفضل، وإن لم يعد ميدانه الوحيد، وظل الحيز الزماني الأكثر حضورا فيها أيضا هو سنوات الحرب العالمية الثانية، بما أتت به من تأثيرات شديدة القسوة على الحياة الاجتماعية في الجزائر، مع العلم أن تصوير تلك المرحلة من تاريخ الجزائر في تلك الفترة، وفي السنوات التي تلتها، بكل ما تمخضت عنه من أحداث مأساوية، قد شكلت القاسم المشترك بين معظم الروائيين الجزائريين الذين ظهروا بعد الحرب، وهي الظروف التي أدت بتفاعلاتها مع الواقع السياسي والاجتماعي إلى انفجار حرب التحرير الكبرى . والملاحظة هنا أن

رواية"نوم العدل" قد كتبت قبل اندلاع الثورة، ولو أن صدورها قد جاء بعد اندلاعها بحوالي سنة كاملة* .

ويلاحظ الدارس لهذه الرواية أن التطور الذي حدث لدى الكاتب على مستوى الرؤية الفكرية قد انعكس أيضا على مستوى البنـــاء الروائي، بحيث قسم الرواية إلى ثلاثة أقسام أعطاها العناوين التالية: "الأب" و"الإبن" و"الملاك" ** ، ومن ثمة وزع البطولة على ثـــلاث شخصيات تتفق مع الترتيب المذكور ، خلافا للقاعـــدة المتبعـــة في الرواية الكلاسيكية، التي تركز البطولة في شخصية محورية واحـــدة (كما فعل المؤلف نفسه في روايته الأولى) ، وبهذه الطريقة أتاح لنا فرصة متابعة ثلاثة أنواع من البطولة ، وثلاثة أنواع من الوعي لدى الأبطال تتجلى لنا كما يلي:

الأول: **الأب**، الذي يمثل الجيل القديم ، وهو الرجـــل القـــروي البسيط، الفقير، الأمي، المحدود الأفق، الذي عاش ســـتين عامـــا، ومازال يعيش، وفقا لعادات القرية وتقاليدها، مثل ما عاش أبـــوه وأجداده من قبل، الذين ورث عنهم كل شـــيء ، حـــتى تلـــك العداوات القديمة التي ظلت حزازاتها تحرك سلوك الأجيال المتـــأخرة

* لا ندري بالتحديد متى شرع الكاتب في تسويد روايته هذه ولا متى انتهى منها، ولكن أغلب الظن أنه شرع في كتابتها بعد صدور روايته الأولى"الربوة المنسية"، بتأثير من الصدى الذي لقيته لدى القراء والنقاد، سواء من الذين أعجبوا بها أو ممن هاجموها، وحين صدرت سنة 1955، كان عمر الثورة لا يتجاوز أشهرا معدودة، وهي فترة يحتمل أن تكون الرواية قد قضتها لدى الناشر تنتظر دورها في النشر.

** رغم أن هذه العناوين تلفت النظر باتفاقها من حيث الأسماء وعددها وترتيبها مع الثالوث المسيحي فإنه لا شيء في مضمون الرواية يعطي لها أية دلالة خاصة بهذا المعنى.

وتؤثر على علاقتها ببعضها البعض*، وليس له أي تصور آخر للحياة بشكل مغاير عن تلك التي عرفها وعاشها ، ولذلك فهو وإن لم يكن راضيا عنها، بسبب الفقر الشديد الذي آل إليه ، وشعوره بخيبة الأمل في أبنائه الذين كان يعوّل عليهم كثيرا في تخفيف العبء عليه، إلا أنه يتقبلها في قدرية واستسلام، فهو من هذه الناحية راسخ الإيمان، لا يزعزع معتقداته أي شيء، ولا يؤثر عليه أي مؤثر.

الثاني : **الابن سليمان**، وهو الابن الأصغر الذي يمثل الجيل الجديد، ويتمتع بحيوية كبيرة، وبميل طبيعي إلى الجد والعمل، وبحس وطني مبكر يدفعه إلى الانخراط في النشاط الحزبي. يحس سليمان بوطأة التقاليد وقسوتها، لاسيما إذا تعلق الأمر بالعلاقات العاطفية التي لا تعترف بالقيود والحدود، ولا بالعداوات القديمة و"الصفوف"، ولكنه لا يمتلك الجرأة على تجاوز ذلك الموروث، ولا على الثورة على التقاليد، بسبب نقص التجربة، وانعدام الخبرة بالحياة، وقلة الزاد العلمي والثقافي الذي يمتلكه، فيكبت مشاعره الشخصية، ويذعن لقوانين العرف التي تجسدها إرادة الأب، وبهذا تظل شخصيته متماسكة ومنسجمة مع محيطه الذي يعيش فيه،

---

* هناك عداوة وثارات نشأت بين أسرة آيت وندلوس وأسرة حاند أوقاسي، وهما أخوان، تعود إلى ثلاثة قرون خلت ، لكنها ظلت حية في ذاكرة الأجيال اللاحقة، تتوارثها جيلا عن جيل إلى أن وصلت إلى الأب الذي ينحدر من الأسرة الأولى، وتودارت الذي ينحدر من الأسرة الثانية ، وقد انتقلت إلى الجيل الجديد مع أولادهما، وستكون فيما بعد سببا في مقتل"تودارت"، وهناك أيضا العداوة بين الصفوف (والصف هو بطن من بطون القبيلة يكون في حالة ع داء مع صف آخر) التي تجعل الأب لا يكلم"رابح أوحملات" أمين القرية مدة خمس وثلاثين سنة.

ويظل النشاط الحزبي الذي يقوم به ملاذا له وخلاصا يستعيد به توازنه مع ذلك المحيط.

الثالث: "**الملاك**"، أو الابن الأوسط: الرزقي، وهو الابن الوحيد الذي كان له الحظ، من دون إخوته الآخرين، ومن دون الكثير من أطفال القرية وشبابها، في أن يتعلم ويتثقف في المدرسة الفرنسية، بل، وأن يتخرج من معهد المعلمين بغرض أن يسهم بدوره في تعليم الأجيال الصاعدة. وتتميز هذه الشخصية بوعي كبير، وحس نقدي عال، وقدرة على الملاحظة والتمييز، بدأ برفض عادات وتقاليد القرية، وسخر من طريقة تفكير الناس فيها، ومن معيشتهم البائسة، واستسلامهم للقدرية والتواكل، بتأثير مما كان قد تعلمه في المدرسة الفرنسية من أفكار وقيم ومبادئ، وانتهى بالتمرد على هذه الأفكار والقيم نفسها، ورفضها هي أيضا بعد أن خبر الحياة العملية وتبين له مدى الفارق الكبير بين ما يقال نظريا وما هو موجود في الواقع.

وتعد شخصية الرزقي هذه أكثر الشخصيات حيوية وتطورا في الرواية، ولأجل ذلك أيضا، فهي أكثرها حيرة وتمزقا على مستوى الفكر، بسبب ثقافته أولا، التي كانت تمده بأدوات معرفية تساعده على التفكير والتحليل، ثم بسبب ثراء تجربته الحياتية التي اكتسبها كمجند في صفوف الجيش الفرنسي، حيث شارك في حملة الحلفاء على إيطاليا وألمانيا، وأقام بعض الوقت في فرنسا بعد انتهاء الحرب، فمكنته تلك التجربة من التعرف على أمم وشعوب أخرى، وأكسبته خبرة ومعرفة بالحياة والناس، وهو بهذا يعكس ، إلى حد

ما، ملامح من حياة المؤلف نفسه، ويعبر عن أفكاره ومواقفه في فترة معينة من شبابه *.

لقد أتاح لنا المؤلف من خلال تقديمه لثلاثة من الأبطال المختلفين تجربة وسنا وثقافة أن نتبيَّن ثلاثة أشكال من الوعي — كما سبقت الإشارة — هي الأشكال الأكثر شيوعا في الفترة التي تجري فيها أحداث الرواية، وتتجلى في ثلاثة أنواع من المواقف وردود الفعل، وهي أقوى وأظهر ما تكون إزاء ما يحدث لهؤلاء الأبطال مع السلطات الاستعمارية، بحيث يظهر الاحتكاك بالمستعمر مدى نضج ذلك الوعي أو فجاجته أو ضعفه، كما يظهر مدى تماسك الشخصية أو اهتزازها، ومدى قوة رسوخها في هويتها، أو تزعزع إيمانها بها. وسنقتصر فيما يلي على إظهار هذا الجانب، لتفادي الإطناب والإطالة من جهة، ولأننا نعتقد أن الاقتصار على هذا الجانب يفي بالغرض المطلوب في البحث من جهة أخرى.

إن تلك السذاجة التي كان يفكر بها الأب، وهو في طريقه لمقابلة الحاكم (المتصرف الإداري للمنطقة)، لا يماثلها إلا تلك الدهشة التي استولت عليه حينما فهم السبب الحقيقي الذي استدعاه الحاكم من أجله. جاء وهو يعتقد أنه استدعي بسبب العيار الناري الذي أطلقه على ابنه الرزقي، بعد أن خاض في كلام يمس الذات الإلهية على مسمع من شيوخ القرية، وقال في نفسه: إن الحاكم، سيتفهم

* تنطبق حياة هذا البطل على الحياة الشخصية للمؤلف في العديد من الأوجه، ولاسيما في ثقافته، ثم في تجنيده في الحرب برتبة مرشح، ومشاركته في حملة الحلفاء على إيطاليا، ففرنسا، ثم ألمانيا، وقد بقي مثله في الأراضي الفرنسية بعد انتهاء الحرب بغرض العمل وإتمام الدراسة.

المسألة بمجرد أن يشرح له بأن ذلك كان مجرد تخويف لابنه حتى لا يعود إلى مثل ذلك الكلام مرة أخرى، وسيغتنم الفرصة ليشرح للحاكم وضعية ابنه الأكبر"محند"، الذي كان في السابق عاملا في مصانع"رونو" بفرنسا، وهو يقبع الآن في البيت طريح الفراش، بعد أن أكل مرض السل رئتيه، لعله يساعده بمنحة شهرية تخفف عليه مصابه، كما كان ينوي أن يطلب منه مساعدته في إدخال ابنه الأصغر سليمان إلى مدرسة مهنية لتخريج البنّائين[33]، لكن سرعان ما تبدد كل شيء بمجرد أن دخل مكتب الحاكم، فقد اصطدم أولا بجدار اللغة، إذ كان مضطرا في كل مرة إلى المرور عن طريق المترجم، ثم إن كلام الحاكم لم يكن يسير في الاتجاه الذي كان يتوقعه، ولا كان يحمل أي ود يشجعه على أن يشكو له حاله، أو يفاتحه فيما كان قد فكر فيه. لقد وجد نفسه محل مساءلة واتهام، ثم محل تهديد ووعيد، بحيث أبلغه الحاكم ما خلاصته: ((أن أسرته كلها تحمل أفكارا سوداء ضد الإدارة، وخاصة ابنه سليمان، الذي انضم إلى حزب يقال له"حزب الشعب" يتكون من مجموعة من الجائعين، يساعدون ثوارا يطلق عليهم صفة"وطنيين"، هم في الحقيقة ليسوا إلا قطاع طرق)). وأفهمه: ((أنه كان في استطاعته أن يقبض عليه (أي على ابنه سليمان) ويزج به في السجن ليقضي بقية عمره فيه، ولكنه أشفق على شبابه الغض، وآثر، قبل أن يفعل ذلك، أن يلجأ إلى الأب. أليس الأب هو المسؤول الأول على العائلة؟))[34].

33 «Le Sommeil du juste »Ed. Plon , Paris 1955. S.N.E.D, in Col. 10-18, Paris-Alger 1978. pp 19,20.

34 Ibid, p23.

ولم تتوقف تهديدات الحاكم ووعيده عند هذا الحد، ولكنه أبى إلا أن يذله، ويذيقه بعض ما يمتلك من وسائل القهر، فانتزع منه بطاقات تموين الأسرة، وحرم كل أفرادها من الحصول على ما يسد رمقهم من الحاجات الضرورية*، وحينما سأله الأب عن الكيفية التي سيحصل بها في هذه الحال على الأكل، أجابه عن طريق المترجم: ((يقول لك: اذهب إلى رئيس الحزب الوطني واطلب منه الخبز))[35].

ولم يتركه ينصرف قبل أن يبعث في طلب سجلات الضرائب، ويطالبه بدفع دينه. فاعتذر الأب بعدم قدرته على الدفع ، وواعد بأنه سيرهن أو يبيع قطعة أرض تمتلكها زوجته ليسدد بثمنها ما عليه لمصلحة الضرائب، وسأله الحاكم عن اسم قطعة الأرض؟ فأجابه بأنها أرض "تيمزريت"، وحينها رد عليه الحاكم بأنه"يكذب عليه". ولم يكن أمام الأب إلا أن يتجاوز على الإهانة التي مسته في الصميم ، لكن شعوره بالمهانة تضاعف، وعقدت لسانه الدهشة وهو يسمع سؤال الحاكم المحرج: ((كيف ترهن "تيمزيرت" وقد رهنتها لابن عمك تودارت؟))[36] . وأبى الحاكم إلا أن يكشف له عن مصدر معلوماته، الذي لم يكن إلا ابن عمه تودارت نفسه، وأضاف سائلا:

ــ لِمَ لا ترهن بيتك؟

ــ إنها بيت قديم متداع، لا أحد يريده.

---

* لا يفوتنا أن نلاحظ أن هذا الجزء من الرواية كان يجري إبان الحرب العظمى الثانية، وكان التموين يوزع بالبطاقات.

35 « Le Sommeil du juste », p24.

36 Ibid, p28.

ـــ بلى، هناك من يريده، ابن عمك تودارت[37].

وكان الأب طوال المقابلة واقفا، وحين أحس بأن رجليه تؤلمانه من الوقوف طلب من الحاكم أن يسمح له بالجلوس فرفض طلبه. وختم المقابلة معه بهذه العبارات: ((إنك بالنسبة للإدارة لست إلا دودة يمكنني أن أسحقها لولا خشية الرب، أما أبناؤك، أبناء صلبك الذين نشّأتهم على عداء فرنسا فإنني أقول لك حذار))[38].

وخرج الأب من مكتب الحاكم مهموما، مكسور النفس، منشغل البال، يكاد صدره ينفجر من الغيظ، لكن ليس من الحاكم الذي أمعن في إهانته وإذلاله، ولكن من أبنائه الذين تسببوا له في تلك الإهانة وذلك الإذلال، ومن ابن عمه تودارت الذي يأبى، كلما سنحت له الفرصة، وبدافع من العداء القديم، إلا أن يسيء إليه ويلحق به الأذى وبأولاده. ولم يخطر ببال الأب أن يتساءل مثلا لماذا يحمّله الحاكم مسؤولية ابنه وقد أصبح رجلا، ولماذا يهينه ويذله، ويعاقب إخوته الآخرين وباقي أفراد الأسرة بجريرته؟ ولماذا يعطي الحاكم كل تلك الأهمية لأولئك"الوطنيين" إذا كانوا كما يصفهم"قطاع طرق" ؟ بل لم يسأل نفسه لماذا أخبره الحاكم أن ابن عمه تودارت هو الذي وشى به إليه؟ إن ثقافته المحدودة تمنعه من طرح تلك الأسئلة، وتكوينه العقلي والنفسي، المطبوع بطابع الأعراف والتقاليد، يجعل ذهنه ينصرف إلى النظر إلى الأمور وفق المنطق القبلي الذي نشأ عليه، ولذلك فهو لا يرفض أن يتحمل مسؤولية تصرفات ابنه مهما كان سنه، ومن المنطلق نفسه يحمّل ابن

37 Ibid, p28.

38 «Le Sommeil du juste», p29.

عمه تودارت كامل المسؤولية في إدخال الغريب الأجنبي في الخلافات بين أبناء العمومة، ومن ثمة تصبح المشكلة بالنسبة إليه أسرية من جهة، وقبلية من جهة أخرى، وينصرف ذهنه إلى تأديب ابنه، والانتقام من بن عمه، وهذا بالضبط ما أراده الحاكم، فهو يدرك جيدا آليات هذا المنطق، ويعرف كيف يوجهه لخدمة السلطة الاستعمارية التي يمثلها. إن قاعدة"فرق تسد" التي طبقها الرومان في شمال إفريقيا قديما هي التي أعاد الاستعمار استغلالها في العصر الحديث، وهذا ما يفسر دافع الحاكم في إخبار الأب بمن وشى به عنده.

أما الابن الأصغر سليمان، فإن وعيه القبلي — إن صح التعبير — قد تشكل وفق تقاليد القرية، وتشبع بقيمها وأخلاق أهلها، خاصة أنه لم يغادرها إلا مرة واحدة في حياته ولفترة محدودة، لم تؤثر عليه — رغم الشيء الكثير الذي تعلمه من خروجه ذاك — بالقدر الذي يجعله يتمرد على تقاليد القرية، أو يرفض ما تقرره"الجماعة" فيها، ولذلك كان يمتثل دائما لما تقضي به تلك التقاليد وينزل عند رغبة الوالد بدون نقاش، وهذا ما جعله يتخلى مُكرها عن فكرة الزواج من"الياقوت" ابنة رابح أوحملات، التي كان يحبها، لأن"نظام الصفوف" كان يقف حائلا دون ذلك، ليقبل — تحت ضغوط الأب* — بفكرة الزواج من ابنة تودارت الذي أصبح"الأمين"

*لحاجة في نفسه، كما سيتضح لنا فيما بعد، وهي أن يبعد عنه الشبهة، بعد أن بيّت في نفسه نية اغتيال تودارت، وقد لمّح لابنه بذلك قائلا له: ((إن الزواج بالنسبة للعدالة يعد شهادة براءة، إذ لا أحد يقدم على قتل والد كنّته، وبن عمه الطيب تودارت، أمين القرية وثريّها))راجع : « Le sommeil de juste… », p85.

الجديد للقرية، وهذا أيضا ما جعله يذعن، مرة أخرى — بعد أن فشل مشروع الزواج الأول من ابنة تودارت — لفكرة الزواج بامرأة أخيه محند، الذي اشتد عليه المرض، وباتت وفاته وشيكة، وذلك عملا بما يقتضيه العرف، حتى لا يتعرض، أطفال المتوفى لليتم كما أضحى إمام المسجد.

ومن هنا نرى أن وعي سليمان، من ناحية الخضوع للتقاليد، ينسجم تماما والبيئة التي نشأ فيها، ولا يختلف كثيرا عن وعي والده، في حين نجد أن وعيه السياسي مختلف تماما، وقد تشكل على مرحلتين، الأولى كانت قبل خروجه من قرية إغزر، باحتكاكه بالنشاط السياسي الوطني في القرية، وانخراطه في"حزب الشعب"، وكذلك انضمامه إلى منظمة الكشافة الإسلامية التي أسست فرعا لها في القرية باسم فرع"ابن خلدون"، وعن طريق هذا الفرع تعلم أبناء القرية — ومنهم سليمان — القراءة والكتابة، وتعلموا الأناشيد الوطنية[39]، والمرحلة الثانية كانت بخروجه من القرية إلى نواحي مدينة"البويرة"، وقادته المصادفات حتى نواحي سطيف، ومر في طريقه بعشرات القرى والأرياف، وعشرات الحقول الزراعية الشاسعة، حيث عمل في العديد منها كأجير زراعي، ومن ذلك استنتج كم هي الجزائر واسعة، وكان يظن من قبل أن قرية "إغزر" هي مركز العالم. وأثناء هذه الرحلة اكتشف أيضا حقيقة أخرى

---

39 وقد حل هذا الفرع الكشفي من قبل السلطات بعد أن قدم تودارت وشاية بشأنه للحاكم تقول ((إن كل أفراده من المضادين للفرنسيين، وأنهم ينشدون أناشيد يقولون فيها : من جبالنا سيطلع النور)) راجع : « Le Sommeil du juste », p214.

كان لها طعم العلقم في نفسه، وهي أن معظم الأراضي الزراعية الواسعة التي مر بها أو عمل فيها كانت ملكا للمستوطنين الأوروبيين، يستغلونها ويستمتعون بخيراتها على حساب أهلها الحقيقيين، الذين كانوا يملؤون تلك القرى والأرياف، ويعملون أجراء في حقول المستوطنين، ويعانون من كل ألوان الفقر والحرمان والاستغلال. ومن هنا توصل بطريقة عملية — وإن كان ذلك على نحو مبهم — إلى مفهوم الوطن الجزائري الواسع، بقراه وأريافه، بخيراته الكثيرة، وبأهله المحرومين من تلك الخيرات، إلى حقيقة السيطرة الأجنبية التي يشكلها أولئك المستوطنون الغرباء عن البلد.

لقد عاش بنفسه أوضاع الفلاحين المزرية، وجرب العمل المرهق في حقول المستوطنين، الذي يمتد من الفجر إلى غياب الشمس، من أجل أجر زهيد لا يسمن ولا يغني من جوع، كما شاهد بعينه كيف يعامل الفلاحون من قبل المستوطنين، وكيف يتلقون الإهانات من كل نوع، وكيف يصل الأمر بهم أحيانا إلى الضرب المبرح، أو السجن، أو النفي، أو ما إلى ذلك من أنواع الظلم، إذ تكفي مكالمة هاتفية من المستوطن ليحضر رجال الدرك في الحال، وينكّلوا بأي فلاح ارتكب خطأ أو تفوه بكلام لم يعجب المستوطن أو بدر منه ما ينمّ عن تبرم، أو تمرد، أو عصيان.

وقد حضر ذات مرة مشهدا من تلك الممارسات القمعية التي كان المستوطنون يعاملون بها الفلاحين الجزائريين وأبناءهم، فصدمه المشهد وأثار غضبه، ودفعه إلى التدخل، غير عابئ بنتائج تدخله. شاهد صاحب الأرض، السيد"إيستروفي" يضرب صبيا من أبناء

الفلاحين بلا رحمة، عرف فيما بعد أنه ترك خروفه يرعى في حقله، وكان الطفل يتلقى الضربات من المستوطن، ويرتجف كالفرّوج بين يدي رئيس العمال الذي أمسك به بقوة، ويستغيث بمن حوله ولا من مغيث. ولم يتحمل سليمان المشهد، فاندفع نحو الطفل ليخلصه من بين يدي جلاده، فانهالت عليه اللكمات بدوره من المستوطن، ومن رئيس العمال، وهو ما اضطره إلى الدفاع عن نفسه، بتوجيه لكمات قوية لخصميه جعلتهما يتراجعان، ثم فر هاربا بصحبة صديقه الوناس الذي دخل المعركة إلى جانبه، واستعجله في الفرار قبل أن يلحق بهما رجال الدرك[40]، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يصطدم فيها سليمان بشكل مباشر بمستوطن، ويدخل معه في مواجهة.

وكان سليمان قد استفاد كثيرا في تعميق تجربته الحياتية، من صديقه الوناس هذا، في الفترة التي قضياها معا، وكان الوناس يكبره سنا وتجربة، وكان مناضلا في الحركة الوطنية، يعيش معظم الوقت متنقلا من مكان إلى آخر، متخذا من عمله كمزارعٍ أجير غطاءً لنشاطه السياسي، وكانا قد التقيا بمحض المصادفة، وعملا معا في مزارع المستوطنين، فتوطدت بينهما الصداقة، وأصبح الوناس بالنسبة لسليمان بمثابة الأستاذ الذي يجيبه على أسئلته الكثيرة الحائرة، والساذجة أحيانا، وقد جعله الوناس يغيِّر الكثير من أفكاره التي يحملها في ذهنه عن العداوات القبلية، وعن الصفوف، وأفهمه ما معناه أن الصفوف موجودة حقا، ولكن بشكل مخالف لتصوره،

---

40 «Le Sommeil du juste», p67,68.

فهناك صف المستوطنين الأوروبيين من جهة، وصف الجزائريين، كل الجزائريين، من الجهة الأخرى، بمن فيهم رابح أوحملات نفسه، الذي يصنفه عادة في الصف المنافس، وابن عمه تودارت رغم ما بينهما من عداوة، ومنهم أخوه الرزقي، رغم ما تفوّه به من كلام عن الذات الإلهية جعلت ناس القرية يعدُّونه "روميا" كافرا[41].

وكانت للوناس طريقة فريدة في الإقناع، تتلخص في البساطة واستعمال السخرية، وهي طريقة لم تكن تتطلب منه أي جهد في الشرح والتحليل، وبها علّم سليمان عدة أمور في غاية الأهمية، منها مثلا ـــ بالإضافة إلى ما ذكرناه آنفا ـــ فكرة الانتماء إلى الجزائر بدل الانتماء إلى العائلة أو القبيلة، فقد سأله سليمان ذات مرة ـــ وقد طالت بهما العشرة ـــ عن أسرته وقبيلته، فأجابه: "أنا جزائري"[42]، ولم يضف شيئا آخر، وظل سليمان يجهل اسم أسرته أو قبيلته إلى أن افترقا. ومنها أنه سأله ذات مرة عن الحرب، بعد أن تلقى رسالة من والده يدعوه فيها للعودة إلى "إغزر"، ويشكو من الظروف الصعبة التي أوجدتها الحرب، والتغير الذي أحدثته في سلوك الناس، وكان في سؤال سليمان ما يوحي بأنه عثر لصديقه الوناس على خطأ فادح، لأنه نسي في كل أحاديثه السابقة أن يدخل في حسبانه عامل الحرب فيما يعانيه الناس من الصعاب قال له:

ـــ أرأيت؟ لقد نسيت الحرب في كل تعليلاتك.

ـــ الحرب؟ أي حرب؟

41 Ibid, p74.

42 «Le Sommeil du juste», p71.

ـــ بلى، لأنه عليك أن تتصور أن العالم، كل العالم، في حرب منذ أكثر من عامين، ولا أدري إن بلغك ذلك؟

ـــ منذ عامين يا صغيري؟ لقد ولدت منذ ثلاثين عامـــا، ومنـــذ ثلاثين عاما وأنا في حرب، ولا أحد فكر أن يأتي لمساعدتي، فكان علي أن أحارب بمفردي. وعليـــه إذن، فهـــي حـــرب الآخـــرين أتفهم؟[43].

بهذا الأسلوب الساحر، وهذه البساطة، كان الوناس يعـــبر عـــن آرائه، فتصل إلى سليمان بسهولة ووضوح، وقد حفظ منه كل هذه الدروس، فقرر أن يعود إلى القرية، لاسيما أن والده كان قد سهل عليه المهمة حين طلب منه أن يعود، وكان في ذهن سليمان تصور جديد لما ستكون عليه حياته في القرية، ومخطط واضح لما سيفعله: ((سينخرط في خلية الحزب بإغزر، وسيتزوج الياقوت ابنة رابـــح أوحملات، من صف"الإشاين"، وسيعمل في حقول آبائه، وسيسعى لتحقيق الأمل الكبير))[44]. غير أنه يمكن القول أن وعي سليمان ظل من هذه الناحية وعيا نظريا، أو لنقل إنه ظل وعيا بسيطا، بحكـــم ثقافته المحدودة ، فلم يرقَ بصاحبه إلى الدرجة التي تجعل منه رجلا ثوريا، في استطاعته تغيير واقع القرية وذهنية أهلها، ولذلك، فعوض أن يضع أفكاره الجديدة موضع التطبيق، ويترجمها إلى واقع ملموس، وجد نفسه ينساق من جديد، وبكيفية لا إرادية تقريبا، إلى قـــانون العشيرة ومنطق القبيلة، ويتحول إلى مجرد منفذ لمشيئة والده الـــذي

43 Ibid, p77.
44 «Le Sommeil du juste» Ibid , p79.

كان قد أعد مخططا لاغتيال بن عمه"تودارت"، أو حسب تعبير الأب: "لكي يعيد إليه إحسانه"[45].

وكان الأب قد اتخذ قرار الانتقام بعد أن أصبح تودارت الأمين الجديد للقرية، وازداد بذلك نفوذه أكثر فأكثر، وأصبح في إمكانه التحكم في كل شيء، وفي أي شخص في القرية، وفيه هو بالذات، خاصة بعد أن اضطره إلى أن يرهن له بيته، عملا بما"اقترحه" عليه الحاكم، ليدفع ما عليه من الضرائب، وبذلك أصبح في إمكانه، إذا شاء، أن يلقي به وبجميع أفراد أسرته في العراء. ولم يكشف الأب لابنه صراحة عن مخططه، ولكنه اضطر، حين أحس بامتعاض الابن من فكرة الزواج بابنة عدوّه، أن يفهمه أنه إنما يريد التقرب إليه بالمصاهرة لذر الرماد في العيون، وصرف الأنظار عنه((في حالة ما إذا جرى له مكروه)). قال له موضحا:

((إن ابن العم تودارت هو"الأمين"، وأصبح في إمكانه الآن أن يسحقنا ويسحق أبناء أبنائنا، لقد انتهى كل شيء بالنسبة إلينا، إنه لم يعد في استطاعتنا أن نتنفس في المكان الذي يحيا فيه تودارت، لقد اشترى مؤخرا ضيعة في"البويرة"، وأغناما في"سيدي عيسى"، وأسند إليه المتصرف الإداري توزيع التموين في البلدية، وهذا أصبحت مسألة أن نطعم أو نجوع، نُكسى أو نعرى، مرتبطة به. ولكن ابن العم تودارت هو"الأمين"، وسيأتي يوم يعرف فيه، إن لم يكن قد عرف بعد، أنني أفكر في موته، وعليه فلا بد من تنويمه، ولابد من ابني سليمان أن يتزوج من ابنته"الياقوت"، وإنني لأعلم

[45] Ibid, p59.

أنها دميمة، وأن والدها تودارت كلب، ولكن، ومع ذلك ((فــإن اليد التي لا تستطيع أن تعضها عليك أن تقبّلها))[46].

ونسي سليمان في هذه اللحظة كل ما كان قد فكر فيه،، وعــزم على تنفيذه وهو في طريق عودته إلى القرية، كما نسي كل ما تعلمه عن الوناس من دروس في الوطنية، وقبل بكل بساطة أن ينساق إلى صراع هامشي، ويتحول إلى أداة في مخطط الانتقام الذي وضــعه والده، أي أنه بتعبير آخر، تحول عن الطريق الصحيح الــذي هــو النضال ضد المستعمر، إلى الانسياق في طريق الصراعات القبليــة، التي يؤجج نارها المحتل الأجنبي، ولا يستفيد منها إلا هو.

ومع هذا، فإن سليمان، حتى وإن انقاد إلى مخطط والده فإنــه لم يكن متحمسا ولا راغبا ــ مثل أخيه الأكبر محند ــ في السير حتى النهاية في طريق الانتقام، لذلك نراه يلجأ إلى الاســتنجاد بأخيــه الرزقي الذي كان قد سرح من الجيش، وأقام بعد انتهاء الحــرب بباريس، حيث بعث إليه برسالة يشرح له فيها بإســهاب وضــع الأسرة التي تدهورت معيشتها أكثر من أي وقت مضى، ويطلــب منه، بالمناسبة، أن يبحث له عن غرفة وعمل بفرنسا، يمكنــه مــن مساعدة الأسرة، وأن يعجل هو بالعودة إلى القرية لــ"مراقبة" والده وأخيه، ((ومنعهما من ارتكاب حماقات))[47].

ولا يخفى علينا ما في طلب سليمان من محاولة الهرب من المشكلة والتخلص من المسؤولية، بالتخلص من ضغط الأب الذي يدفع بــه

---

46 «Le Sommeil du juste», p84.
47 «Le Sommeil du juste», p189.

إلى السير في طريق لا يرغب فيه من جهة، والأمل من جهة أخرى، في أن يتمكن أخوه الرزقي من منع جريمة قتل يرى نفسه عاجزا عن منعها.

فإذا أتينا إلى "الملاك"، أو الابن الأوسط، الرزقي، فإننا نلاحظ أن أبرز ما يميزه هو ثقافته التي جعلته غريبا في أسرته وبين أهل قريته، لأن تفكيره لم يعد ينسجم مع تفكيرهم، ولا قناعاته مع معتقداتهم، وغريبا أيضا بالنسبة إلى مجتمع المستوطنين الأوروبيين، لأنه وجد أن القيم والمبادئ التي تعلمها على مقاعد الدراسة، وأسهب الأساتذة في الإشادة بها، لا وجود لها في الواقع، وأحس أنه كأنما كان مخدوعا في كل ما تعلّمه، فقاده ذلك إلى نوع من خيبة الأمل، وإلى الشك في كل شيء، والتمرد على كل شيء، وأصبح بلا هدف ولا هوية في الحياة، وانتهى به المطاف في الأخير إلى العودة إلى القرية، لكن لم تكن عودته عودة التائب النادم، ولكن عودة اليائس الذي لم يعد عنده خيار، وتساوت عنده الأنوار والظُّلم، ليجد نفسه منساقا مثل أخيه سليمان في طريق الجريمة، على خطى والده وأخيه. وسنحاول فيما يلي أن نأتي على ذكر أبرز الأحداث التي أدت إلى كل هذا الانقلاب في حياته.

لقد بدأ وعي هذا البطل يتشكل على مقاعد المدرسة الفرنسية — كما سبقت الإشارة — على أيدي أساتذة كان لهم الأثر القوي في نفسه وفي تفكيره وسلوكه، وهو ما جعله يتنكر لأهل قريته، ويسخر من معتقداتهم، ويحتقر معيشتهم وطريقة تفكيرهم. نجد ذلك جليا منذ الصفحات الأولى في الرواية، أي من ذلك النقاش

الذي جرى في المقهى، بينه وبين أخيه سليمان وابن عمهما تودارت، حول ما ينتظره الناس من تغير في أحوالهم السيئة بعد انتهاء الحرب، وقد انقسموا فريقين، فريق، وهم الأكثرية، يؤيدون الألمان، ويأملون أن يكون الانتصار لهم حتى يكسروا شوكة الفرنسيين ويخلصوهم منهم ـ حسب اعتقادهم ـ وفريق يؤيد ويأمل في انتصار الحلفاء، ويمثلهم تودارت بالخصوص، وحجته في ذلك أن للفرنسيين ـ حسب رأيه ـ أفضال كثيرة على الجزائريين، فقبل مجيئهم لم يكن هناك طبيب، ولا طريق معبد، ولا مدرسة.

وهنا يتدخل الرزقي في النقاش ليسخر من الجميع، ويضحك من سذاجة أفكارهم، كما يضحك من فكرة"الشرف القبائلي" الذي تحدث عنه سليمان بشيء من الحماس، ويعلق عليه بقوله: "ما الشرف إلا مزحة"، وهو التعليق الذي أثار أحد الشيوخ الجالسين، وطلب من الرزقي أن يلعن الشيطان الذي يسكنه، فما كان من الرزقي إلا أن تمادى في سخريته وفي إثارة مشاعر السخط لدى الشيخ حين رد عليه هازئا بالشيطان وبالله معا[48]. وأظهر الجرأة نفسها في نقاشه مع والده حين فاتحه في الموضوع، وسخر من تفكيره ومن معتقداته ، وتفوه أمامه بكلام في الذات الإلهية جعل والده يغضب أشد الغضب، ويطلق عليه عيارا ناريا من بندقية الصيد[49].

---

48 « Le Sommeil du juste », p8, 9.
49 Ibid, p13.

ويهرب الرزقي إثر هذه الحادثة من "إغزر" إلى قرية "تازغا" عند إحدى عماته*، ومنها إلى الجزائر العاصمة حيث يواصل دراسته في معهد المعلمين لمدة عامين. ويصادف تخرجه مباشرة نزول قوات الحلفاء في الجزائر في نوفمبر 1942، فيجند في صفوف الجيش الفرنسي.

ويتبين لنا فيما بعد أن الرزقي لم يندم على بدر منه، وأنه، على العكس من ذلك، كان سعيدا بتلك الطلقة النارية التي أطلقها عليه والده، لأنها — كما أوضح لصديقه مدّور — ((كانت هبة من السماء)) حررته من سيطرة التقاليد، ويضيف قائلا له: ((كنت قد ضقت ذرعا في إغزر بما فيه الكفاية، وضقت بالموت البطيء يوما بعد يوم، وكان سيأتي علي يوم، لو بقيت على تلك الحال أغادر فيه الدنيا هكذا، دون أثر، ودون أن أكون قد لعبت ولو جزء يسيرا من دور، ونحن في عز القرن العشرين))[50].

وهو يقصد أنه تحرر من التبعات التي كانت ستلقى على عاتقه، باسم الواجب الذي تفرضه عليه التقاليد والعادات نحو والده وإخوته، إذ أنه كان يتوقع أن يُقدِم والده على قتل تودارت، وهو ينفر من ذلك ولا يريده، كما كان ينتظر أن يموت أخوه الأكبر محند بمرض السل، ويكون لزاما عليه الزواج من أرملته، كما تقضي التقاليد بذلك، باعتبار أنه سيصبح الابن الأكبر: ((تصور.. ما إن

---

* نلاحظ هنا أن "تازغا" هي القرية التي تجري فيها حوادث روايته الأولى "الربوة المنسية" مما يعني أن كثيرا من الأماكن والشخصيات والوقائع التي تشكل عالم معمري الروائي لها وجود حقيقي.

50 «Le Sommeil du juste», p116.

أكون قد تخرجت حينئذ من المعهد حتى أدخل معترك الحياة، فقد كان الأب يريد قتل تودارت (ومازال يريد قتله، فأنا على يقين من ذلك) وكنت سيلقى بي، تبعا لذلك، بالرغم مني وإلى الأبد، في المأساة، وهي مأساة بليدة، وبلا جدوى، وخاسرة بالنسبة للجميع، وليس فيها حتى ميزة الإثارة. وحتى تكتمل فصول المأساة ، فإنه كان علي أن أنتظر بضعة أشهر أو ربما بضعة أسابيع ، وفاة أخي الأكبر، لأتزوج أرملته ، لأنه سيترك أطفالا صغارا. أي ما يعادل الانتحار في الحين..)) [51].

كان هذا الحديث بين الرزقي ومدّور، قبل يوم واحد من التحاقهما بالثكنة العسكرية، وكانا عائدين لتوهما من ضاحية بوزريعة من زيارة لم تتم لأستاذهما"كوستاف بواري" مدرس الفلسفة ــ وكانا يكنان له الكثير من التقدير والإعجاب ــ حيث وجداه قد رحل مع أسرته خارج مدينة الجزائر، هربا من الغارات الألمانية.

وهنا تكون فرصة للمؤلف كي يكشف للقارئ عن الجانب الآخر من شخصية الرزقي، الذي يتمثل في تشبعه بالثقافة الفرنسية، وإعجابه الشديد ببعض أساتذته، الذين يأتي في مقدمتهم الأستاذ"كوستاف بواري". فقد كانت تربطه وصديقه تودارت علاقة قوية بأستاذهما، أشبه ما تكون بعلاقة المريدين بشيخ الطريقة، ويظهر ذلك جليا من الرسالة المطولة التي تركها لهما الأستاذ مع

51 Ibid, p116, 117.

بواب منزله، بصفحاتها الثمانية، وبدأها بعبارة"ابني العزيزين"، وهو ما يؤكد علاقة المحبة والتقدير التي كانت تجمع بين الثلاثة.

في بداية رسالته حاول الأستاذ أن"يفلسف" سبب هروبه من غارات الألمان، وانطلاقا من تلك المبررات نفسها حاول أن يضفي على مسألة تجنيدهما ثوبا من الشرعية والعقلانية، وأن يجعل من مشاركتهما في الحرب ضرورة ملحة، من أجل تجاوز"المحنة". يقول: ((ابني العزيزين، إن العاقل لا يهرب من الأخطار ولكنه لا يواجهها بلا جدوى، إن هذه البديهية التي قمت أنا بتطبيقها، لَتحسان بها لا محالة وأنتما تستعدان للالتحاق بالثكنة، في صميم المحنة الكبرى التي لن تتحمَّلا نتائجها فحسب، ولكن ستكونان مضطرينِ لمجابهتها أيضا..))[52].

ويسهب الأستاذ في تقديم المبررات"العقلانية" للحرب، بحيث يعطي في الأخير انطباعا لتلميذيه بأن مشاركتهما في الحرب إنما هي من أجل إنقاذ الإنسانية من الهمجية، حيث يضيف: ((.. وستندهشان، لا شك، وأنتما ترياني أدافع عن ضرورة خوضنا لهذه الحرب، أنا الذي كنت دائما داعية لشجب الحرب والوقوف ضد كل الحروب. حقا، إنها ليست حربا مقدسة، ولا توجد في اعتقادي أي حرب مقدسة، ولكنها على أية حال حرب لها مبرراتها، لأننا بشر، والبشر ليسوا ملائكة ولا وحوشا، والمحزن أن الوحش هو الذي يستيقظ في نفوسنا أثناء الحرب. وعليه، فإن الرجل الجدير بحمل صفة الإنسان هو الذي يعمل على إيقاظ الوحش في نفسه،

---

[52] «Le Sommeil du juste», p117.

دون أن يدعه يفلت منه، ويعرف كيف يصغي، من وراء ضجيج الهول وصراخ الوحش، إلى صوت الملاك)) [53].

وقد أحدثت رسالة الأستاذ، كما كان متوقعا لها، أثرا كبيرا في نفسي التلميذين، وتلقيا كلماتها بكثير من الحب والإعجاب والحماس، أحسا معه أن الكلمات لا تستطيع أن تعبر عن مدى إعجابهما بحكمة الأستاذ وسحر بيانه، لأنه أعطى معنى لحياتهما، وارتفع بها إلى مستوى إنساني سام، وجعل لمشاركتهما في الحرب دلالة ومعنى ترتقي إلى مستوى العالم [54]. ويأبى الرزقي وهو ما يزال واقعا تحت تأثير رسالة الأستاذ، إلا أن يسارع بالرد عليه وفي حانة"البار كولونيال" التي قرآ فيها رسالة الأستاذ. راح يخط له الرد، ليشكره على نصائحه الغالية له ولزميله، وليعبر له عن مشاعر التقدير والإعجاب التي يكنانها له، وعن الفضل والامتنان الذي يشعر به الرزقي شخصيا نحوه، ومما جاء في رده قوله: ((أستاذي العزيز ، إنني مدين لك بميلادي في هذه الحياة، لأنني قبل أن ألتقي بك لم أكن موجودا (...) لقد حطمتَ أبواب سجني، فولدتُ في هذا العالم، الذي لولاك لأفلت مني)) [55].

وبعد أن يبدي إعجابه بجمال العبارة، وبلاغة الخطاب التي صاغ بها الأستاذ رسالته، ويثني على قوة الحجة التي تحدث بها عن الحرب، ويبدي تأييده له في كل ما قاله، يكرر شكره وشكر زميله عن الشحنة المعنوية التي زودهما بها في وقت كانا في أمس الحاجة إليها،

53 «Le Sommeil du juste» p117,118.
54 Ibid, p118, 119.
55 Ibid , p119,120.

ويختم رسالته بقوله: ((إنني أعدك يا أستاذي العزيز، أنني سأقاتل دون أن تفتر لي همة، من أجل انتصار قضية أعلم أنها رغما عنك، هي قضيتك)) [56].

غير أن هذا الحماس الزائد، والروح المعنوية العالية التي دخل بها الرزقي إلى الثكنة لم تدم طويلا، إذ سرعان ما بدأت تتلقى الضربات، وتتجه نحو الفتور والاضمحلال، وذلك بفعل اصطدامه بالواقع اليومي داخل المعسكر، الذي وجده مختلفا تماما عن التصور الذي كان يحمله عنه في ذهنه، وعن تلك المثاليات التي تحدث عنها الأستاذ، لقد وجده لا يساعد من يحمل مثل تلك القناعات على الاحتفاظ بها طويلا.

اكتشف، بكثير من الاندهاش وخيبة الأمل، أن النظم والقوانين المطبقة داخل مؤسسة الجيش تقوم على أسس عنصرية مفضوحة، تميز بشكل صريح بين المجند المنحدر من أصل أوروبي وبين المجند الأهلي (الجزائري)، بحيث تجعل الامتياز والأسبقية للأول في كل شيء، من الأشياء العادية، كالأسبقية في دخول المطعم، إلى إسناد المسؤوليات وتوزيع المهام العسكرية، حيث يكون الأهلي تابعا دائما للأوروبي، إلى تفاوت الراتب الشهري بينهما تفاوتا كبيرا، حتى وإن تساوت رتبة الاثنين العسكرية، إلى غير ذلك من التمييز الذي لا اسم له في نهاية الأمر سوى أنه تمييز عنصري.

كانت بداية اكتشاف الرزقي لذلك الواقع، في اليوم الذي توجه فيه إلى مطعم الثكنة لتناول الغداء مبكرا بنصف ساعة، وكان يظن

56 «Le Sommeil du juste», p121.

أنه سيكون أول من يدخل المطعم، لأنه كان يقف في أول الصف، غير أنه فوجئ، حين فتح المطعم، بالرقيب المسؤول ينـادي علـى الأوروبيين ليكونوا أول من يدخل، مع أنهم لم يكونا قد حـضروا بعد، فطلب منه الرزقي بكل عفوية أن يبدأ بمن حـضر، ولكـن الرقيب رد عليه في جفاء أن"لا يتدخل فيما لا يعنيه"، ثم بعث بمن يبحث عن الأوروبيين.

واحتج الرزقي على هذا السلوك، ورفض أن يسبقه أي كـان في الدخول إلى المطعم، وانضم إليه في احتجاجه المجندون الآخـرون، وكاد الاحتجاج أن يتحول إلى معركة حامية، لكن الرقيب أوضح للجميع في لهجة متغطرسة: ((إن اللوائح تقول بأسبقية الأوروبيين)) وأنه، ببساطة ((لا يفعل شيئا سوى أنه يطبق اللوائح)) [57].

وفي الأيام اللاحقة اكتشف الرزقي حقيقة أخرى، حين التحـق بكتيبته مجند أوروبي يدعى"لومارشان" يحمل رتبة"مرشـح" مثلـه، وحين حضر النقيب"ريكاردو" تقدم الرزقي ليقدم له الكتيبة، كما جرت العادة في الأيام الماضية، لكن النقيب أمره في هذه المـرة أن يعود إلى الصف، وطلب من"لومارشان" أن يقدم له الكتيبـة. وفي المساء استدعاه النقيب، ووبخه على مخالفته اللّوائح، وذكره بالمـادة التي تقول: ((في حالة وجود ضابطين يحمـلان رتبـة عـسكرية متساوية، فإن على الضابط الأهلـي أن يطيـع أوامـر الـضابط الأوروبي)) [58].

---

57 «Le Sommeil du juste», p125.
58 Ibid , p128.

واحتج له الرزقي بالأمر الذي أصدرته حكومة الجنرال"ديكول " المؤقتة، الذي يعُدُّ بعض الفئات من الجزائريين ـــ ومنهم الضباط في الجيش ـــ فرنسيين على قدم المساواة مع الفرنسيين الآخرين، ولكن رد النقيب عليه كان في غاية البرود والتجاهل حين قال له: ((ديكول؟ لا أعرفه..)) [59]. وهو الرد نفسه الذي أجابه به ضابط الإدارة حين سأله: لماذا يقل راتبه عن زملائه الأوروبيين بمقدار الثلث؟ [60].

وقد كلفه احتجاجه المتكرر دخول الحبس في كل مرة، بحجة عدم الطاعة لرؤسائه المباشرين في الجيش، غير أن حبسه كان يتيح له فرصة الخلو إلى نفسه داخل الزنزانة، ويعطيه الوقت الكافي للتأمل والتفكير، ومراجعة نفسه، ومحاسبتها أيضا.

وكان اهتزاز ثقته في أقوال أساتذته أقسى على نفسه من تلك المعاملة السيئة والمهينة التي لقيها من رؤسائه في الجيش، وعز عليه أن يكتشف، بقدر غير يسير من المرارة، أن كل ما تعلمه في المدرسة الفرنسية مشكوك فيه، وأن كل ما حفظه من أساتذته عن المبادئ والقيم الإنسانية السامية، مثل الحرية والمساواة والأخوة الإنسانية، لم يكن إلا زيفا وكذبا. وأحس أنه كان مخدوعا، وساذجا، لأنه صدق تلك الأقوال. ومن هنا فقد إيمانه بكل القيم، وأصبح يشك في كل شيء، وتمرد على كل شيء، ومال في سلوكه إلى السخرية، وفي تفكيره إلى العدمية والسوداوية.

---

59 «Le Sommeil du juste», p128.
60 Ibid , p128.

وقد وجد في الليلة التي سبقت رحيله إلى جبهة القتال طريقة فريدة من نوعها في التعبير عن سخطه وتمرده على الواقع، واحتقاره لكل ما تعلمه من قبل، وذلك حينما أقدم على حرق كتبه، وكانت تتشكل من مجموعة مؤلفات عظيمة لكتاب عباقرة، ومفكرين أجلاء من أمثال مونتيني ونيتشه وراسين وباسكال وروسو ودي ميسه وشكسبير وجوريس وغيرهم. وكان يتلذذ بمشهد النار وهي تلتهم الأوراق، كأنه كان ينتقم منها، ويرد الاعتبار لنفسه، بعد أن عاش مخدوعا — حسب تصوره — بما جاء فيها، ولم يكتف بحرقها فحسب، بل زاد على ذلك — وكان واقعا تحت تأثير الخمر — أن بال عليها، بعد أن أصبحت كومة من رماد:

— ما ذا تفعل هنا؟ سألته صاحبة الحانة.

— إنني أبول على الأفكار، أجابها الرزقي [61].

وجدير بالتنبيه هنا أن البطل كان حريصا على تسجيل كل ما كان يخطر بباله من أفكار وتأملات وانطباعات في دفتر خاص، بناء على اقتراح من أستاذه "بواري" الذي أوصاه وزميله مدُّور بذلك. وكان من المفترض أن لا يستعملا دفتريهما إلا في جبهة القتال، أو "وسط الهمجية" حسب تعبير الأستاذ: ((.. ليكون لكما (دفتر المذكرات) ملاذا للضمير والإنسانية، ووميض اللهب وسط الظلمة)) [62]. لكن البطل اصطدم بـ"الهمجية" قبل رحيله إلى جبهة القتال، وقد كانت همجية من نوع آخر، هي همجية الظلم

61 « Le Sommeil du juste »,, p147.
62 Ibid, p124.

والعنصرية، التي لا تسلب من الإنسان حياته، ولكنها تسلب منه إنسانيته وكرامته، وتقتله قتلا معنويا، فاتخذ الرزقي من دفتره "ملاذا" لتبديد وحشة السجن وظلمته، قبل تبديد ظلمة الخنادق في الجبهة وسط النار والدخان.

وكان خطابه موجها طوال الوقت إلى أستاذه "كوستاف بواري"، وهو يعكس مدى المرارة التي كان يحس بها، وخيبة أمله فيما كان قد تعلمه منه، ويعبر إلى حد بعيد عن مدى غضبه من الأستاذ، وعتابه له، لأنه جعله يؤمن بقيم ومبادئ ينتفي وجودها في الواقع. إلا أنه، وبالرغم من ظاهر الخطاب الموجه إلى الأستاذ، فإن المتأمل فيه يجده في حقيقة أمره ـ ولكونه مذكرات شخصية ـ موجها إلى البطل نفسه، وغرضه منه في النهاية هو مصارحة النفس، ومكاشفتها بالحقيقة، ومراجعة قناعاته السابقة، والوصول من وراء ذلك إلى أفكار واضحة ومحددة، يتخذ منها أساسا لمواقفه في المستقبل من الحياة والناس.

والواقع أن بطلنا ظل طوال الوقت يتجرع الخيبة تلو الخيبة، ولم يستطع أن يحدد له هدفا في الحياة، أو على الأصح، لم ينجح في التخطيط لحياته، أو الخروج من أزمته، وقد جرب حينما سرح من الجيش، بعد انتهاء الحرب، أن يواصل دراسته خلال الأشهر التي قضاها في باريس، كما انخرط في الوقت نفسه في النضال الحزبي، غير أنه لم يوفق لا في الدراسة ولا في السياسة، فقد أثر نشاطه الحزبي على دراسته، ولم يتمكن من المواظبة على الدروس، كما لم تؤهله جهوده المضنية التي بذلها طوال خمسة

أشهر في النشاط الحزبي من النجاح في الاختبار لكي يقبل نهائيا كعضو في صفوف الحزب[63].

إلا أن خيبته في الحصول على عضوية الحزب لم تكن أكبر ولا أقوى من خيبة أمله في العمل الحزبي نفسه، الذي اهتدى إليه في الأخير، وظن أنه الطريق الصحيح والسليم لتغيير الواقع المأساوي لبلده. لقد فتحت الأشهر الخمسة من النضال عينيه على ممارسات غير أخلاقية كان يقوم بها أعضاء من الحزب، كالتجسس على مناضلين آخرين معهم، والقيام بأعمال مخالفة للقانون، وقد ورطوه هو شخصيا في قضية تزوير خطيرة، كانت ستكلفه، فيما لو اكتشف أمره، خمسة أعوام سجنا على الأقل[64]، وهو ما أثار الشكوك في نفسه، وأضعف حماسه نحو العمل الحزبي، لينفض منه يديه نهائيا، بعد المقابلة الأولى والأخيرة له مع رئيس الحزب، المدعو"الدكتور بلخوجة"، الذي تبين له أنه من ذلك النوع الانتهازي، المنافق ، الذي يتظاهر بالتضحية في سبيل القضية الوطنية، في حين أنه كان يحي في بحبوحة من

---

63 «Le Sommeil du juste» p181.

64 نظمت جريدة الحزب مسابقة يحصل الفائز فيها على مليون فرنك ، غير أنه، وحفاظا على أموال الحزب للحزب، كما أفهمه المسؤولون ، قاموا بعملية تزوير يضمنون من ورائها عدم خروج تلك الأموال من بين أيديهم ، وكان دوره هو في العملية أن يتقدم للجائزة ، بعد ما أعطوه الجواب الصحيح الذي يضمن له الفوز ، ليعيد الأموال إلى الحزب بعد استلامها ، وقد قبل المهمة على مضض ، بعد أن قدمت له على أنها تضحية في سبيل القضية الوطنية، وتبين له فيما بعد أن الجائزة قسمت مناصفة بين منظم المسابقة ورئيس الحزب، وهو الشيء الذي حز في نفسه ، وخيب ظنه . راجع: «Le Sommeil du juste», p 187.

العيش على حساب الحزب، ويدفع بالمناضلين البسطاء إلى ركوب المخاطر وارتكاب أعمال يعاقب عليها القانون.

ويمكن القول أن رسالة أخيه سليمان، التي أشرنا إليها آنفا، قد جاءت في الوقت المناسب، وسهلت له المهمة، فقرر أن يعود إلى قريته، ويلتحق بسلك التعليم، ومن ثمة يمكن له أن يقدم بالفعل مساعدة لأسرته، وأن يمنع أباه وأخاه من ارتكاب الجريمة التي كانا يدبران لها. ولم يتردد كثيرا في تنفيذ ما عزم عليه، خصوصا أنه لم يكن هناك ما يشده إلى التريث أو التأجيل، فاستقل القطار إلى"مرسيليا" في ليلة ذلك اليوم نفسه الذي وصلته فيه رسالة أخيه، ومن هناك ركب البحر عائدا إلى الجزائر.

عاد من فرنسا إذن ليترل بقرية إغزر، ويجد نفسه منذ اليوم الأول ملزما بالاندماج بسرعة في حياة القرية، ومعنيا بشكل مباشر ببعض المشكلات الأسرية، وأولها مسألة زواج أرملة محند بأحد أخويه ـــ وهو ما يزال حيا يرزق ـــ حيث استدعي الرزقي في الأمسية نفسها التي وصل فيها إلى إغزر، لحضور اجتماع الأب في البيت مع إمام المسجد وأمين القرية الجديد (تودارت)، بحضور أخيه سليمان، للفصل في هذه المسألة.

كان طوال الاجتماع متوترا ومتألما مما يحدث، لأن أخاه المريض كان يقبع في ركن مظلم من البيت القروي الكبير، ويسمع كل ما يقال عنه في الاجتماع، كاتما نوبات سعاله بسد فمه بطرف اللحاف الذي يتغطى به، كأنه كان خجلان من

إسماع صوته[65]، وكان الرزقي من جهته يحاول بصعوبة كتمان مشاعره الثائرة، غير واثق مما سيكون عليه رد فعله فيما لو حاولوا أن يرغموه على الزواج من امرأة أخيه، وحينما سمع إمام المسجد ينطق باسم أخيه سليمان، أحس أن حملا ثقيلا قد انزاح عن كاهله، وخرج من الاجتماع وهو يقول لسليمان:

((رافقني إلى الخارج فإنني أشعر بالاختناق هنا))[66].

عاد بطلنا إذن إلى القرية، ولكن كان يساوره إحساس يشبه إحساس من نزل على كوكب آخر[67]، لقد وجد نفسه وحيدا، معزولا، لا يشاركه في أفكاره أحد، بل إنه لم يكن يمتلك أفكارا أصلا، لأنه فقد الإيمان بكل شيء، بالأفكار التي قرأها في الكتب، وبالمبادئ والقيم الإنسانية التي تعلمها من أساتذته، وبالنضال الحزبي الوطني، ناهيك عن الأفكار والقيم التقليدية التي تعيش عليها القرية، التي رفضها منذ زمان، ومازال يرفض منطقها بقوة. ومن هنا كان حال والده وأخيه سليمان أفضل من حاله بكثير، لأن الوالد كان يتمسك بعادات وتقاليد الأجداد وهو مطمئن إليها تماما، وعلى ضوئها يعيش ويتخذ مواقفه في الحياة، وكذلك الشأن بالنسبة لسليمان الذي وإن كان لا يرتاح لسطوة التقاليد وقسوة أحكامها إلا أنه لا يرفضها، ويعوض عنها بالنشاط السياسي الحزبي الذي يجد فيه ملاذا، ويشعر معه أنه يعطي لحياته قيمة ومعنى. وبناء على هذا،

---

65 «Le Sommeil du juste» p210.
66 Ibid p211.
67 «Le Sommeil du juste» p210.

فإن مشكلة الرزقي كانت تتجسد في ذلك الخواء الفكري الذي كان يعاني منه، بحيث فقد إيمانه بكل قناعاته السابقة، ولم يتمكن من تعويضها بقناعات أخرى، ومن هنا لم يستطع أن يعطي لحياته معنى، ولا أن يتخلص من أزمته النفسية.

ولسوء حظه أن الظروف لم تمهله حتى يجد له مخرجا من أزمته، كما لم يكن لديه وقت كاف للعمل على منع وقوع الجريمة التي عاد إلى القرية من أجل الحيلولة دون وقوعها، فقد قتل تودارت بعد عودته بأيام قليلة، قتله محند غيلة ثم مات، لتلصق التهمة بالرزقي ومعه أبوه وأخوه. بل إن النائب العام ـــ بفضل ما كان يتمتع به من قدرة على الإقناع ـــ قد ألب المحلفين ضده، وجعله في نظرهم المتهم الأول، وركز في مرافعته على أمور تبدو مقنعة جدا، فقد حدثت الجريمة بعد أيام من عودته إلى القرية، وهو الوحيد من بين المتهمين الثلاثة الأقدر على استعمال السلاح وإصابة الهدف بدقة، لما اكتسبه من خبرة في الجيش على استعمال السلاح، يضاف إلى هذا كله دفتر يومياته الذي عثر عليه في جيبه، وكان يتضمن تفاصيل عن نشاطه الحزبي بباريس، وعن رسالة أخيه سليمان، التي وردت فيها إشارة إلى اغتيال "الأمين"، إلى غير ذلك مما جاء في يومياته، مما عُدَّ في نظر النيابة العامة اعترافات صريحة تدينه كلها.

حتى ثقافته وملامح الذكاء على وجهه، والثقة بالنفس التي كانت تبدو عليه، عدها النائب العام من الصفات التي تثبت إدانته[68]. والقاضي نفسه مال إلى الاقتناع بالحجج التي قدمها

68 « Le Sommeil du juste », p251.

النائب العام، وزاد على ذلك أن عد ما جاء غامضا في اليوميات في غير صالحه، لأن الرزقي رفض شرحه، بحجة أنه يتعلق بأمور شخصية لا تعني العدالة في شيء[69]، وكان يفترض فيه، حسب ما جرت به العادة، أن يحسب الغموض لفائدة المتهم.

وهكذا وجد الرزقي نفسه مرة أخرى وجها لوجه أمام القوانين الاستعمارية الجائرة، لكن المواجهة في هذه المرة كانت أخطر بكثير، لأن المسألة تتعلق بجريمة قتل يحاول جهاز العدالة الاستعمارية أن يلصقها به بكل الوسائل، وأن يجمع لها أكبر قدر من الأدلة، حتى ولو كانت أدلة متعسفة وواهية، وحتى مزاياه التي كان يظن أنها تشفع له عندهم وتدفع عنه التهمة، كالثقافة والذكاء، والمشاركة في الحرب للدفاع عن العلم الفرنسي، رآها تنقلب في نظر العدالة الاستعمارية ضده، وتتحول إلى أمور تدينه، ليحكم عليه في الأخير بعشرين عاما سجنا.

ويختتم الكاتب روايته بالعبارات التالية على لسان بطله، محاولا أن يلخص المشكلة في كلمات، وأن يتنبأ بما سيكون عليه المستقبل من إشراق، مهما بدا الحاضر مظلما ولا يبعث على التفاؤل، بل يحاول أن يوحي للقارئ بأن شدة الظلام ما هي إلا علامة على أن الصبح قريب، وأن ساعة الخلاص قد أزفت: ((إنه شيء جيد، على أية حال ، أن يتبع نوم العدل (Le juste) نوم العدالة (La justice)، لكن ما أهمية نوم ليلة أو يوم بالنسبة إلي، أو إلى الآخرين، بل ما أهمية نوم عام. إن الموت وحده هو

69 Ibid, p252.

الذي لا نستيقظ منه. إنني أسمع مفاتيح السجان الذي لابد أنه قادم لكي يفتح لي. إنه صاحبي.إنه يحب أن يموسق مشيته بقرقعة مفاتيحه. إن القافلة ستنطلق بعد قليل. هذا كل شيء على ما أعتقد))[70].

ونعتقد أن هذه هي قناعة الكاتب نفسه، ورسالته التي أراد أن يبلغها إلى القارئ، ومضمونها: "أن الظلم مهما طال فإن مرتعه وخيم، والعدل مهما غاب فإنه لابد أن يعود في يوم من الأيام إلى نصابه". إلا أن هذه القاعدة التي تبدو في ظاهرها معقولة من الوجهة المنطقية، على أساس أن لا شيء يدوم على حاله إلى الأبد، فإن وجود الظلم كحقيقة قائمة لا يعني أنه يتغير من تلقاء ذاته، ومن هنا يصبح من الصعب أن نجد مبررا لكل هذا التفاؤل الذي أبداه المؤلف، لاسيما أن وضع بطله لا يساعد على ذلك، فقد انتهى إلى وضع مأساوي، فقد على إثره كل شيء : هويته، وحريته، وانتهى على الصعيد الفكري إلى عدمية كاملة لا تؤمن بشيء، ولا ترى أي أمل في المستقبل، وانتهى على الصعيد المادي سجينا، لا يستطيع أن يفعل شيئا، لا لنفسه ولا لغيره؟ فمن أين يأتي التفاؤل والحال هذه إذن؟

[70] «Le Sommeil du juste» p254.

ثلاثية محمد ديب *: وعي الذات ومساءلة الآخر.

في ثلاثية ديب التي تشكل رواية"الدار الكبيرة" جزءها الأول، يعيش الطفل عمر، ابن العاشرة مشكلتين رئيسيتين في حياته، إحداهما بيولوجية (حيوية) تتعلق بمتطلبات الجسم الضرورية، وهي مشكلة رد غائلة الجوع، الذي كان يعاني منه باستمرار، لأنه لا يجد في أغلب الأحيان ما يأكله في بيتهم بسبب فقر أسرته الشديد، فيظل طوال الوقت منشغلا بهذه المشكلة المستديمة أما مشكلته الثانية فهي فكرية ــ إن صح التعبير ــ تتعلق بوعي العالم من حوله، ومحاولته فهم تصرفات الناس، ومعرفة الأشياء على وجهها

---

* ولد محمد ديب في 14 جويلية 1920 بمدينة تلمسان. زاول تعليمه بمسقط رأسه ثم في وجدة بالمغرب. اشتغل في أول حياته المهنية مع بداية الحرب العالمية الثانية في مجال التعليم، ثم عمل مع جيوش الحلفاء كمحاسب، ثم كمترجم من الإنكليزية إلى الفرنسية. وفي سنة 1945 عاد إلى تلمسان ليعمل كمصمم زرابي. شارك في الأيام الثقافية بسيدي مدني قرب البليدة التي انعقدت ما بين 27 فبراير و13 مارس 1948، وهناك تعرف على ألبير كامو الذي أصبح صديقا له. في بداية الخمسينيات عمل كصحفي في جريدة "الجزائر الجمهورية". وفي الفترة ما بين 1952و1958 نشر ثلاثيته: الدار الكبيرة، والحريق، والنول، ومجموعته القصصية"في المقهى"(1955)، ورواية"صيف إفريقي" (1958) التي تتناول موضوع الثورة المسلحة. وعلى إثرها غادر الجزائر، فحل بموجان في منطقة الألب الفرنسية عند أصهاره، ومن هناك قام بزيارات لبعض البلدان الأوروبية الشرقية، ثم بزياة للمغرب سنة 1960، وبعد الاستقلال فضل البقاء في فرنسا، ثم رحل إلى فنلدة وأقام بها عدة سنوات، ومن وحيها كتب ثلاثيته المسماة"ثلاثية الشمال"، كما قام بعدة رحلات إلى الولايات المتحدة، وقدم محاضرات عن الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية بجامعات كاليفورنيا ولوس أنجلوس. أصدر أكثر من 56 رواية (كانت آخرها "شجرة القول "(L'arbre à dire) التي صدرت سنة 1998عن منشورات"ألبان ميشال" بباريس، وما يقارب عشرة أعمال أخرى في الأنواع الأدبية الثلاثة : الشعر ، والقصة والمسرحية. توفي يوم 2 مايو 2003 بسان كلو (فرنسا) وقد بلغ 83 عاما.

من خلال أسئلة حائرة كان الواقع يدفعه إلى طرحها على نفسه، وقل ما كان يجد لها إجابة شافية، مثل سؤاله لنفسه، من واقع الجوع الذي كان يعيشه يوميا مع أفراد أسرته: لماذا نحن فقراء ؟[71]، ويأتي ضمير الجمع"نحن" هنا في محله لأن الجوع كان ظاهرة عامة، يعاني منه معظم تلاميذ المدرسة*، ومعظم سكان"دار سبيطار" أو"الدار الكبيرة"، ويعاني منه فلاحو"بني بوبلن" (في رواية"الحريق")، وسيتفاقم الجوع ويتخذ أبعادا خطيرة مع مرور الوقت واستمرار الحرب (رواية"النول")، لتصبح قوافل الجائعين والمشردين تجوب كل شوارع المدينة، ويتساقط الناس صرعى من الجوع في الشوارع.

وبالطبع، لم يكن عقل عمر ولا سنه يسمحان له بالإجابة على هذا السؤال المحير: لماذا نحن فقراء؟ ولا على غيره من الأسئلة الكثيرة التي كان يطرحها على نفسه، لكن الشيء المؤكد هو أن الأسئلة في حد ذاتها لم تكن بلا جدوى، فقد كانت تصنع وعيه يوميا، وتجعله يحس على نحو غامض، أن الأمور غير طبيعية، وأنه يجب أن تتغير. وعلى أية حال، وبالرغم من الأهمية التي أولاها الكاتب لمشكلة الجوع في الرواية، فإن اهتمامنا هنا — من منطلق الالتزام بخط البحث — سوف لن ينصب إلا على المشكلة الثانية، التي سنحاول من خلال تتبعنا لمختلف تجلياتها، أن نتبين مسار تطور الوعي لدى البطل الصغير عمر.

---

[71] Mohammed Dib «La grande maison» Ed. du Seuil, Paris 1952, P117.

* مثل"صاحب السترة الكاكي" الذي كان عمر يعطف عليه وينتزع اللقمة من التلاميذ الآخرين ليقدمها له. راجع: « La grande maison » pp13-17

بادئ ذي بدء، يمكن القول أن الكاتب قد وجد في الطفل عمر شخصية نموذجية ممتازة، للتعبير بشكل رمزي مناسب عن العديد من الأفكار التي كانت تدور في ذهنه، وعن الأوضاع المزرية التي عاشها الشعب الجزائري في فترة من أحلك فترات تاريخه، ألا وهي فترة الحرب العالمية الثانية، فقد كانت حال الشعب أشبه ما تكون بحال الطفل عمر في يتمه وجوعه المزمن، وحيرته في فهم ما يجري حوله من صراع بين كبار العالم*، ثم إن شخصية عمر، من جهة أخرى، تستعيد في العديد من جوانبها ذكريات وتجارب مر بها الكاتب نفسه في سني طفولته ومراهقته، فقد جرب مثل عمر مرارة اليتم حين فقد والده مثله وهو في سن الحادية عشر[72]، ومثله افتقد ذلك الوالد، حين كان في أمس الحاجة إليه ليجيبه، وهو في تلك السن الحرجة، عن الأسئلة الحائرة التي كانت تفرض نفسها عليه.

المدرسة الفرنسية تعلم الكذب وتشجع عليه:

إننا نتصور أن مشاعر الحيرة والشك التي راودت عمر أثناء درس الأخلاق، وهو يسمع زملاءه يرددون ما جاء في الكتاب الدراسي: "إن فرنسا هي وطننا الأم" [73]، إنما هي مشاعر الحيرة والشك التي

---

* في الحوار الذي أجرته معه إذاعة فرنسا الثقافية في شهر مارس 1997 ــ الذي سبق أن أشرنا إليه ــ صرح الكاتب أن الشعب الجزائري لم يكن في يوم من الأيام يعاني من غياب"الأم"، أي الجزائر، ولكنه كان يعاني من غياب الأب، أي من غياب قيادة قادرة على تجنيد الشعب حولها والسير به نحو الحرية والاستقلال.

72 Jean Déjeux «Mohammed Dib, écrivain algérien» Ed. Naaman, Sherbrooke. Québec. Canada. 1977, p9.

73 «La grande maison» , p20.

تكون قد راودت المؤلف نفسه إزاء ذلك الدرس ذاته، حين كـان تلميذا في المرحلة الابتدائية، وخاصة أن برامج الدراســة لم تكـن تعرف تغييرا يذكر، كما أن هناك"ثوابت" فيها غير قابلة للتغـيير، ومنها هذه المقولة في تعريف"الوطن"، ومثلـها مقولـة"أجـدادنا الغاليون" وغيرها، ويكون المؤلف قد احتفظ بها كذكرى لا تنمحي من ذهنه لما فيها من اللبس والمفارقة التي لا يمكن أن تنطلي حـتى على الأطفال.

من منكم يعرف ماذا تعني كلمة وطن؟ هكذا سأل المعلم تلاميذه، الذين احتاروا في الإجابة عن هذا السؤال الصعب، و لم ينقذهم من حيرتهم إلا أحد التلاميذ القدامى الذي كان قد لقن الجواب علـى هذا السؤال من العام الماضي، لأنه أعاد السنة: إن فرنسا هي وطننا الأم.

وفي الوقت الذي راح التلاميذ يتبارون في ترديـد العبـارة، راح عمر، وهو يعجن كرة صغيرة من الخبز في فمه، يدير الـسؤال في ذهنه ويعلق عليه بهدوء: ((فرنسا عاصمتها باريس. إنه يعرف ذلك، والفرنسيون الذين يرون في المدينة قد أتوا من ذلك البلد. وللذهاب إليه أو العودة منه لابد من عبور البحر، وركوب الباخرة.. عبـور البحر المتوسط. و لم يكن قد شاهد البحر من قبـل، ولا بـاخرة، ولكنه يعرف أن البحر هو امتداد واسع من الماء المالح، والباخرة هي ما يشبه خشبة عائمة. وفرنسا هي خريطة متعددة الألوان، فكيف

تكون تلك البلاد البعيدة كل هذا البعد هي أمه؟ إن أمه في البيت، وهي عيني، وليس له اثنتين)) [74].

ولم تكن هذه هي المرة الأولى، ولا المادة الوحيدة التي يكتشف فيها عمر مثل هذه المفارقات التي لا اسم لها سوى اسمها الصريح، ألا وهو الكذب. فقد كان يطلب من التلاميذ في موضوعات الإنشاء أن يصفوا مثلا سهرة أمام الموقد، ويحاول المعلم أن يسهل عليهم المهمة، فيقرأ عليهم مقتطفات تصف سهرة عائلية: ((...تتحدث عن أطفال ينحنون باجتهاد على كتبهم، والمصباح يلقي ضوءه على الطاولة، والأب غارق في أريكة يقرأ الجريدة، والأم تشتغل بالتطريز...إلخ)) [75].

ولأن هذه الصورة المثالية عن جو البيت المريح لا تمت إلى واقع عمر بصلة، فإنه كان يجد نفسه"مضطرا إلى الكذب"، فيواصل على منوال ذلك الوصف الذي سمعه: ((...والنار تشتعل في المدخنة، وتكتكات الساعة الجدارية، وجو البيت الهادئ، في الوقت الذي يتساقط فيه المطر، وتعصف الريح، ويترل الليل في الخارج. آه.كم نشعر بالراحة في البيت بجانب الموقد)) [76].

وهكذا كان عمر يكذب أيضا حين يصف البيت الريفي الذي يقضي فيه وأفراد أسرته عطلة الصيف الكبرى: ((اللبلاب يتسلق واجهة البناء، والساقية تغرد في المرج المجاور، والهواء نقي، فأي سعادة في أن يستنشقه المرء بملء رئتيه)) [77].

---

74 «La grande maison» p20.
75 Ibid , p21.
76 Ibid , p21.
77 «La grande maison», p21.

وعليه إذن ، فقد كان عمر يشعر في قرار نفسه أن ما كان المعلمون يلقنونه لهم لم يكن إلا كذبا، وأسوأ من ذلك أن يشعر التلاميذ بأن المعلمين يدفعونهم إلى الكذب ويشجعونهم عليه. ولذلك كان التلاميذ مضطرين إلى الكذب خوفا من عصا الزيتون — كما يقول الراوي — وطمعا في الحصول على نقاط أفضل: ((كان التلاميذ يقولون فيما بينهم: إن الذي يحسن الكذب أفضل من غيره، ومن يحسن ترتيب كذبه هو أفضل تلاميذ القسم))[78].

وعلى الرغم من البعد الشاسع بين موضوعات الإنشاء وواقع التلاميذ، فإنه يمكن أن ينظر إلى المسألة على أنها نوع من التدريب مثلا على استعمال الخيال، ولكن حين يتعلق الأمر بالدروس الأخرى كالأخلاق والتاريخ فإن ذلك لا يقبل أي تأويل سوى أنه نوع من الكذب المدروس، والتزييف المنظم من قبل المنظومة المدرسية الاستعمارية، بهياكلها ومؤطريها على جميع المستويات، وهذه هي الرسالة التي أراد الكاتب أن يبلغها للقارئ.

ونلاحظ في الفقرة الأولى التي تحدث فيها المعلم عن"الوطن الأم"، كيف لعب الكاتب على معاني الألفاظ، واستغل عنصر المفارقة والغموض الناتج عن استعمال لفظ"الأم" بمعناه المجازي"الوطن"، الذي فهمه الطفل بمعناه الحقيقي، فاتخذه أداة للسخرية من مقولة"فرنسا الوطن الأم"، تستمد قوتها من حيرة الطفل واندهاشه أن تكون له أم أخرى غير"عيني". وقد عاد الكاتب مرة أخرى إلى

78 Ibid , p21.

استعمال الأسلوب الساخر المبني على عنصر المفارقة، حين راح المعلم يتحدث عن واجب المواطنين إذا تعرض الوطن للخطر:

((حين يأتي من الخارج أجانب يزعمون أهم السادة فإن الوطن يكون في خطر. إن هؤلاء الأجانب أعداء، وعلى جميع السكان أن يصدوهم، ويدافعوا عن الوطن المهدد، وحينئذ تكون المسألة مسألة حرب، وعلى السكان أن يدافعوا عن الوطن بحياهم (...) وأولئك الذين يحبون وطنهم بقوة ويعملون من أجل خيره، يسمون وطنيين)).[79]

و تبدو المفارقة هنا في التناقض الصارخ بين مضمون الكلام الذي يتحدث عن الشعوب التي تتمتع بالحرية والسيادة على أرضها، وبين واقع الجزائر وشعبها آنذاك، اللذين كانا يرزحان تحت نير الاحتلال الفرنسي. وقد أثار المعلم بإلحاحه على الموضوع اهتمام التلاميذ، وراح عمر يسأل نفسه: ((وأين هم أولئك الأشرار الذين يعلنون أنفسهم سادة؟ من هم أعداء بلده، أعداء وطنه؟)).[80]

وكان المعلم نفسه، وهو جزائري، يهدف ـــ كما يبدو من خلال السياق ـــ إلى إثارة اهتمام تلاميذه، ولفت نظرهم إلى واقع بلدهم المحتل، حتى وإن بدا المعلم مترددا، وغير قادر على الإفصاح عن كل ما في نفسه. ومع ذلك فقد أبى عليه ضميره أن يترك تلاميذه حيارى، وقرر أن يصارحهم ببعض الحقيقة، رغم ما يمكن أن يترتب عن ذلك من نتائج خطيرة بالنسبة إليه، فيما لو علمت

---

79 «La grande maison» p22.
80 Ibid, p22

الإدارة بما قاله لتلاميذه، فتوجه إليهم موضحا بصوت خفيض، تمازجه نبرة غضب، ليقول لهم:

ـ ليس صحيحا إن قيل لكم إن فرنسا هي وطنكم[81].

قال ذلك باللغة العربية، وهي المرة الأولى التي يسمع فيها التلاميذ معلمهم حسن يتحدث بالعربية، وفي ذلك دلالة، وأية دلالة، كأنه نزع عن وجهه القناع الذي كان يمثل به، ليظهر أمام تلاميذه بوجهه الحقيقي، ويضع حدا فاصلا بين كلام الكذب وكلام الصدق.

" دار سبيطار": السجن الكبير.

كان عمر يشعر دائما أنه في سجن، سواء في المدرسة أو خارجها، ويزداد هذا الشعور حدة لديه في"دارسبيطار" حيث يقيم مع أسرته، تلك"الدار الكبيرة" البائسة، التي تعج دائما بالضجيج والفوضى والخصومات التي لا تنتهي بين الجيران، وهي خصومات تعود أساسا إلى كثرة الأنفس التي تضمها الدار، وإلى مصاعب العيش التي يعاني منها كل ساكنيها: البطالة، والجوع، والفقر، والمرض، وكل أشكال البؤس، وهو ما ينعكس على ساكنيها، ويجعل أعصابهم متوترة، وصدورهم ضيقة، ونفوسهم متحفزة لرد الفعل العنيف.

---

81) «La grande maison», . p23.

وهناك عامل قلق آخر زاد من تـــوتر أعـــصاب ســـكان"دار سبيطار"، وضاعف من شعور عمر بجـــو الـــسجن، ألا وهـــو مداهمات الشرطة الاستعمارية لـــ" الدار الكبيرة"، التي تكررت في المدة الأخيرة. وفي كل مرة كانت الشرطة تقبض على بعض رجال"الدار"، وبعض شبان الحي بتهم متفرقة، وتلقـــي بهـــم في غياهب السجون.

كان أول من بحثت عنه الشرطة هو حميد ســـراج، إلا أنهـــم لم يعثروا عليه في البيت، ومع ذلك فقد تمكنوا من القـــبض عليـــه في مكان آخر، كما قبضوا على مجموعة من الفلاحين كان مجتمعا بهم، ثم قبضوا على زوج الجارة"زينة"، وهو نقابي مثل حميد سراج، لأنه احتج على غلاء المعيشة، ومن بعده قبضوا على"بن ساري"، لأنـــه رفض الامتثال أمام"عدالتهم"، وقال عنها: ((إنها تحكم علينـــا دون حاجة إلى ارتكابنا ذنبا)) [82].

وكانت الشرطة تلجأ في ذلك إلى ما تسميه الحبس الاحتياطي أو السجن الوقائي، بحيث لا تنتظر أن يرتكب الأشخاص مـــا يـــبرر القبض عليهم، لتزج بهم في السجون [83]، وكان رجـــال الـــشرطة يمارسون التعذيب على ضحاياهم لانتزاع المعلومـــات منـــهم [84]، ولذلك كان بعض المقبوض عليهم يدخلون مركز الشرطة أصحاء، ويخرجون بعاهات مستديمة، وقد يسلمون الروح إلى بارئهـــا بـــين

82 «La grande maison», p52 .
83 Ibid p52.
84 Ibid, p108.

يدي جلاديهم، وهذا ما حدث لـ"الخال محمد"، الذي وصل مركز الشرطة في صحة جيدة، وبعد ثلاثة أيام أخرج ميتا[85].

من هذا الجو المشحون بالتوتر والخوف، بالإضافة إلى ضغط الجوع والفقر، انتهى عمر إلى ذلك الشعور الغريب الذي ظل يلح عليه دائما، ويجعله يمازج في ذهنه بين دار سبيطار والسجن[86]، لاسيما أن البيت العربي ببنائه المغلق نحو الداخل، وغرفه التي تتحلق حول الصحن الداخلي،حيث تؤوي كل غرفة أسرة بأكملها، يعطي الانطباع بشكل السجن وزنزاناته المصطفة إلى جانب بعضها بعضا: ((وكان يبدو له أن أهله، وكذلك كل من كانوا يتململون حوله بلا نهاية، لهم هم أيضا نصيبهم من هذا السجن. لقد كانوا يحاولون أن يختزلوا وجودهم على مستوى زنزانة سجن))[87].

"ريف بني بوبلن" المنفى المسيَّج بالفقر:

ولم يفارق عمر إحساسه بجو السجن هذا إلا حينما رحل إلى ريف "بني بوبلن"، الذي يبعد عن مدينة تلمسان ببضعة كيلومترات، بصحبة "زهور" ابنة الجيران، التي قصدت"بني بوبلن" لزيارة أختها الكبرى المتزوجة هناك. لقد أحس عمر فعلا، في ذلك الفضاء الواسع، بسعادة غامرة، وبجو من الحرية والانطلاق لم يتعود عليه من قبل، لكنها مع ذلك كانت حرية ناقصة أشبه ما تكون بحرية المنفى، لأنها كانت حرية مسيَّجة بالفقر، ومطبوعة بطابع البؤس والحرمان الذي كان يطل من عيون أطفال الفلاحين، ويعلن

85 Ibid, p108.
86 «La grande maison», p115.
87 Ibid, p116.

عن نفسه من خلال هلاهيلهم التي كانوا يلبسونها، وهذا هو الشيء المشترك بين المدينة والقرية:

((لقد التقى عمر هناك بأطفال أكثر شقاء منه، أطفال كانت لهم هيئة الجراد من فرط ما يبدو عليهم من الهزال والنرفزة، لم تكن ملابسهم إلا خرقا ملفقة، وكانوا يحمون أقدامهم بنعال من جلود الأغنام مربوطة بسيور رقيقة من الحلفاء (...) في هذا العالم الحزين كان الأطفال يبدون مثل عمر مبكرين في نموهم، ولهم إدراك مماثل للشقاء كان يلمع في عيونهم، حتى وإن اختلف مصدر شقائهم عن مصدر شقائه)) [88].

وبالرغم من هذا المشهد الذي أفسد على عمر بهجته وإحساسه بالحرية والانطلاق فإنه مع ذلك كان سعيدا، لأنه تخلص على الأقل هنا من التفكير في مشكلة الجوع. كان يأكل حتى يشبع في كل الوجبات، وبشكل منتظم، وأحيانا في أوقات غير أوقات الأكل العادية، لأن السيد" قاره علي" الذي نزل عنده كان رجلا ميسور الحال، يعيش عيشا رغدا مما تدره عليه أرضه الواسعة من الغلال، ومشكلة الجوع غير مطروحة بالنسبة إليه مثل ما هو الحال بالنسبة لأغلبية الفلاحين الآخرين، الذين لم يكونوا يملكون أرضا. يضاف إلى ذلك أنه يعيش مع زوجته وحيدين، لأنه كان رجلا عقيما لا ينجب. وقد استغرب عمر أن تكون الحياة جميلة وسهلة على ذلك النحو، لا يعكر صفوها الفقر ولا الجوع [89].

---

88 Mohammed Dib «L'incendie » Ed. du Seuil. Paris 1954, p8,9.
89 Ibid, p25.

وبحكم ولادة عمر ونشأته في المدينة فإنه كان يجهل كل شيء عن حياة الريف، وعن تلك الأرض، إلى أن قابل ذلك الرجل المقعد الذي يقال له"كومندار"، حيث كشف له هذا الرجل عما كان يجهله. وكان "كومندار" قد اكتسب اسمه هذا من خدمته الطويلة في الجيش الفرنسي، وشارك في الحرب العالمية الأولى، وفيها بترت ساقاه[90]، وبسبب إعاقته هذه لم يعد قادرا إلا على التأمل أو الحديث. وبالطبع، كان حديثه ينبع من تجربته العميقة في الحياة التي انتهت بمأساة بتر ساقيه، وكانت تجربة غنية جدا، تعلم أثناءها أشياء كثيرة ما كان ليتعلمها لو ظل في"بني بوبلن" يعيش كبقية الفلاحين الآخرين.

تحدث "كومندار" إلى عمر حديثا طويلا عن أرض"بني بوبلن"، وعن أهلها الفقراء الذين تحاصر أكواخَهم حقولُ الكرم المسيجة[91]، وعن المستوطنين الذين ملكوا البلاد ويريدون بعد ذلك أن يملكوا رقاب العباد[92]، وعن نساء"بني بوبلن" اللائي يذبل جمالهن بسرعة[93]، وعن الجدة"أم الخير" التي عاشت"أيام الحرية قبل مجيء الفرنسيين"[94]، وعن البطالة التي يعاني منها أغلبية الفلاحين، وعن الجوع الذي يلازمهم معظم الوقت. إلا أن"كومندار" *كان واثقا،

---

[90] Ibid, p14.

[91] «L'incendie », p32.

[92] Ibid, p32.

[93] Ibid, p33.

[94] Ibid, p34.

* لا يعني هذا اللقب الشعبي أي شيء، بالرغم من صيغته التي توحي أنه محرف من رتبة عسكرية في الجيش الفرنسي، مثل "كومندان Commandant" (رائد) أو

رغم نبرة الحزن التي كانت تخالط صوته، أن الوضع سيتغير، وأنـه سيأتي يوم يثور فيه ذلك الفلاح وينقلب على المستغلين الأجانب، يقول : ((قويا ورهيبا، لابد أن يكون، ولابد له من يوم يحمي فيـه بالسلاح بيته وحقوله)) [95].

وعلى الرغم مما كان في حديث"كومندار" من الإلغـاز وعـدم الوضوح بالنسبة لعمر على الأقل، إلا أنه مع ذلك كان يفهمه على نحو ما، ويتجاوب معه، ويتابعه بلذة كبيرة. لكن أغرب ما جاء في حديث "كومندار" وأكثره إثارة، روايته عن ذلك"الحصان الطائر" الذي رآه الفلاحون يعبر سماء"بني بوبلن" في ليالي الصيف المقمرة، ويطوف بآثار "المنصورة" *كأنه يذكّر الفلاحين بماضيها، بل كأنه كان يذكرهم بماضيهم هم، وماضي أجدادهم:

((.. رأى بعضهم، ممن كانوا يجلسون أمام أكواخهم، تحت أسوار المنصورة، حصانا أبيض بلا سرج، ولا لجام، ولا فارس، ولا رحل، وعُرفُه يهتز بعدو جنوني. كان حصانا بلا لجام، ولا سرج، بياضه أبهر عيونهم، وغاص الحصان المدهش في الظلام. وما كادت تنقضي دقائق معدودة حتى عاد وقع أقدام الحصان يطرق الليل من جديـد

كوماندور "Commandeur" (فارس) وهذه الكلمة الأخيرة تعود إلى أيام الحروب الصليبية، وكلاهما، بالطبع، لا تنطبق على هذه الشخصية في الرواية.

95 «L'incendie », p32 .

* مدينة المنصورة، بناها الخليفة المريني أبو يعقوب المنصور في القرن الرابع عشر الميلادي، تقع على بعد ثلاثة أميال من مدينة تلمسان، وبها آثار عديدة أهمها أسوار القلعة ومنارة المسجد التي ما يزال جزء منها قائما إلى يومنا هذا.

كانت الأبراج الإسلامية التي قاومت الفناء تلقي بظلالها (...).
الكثيفة في وضح الليل))[96].

وعلى عكس ما كان متوقعا ــ كما أوضح كومندار لعمر ــ فإن قلوب الفلاحين لم تطر هلعا من ذلك الحصان العجيب، وإنما راحوا يتابعون جريه في شيء من الإجلال والخشوع، وتمكنوا من فهم الرسالة التي حملها إليهم، وراحوا يخاطبونه في دخيلة أنفسهم بهذه العبارات: ((اجرِ يا حصان الشعب، في ساعة النحس، وفي الطالع السيئ، اجر إلى الشمس وإلى القمر))[97].

وهكذا تحول الحصان الطائر إلى حصان الشعب، وأصبح ظهوره في سماء"بني بوبلن" بشير خير، يترقب الفلاحون ظهوره في كل مساء، بقدر غير يسير من الشوق والفضول:

((.. ومنذ تلك الليلة بات الذين يلتمسون لأنفسهم مخرجا، والذين يبحثون في تردد عن أرضهم، والذين يريدون أن يتحرروا، وأن يحرروا أرضهم، باتوا يستيقظون كل ليلة، ويمدون آذانهم منصتين. إن جنون الحرية قد صعد في رؤوسهم، من ذا سيحررك أيتها الجزائر؟ إن شعبك يمشي في الطرقات ويبحث عنك))[98].

وفي"بني بوبلن" فقط تمكن عمر من أن يفهم معنى"الوطن" بشكل صحيح ومختلف تماما عما كان قد تعلمه في المدرسة الفرنسية، كما تمكن أن يفهم معنى"الشعب"، ويفهم معاني أخرى، مثل وجود

96 «L'incendie », p31.
97 Ibid, p31
98 «L'incendie »,, p31

أغلبية جزائرية مضطهدة وفقيرة ومستغلة، وأقلية أجنبية تتسلط على الأرض، وتستغل عرق الفلاحين، وتستأثر بخيرات أرضهم. عـرف ذلك على الطبيعة، وبشكل مباشر، من حياة الفلاحين الصعبة التي كان يشاهدها، ومن شكاواهم المرة التي كان يسمعها، ومن هيئتهم المزرية، ومن القمع المسلط عليهم من رجال الدرك، كما عـرف ذلك من خلال حديث "كومندار" الذي شرح له ما يجري حولـه، وفتح عينيه على أشياء كثيرة كان يجهلها عن الفلاحـين والأرض والمستوطنين*. يضاف إلى هذا كله تلك العمليات الذهنيـة الـتي تجري في وعي عمر ولاوعيه على السواء، وتتفاعل مـع خبراتـه السابقة، وما يعرفه عن حياة أهل مدينة تلمسان، وخاصة عن حياة سكان "دار سبيطار"، وبشكل خاص عن نشاط "حميد سراج" النقابي الذي كان عمر معجبا به كثيرا، وبشجاعته، ومراوغاته الـتي دوخ بها الشرطة الاستعمارية، ليترجَم كل ذلك في شكل نمو في وعيـه، واتساع في خبرته الحياتية، وفهم للواقع المعيش الذي يحيط به. قال له "كومندار" في أحد أحاديثه:

((صدقني أو لا تصدق، هناك تحول قد حدث في هـذا العـالم، صدقني أو لا تصدق، لقد رأينا ما حدث، وما لا يمكن له أن يحدث مجددا، لم أذهب إلى كل مكان في الجزائر، ولم تطأ قـدماي كـل أرض الوطن حين كان ذلك في إمكاني.. لكن قلبي زار كل البلد،

---

* يذكرنا هذا باكتشاف سليمان في رواية "نوم العدل" لهذه الحقائق عندما خرج من قرية إغزر والتقى بالوناس الذي قام بدور مشابه لدور "كومندار مع عمر، مع الأخذ في الحسبان الفارق بين الطفل عمر والشاب اليافع سليمان.

كل المدن، كل القرى ثم عاد من بعيد ليعلمني أن ثمة جديدا في الأفق، فما أعظم صبرنا))[99].

وفهم عمر من قول"كومندار" هذا أن شيئا ما خطيرا سيحدث، ولكنه لم يفهم على وجه التحديد ما هو، ولا استطاع أن يتصور مدى خطورته، ولكنه فهم، على أية حال، ما أضافه هذا الرجل المحنك حين تحدث عن الكيفية التي انتزعت بها أرض"بني بوبلن" من أيدي أهلها، فقد كانت الأرض تنبت القمح، والتين، والدرة، والخضار، والزيتون، وعندما جاء المحتلون اتهموا الفلاحين بالكسل، وبإهمال الأرض، وتركها مرتعا للنباتات البرية وأشجار العناب والنخيل غير المثمر، وبهذه الحجة جردوهم من أرضهم، وكان تجريدهم يتم دائما باسم "القانون"، وباسم"الحضارة"، وتحت شعار"القانون يضمن حقوق الجميع"، وكان الناس الطيبون يتساءلون: ((كيف يمكن اللجوء إلى عدالة وُضعت لتجردنا من حقنا؟))[100].

ويختم "كومندار" حديثه بقوله: ((..هكذا تم الأمر يا بني، وهكذا تحولت ملكية هذه الأرض من يد إلى يد، وهكذا طرد أصحاب الأرض من أرضهم، وأصبحوا غرباء عنها (...) وإنهم الآن يؤجرون أنفسهم لأولئك الذين جردوهم من أرضهم، ويرددون: ((تلك كانت مشيئة الله، عسى، في يوم من الأيام أن يهدينا إلى الطريق الصحيح))[101].

99 «L'incendie», p75.
100 «L'incendie »,, p76.
101 Ibid, p77.

وكان لا بد أن ينتهي عمر في الأخير إلى أن يسأل كومندار هذا السؤال: ((لكن، أتعرف ماذا يجب فعله من أجل أن نعيش حياة غير هذه؟)) [102].

ويجيبه "كومندار" على الفور، وكأنه كان يتوقع منه مثل هذا السؤال، وبكل بساطة: ((يجب تحطيم الظلم، ودفنه..)) [103].

كان هذا هو خلاصة ما تعلمه عمر: يجب تحطيم الظلم ودفنه.

"النَّول": مدرسة الحياة العملية.

ومر الصيف، وعاد التلاميذ إلى مدارسهم، ولكن عمر لم يعد إلى مدرسته، والسبب الظاهر كان نزولا عند رغبة أمه التي طلبت منه أن يتعلم صنعة يعيش منها، لأن الدراسة والكتب ـــ كما قالت له ـــ لن تعود عليه بأي نفع [104]، ولكن لم يكن هذا بالتأكيد هو السبب الوحيد فهناك مصاريف المدرسة التي لم تعد أم عمر قادرة على دفعها، كشراء الكتب والدفاتر والأقلام وغيرها مما لا يمكن تجنبه، وهناك أيضا مسألة أن عمر لم يعد يجد في دروس المدرسة أية جاذبية، ولا يحس نحوها بأية رغبة، خاصة بعد ما تبين له كذبها وزيف معلوماتها ـــ كما مر معنا ـــ إلا أن العثور على عمل، أي عمل، لم يكن أيضا بالأمر السهل، ناهيك إذا كان صنعة من الصنائع، وقد ظل عمر عاما بأكمله يتسكع في الشوارع قبل أن تعثر له أمه على مهنة صبي متمرن في مشغل لنسج الصوف،

---

102 Ibid, p168.

103 Ibid, p168.

104 «Le métier à tisser» Ed. du Seuil. Paris 1957. P9.

وكانت صناعة النسيج قد نشطت في تلك الفترة من جديد، بعد أن احتل الألمان فرنسا، فكانت الصوف تصدر إلى هذا البلد[105].

وبدخوله إلى ميدان الشغل دخل عمر إلى الحياة العامة، وإلى عالم الكبار، رغم أنه لم يكن قد تجاوز بعد سن الثالث عشرة، وفي مشغل النسيج بدأ تجربة حياتية جديدة وغنية، تعرف فيها على مجموعة من عمال النسيج، من أعمار مختلفة، بعضهم حديث عهد بالمشغل، وبعضهم أفنى شبابه وكهولته فيه، وكان المشغل عبارة عن قبو تحت الأرض، رطب وقليل الإنارة، يمتلكه رجل يدعى"ماحي بوعنان".

وكان هؤلاء العمال رغم انتمائهم جميعا إلى الطبقة الشعبية الكادحة، يختلفون كثيرا في الأفكار والأمزجة والأهواء، وينعكس هذا في تعبيرهم عن وجهات نظرهم في مختلفا لقضايا الاجتماعية أو السياسية، ولكنهم لا يخرجون، على أية حال، عن اتجاهات سياسية ثلاثة كانت قوية الحضور على الساحة الجزائرية في الثلاثينيات والأربعينيات، فهناك الاتجاه الديني السلفي الذي كانت تمثله"جمعية العلماء"، ونجده ممثلا بالخصوص في شخصية"غوثي الأمين"، وهناك اتجاه"حزب الشعب" الذي يمثله"عكاشة" إلى حد ما، وهناك الاتجاه الثوري اليساري الذي يمثله"حمزة"، ولكن يوجد أيضا من بين هؤلاء العمال من لا رأي له في أي شيء، ولا موقف له من أي شيء، مثل"صقالي" و"زبيش"، وهؤلاء قلة، ولا يمكن تصنيفهم في أي اتجاه.

---

105 Ibid, p16.

ونستطيع أن نتلمس كل الاتجاهات السياسية المشار إليها من خلال تصرفات هؤلاء العمال وحواراتهم التي لا تكاد تنقطع طوال اليوم، بحكم وجودهم معا في المشغل من الصباح إلى المساء، فقد كان غوثي الأمين حريصا على تأدية الصلوات في أوقاتها، ويستعمل خطابا دينيا واضحا في أقواله، وفي عرض وجهة نظره فيما يناقشه من الأمور، ومن هذا المنطلق ينكر مثلا على الشيوعيين قولهم بالمساواة بين جميع الناس، يقول: ((إنهم متساوون حقا أمام بارئهم، أما في الحياة ـــ وهز رأسه في حركة استنكار ـــ فهذا مستحيل))[106].

أما عكاشة فيستعمل في خطابه أدبيات حزب الشعب، فلا يتحدث باسم طبقة أو فئة معينة، ولكنه يتحدث باسم جماهير الشعب:

((ما من أحد علّم الشعب، ومع ذلك يحمل الشعب الحقيقة في ضميره، وينشرها بكلتا يديه، في سخاء))[107].

في حين نرى حمزة، السجين السياسي السابق، يستعمل خطابا أقرب ما يكون إلى الخطاب اليساري الثوري، الذي لا يقبل الحلول الوسطى، ويرى أن الثورة هي الحل، وأنها قادمة لا محالة: ((حينما يأتي اليوم الذي يحطم فيه كل شيء سيتبدل الأمر))[108].

---

106 «Le métier à tisser», P56.
107 Ibid, p147.
108 «Le métier à tisser», p150.

وبالرغم من هذا الاختلاف البيِّن في المنطلقات الأيديولوجية لهؤلاء العمال، إلا أنه لا أحد منهم كان يحاول أن يفرض وجهة نظره على الآخرين، كانوا يستمعون إلى بعضهم بعضا في احترام كامل*، وكثيرا ما كانوا يتفقون في وجهات النظر إلى المسائل الكبرى، مثل ضرورة تغيير أوضاع الشعب التي بلغت حدا من التدهور لم يعد يطاق، ولكن كانوا يختلفون — من منطلق قناعاتهم الشخصية — على الكيفية والوسائل. ونستطيع أن نتبيَّن مثل هذا الاتفاق والاختلاف في آن واحد من خلال الحوار التالي، الذي سنجرده — لطوله — من الوصف والشرح، ونبقي على الحوار وحده: قال غوثي الأمين : ماذا يريدون؟

وأجابه حمزة : يريدون أن يطعموا حتى الشبع، وأن يعاملوا أفضل قليلا مما تعامل به البهائم.

فسأل الأمين: لماذا تشتكون دائما إذا كنتم أنتم أنفسكم لا تفعلون شيئا من أجل أن تكون حياتكم على غير ما هي عليه؟ لماذا لا تحترمون في أنفسكم آدميتكم؟ إنه يمكن أن يُشتكَى منكم أيضا.

— هذا حق، قال حمزة.

— لماذا إذن لا تفعل شيئا؟

— إذا كان الأمر متعلقا بي وحدي، يا أخي، فأنا على استعداد لكي أفعل كل ما يطلب مني.

* الوحيد من بينهم الذي شذ عن هذه القاعدة، الشاب حمدوش — وهو أصغر العمال بعد عمر — حيث كان يثور لأتفه الأسباب ويسب ويشتم، وقد تشاجر مع عمر نفسه، ولكن زملاءه كانوا يتحملون ثوراته وطيشه بصبر، ويعملون على تهدئته والحيلولة بينه وبين خصمه.

وفتح حمزة يديه على اتساعهما وأضاف: ولكن، ماذا أستطيع أن أفعل بمفردي؟

ــ حاول.

وحرك حمزة رأسه بالنفي: لا أحد منا قادر بمفرده على تغيير الواقع.

وتدخل عباس ليصحح لزميله ما يعتقده خطأ: بل قل، لا أحد قادر على معارضة قدره.

وحاول حمزة أن يناقش المسألة، ولكن بلا جدوى، فقد بدا له واضحا أن الحائكين الآخرين لا يكادون يختلفون في تفكيرهم عن زميلهم: ((حتى كأن تصور حياة أقل شقاء يؤذي مشاعرهم كإهانة)).

وشرح الأمين: نصيبك لابد أن تناله، افهمني جيدا... [109].

وقد وجد عمر في كل هذه الأفكار، والتعليقات، والجدل، واختلاف الآراء بين هؤلاء العمال ما شكل بالنسبة إليه مدرسة جديدة حقيقية تعلمه أشياء كثيرة في الحياة، وتجيب بطريقة غير مباشرة على العديد من الأسئلة التي تتبادر إلى ذهنه بين الحين والآخر، دون أن تلزمه بشيء، أو ترغمه على فعل شيء أو تركه.

ومع ذلك ، فقد وجد عمر نفسه ذات يوم طرفا مباشرا في الحوار، وذلك عندما سأله الغوثي الأمين عن اسم والده، وتردد في الأول، وشعر بالخجل لأنه لم يكن يتوقع أن يكون موضع مساءلة، ولكنه اضطر في المرة الثانية أن يجيبه حين كرر عليه السؤال، وتبيّن

---

109 « Le métier à tisser » P153-154.

أن الأمين كان يعرف أباه وجده. وتطوع الأمين من تلقاء نفسه، فأثنى على الجد الذي وصفه بأنه كان حائكا ماهرا، وثنّى على أحمد دزيري (والد عمر) فوصفه بدوره بـ"الرجل الفاضل"، غير أنه لم يستطع أن يكتم رأيه الحقيقي فيه، أو على الأصح رأيه في أفكاره، إذ كان ينكر على "أحمد دزيري" دعوته إلى المساواة بين الناس، ويعتقد أن ذلك ضد التعاليم الإسلامية، فأضاف موضحا ومعلقا على ذلك في أسف ظاهر: ((كان أبوك يقول كلاما لا يمكن لأذن رجل مسلم أن تسمعه. كان يدعي أن جميع الناس أشباه ومتساوون، فكيف يصح هذا الكلام؟ إنهم متساوون أمام بارئهم، هذا حق.. أما في الحياة — وهز رأسه بحركة استنكار — هذا مستحيل)) [110].

ويبدو أن الأمين قد تنبه بعد لحظات أنه ربما يكون قد جرح مشاعر الطفل بما قاله في والده، فراح يلتمس له الأعذار: ((لقد كان والدك يعترض دون أن يدري على الشريعة الحنيفة، ماذا أقول؟ لقد مات.. إنني أتحدث إليك، وأنت بلا ريب لا تفقه معنى ما أقول، لكن، ألست أنا نفسي سوى مذنب بائس، رباه، ارحم مخلوقاتك.. إن والدك لم يكن وحده الذي يفكر هذا التفكير، أنا نفسي آخذ في التفكير أحيانا فيضل عقلي ولا أفهم من الأمور شيئا)) [111].

وعاد الأمين يسأله من جديد :

---

110 «Le métier à tisser», p56.
111 «Le métier à tisser», P56.

ـ ماذا كنت تفعل قبل مجيئك هنا؟

ـ كنت أتعلم في المدرسة.

ـ آه.. إذن، أنت تحسن القراءة والكتابة؟

ـ بلى.

ـ أتحسن القراءة والكتابة بالعربية؟

ـ لا، أجاب عمر.

ـ ماذا؟ ألا تعرف لغتك يا بني؟[112].

ولم يجد الطفل ما يجيب به الرجل العجوز، ولم يفهم سبب الدهشة التي ارتسمت على وجهه، وعاد لينهمك في عمله، وقد شغل باله كلامُ الأمين، وذكّره بالمدرسة والدراسة، لكن تفكيره لم يقده إلى أي شيء يستلزم كل تلك الدهشة، وذلك الأسف الذي ارتسم على وجه الأمين، وقال محدثا نفسه في غير أسف على مفارقة المدرسة: "وأية حاجة كانت بي إلى كل ذلك؟"[113].

وعلى أية حال، كان كلام الغوثي الأمين غامضا بالنسبة لعمر، ومبطنا بعتاب لم يفهم على وجه التحديد دواعيه، سواء فيما يخصه هو أو فيما يخص والده، وهو ما أقلقه وشغل فكره.

كان هناك رجل من بين عمال المشغل يرتاح إليه عمر أكثر من غيره هو عكاشة، ذلك الرجل الرصين، الهادئ، المتخلق، الذي حباه الله بسطة في العقل والجسم. بدأ إعجاب عمر بعكاشة من خلال متابعته لما كان يقوله أثناء حواره الذي لا يكاد ينقطع في الأمور

112 Ibid, p57.
113 Ibid, p57.

السياسية مع الغوثي الأمين وحمزة. كان حديثه عن الشعب والحرية يمس مشاعر عمر على نحو مبهم، ربما كان ذلك بسبب صوته الهادئ، ونبرته الحزينة التي تخالف نبرة الأمين الآسفة اليائسة، ونبرة حمزة المتوترة الحادة. يقول الراوي: ((إن عمر لم يشعر في يوم من الأيام بأنه قريب من هذا الشخص المحيِّر كما يشعر بذلك في هذه اللحظة، كلماته المرة، ولهجته التي تدل على المعاناة..))[114].

وبدافع من هذا الإعجاب اتخذ عمر من عكاشة صديقا له، رغم فارق السن الكبير بينهما، فقد كان عكاشة في الثلاثين من عمره، وكان عمر في الخامسة عشر، وقد وجد لديه تجاوبا معه، وحنوا عليه، فكانا يجلسان معا في المقهى حول كأسين من الشاي، ويخوضان في أمور مختلفة. وقد وجد عمر في عكاشة شيئا ما من"كومندار" الذي كان يجيبه عن أسئلته الحائرة. غير أن عكاشة كان أكثر ميلا إلى الصمت، كما كان مترددا، وغير حاسم في اتخاذ قراراته. ذلك ما استنتجه عمر من حديث عكاشة عن الرحيل الذي عقد عليه العزم منذ مدة دون أن ينفذ قراره، ودون أن يحدد بالضبط وجهته، ولا الدافع الذي جعله يقرر الرحيل، سوى سوء الأوضاع ـــ كما قال ــ التي أصبحت لا تطاق، وقد أصيب عمر بخيبة أمل أن يكون مثله الأعلى على هذا النحو من التردد وعدم الحسم: ((لقد اكتشف الصبي أن هذا الحائك لم يخلق للتحدي والمشاجرة، وآلمه أن يرى هذه القوة

[114] «Le métier à tisser», P149.

مُذلّة ومغلوبة على أمرها)) [115]. لكن عكاشة رحل في نهاية الأمـــر، كما اختفى حمزة على نحو غامض [116].

وينهي الكاتب روايته بمجيء الأمريكيين، وهو ما يعني أن أحداث ثلاثية ديب تقف بالتقريب في حدود ربيع 1943. وقـــد صـــور الكاتب الجنود الأمريكيين في صورة إيجابية ، حين جعلهم ـــ على عكس الجنود الفرنسيين ـــ يظهرون المودة لأهل البلد، ويقـــدمون الهدايا للأُطفال، وقد نال عمر نصيبه من هداياهم، حيث قدموا له لوح "شوكولاطة"، وعلما صغيرا عليه نجوم، وهو ما ترك في نفسه انطباعا حسنا نحو أولئك الأمريكيين [117].

"نجمـــة" : مثال تلاحم التاريخ والجغرافيا.

جـــاءت رواية"نجمة" لكاتب ياسين* كآخر حلقة من الروايـــات الاحتجاجيـــة، لتبدأ بعدها ما يمكـــن أن نطلـــق عليـــه الروايـــة

115 « Le métier à tisser », p159.

116 Ibid, p171.

117 Ibid, p204.

* ولد في 6 أإسطس 1929 ببلدة"السمندو" التي تحمل اليوم اسم الشهيد"زيغود يوسف"، التي تبعد عن مدينة قسنطينة بحوالي 30 كيلومتر، مع أن أصل والده من منطقة "الناظور" بنواحي مدينة قالمة، لأن والده كان يشتغل وكيلا في المحاكم الشرعية الإسلامية، فكان بسبب هذه الوظيفة كثير التنقل بأسرته في أرجاء البلاد. نشأ ياسين في جو أسري ذي تقاليد شعرية، حيث كان كل من والده وأمه وجده يقرضون الشعر بالعامية، ويتبارون فيه فيما بينهم، وقد تأثر ياسين بهذا الجو العائلي. دخل المدرسة القرآنية في مدينة"سدراتة" بأقصى الشرق الجزائري، ثم المدرسة الرسمية الفرنسية. وحينما بلغ مرحلة التعليم الثانوي كان والده قد انتقل للعمل في بوقاعة بولاية سطيف، فأدخله ثانوية سطيف ليتابع دراسته فيها ضمن النظام الداخلي.وهناك شهد مظاهرات أول وثامن ماي 1945 وشارك فيها، فقبض عليه، وطرد من الثانوية بسبب ذلك، وكان يتابع فيها آنذاك دروس السنة الثالثة من التعليم المتوسط

الملتزمة، أو رواية الثورة التحريرية، التي ستكون موضوع الفصل التالي.

وقد جاءت "نجمة" كأقوى ما تكون عليه النهايات، فأحدثت عند صدورها ضجة أدبية كبيرة، لاسيما على مستوى الشكل الذي تجاوز فيه الكاتب الأسلوب الواقعي الذي عرف به كل من سبقوه من الروائيين الجزائريين، وتجاوز معه ذلك الشكل الكلاسيكي المعهود، الذي تعرض فيه الأحداث عادة في خط تطوري مستقيم، وفق الترتيب الزمني المعتاد، ورأى النقاد أنه يتبع في عرض أحداث

كتب أولى محاولاته الشعرية بعنوان"مناجاة" ونشرها في عنابة سنة 1946، كما نشر كتيبا بالعاصمة سنة 1948 بعنوان"الأمير عبد القادر واستقلال الجزائر". اشتغل صحفيا مراسلا لصحيفة "الجزائر الجمهورية" المقربة من الحزب الشيوعي الجزائري لمدة عامين، من سنة 1948 إلى 1950، وكان في الوقت نفسه مناضلا في خلية"الأمير خالد" التابعة لـ"الجبهة الوطنية الديمقراطية الجزائرية"، وقادته مهنته الصحفية في رحلة إلى الاتحاد السوفياتي السابق. وفي سنة 1951 سافر إلى فرنسا، واشتغل بمختلف المهن، كعامل زراعي ، فمساعد كهربائي، فعامل في البناء ، إلخ... في نهاية سنة 1954 قابل في باريس الكاتب الألماني الشهير"برتولد بريخت" الذي كان معجبا بمسرحه، ومتأثرا به في أعماله المسرحية التي سيكتبها فيما بعد. عاش أثناء الثورة التحريرية متنقلا في العديد من البلدان الأوروبية، وعاد سنة 1963 إلى الجزائر، وكرس جهوده للمسرح. قام برحلة سنة 1967 إلى موسكو، وهانوي، وعين بعدها مديرا للمسرح الجهوي لمدينة سيدي بلعباس. وفي سنة 1980 استقال من مسرح سيدي بلعباس، وأنشأ مع مجموعة من الشباب فرقة مسرحية خاصة أطلق عليها اسم "فرقة العمال للعمل المسرحي"، استمر في الكتابة لها، والعمل معها إلى حين مرضه ووفاته. أشهر أعماله رواية"نجمة"(1956) و"المضلع النجمي" (1965)، ومسرحية"الجثة الطوقة"(1955)، و"الرجل صاحب النعل المطاطي"(1970)، و"محمد خذ حقيبتك"(1971) و"حرب الألفي سنة"(1974) و"فلسطين المخدوعة"(1977)، والثلاثة الأخيرة باللهجة العامية. توفي في 22 أكتوبر 1990.

روايته شكلا دائريا[118]، وهو ما يجعل العثور على الترتيب الزمني فيها أمرا مستحيلا[119].

ولأجل هذا الشكل الجديد الذي أتى به، صنفه بعضهم ضمن كتاب مدرسة الرواية الجديدة في فرنسا[120]، بينما عده آخرون تابعا لمدرسة الكاتب الإرلندي"جيمس جويس"، والأمريكي"ويليام فولكنر"، لتأثره الواضح بهما في روايتي"يوليسيس" و"الصخب والعنف"، على التوالي.

وفي الوقت الذي لم يرفض فيه ياسين تصنيفه ضمن الرواية الفرنسية الجديدة، ولم ينكر تأثره بـ"جويس" و"فولكنر"[121]، فإننا نجد ناشري الرواية (دار سوي) لا يقيمون كبير وزن لرأي من يقول بتأثر صاحب "نجمة" بالرواية الفرنسية الجديدة أو بروايات "جويس" و"فولكنر"، ويرون أن"نجمة" هي في العمق رواية عربية محضة، سواء في شكلها أو محتواها، أو في سلوك شخصياتها، فهي تستمد شكلها الدائري من تعامل العربي مع الزمن ــ حسب رأيهم ــ وتستمد طبائع شخصياتها من ثقافته ومواقفه إزاء الحياة[122]، ويقولون إن القارئ الحصيف لا تخفى عليه هذه الحقيقة مهما حاول بعضهم تضليله بفكرة تأثر الكاتب بروائيين أوروبيين أو أمريكيين:

---

118 Cf. l'«Avertissement » des éditeurs in «Nedjma» p5

119 Jacqueline Arnaud): Introduction in «Kateb Yacine, L'oeuvre en fragments » Ed. Sindbad, Paris 1986, p14.

120 Jean Ricardou « Le nouveau roman » in Col. Ecrivains de toujours. Seuil. 1973. p 6,7.

121 Hafid Gafaiti « Kateb Yacine , un homme , une oeuvre, un pays », p24.

122 l'«Avertissement» des éditeurs, p6.

((أعط لشخصيات نجمة أسماء أخرى، وألبسها ألبسة أخرى، فإن القارئ النبيه سيتعرف بعد وقت قصير على العربي، من تحت "الساري" (قبعة قش مكسيكية)، أو"البونشو" (رداء هندي). إن رشيد أو مختار هما حتما جزائريان، وإن العالم الذي بناه المؤلف سينهار بدونهما، كما سيموتان هما أيضا بدون ذلك العالم)) [123].

وقد ظل هذا الرأي لسنين طويلة مجرد فرضية نقدية، وإحساس لدى القارئ، يجده حينما يرجع إلى رواية"نجمة"، ولكن لا أحد حاول أن يقدم عليه الدليل. ومع تقدم مناهج البحث في سنوات السبعينيات، واتساع مجال البحث فيما عرف باسم منهج البحث في" حفريات الثقافة"، أصبح من الممكن البحث في "تكوينية النص والوصول من وراء ذلك إلى تحديد مكوناته الأساسية، وإعادة رسم خريطته التاريخية[124]. وهذا ما حاول أن يقوم به باحث جزائري مختص في أدب كاتب ياسين، حيث رجع إلى تقاليد الشعر العربي القديم بحثا له عن أصول رواية"نجمة". ويقول هذا الباحث إنه وجدها في أقدم النصوص الشعرية العربية، ألا وهي المعلقات[125]. وقد اعتمد فيما توصل إليه على ظاهرة التكرار في الشعر العربي القديم، التي كان

---

123 Ibid, p6.

124 نجد أسس هذا المنهج في بحوث "ميخائيل باختين" في العشرينيات حول "مبدأ الحوارية" في الرواية، وقد طوره وأضاف إليه باحثون آخرون، لعل أهمهم الأستاذة "جوليا كريستيفا" في كتابها الموسوم بـ :
«Recherches pour une sémanalyse », Ed. du Seuil, Paris 1969.

125 Mohamed-Lakhdar Maougal «Aux sources des mythes dans la parole Katébienne» in «Actes des Colloque International sur Kateb Yacine» qui setait organisé par l' I.L.E. Université d'Alger le 28,29 et 30 Octobre 1990. Ed. O.P.U. Alger (s.d.e) , p283.

المستعرب"جاك بيرك" قد تناولها في أحد كتبه بالبحث*، وربطها بـ"الذكرى" لدى الشاعر الجاهلي، التي يجسدها وقوفه على الأطلال، وعدّ"بيرك" هذه الظاهرة (التكرار) سمة أساسية في الشعر العربي، ترتبط بالبنية الذهنية للمجتمع البدوي العربي، فتجعل الشاعر يكرر ما قاله أسلافه بكيفية مختلفة، بحيث يصبح الإبداع عند الشاعر ((كأنما هو تمرين على الإعادة)) [126].

ومن السهل الاستنتاج هنا أن ظاهرة"التكرار" تلتقي مع حركة الشكل الدائري الذي قال به النقاد في رواية"نجمة"، كما تلتقي من جهة أخرى مع تقاليد الحكي في الأدب الشعبي العربي. والأحداث في "نجمة" تلف وتدور لتعود في النهاية إلى النقطة التي انطلقت منها أول مرة* وهو ما يعطيها شكلا دائريا.

ويكتشف الباحث، من جهة أخرى، أثناء قراءاته، إشارة إلى أسطورة عربية قديمة أوردها الكاتب السوري المعاصر حيدر حيدر في روايته "الفيضان" ما يجعله يتساءل ما إذا لم تكن هذه الأسطورة

---

* وكان "جاك بيرك" نفسه قد استعار من كريستيفا مصطلح "تكوينية النص" وذكرها بالإسم، وذلك حين يبحث في"تكوينية" الشعر العربي القديم ويحاول أن يعلل ظاهرة التكرار فيه:
Cf.Jacques Berque « Langages arabes au présent » Ed. Gallimared/ Paris 1982, p141.
126 Jacques Berque « Langages arabes au présent », p140.

* تبدأ الرواية بتمكن الأخضر من الهروب من سجنه وعودته إلى الورشة، وكان قد دخل السجن بسبب شجار وقع بينه وبين السيد أرنيست رئيس الورشة، ليدور حوار مقتضب بينه وبين أفراد زمرته مصطفى ومراد ورشيد، مفاده أنه سيقبض عليه من جديد، وتنتهي الرواية بالمشهد الحواري نفسه، ثم يفترق الأربعة كل واحد في طريق، بعد شجار بين مراد في هذه المرة وبين السيد ريكار صاحب الورشة ليلة عرسه، ينتهي بمقتل هذا الأخير .

هي الأصل غير المعروف لرواية "نجمة"[127]. وبناء على كل هذا، وعلى أدلة أخرى[128]، يذهب الباحث في استنتاجاته إلى أبعد من هذا بكثير، حينما يخلص إلى القول: ((إن كاتب ياسين يضع بكتابته مشكلة حاسمة بالنسبة للأدب الجزائري في مجمله، تتمثل في أن نصه ربما يكون أكثر عروبة من أية نصوص أدبية جزائرية أخرى، بما فيها تلك التي كتبت أصلا باللغة العربية))[129].

ولا ننوي أن نناقش هنا صحة هذا الرأي أو بطلانه، لأن هذا سيخرج بحثنا عن نطاقه، ولكن لا يمنعنا ذلك من أن نلاحظ أن ظاهرة التكرار لا تفسر — إن صحت — إلا شكل الرواية الدائري، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن التكرار هو ظاهرة عامة في الأدب الشفوي بوجه عام، وليس مقصورا على التراث العربي

---

150 يقدم الباحث ملخصا للأسطورة المشار إليها كما يلي:((كان أحمد هلال وهو مسجون يرى في حلمه، إن لم يكن يتذكر، عبوره العديد والمهلك، نحو الجزر، لبحار خطيرة، بمعية امرأة تربطه بها صلة الدم، وسيره الذي لا ينتهي عبر الصحارى القاحلة، حيث يصلان قرب مضرب القبيلة الضائعة، التي تنحدر من جد، كان قد رحل نحو الغرب، بعد أن شارك في معركة "النهروان"، حيث استقر بأولاده في مغارة. وبعودة ظهورهم من جديد عادت الحرب، كشرط من شروط استعادة القيم)). حيدر حيدر ، (الفيضان) . راجع:

M-L Maougal «Aux sources des mythes dans la parole Katébienne » p294.

128 منها ما رواه الكاتب نفسه عن حياته في"المضلع النجمي" بأنه نشأ في أسرة شعراء وكان والده، وأمه، وأعمامه، وأجداده شعراء، فورث منهم التقاليد الشعرية العربية، ((فجاء نصه"معجونا" في الطينة العربية، حتى وإن كتب بلغة أخرى)). راجع:

«Aux sources des mythes dans la parole Katébienne», p282.

129 Ibid., p295.

وحده*. ثم إن هذا العمل الروائي شديد التعقيد إلى درجة يصعب معه أن نرجعه في أصله إلى ظاهرة معينة مثل التكرار في تقاليد الشعر العربي، أو تقاليد الحكي في القصص الشعبي، وتتجلى تعقيداته بشكل خاص في التنوع الشديد في أسلوب الكتابة، الذي جمع فيه المؤلف بين مختلف أساليب التعبير، من الكلام السوقي الهابط الذي يرد على لسان الشخصيات، إلى الحوار المطول في بعض المواقف، إلى السرد المسهب، إلى المشاهد التمثيلية الخالصة، إلى الشعر الموزون المقفى، إلى التحليق الخيالي الشعري الذي يصل فيه إلى درجة عالية من الشفافية الروحية والرمزية المغرقة، وهذا ما يزيل الحدود فيه بين كل الأنواع الأدبية، ويجعل منه عملا فنيا متعدد الأوجه، متنوع التأثيرات، ومن هنا، فإن أية محاولة لإرجاعه إلى أصل أو تأثير واحد وحيد تكون ـــ حسب رأينا ـــ عملية اختزال شديد، وتبسيط مضر بالقيمة الفنية لهذا العمل.

حقيقة أن ملامح البيئة العربية الجزائرية، البشرية والطبيعية، مرتسمة في هذا العمل بشكل لا تخطئه العين، وتتجلى من خلال العديد من المظاهر، وأولها المحيط الطبيعي الذي تجري فيه الأحداث، أو يتناوله الكاتب بالوصف، من مدن وقرى وجبال وغابات ووديان وآثار، إلى غير ذلك، وثانيها الشخصيات، بأسمائها، وملامحها، وأخلاقها، وردود أفعالها، وثالثها ما تحمله الرواية من القيم الاجتماعية، والأفكار، والمعتقدات، والعواطف، والأخلاق،

---

* نجد ظاهرة التكرار بشكل ملموس في الملاحم القديمة الشهيرة مثل "كلكامش"، و"لإلياذة" و"الأوديسا".

إنما كل هذا في نهاية الأمر محصلة لتأثيرات هذه البيئة التي صنعت ثقافة الكاتب، وشكلت وعيه ولاوعيه في آن واحد، فانعكست في عمله الأدبي على هذا النحو أو ذاك*. لكن، هل يشكل هذا خاصية يتفرد بها ياسين عن غيره من الكتاب الجزائريين الآخرين؟ بالطبع لا، فقد رأينا فيما سبق أن تعرضنا إليه بالتحليل من النصوص الروائية، أنها تشكل سمة مشتركة لدى جميع الكتاب بلا استثناء، مع تفاوت فيما بينهم بالطبع، في درجة العناية بتلك البيئة، وفي القدرة على التصوير والتعبير، وهي مسألة تتعلق في الواقع بمدى تجذر الكاتب في بيئته، وبعبقريته الفردية الخاصة.

والحقيقة أن كاتب ياسين ـــ بشهادة معظم المتخصصين في الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية ـــ يعد من ألمع الكتاب الذين غاصوا في أعماق البيئة الجزائرية، وعبروا عنها أروع تعبير وأصدقه. وبالطبع، فإن الجزء الأكبر في هذه القدرة يعود إلى عبقريته الخاصة التي لا تقبل أي تعليل، سوى أنها موهبة ربانية لا دخل له فيها، لكن، هناك جزء منها يرجع إلى أسلوبه المتنوع الذي اختاره في

* وبناء عليه، يمكن أن يعكس الكاتب، بطريقة لا واعية، شكلا من أشكال هذا الإرث الثقافي الضارب بجذوره في أعماق المجتمع والتاريخ، ومن هنا تصبح فكرة أن يكون كاتب ياسين قد تأثر، دون وعي منه، بظاهرة التكرار في موروث الشعر العربي القديم، فكرة مقبولة، ولكن الاعتراض عليها يأتي من كونها لا تختص بالتراث العربي وحده، ولا تفسر إلا شكل الرواية وحسب.

الكتابة، فكوّن به، دون أن يقصد ذلك، مدرسة مغاربية جديدة في الكتابة باللغة الفرنسية[130].

ومن أهم ميزات تلك الكتابة توظيفه للأسطورة، التي جعلته يتخلص من رتابة السرد الواقعي، الذي رأيناه يثقل كاهل غيره من كتاب جيله وحررته من رقابة الوعي الذاتي، ومنحته مجالا أوسع للتعبير المجازي، والانطلاق في الأجواء الرحبة للتصوير الرمزي، ويتجلى ذلك على الخصوص في أسطرته لشخصية"كبلوت"، وهو الجد الأعلى للقبيلة، الذي جعل روحه تخترق حدود الزمان والمكان، وتتجلى لأفراد القبيلة في مخلوقات شتى تشعرهم بحضوره الدائم، وشخصية"نجمة"، التي جعل منها امرأة خارقة للعادة، تشكل عنصر جذب وتجميع لأفراد القبيلة تارة، وعنصر فرقة وتناحر تارة أخرى، بما تتمتع به من سحر وجاذبية وقوة تأثير على كل رجال القبيلة. وسوف نحاول فيما يلي أن نحدد معالم هاتين الأسطورتين، ونلم بمكوناتهما الرمزية[131].

---

130 فسلك مسلكه في هذا الاتجاه رشيد بوجدرة ونبيل فارس ورشيد ميموني من الجزائر، ومحمد خير الدين والطاهر بن جلون وعبد الكبير الخطيبي من المغرب، وعبد الوهاب مدّب من تونس. راجع :
Rachid Bousta « Potentiel de l'écriture Katébienne et son pouvoir d'engendrement d'autres écritures » in Colloque International sur Kateb Yacine, p178,179.

130 الأسطورة (mythe) حسب ما جاء في قواميس اللغة مشتقة من الكلمة الإغريقية (muthos) التي تعني"حكاية خرافية"، تجسد بشكل رمزي قوى الطبيعة من خلال كائنات حية مثل الحيوان أو الطيور أو الزواحف (قاموس، Robert من معانيها في اليونانية أيضا حسب الباحث التونسي محمد عجينة: الحكاية (récit) والسرد (narration)، والكلام يحكى في الأسواق. وتتداخل الأسطورة في معناها مع الخرافة، والقصص العجيبة، والقصص البطولية، حيث تغرق كلها في الخيال الذي يبعدها عن الواقع، على الرغم من أن لها جميعا أصلا في الواقع، إلا أن ما يميز بين الأسطورة وبين

اولا: أسطورة الجد"كبلوت":

في هذه الأسطورة، حاول الكاتب أن يعبر عن تشبث القبيلة، التي تمثل الشعب بشكل مصغر، هويتها ، وسعيها الدائب للحفاظ على مقوماتها الشخصية، عن طريق تقديسها لروح الجد"كبلوت"، مؤسسها الأول، والحفاظ على إرثه المادي والمعنوي، ونقله بأمانة إلى الأجيال اللاحقة، حتى تظل ذكراه حية دائما في العقول والقلوب، توحد شمل القبيلة في مواجهة الخطر الأجنبي، وتشد أزرها في محنتها، وتستنهض همة أبنائها، في مقاومة المحتل بالطرق السلبية، بعد أن فشلت في صده بالطرق الإيجابية عن طريق السلاح.

جاء الجد كبلوت مع أفراد من قبيلته، من"الشرق الأوسط"، وعبر هم البحر إلى إسبانيا ثم عاد ليترل هم في المغرب الأقصى، ومن هناك شدوا الرحال من جديد ليترلوا نهائيا بمنطقة"الناظور" بالشرق الجزائري. هذه خلاصة ما رواه سي مختار لرشيد عن أصل قبيلتهما وهما على ظهر الباخرة التي حملت الحجيج إلى البقاع المقدسة، وكانا متجهين في طريقهما من جدة نحو"بورسودان" بعد

هذه الأنواع من القص، أن الأسطورة يعتقد بها عند الشعوب البدائية، بينما لا يعتقد في لأنواع الأخرى، وتعد محض خيال، أو من"الأباطيل المستملحة". راجع المدخل المطول الذي كتبه الدكتور محمد عجينة عن الأساطير في"موسوعة أساطير العرب"ج1، نشر"دار الفارابي"بيروت، 1994، ولاسيما ص36 و63 إلى 65.

أن عدل سي مختار عن إتمام الرحلة إلى مكة، والقيام بشعائر الحج[132].

ونلاحظ عندما نتمعن في النص أن رواية سي مختار هذه تعاني من غموض شديد، ومن ثغرات عديدة، فقد روى أن كبلوت وأفراد قبيلته جاؤوا"من الشرق الأوسط"، دون أن يحدد من أي بلد في الشرق الأوسط (مع العلم أن عبارة"الشرق الأوسط" هي عبارة سياسية حديثة)، ولا من أي القبائل، ولا متى جاؤوا، ولا لأي سبب، ولا لماذا عادوا من إسبانيا، ولا لماذا نزحوا مجددا من المغرب الأقصى، ولا لماذا طاب لهم المقام أخيرا في"الناظور"، كما لم يذكر أي شيء آخر من صفات كبلوت إلا أنه رأس القبيلة وقائدها. كل هذه الأسئلة وغيرها تظل بلا إجابة، ولا نجد في ثنايا الرواية فيما بعد إلا القليل، وغير المؤكد، الذي يمكن أن يفيدنا بشيء في الإجابة عنها، ومن ذلك بعض التخمينات وبعض التكهنات التي يوردها سي مختار نفسه، كشكه مثلا في أن يكون"كبلوت" الأول قائدا للجند، أو شيخ قبيلة له قوة ونفوذ، ويستدل على ذلك بقوله: ((فمن المعروف أن عدة أجيال من الكبلوتيين كانوا ومازالوا إلى اليوم، يتعاطون ضروبا من النشاط، كان منهم طلبة العلم ينتقلون من مدينة إلى أخرى، وكان منهم الموسيقيون والشعراء أبا عن جد، لا يمتلكون من متاع الدنيا إلا القليل، ولكنهم يبنون لهم في كل

---

132 كاتب ياسين"نجمة"، ترجمة محمد قوبعة (نشر ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر1987 ص130، 131.وقد اعتمدنا في الاستشهادات على هذه الترجمة، حتى لا نضطر للترجمة من الأصل، خاصة أنها أقرب في روحها إلى الأصل — في رأينا — من أي ترجمة ظهرت لهذه الرواية حتى الآن. راجع الأصل أيضا: «Nedjma»Ed. du Seuil, Paris 1956. , pp124,125

جهة مساجد وزوايا، وفي بعض الأحيان مدارس إذا توفر عدد من المريدين والطلبة. ويحمل هذا على الاعتقاد بأن كبلـوت الأول لم يكن قائدا للجند ولا وجيها، بل كان صاحب مذهب، وكان فنانا، ولن يكون في هذه الحال شيخ قبيلة له القوة والنفوذ))[133].

لكن سي مختار يعود فيثير الشك في هذا التخمين نفسه، فيواصل كلامه قائلا: ((ويبدو هذا معقولا جدا لولا أن بعض الأحداث التي تبعت الاحتلال الفرنسي ترجعنا إلى ترجيح احتمـال أن يكـون كبلوت الأول ذا سلطان ونفوذ، شيخ قبيلة بدويـة، أو عـشيرة مسلحة تعيش منذ القرون الوسطى في جهة قسنطينة))[134].

وتثير رواية سي مختار الشك حول أصل القبيلة حينما يـذكر أن بعض الرواة أخبروه أن اسم"كبلوت" تركـي، ومعنـاه "الحبـل المقطوع"[135]، مما قد يفهم منه أن أصل القبيلة تركي، لكنه لا يعطي أي تعليل لهذه التسمية أيضا، وينساق إلى البحث عـن أصلها في اللغة العربية، ليجده في كلمة"حبل" التي يلاحظ أنها لا تختلـف عن"كبل" ــ التي اشتقت منها لفظة "كبلوت" ــ إلا في الحـرف الأول، وفي في آخر الكلمة*.

---

133 نفسه ، ص131 . (Nedjma, p124).

133 نفسه ، ص131 . (N, p124)

135 نفسه ، ص 130(N, p124)

* وواضح أن هذا البحث لا يفيد شيئا في أصل القبيلة، وإنما يضفي عليه مزيدا من الشك ــ كما ذكرنا ــ لأن المقارنة التي يجريها بين اللفظتين العربية والتركية تنطبق أيضا على لغات أخرى مثل الفرنسية والإنكليزية، حيث يستعمل اللفظ نفسه cable مع اختلاف في النطق، وتذكر القواميس أن أصل الكلمة في جميع هذه اللغات يعود إلى كلمة"حبل" بالعربية.

ولا يزيد سي مختار في ذهن القارئ إلا بلبلة حينما يحاول أن يبرر لمحدثه عدم إلمامه بكل تاريخ القبيلة. فيقول: ((لقد كان كبلـوت شيخ قبيلتنا في فترة متقدمة يصعب تحديدها في تعاقب الثلاثة عشر قرنا التي تلت وفاة الرسول)) [136].

ويضيف في مكان آخر قائلا: ((لقد مر من هنا بين مصر والجزيرة العربية آباء كبلوت، تتقاذفهم الأمواج مثلنا نحن الآن..)) [137].

وهذا ما يبعث على الاعتقاد أن القبيلة عربية الأصل، وأنها مـن المحتمل أن تكون قد جاءت مع الفاتحين المسلمين الأوائل، وخرجت معهم بعد خروجهم من الأندلس. ويؤكد هذا المعنى قـول سـي مختار، حسب رواية أخرى : ((يذهب أحد العلماء النسابة، الذين يعرفون تاريخ قبائلنا بالتفصيل، إلى أن كبلوت قد جاء من إسبانيا مع"أبناء الهلال" (بني هلال)، واستقر أولا بالمغرب، ثم قـدم بعـد ذلك إلى الجزائر)) [138].

غير أننا نلاحظ كم هي مبهمة هذه العبارة الأخيرة، وكم هـي مشحونة بالغموض، إذ يمكن أن تفهم علـى وجهـين، الأول: أن كبلوت ينحدر من بني هلال، ممن يكونون قد جاؤوا مع الفاتحين العرب الأوائل، وعاد مع أبناء عمومته من الهلاليين عندما سقطت الأندلس في يد الإسبان، والوجه الثاني أن عودة الجد من الأندلس،

---

136 "نجمة" ، ص 130.(N, p124)

137 نفسه ن ص 135. (N, p129).

138 نفسه، ص 130.(N, p124)

لسبب ما، تزامنت مع زحف بني هلال على بلاد المغرب، في منتصف القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي.

ولعلنا، إن نحن حاولنا أن نبحث عن السبب في هذا الخلط والغموض في معلومات سي مختار، أن نرجعه مثلا إلى الذاكرة المتعبة لهذا الرجل المسن، الذي تجاوز السبعين من عمره، كما يمكن أن نرجعه إلى طبيعة الثقافة الشفوية للقبيلة التي يختلط فيها التاريخ بالخيال، والحقيقة بالوهم، وتتعدد فيها الروايات وتتضارب، وتتعرض مع مر الزمن للزيادة والنقصان، لأن ما رواه سي مختار كان قد سمعه من والده، وكان والده قد سمعه بدوره من والده، ووالده من والده، وهكذا[139].

غير أننا نخشى، من ناحية أخرى، أن نخرج بالنص، بمثل هذه التعليلات والتأويلات، عن طبيعته التخيُّلية، فهو في نهاية الأمر نص إبداعي روائي، مع العلم أن هذا الشكل المشوَّش له، بما ينطوي عليه من تضارب في الرواية، وغموض في المعنى، ووجود نقص في التفاصيل، وثغرات في المعلومات، هو بالذات ما يقربه من طبيعة الأسطورة، التي تنطوي ـــ كما هو معروف ـــ على كل هذه المواصفات. فالأسطورة لها منطقها الخاص الذي لا يقبل دائما التعليل المنطقي، ولا يفهم مضمونها إلا على وجه التقريب، وفي إطار هذا المنطق الخاص بها. والظاهر أن هذا هو ما قصد إليه المؤلف، فهو على أية حال لا يروي تاريخ قبيلة كبلوت بقدر ما يتخيله، أو على الأصح، بقدر ما تتخيله الذاكرة الجماعية للقبيلة.

---

139 "نجمة"، ص 130.(N, p124)

وعلى أية حال، ومهما كانت طبيعة الرواية التي نتحدث عنها، فإنه لا يفوتنا أن نلاحظ هنا أن المؤلف يتحدث عن قبيلة حقيقية هي قبيلة "كبلوت" التي ينحدر منها هو شخصيا، والتي توجد مضاربها بالفعل حتى يومنا هذا في المنطقة التي تسمى الناظور، وبالتحديد في سهل يقال له"واد الملح"، وفي مكان يدعى"عين غرور" على بعد حوالي ثلاثين كيلومتر نحو الشرق من مدينة"قالمة"[140]، وهي، حسب أرجح الروايات، قبيلة عربية من بني هلال، وهناك جملة من الأدلة تثبت ذلك، منها موقعها الذي تترل فيه[141]، وتقاليدها العربية التي احتفظت بها على مر الزمن، ومنها حفظها لأنسابها، وتوارثها لقول الشعر وحفظه والتباري فيه، وقد ظلت هذه التقاليد قائمة حتى عهد المؤلف نفسه الذي نشأ في أسرة مغرمة بالشعر، ترويه وتقوله[142].

وقد تعرضت القبيلة فعلا للتقتيل والقمع والتشريد من قبل المستعمرين الفرنسيين، الذين وجدوا مبررا لفعلهم ذاك بعد أن عثر على رجل فرنسي وزوجته أو عشيقته مقتولين في مسجد القرية[143]، ويتناقل القوم رواية يفسرون بها لغز تلك الجريمة فيقولون

---

140 Jacqueline Arnaud in «Actes du premier congrès d'études méditerranéennes d'influence arabo-berbères». S.N.E.D, Alger 1972. Citeé par Mohammed Ismail Abdoun in «Kateb Yacine», Col. Classiques du monde. SNED-Nathan, Alger-Paris 1983, p45.

141 راجع محمد المرزوقي "منازل الهلاليين في الشمال الإفريقي" في أعمال الندوة العالمية الأولى حول السيرة الهلالية التي عقدت في الحمامات بتونس في الفترة ما بين 26 و29 جوان 1980، نشر الدار التونسية للنشر، والمعهد القومي للآثار والفنون بتونس 1990 من ص19 إلى ص30، ولا سيما ص 27.

142 Cf: Kateb Yacine «Le polygone étoilé», Ed. du Seuil, Paris 1979, p179.

143 Jacqueline Arnaud, op. cit, p45.

إن أعداءهم من قبيلة"أولاد ذهان" هم الذين قتلوا الفرنسي وزوجته
ونقلوه ليلا إلى مسجد كبلوت لإلصاق التهمة بهم ، وهـذا مـا حدث حين جمعت السلطات الفرنسية ستة أو سبعة من أعيان قبيلة كبلوت، وأعدمتهم بالمقصلة في مدينة قالمـة[144] ، ولأن السـلطات الاستعمارية كانت تتبع سياسة العصا والجزرة في آن واحد، فقـد عمدت في مرحلة لاحقة إلى إظهار شيء من اللين ، بغرض تسهيل إنجاز الجزء التالي من مخطط إضعاف القبيلة، وذلك بضرب بنيتـها الاجتماعية، وتمزيق لحمتها البشرية. وللوصول إلى هـذا الغـرض تقدمت إلى القبيلة بتعويضات مادية عن دم الأعيان الذين أعدمتهم، فمنحت لبعضهم أراضي فلاحية في نواحي عنابة حتى تبعدهم عن أرض آبائهم وأجدادهم، وأسندت لبعضهم الآخر وظائف في سلك القضاء الإسلامي، وأصبحوا بحكم وظيفتهم يتنقلون في طول البلاد وعرضها، وقد رأينا، في النبذة التي قدمناها عن حياة المؤلف كيف أثرت وظيفة والده هذه، على حياته ودراسته، فكانت ولادتـه في موضع، ودراسته الابتدائية في موضع آخر، والثانويـة في مكـان ثالث، وهكذا، وقسمت القبيلة تبعا لهذه الهدية المسمومة إلى أربعة فروع، وأعطت لكل فرع لقبا اعتباطيا مخالفا للفـروع الأخـرى، وسجلت ذلك في سجلات الحالة المدنية، حتى يتخذ الأمر طابعـا رسميا، ومن هنا جاء لقب"كاتب" الذي يحمله المؤلف، نـسبة إلى الوظيفة الإدارية التي أسندت إلى الفرع الذي ينتمـي إليـه جـده ووالده، ولم يبق إلا الفرع الرابع من القبيلة في منطقة الناظور، وهو

144 J. Arnaud, «Actes du premier congrès d'études méditerranéennes...», p45.

الفرع الذي حرم من التعويض. حدث هذا في الفترة ما بين 1854 و1882[145].

على هذا النحو تم التخطيط لإضعاف قبيلة كبلوت، والقضاء على وحدتها، لأن الدافع الحقيقي لوضع هذا المخطط وتنفيذه إنما كان بسبب أن القبيلة كانت تساند الأمير عبد القادر، وكان بعض رجالها من أمثال جد والد مراد (أحد أبطال الرواية) من المقاتلين في جيش الأمير[146]، وعلى هذا الأساس تكون عملية إعدام الأعيان نفسها مدبرة من قبل، وداخلة في هذا المخطط، وإنما كان يبحث لها عن ذريعة، وقد جاءت الذريعة ممثلة في مقتل الزوجين الفرنسيين. لكن القبيلة لم تستسلم للأمر الواقع، وطورت أساليب مقاومتها لتتلاءم ووضعها الضعيف إزاء المحتل: ((فاستجمعت القبيلة المستأصلة أواصرها، وأكثرت من الزيجات بين الأقارب، واستعارت لها ألقابا أخرى لا تعرف بها حتى لا تقع تحت طائلة العمليات الانتقامية، وأبقت الجماعة بعض الشيوخ والأرامل والأطفال في أرض الأجداد التي دنست، كي تبقى آثار لقبيلة المقصومة قائمة))[147].

هذه إذن، باختصار شديد، ملحمة قبيلة كبلوت مع المستعمرين الفرنسيين، الذين عملوا على ضرب القبيلة في صميم بنيتها الاجتماعية والبشرية، حتى لا تقوم لها قائمة في المستقبل تهدد

145 Ibid, p45.

146 راجع : نجمة ص80 (N, p77).

147 نجمة ، ص132 (N, p126).

وجودهم، فكان ذلك محنة كبيرة للقبيلة، حاولت بكل الطرق والوسائل التغلب عليها، من أجل الحفاظ على كياها ووجودها.

والواقع أن المؤلف لم يفعل شيئا آخر سوى أنه حاول أن يروي مأساة قبيلة كبلوت كما وقعت في التاريخ فعلا، إلا أنه استعان في توصيلها إلى القارئ بأساليب سردية شتى، وبطرق فنية جمالية متنوعة، ترتفع بها إلى أقصى حدود قوة التعبير والتصوير والتأثير، وذلك بالتحديد هو ما خرج بها من حدود الواقع والتاريخ إلى حدود العمل الفني، الذي يتجاوز حدود المكان والزمان، إلى الدائم والمستمر، ومن الحالة الخاصة إلى النموذج العام الذي ينطبق على عشرات القبائل الجزائرية التي حدث لها مع الاستعمار ما حدث لقبيلة كبلوت، ومن ثمة أصبحت محنتها معبرة عن محنة كل الجزائريين، الذين تعرضوا على يد الاستعمار لأكبر محاولة تدمير لهويتهم الوطنية في تاريخهم الطويل*.

ولا يفوتنا أن نلاحظ ، من جهة أخرى، الحضور الحقيقي للمؤلف في الرواية، ممثلا في شخصية"الأخضر". فقد روى في"نجمة"، وفي"المضلع النجمي" تفاصيل كثيرة عن أطوار حياته المختلفة، من النشأة الأولى، إلى حياة الغربة والتشرد في أنحاء فرنسا مع مطلع عقد الخمسينيات، مرورا بحياة الدراسة، ومشاركته في مظاهرات مايو

* هناك إشارات كثيرة متفرقة في الرواية إلى ماضي الجزائر في مختلف العهود وتأملات في ذلك الماضي، ومحاولة الوقوف على القواسم المشتركة بين ممارسات الاستعمار القديم، وخاصة الاستعمار الروماني، والحديث ممثلا في الاستعمار الفرنسي، راجع على سبيل المثال لا الحصر الصفحات: 157 إلى 161 ومن الصفحات 187، 188، 191، أو ما يقابلها في الأصل : Nedjma», pp151 à 155 et 180, 181, 183.

1945، واعتقاله، وطرده من الثانوية إلخ.. .* ومن هنا يتضح لنا أن المؤلف قد تعمد أن "يؤسطر" أحداثا حقيقية ووقائع تاريخية، تتعلق به شخصيا، وبأسرته وقبيلته وبجده الأعلى "كبلوت"، وذلك لدواعي فنية في المقام الأول ــ كما أشرنا آنفا ــ ثم لدواعي فكرية بعد ذلك، بحيث سمح له جو الأسطورة الذي أسبغه على الأحداث بأن يختزل تفاصيل كثيرة في رموز قليلة، وأن يمنحه الحرية الكاملة في التنقل، دون حدود ولا قيود، عبر الزمان والمكان، حسب تداعيات الذاكرة، وهذا ما لمسناه في رواية سي مختار السالفة الذكر عن أصل قبيلته.

وتشيع روح الأسطورة في النص كلما تعلق الأمر بالجد "كبلوت" حيث يضفي عليه الراوي جملة من الصفات بغرض التعظيم من شأنه، ورسم صورة له تمجده في عيون أحفاده. وتتطابق صورة الجد هذه في الرواية مع صورة كبلوت في موروث القبيلة في الواقع الحي، حيث يعتبره المنحدرون من نسله شخصية غير عادية، وينسبون إليه بعض الخوارق، مثل قراءة الغيب، وشرب الماء المغلي، كما أن معرفته العميقة بالقرآن جعلته في عيونهم من القديسين[148].

* وهكذا نلتقي مرة أخرى بالسيرة الذاتية للكاتب، التي رأيناها من قبل ترتسم في أجزاء عديدة من روايات مولود معمري ومحمد ديب وغيرهما، وكنا قد أشرنا إلى ذلك في حينه، غير أن ما تجدر الإشارة إليه بهذا الصدد أن السيرة الذاتية في "نجمة" بجزئيها هي أقوى وأظهر منها في أعمال معمري وديب المشار إليها، ومن هنا يمكن الاعتماد ــ حسب رأينا ــ في بعض المسائل المتعلقة بحياة الكاتب، ولاسيما نشأته الأولى، على نص الرواية نفسها، لا كنص متخيل، ولكن كشهادة من المؤلف عن نفسه.

148 Jacqueline Arnaud, op.cit, p 45.

ويشكل هذا الموروث الأسطوري ـــ الذي يتكوّن من الحكايات الخارقة للعادة، والأقوال المأثورة، والأشعار، والروايات المتفرقة ـــ الذاكرة الجماعية التي يعرف بها أفراد القبيلة ماضيهم جيلا بعد جيل، والوسيلة المثلى التي يعبرون بها عن شخصيتهم الجماعية[149]. وتتخذ شخصية الجد في هذا الموروث مظهرا آخر للأسطورة حين تقرن في الغالب، على سبيل التشبيه، ببعض الحيوانات والطيور، وخاصة الأسد والنمر والنسر، ومن ذلك مثلا الصورة الخيالية التالية، التي يرسمها للجد حينما يظهر فجأة في زنزانة رشيد الذي كان يعاني القلق والوحدة في سجنه، في انتظار محاكمته عن هروبه من الجندية:

((وبدا له كبلوت، الجد الأسطوري، ذات ليلة في زنزانته، بشاربين كثين، وعيني نمر، وفي يده هراوة، وتجمعت القبيلة شيئا فشيئا في الزنزانة، وضاقت الزنزانة بالحضور المزدحمين بالمناكب ولكن لم يكن أحد منهم يجرؤ على الاقتراب من كبلوت، الجد الذي كان وجهه كوجه سبع))[150].

لكن، تبقى الصورة الحية التي رسمها المؤلف للجد كبلوت في الرواية هي صورة النسر بما يحمل من دلالات قوية عن معنى القوة والمنعة والحرية، فقد جعل روح الجد تحل في هيئة نسر يحلق في أعالي الناظور، ويحوم باستمرار حول مضارب القبيلة، ليذكر أبناءه وأحفاده دوما بوجوده بينهم، وبأنه غير راض عن وضعهم المهين

149 Ibid, p 45.

150 نجمة، ص139.(N, p134)

الذي انحدروا إليه: ((كان النسر الذي جاوز المائة من السنين قد تركته خليلته، وتركه أبناؤه منذ أمد بعيد (...) كان يجر نفسه خارج وكره، كأنما يريد تكذيب نبإ موته أمام القبيلة المنكوبة، ليطير كل مرة فجأة بعد جهد جهيد شاق)) [151].

كان النسر، باعتباره رمزا لشرف القبيلة وأصالتها وسؤددها، ينتظر اليوم الذي يخلصه فيه أبناؤه وأحفاده من الحصار والأسر، وكان يعبر أحيانا عن سخطه عليهم برجمه لهم بالحجارة والصخور، لعدم رضاه عن تباطئهم وتهاونهم في القيام بتلك المهمة النبيلة:

((كانت تلك الصخور تقع دون أن تلقى جوابا، ولكن وقوعها كان يعزي القبيلة عن هزيمتها، كما لو كان فألا ينبئ بقدوم قوة علوية لم يكن القدماء يعرفونها)) [152].

لكن الاستجابة لم تأت في نهاية الأمر من الأحفاد الذكور، وإنما جاءت من الإناث، فقد أثار النسر فضول أختي مصطفى (أحد أبطال الرواية الرئيسيين) اللتين لجأتا مع أمهما، بعد وفاة والدهما، إلى الناظور، فقررتا الاستجابة لندائه: ((شاهدتا النسر المحاصر المأسور يرميهما من أعالي الجو بالحجارة، فصعدتا الجبل دون توان ولا تراجع نحو الوكر المتسع التي تعصف الريح فيه بعنف)) [153].

وتطورت الأحداث بسرعة، حيث اختفت الأخت الصغرى ذات مساء من أماسي الصيف، وراحت البنت الكبرى تبحث عنها،

---

151 نفسه، ص 138. (N, p133)

152 نجمة، ص 138. (N, p133)

153 نفسه، ص 138.(N, p133)

ولكنها وُجدت في اليوم التالي عند سفح الجبـل، وقـد فارقـت الحياة[154].

وبعد هذه الحادثة اختفى النسر نهائيا، وكان ذلك علامة، حسب تأويل عجائز القبيلة، على أنه قبل القربان الذي دفعته له القبيلـة، متمثلا في الفتاتين الضحيتين، وهدأت روحه القلقـة، وأن الفـرج قريب: ((وتوارى النسر إلى الأبد، فلم يعد يظهر، وانقضت عجائز القبيلة الثرثارات على اللغز يؤولنه: إن كان النـسر قـد مـضى بفريسته، كان ذلك دليلا على أن اللعنة التي حلت بالقبيلـة آذنـت بالزوال، بفضل العذرائين اللتين قدمتا قربانا لتطمئن روح كبلـوت في رقدتها))[155].

والمقصود باللعنة هنا هي لعنة الاستعمار الذي حـل بالقبيلـة، كعقاب إلهي لها على ما ارتكبه بعض أبنائها مـن معـصية ــ لأن المسؤولية جماعية في القبيلة ــ مخالفين بذلك وصايا الجد، ومدنسين قيم القبيلة الأخلاقية والدينية. لقد ارتكبت بين ظهرانيهم جريمة مضاعفة هي الزنا والقتل في مسجد القرية، فاستوجب ذلك غضب الإله عليهم، فابتلاهم بالاستعمار الذي عاث في القرية فسادا، وقتل من قتل من أبناء القبيلة، وحكم على من بقي منهم على قيد الحياة بالنفي والتشرد في أنحاء البلاد[156].

---

154 نفسه، ص 139 (N, p133).

155 نجمة ، ص139. (N, p133).

156 نفسه ، ص139. (N, p133).

وبهذا التأويل الخرافي للأحداث لا يكون المؤلف قد وظف شكل الأسطورة وطرائقها في روايته وحسب، ولكنه يكون قد وظف مضمونها المأساوي أيضا، الذي يذكرنا كثيرا ببعض أساطير اليونان القديمة*. وقد أكدت إحدى الباحثات، في دراسة مستفيضة لرواية "نجمة"، هذه العلاقة الوطيدة بين مضمون الرواية ومضمون المأساة اليونانية، ولاسيما في توفر ما أسمته بـ"عنصري المتعة المأساوية"، المتمثلين في عاملي إثارة عاطفتي الخوف والشفقة لدى المشاهدين[157].

ثانيا: أسطورة"نجمة":

لقد أضفى المؤلف على شخصية هذه المرأة من الظلال والأخيلة ما جعلها تخرج عن حدود الطبيعة البشرية للمرأة لتصبح أسطورة حقيقية، وهي تتقاطع مع أسطورة"كبلوت" وتتكامل معها لتشكل الوجه الثاني المؤنث ــ إن صح التعبير ــ لهوية القبيلة، لأنه إذا كان كبلوت يرمز إلى العنصر البشري للقبيلة، وإلى تاريخها، فإن "نجمة" ترمز للأرض التي لا يمكن أن يكون للقبيلة وجود بدونها، وهي بالتالي ترمز للجزائر في بعدها الجغرافي، ولكن في تلاحم كامل مع التاريخ.

---

* ذكرنا هذا مثلا بأسطورة أوديب الشهيرة، حين غضبت الآلهة على أهل مدينة طيبة وأنزلت عليهم الوباء ، عقابا لهم على ما وقع في مدينتهم من معصية، وذلك حين قتل أوديب والده (جريمة قتل الأب)، وتزوج أمه (جريمة زنا المحارم).

157 Zoubida Boutaleb «Réalité et symbole dans Nédjma» O.P.U Alger 1983, p174,175.

ونظرا للحشد الهائل من الدلالات التي حاول المؤلف أن يحمّلها لبطلة روايته، فإنه من المناسب أن نبحث أولا في دلالة الاسم الذي أعطاه لها وهو"نجمة" من الناحية اللغوية، ثم نبحث في نواحي أخرى تسمح لنا بالكشف عن أسباب اختيار المؤلف لهذا الاسم، لأن كل الدلائل تشير إلى أنه لم يكن اختيارا اعتباطا.

إن اسم"نجمة" هو في الواقع من الأسماء المتداولة بكثرة، التي تسمى بها المرأة في بلاد المغرب عامة، والشرق الجزائري خاصة، ويستعمل كمؤنث"نجم"، جريا على القياس، وهو اسم جنس يدل، كما هو معروف، على كل جرم سماوي يضيء من نفسه، ويطلق على النساء كناية على الجمال والرفعة، ولم تستعمله العرب ـ حسب اطلاعنا ـ كاسم علم إلا مذكرا[158]، ولذلك كانوا يطلقون على الرجال دون النساء، فإذا أرادوا تسمية المرأة بالنجم أطلقوا عليها اسم"الثريا"، وهي لفظة مرادفة لكلمة"نجم" أيضا[159]*.

أما من الناحية الواقعية، فإن"نجمة" هي بالفعل"امرأة حقيقية كان يحبها الكاتب"، وقد صرح هو نفسه بذلك، إلا أنه أوضح في التصريح نفسه قائلا: ((لم أكن أريد وأنا أكتب الرواية، أن أحكي

---

158 وقد ورد في العديد من آي القرآن مذكرا أيضا، ومنها مطلع سورة"النجم" حيث جاء الاسم فيها مذكرا بشكل واضح وصريح: {والنجم إذا هوى }.

159 راجع : ابن منظور"لسان العرب"، مادة"نجم"، طبعة دار صادر ودار بيروت 1962.

* والنجمة في"لسان العرب" معناها"نوع من الشجر" وأيضا"النبتة الصغيرة"، ولها معنى ثالث هو"الكلمة"، وهي مشتقة من الفعل"نَجُمَ" بمعنى ظهر أو طلع، ولا نعتقد أن اسم"نجمة" أو"نجم" مستعار من هذه المعاني ، راجع: لسان العرب مادة "نجم" .

قصة هذا الحب، وإنما كنت أريد أن أقول كل شيء عن الجزائـر، وأن أعطي عنها صورة، فبرز ذلك في صورة امرأة))[160].

ومعنى هذا أن الكاتب حينما كان يتحدث عن"نجمة" إنما كـان يقصد الجزائر، وهذا ما يفسر ذلك الجانب الأسطوري في شخصية"نجمة" ويجعل منها لغزا محيرا، غير أن استحضار الكاتب لصورة الجزائر في ذهنه كان ـــ على ما يبدو ـــ يستدعي بشكل آلي صورة المرأة التي كان يحبها، ولذلك يلاحظ القارئ أن الصورتين كثيرا ما تتداخلان في ثنايا الرواية، ويختلط عليه الأمر فيما إذا كان الروائي يتحدث عن المرأة أم عن الجزائر، وهذا التداخل هو ما يفسر ذلك الطابع الأسطوري الملغز الذي يسبغه الكاتب أحيانا على شخصية"نجمة"، ويخرج بها من الطبيعة البشرية للمرأة، لتكتسي صورة خيالية غريبة وملغزة.

من ناحية أخرى، أصبح معروفا أن ياسين قد ربط في ذهنه بين اسم "نجمة" وبين الشكل الخماسي الذي تبدو به الجزائر على الخريطة الجغرافية، من جهة ، وبين هذا الشكل وبين النجمة الخماسية التي تتصدر العَلم الجزائري من جهة أخرى*، وتضيف

---

160 «Dictionnaire des auteurs maghrébins...» p138.

* ولا يخفى علينا أيضا أن العلم الجزائري الحالي هو نفسه علم الأمير عبد القادر الذي كان كاتب ياسين معجبا به، باعتباره رائد المقاومة الجزائرية في العصر الحاضر، وكان محاضرته عنه التي تحمل عنوان "عبد القادر واستقلال الجزائر" من كتاباته الأولى، ونشرت في شكل كتيب صغير سنة 1948 بمطبعة النهضة بالجزائر.

إحدى الباحثات إلى هذا التأويل اسم"نجم شمال إفريقيا"، لما لـه ـ كما تقول الباحثة ـ من قيمة لدى الوطنيين مثل كاتب ياسين[161].

وقد برزت الاستعارة المشار إليها مرة أخرى في عنوان الجزء الثاني من رواية"نجمة" الذي أطلق عليه اسم"المضلع النجمي"، حيث يبدو واضحا أن المؤلف يربط بين شكل خريطة الجزائر والنجمة الخماسية، حتى وإن جاء الاسم هنا مذكرا، وفي هذا الجزء نجد المؤلف يشبه الجزائر بصريح العبارة في إحدى الفقرات بـ"نجمة المغرب" حيث يقول: ((..إفريقيا بأكملها ستتحرر من الشمال إلى الجنوب، وستجعل من الجزائر مقفزها، بيتها، مبدأها، نجمة مغربها))[162]. ومن هنا ـ وبناء على هذه الدلالات والأدلة ـ يمكننا أن نستنتج بكل اطمئنان أن اختيار الكاتب لاسم بطلة روايته قد جاء عن قصد، وعن وعي كامل ببعدها الرمزي، ولا يمكن بأية حال من الأحوال أن نرجعه إلى الجانب غير الواعي من العملية الإبداعية، وإن كنا لا ننكر هذا الجانب فيه.

يحدثنا المؤلف في البداية عن"نجمة" كما يحدثنا عن امرأة عادية، بل عن طفلة عاشت يتيمة الأبوين، حيث أنها لم تعرف لها أبا، وتخلت عنها أمها وهي في الثالثة من عمرها فتبنتها"للاّ فاطمة" التي كانت عاقرا، واتخذتها ابنة لها[163]، وبعد هذه المعلومات العامة لا نجد في

---

161 Denise Brahimi «Elan,brisure et résurgence» in Colloque International sur Kateb Yacine,p80.

162 "Le polygone étoilé», p142.

163 نجمة ، ص109 . (N, p104)

ثنايا الرواية أية تفاصيل أخرى عن طفولة نجمة وعن مرحلة المراهقة في حياتها، وينقلنا المؤلف مباشرة إلى مرحلة النضج والزواج.

وفي هذه المرحلة نجد أنها لم تكن سعيدة في حياتها الزوجية، فقد تزوجت دون رغبة منها زواجا غير متكافئ، تزوجت من كمال، وهو رجل ضعيف، مسالم، يحي حياة هادئة لا يعكر صفوها رغبة في التغيير أو التطوير أو الطموح في الوصول إلى هدف معين في الحياة. تزوجها "لأن أمه أرادت له أن يتزوجها"[164]، وقبلت نجمة الزواج منه نزولا عند رغبة مربيتها "للاّ فاطمة"، التي مارست عليها كل وسائل الضغط، لأنها رأت في ضعفه حماية لها من ظلم الرجال وتجاوزاتهم، قالت لها: ((إنه رجل طيب، دمث الأخلاق، حلو المعاشرة، حتى يخيل للمرء أنه ليس بن أمه (؟)، من ذا تريدين بعلا؟ أتريدين جلفا يبيع حليك ومصوغك؟ أتريدين سكيرا؟))[165].

وواضح أن هذا الخطاب لا يوجد فيه أي شيء غريب أو غير عادي، ويمكن أن يؤخذ على ظاهره، ويفهم منه أن المؤلف يتحدث عن امرأة عادية لم تكن محظوظة في طفولتها ولا في زواجها، ومع هذا فإن النص هو من قوة الإيحاء بما يسمح لنا بتأويله بشكل أو بآخر، بالرجوع مثلا إلى تاريخ الجزائر، ومحاولة البحث عن هذا الرجل الضعيف الذي حكم الجزائر في يوم من الأيام، ولم تكن له همة ولا طموح يؤهلانه لحكم هذا البلد، الذي قد نراه في شخص الداي حسين، أو بلقين بن زيري، أو يوبا الثاني، أو ماسينيسا، إلخ،

164 نفسه، ص69. (N, p67)

165نفسه، ص71،70 (N, p69)

وهذه القابلية الكبيرة للتأويل هي التي تعطي لهذا النص الروائي قيمته الأدبية.

ويمضي الكاتب في تصوير شخصية نجمة على هذا النحو الذي تبدو فيه امرأة عادية لا تختلف في شيء عن كثير من النساء، لكن سرعان ما تتغير هذه الصورة حين يروح الكاتب يكشف عن جوانب غير عادية فيها، فجمالها عادي ولكنه يحمل سحرا خاصا يفتن كل من يراها من الرجال ويسلبه إرادته، ويجعله أسير هواها على نحو غامض لا يقبل التفسير. هذا ما يعبر عنه مثلا مصطفى، أحد أبطال الرواية في مذكراته حين يتحدث عن افتتان"الكاتب" (وهو شخصية غامضة في الرواية) بنجمة، فيقول: ((روى الكاتب نفسه أنه يوم رأى نجمة للمرة الأولى عن كثب، قد اهتز قلبه لها بعنف. إنك لتجد نساء قادرات على كهربة الجو من حولهن، وإثارة الحديث عنهن..))[166].

كأن مصطفى، وهو يسجل هذا الاعتراف في مذكراته، إنما يحاول أن يقنع نفسه بأنه ليس الوحيد الذي وقع في أسر"نجمة". ومن هنا يحدث نوع من الانزياح تتجاوز فيه شخصية نجمة حدود الواقع والمألوف، وتتخطى صفة كونها امرأة يهيم في حبها الرجال، ويتنافسون من أجل الظفر بها، لتتخذ بعدا رمزيا وأسطوريا، تتلاشى فيه صورة المرأة شيئا فشيئا، لتحل محلها صورة الجزائر بجمالها وجلالها، بماضيها وحاضرها، بآلامها وآمالها، ويصبح الخطاب الروائي خطابا مزدوجا، أشبه ما يكون بالحديث الصوفي

166 نجمة، ص87. ((N, p84)

الذي يحمل ظاهرا وباطنا، فيتحدث عن نجمة المرأة، في الوقت الذي يعني فيه الجزائر الوطن، والعكس صحيح، وقد ساعد على تجسيد هذه الدلالة المزدوجة أن الروائي قد تعمد في حديثه عن البطلة أن يكون دائما بضمير الغائب، وأن يكون مبهما في معظم الأحيان، وبعيدا عن التعبير المباشر، وخاصة إن تعلق الأمر بوصف جمالها ومفاتنها الجسدية. وهنا تتجلى لنا في شخصية"نجمة" ميزة أخرى غريبة ومتعارضة، تكسبها إحدى الصفات الأسطورية التي أشرنا إليها من قبل، ونعني بها ميزة الحضور والغياب في آن واحد، فهي غائبة في معظم فصول الرواية، لا تظهر إلا قليلا، ولا تتحدث إلا أقل من ذلك، ولا يأتي ذكرها، في غالب الأحيان، إلا بضمير الغائب، ولكنها مع ذلك دائمة الحضور، وبإلحاح قوي، مع أبطال الرواية: مراد والأخضر ومصطفى ورشيد، الذين كانوا يتنافسون في حبها، ويتشاجرون من أجلها، وقد يصل بهم التنافس ودوافع الغيرة في حبها إلى استعمال الخناجر أحيانا[167]. لقد كان طيف نجمة يداعب أحلامهم دائما، ويملأ عليهم حياتهم، ويخفف وطأة المعاناة عليهم في ظلمة السجن، وكان حبها عامل فرقة وتنافر وتناحر بينهم، كما كان في الوقت نفسه عامل توحيد يجمع بينهم على هدف واحد. وهذا نفسه يعد أحد مظاهر التعارض الذي أشرنا إليه في شخصية نجمة، فقد كان غيابها يوحدهم، وحضورها يسبب الفرقة والاختلاف بينهم.

---

167 ذلك ما وقع بين رشيد ومراد اللذين تقابلا في السجن، فاغتنم الأول فرصة الظلام في الزنزانة ليطعن الثاني بخنجره، لأنه كان يعتقد أنه استمال نجمة واستأثر بحبها. راجع: نجمة، ص41. (N, p42)

ولا يفوتنا أن نلاحظ هنا أن هؤلاء الأبطال، ومن ضمنهم نجمة، كانوا جميعا من أبناء قبيلة كبلوت، وتجمع بينهم صلة القرابة بشكل من الأشكال، فهم إما إخوة من الأب أو الأم، من زواج ثان أو ثالث، مثل مراد والأخضر، وإما أبناء عمومة أو خؤولة مثل مصطفى ورشيد، غير أن بعضهم لا يعرف صلة القرابة هذه أو لا يعرفها إلا على وجه التقريب، لأن تشتت أبناء القبيلة في كل مكان جعلهم لا يعرفون بعضهم بعضا، والشخص الوحيد الذي كان يعرف بدقة أنسابهم وصلة القرابة بينهم على وجه التحديد، ويعرف حتى بعض الخفايا المتعلقة بصلات محرمة كانت بين آبائهم وأمهاتهم، هو سي مختار، لأنه كان هو نفسه أحد أبطال تلك المغامرات العاطفية المحرمة، وقد جاءت نجمة نفسها نتيجة تلك المغامرات، حيث أنها بعثت إلى الوجود إثر عملية اغتصاب لأمها الفرنسية من قبل أربعة رجال من قبيلة كبلوت كان أحدهم سي مختار نفسه، وكان الآخر هو"سيدي أحمد" والد رشيد، الذي وجد في الصباح مقتولا عند باب المغارة[168]، وإلى هذا يشير رشيد حين يقول عن نجمة: ((نجمة التي كان الرجال يتنازعون، لا حبها فحسب، بل أبوها أيضا))[169].

وكان رشيد قد عرف بعض تلك الخفايا من سي مختار، بما في ذلك بعض الأمور المحرمة، وذلك بحكم مصاحبته لرشيد مدة طويلة، وأيضا من منطلق أنه كان حريصا على إبقاء تاريخ القبيلة

168 نجمة، ص186. (N, p179)
169 نفسه، ص 186. (N, p179)

حيا في الأذهان، وكان يحاول أن يجمع شمل القبيلة ويقنع أبناءها بضرورة العودة إلى الناظور، أرض الآباء والأجداد.

وهناك صفة ثالثة ثنائية المظهر، ومتعارضة نجدها لصيقة بنجمة، ولها علاقة بالناحية الأسطورية والطابع المأساوي الذي أشرنا إليه آنفا، ألا وهي صفة الضحية/الجلاد في آن واحد بالنسبة لعشاقها[170]، وفي هذا الصدد يقول مصطفى عنها، معبرا عن خيبة أمله في حبها: ((إنها ليست سوى إرهاص الخيبة وأريج الليمون))[171].

ويصفها مصطفى في موضع آخر بـ"شؤم القبيلة"على لسان"أحد الصعاليك الشرفاء ممن شاهدوا ميلاد نجمة"[172]، فيقول عنها: ((نجمة التي ستهلكنا. نجمة طالع شؤم قبيلتنا))[173].

وترجع صفة الضحية/الجلاد إلى معاناة"نجمة" التي عرفت "اليتم" صغيرة، وحرمت من حنان الأب والأم، وأرغمت في شبابها على الزواج من رجل ضعيف، لم تكن سعيدة معه، ولذلك فقد كانت تتلذذ بتعذيبها لعشاقها فتقول: ((سأحبسهم في سجني ما داموا يحبونني، وسيكون القرار الفصل ـــ بطول الزمن ـــ في يد السجينة))[174].

هذا بالنسبة لنجمة المرأة، أما بالنسبة لنجمة الوطن، فإن الكاتب يؤكد على صفة الضحية/الجلاد في شخصها، ولكن بشكل أكثر

---

170 أو ما تسميه الباحثة زبيدة طالب "مظهر اللعنة: l l'aspect maléfique" راجع: Zoubida Boutaleb «Réalité et symbole dans Nédjma», p118.

171 نجمة ، ص87. (N, p84)

172 نفسه ، ص196. (N, p188)

173 نفسه ، ص196. (N, p188)

174 نفسه ، ص69 . (N, p67)

تكثيفا، حيث يتخذ بعدا رمزيا قويا، يلخص فيه الراوي أطوارا من تاريخ الجزائر مع مغتصبيها الكثيرين عبر العصور، الذين وإن تمكنوا من قهرها في فترة من الفترات، إلا أنه لا أحد منهم استطاع أن يحتفظ بها: ((..ذاك هو جمالها الغامض..كانت كـ"صلامبو"*، فقدت عذريتها فغدت ثيبا، وعاشت أطوار مأساتها، كانت كراهبة أريق دمها..كانت امرأة متزوجة، لم أعرف أحدا عاشرها واختلط بها دون أن يفقدها وبذلك كثر المتنافسون عليها))[175].

بهذه الكيفية تأخذ نجمة بعدا أسطوريا في الرواية، وتنمحي الحدود فيها بين المرأة والوطن.

* * *

* "صلامبو" هي ابنة الحاكم القرطاجني الذي حكم المدينة بعد الحرب البونيقية الأولى (241 — 237 ق.م) ووقعت على عهده ثورة المرتزقة الذين كان القرطاجنيون قد استعانوا بهم في حربهم ضد الرومان، وقد خلد الكاتب الفرنسي شخصية"صلامبو" في روايته الشهيرة التي أصدرها سنة 1862، وتحمل اسم "صلامبو"، وقد سلمت نفسها لزعيم المرتزقة"ماتو" من أن تستعيد منه ما أخذه من المعبد المقدس للآلهة"تانيت".

175 نجمة ص184. (N,p177)

الفصل السادس
من التمرد إلى الثورة

الموقف من الثورة يحدده الانتماء القومي

قد يسبق الكاتب المبدع الأحداث الكبرى أحيانا فيتنبأ بحدوثها على نحو رمزي، قبل وقوعها بزمن، بفضل ما يتمتع به من إحساس مرهف، ودقة ملاحظة، وقدرة غير عادية على استشفاف الواقع، وهذا ما وقفنا عليه في الأعمال الروائية التي تعرضنا إليها في الفصل السابق، التي حملت كلها إشارات تحذير واضحة — حتى وإن تفاوتت قوة ووضوحا من عمل إلى آخر، ومن كاتب إلى آخر — من مغبة ما سوف يحدث في المستقبل، نتيجة للظلم الاجتماعي، والقهر السياسي، اللذين بلغا أقصى مداهما في فترة الحرب العالمية الثانية والسنوات التي تلتها، وكانت مجازر شهر مايو 1945 بمثابة المؤشر الذي جعل حدوث تلك الثورة المرتقبة أمرا شبه محتوم. ومع هذا، وحينما اندلعت الثورة فعلا في الفاتح من نوفمبر 1954، فإن أولئك الكتاب أنفسهم، الذين تنبؤا بالثورة، قد لاذوا بالصمت لسنوات عديدة، قبل أن ينتقلوا بعد ذلك إلى اتخاذ المواقف مما حدث ويحدث، عبر كتاباتهم الإبداعية واحتاج ذلك إلى ما

يقارب الأربع سنوات لتظهر في سنة 1958 أولى الأعمال الروائية المتعلقة بالثورة المسلحة، ممثلة في رواية"الانطباع الأخير" لمالك حداد، ولم يصدر من هذه الأعمال في السنوات الأربع اللاحقة من عمر الثورة إلا عدد محدود، لا يتجاوز، في الواقع، عدد أصابع اليد الواحدة، ويأتي مالك حداد في المقدمة بإصداره لروايات ثلاث أخرى هي:"سأهبك غزالة" سنة 1959، و"التلميذ والدرس" سنة 1960، و"رصيف الأزهار لم يعد يجيب" سنة 1961، وبعده يأتي محمد ديب الذي أصدر رواية "صيف إفريقي" سنة 1959، و"من يتذكر البحر" سنة 1962. وأخيرا آسيا جبار بروايتها"أطفال العالم الجديد" التي كتبتها في صيف 1961، وصدرت بدورها سنة 1962.

والتزاما منا بالخطة التي وضعناها لهذا البحث، سوف نقصر حديثنا في هذا الفصل على الأعمال المذكورة، أي على الأعمال التي ظهرت في فترة الثورة، أو كتبت أثناءها، ونشرت على الأقل في السنة التي توقف فيها القتال، سنة 1962 *، وسنخص بالتحليل ثلاثة منها لا غير، وهي"الانطباع الأخير" لمالك حداد، و"صيف إفريقي" لمحمد ديب،

(*) لاسيما أن مواقف الكتاب تغيرت مع الوقت، وأفكارهم تأثرت بالأحداث السياسية التي أتت بعد الثورة ، وأصبح الموقف مما حدث بالأمس كثيرا ما تمليه ظروف الوقت الحاضر ، ومن هنا رأينا أن نقتصر في هذا البحث على دراسة الروايات التي تناولت الثورة وصدرت أثناءها ، على أن نخصص بحثا آخر في المستقبل للروايات التي كتبت عنها في فترة الاستقلال .

و"أطفال العالم الجديد" لآسيا جبار، لأن هذه الأعمال هي التي يمكن القول عنها إنها تناولت بالفعل أحداث الثورة المسلحة، وصورت جوانب مما كان يحدث فعلا في ثلاث مدن جزائرية، هي قسنطينة في شرق البلاد، وتلمسان في غربها، وشرشال في الوسط، أما الروايات الأخرى، فهي إما أنها تعالج مشكلات اجتماعية ولا علاقة لها بالثورة، مثل روايات آسيا جبار الأولى، وروايات مولود فرعون، وروايات لكتاب آخرين، وإما أن وقائعها لا تتناول الثورة إلا بشكل تجريدي رمزي، مثل رواية "من يتذكر البحر" لمحمد ديب، التي تشبه في أجوائها أجواء روايات الخيال العلمي، ومثل روايات مالك حداد الأخرى، التي تتناول الثورة بشكل جزئي، ولا تجري في الغالب بالجزائر، وما يتعلق منها بالجزائر يأتي في شكل ذكريات تكشف عن ماضي أبطاله، الذي يعود به في بعض الأحيان إلى زمن الحرب العالمية الثانية، بل إلى ما قبلها أحيانا (كما هو الحال في رواية "التلميذ والدرس") وهي من جهة أخرى شديدة الالتصاق بشخص الكاتب إلى درجة تجعل منها في بعض المواقف مذكرات شخصية للكاتب، تتعلق بإقامته القلقة أثناء سنوات الثورة بفرنسا، وتنقلاته بين المدن الفرنسية والسويسرية، وبمقابلاته لبعض أصدقائه القدامى، ولناشري أعماله الروائية، أما ما يتعلق منها بالثورة، فإن ذلك كان يأتي إما في شكل معاناة البطل (المؤلف)*،

*لا نجد في رواية "سأهبك غزالة" اسما آخر للبطل الراوي سوى اسم "المؤلف"، وهو بالفعل مؤلف روايات، أما في "رصيف الأزهار" فالبطل يحمل اسم خالد بن طوبال، وهو نفسه كاتب روايات، ويرد ذكره أحيانا بهذه الصفة وحدها: المؤلف.

بسبب تفكيره الدائم فيما كان يجري في الجزائر، وقلقه على مصير أسرته هناك، وإما في شكل أخبار سيئة ، يقرأها في الصحافة ، أو يسمعها في الراديو، أو تأتيه في شكل رسائل من الأهل، وهي أخبار تسبب له الكثير من الألم النفسي ، وما يشبه الصداع المزمن — حسب تعبيره — [1]. ومن هنا يصبح تصنيف هذه الأعمال، من الناحية المنهجية، ضمن روايات الثورة، تصنيفا غير دقيق، ولذلك سنكتفي بالإشارة إلى بعضها، كلما اقتضت الضرورة ذلك، دون أن نخصها بتحليل مستقل.

ونعود لنتساءل عن السبب الذي جعل هؤلاء الكتاب يصمتون كل تلك السنوات ؟ هل معنى ذلك أن الأحداث فاجأهم ، بالرغم من أهم كانوا أول من توقع حدوثها؟ أم كانوا في شك من أمرها و لم يكونوا يصدقون ما يحدث؟ أم أنهم كانوا لا يؤمنون بها، ولا يتوقعون لها النجاح؟ أم أُرتِج عليهم كما يحدث للشعراء حين يستغلق عليهم الكلام في بعض المواقف ويهجرهم شيطان الشعر؟ أم أن صمتهم كان ببساطة تأملا وتفكيرا، إلى أن اتضحت لهم الأمور، واهتدوا في الأخير إلى الطريقة الملائمة للتعبير عن أفكارهم ومواقفهم؟ ومهما يكن الجواب ، ألا يكون صمتهم قد طال أكثر من اللازم ؟ الواقع أننا لم نعثر على إجابة شافية كافية عن هذه التساؤلات، لا من الكتاب أنفسهم ولا من دارسي أدبهم من المختصين، ولذلك يمكن لنا أن نفسر المسألة قياسا بما كتب عن الثورات الكبرى في العصر الحديث، التي عرفت بدورها مثل هذه الظاهرة، بحيث أن ما كتب

[1]Malek Haddad "Le quai aux fleurs ne répond plus", Ed. Julliard, Col. 10-18. Paris 1961, p34.

مثلا عن الثورة الفرنسية من إبداعات روائية، إنما جاء قبلــها في شــكل تنبؤات وردت في أعمال"ديدرو" و"مونتسكيو"، أو جاء بعدها بعقــود في أعمال روائية مطولة على يدي"فكتور هيجو" و"ألكسندر ديماس"، والشيء نفسه يقال عن الثورة الروسية، التي تنبأت بها أعمال"ماكسيم غــوركي" القصصية والروائية قبل حدوثها بما يقارب عقدين من الزمن، وعبرت عــن وقائعها أعمال"شولوخوف" و"باستيرناك" بعد وقوعها بما لا يقــل عــن عقدين من الزمن أيضا، أما في فترة الثورة نفسها ، فلم تعرف إلا أعمــال قليلة لا ترقى بأي حال من الأحوال إلى مستوى تلك التي ظهرت قبلها أو بعدها. فالرواية بطبيعتها، إذن، تحتاج إلى وقت أطول من أي فن أدبي آخر لكي تتبلور أحداثها في ذهن الكاتب، وتصبح قابلة للإنجاز في شكل عمل إبداعي، وكتابة العمل الروائي في حد ذاتما قد تستغرق سـنوات قبــل أن يكتمل العمل، ونعتقد أن الروائيين الجزائريين لم يخرجوا عن هذه القاعدة، والدليل على ذلك أن صمت بعضهم قد اقتصر على مجال الإبداع الروائي وحده، في حين نجده قد عبر عن انحيازه بشكل أو بآخر للثورة منذ البداية تقريبا، مثل مالك حداد في ديوانه الأول"الشقاء في خطر"، ومحمد ديب في قصص مجموعته "في المقهى" *. ومن خلال قراءتنا المتأملة لروايات هــؤلاء الكتاب الصادرة في عهد الثورة، رحنا نبحث عن أهم الخصائص المشتركة التي تجمع بينها، سواء من حيث الخلفية الفكرية التي تنطلق منها، أو مــن

* أصدر كلا الكاتبين عمله سنة 1956، غير أن أشعــار مالك حداد كانت منحازة إلى الثورة بشكل صريح لا يقبل التأويل، في حين ظل محمد ديب متحفظا في إعلان موقفه منها، سواء في هذا العمل أو في أعماله اللاحقة.

حيث الكيفية التي جسدت بها تلك الأفكار من الناحية الفنية، وحاولنا أن نتبين ذلك من خلال الإجابة عن سؤالين أساسيين، الأول يتعلق بنوعية الخطاب الذي تتضمنه تلك الروايات، والرسالة التي يحملها الخطاب إلى القارئ، والثاني يتعلق بمواقف الأبطال من الثورة، التي اتضح لنا من القراءة أنها تعكس إلى حد كبير مواقف الكتَّاب أنفسهم منها. وسوف نركز في الصفحات التالية على تتبع هذين الجانبين، من أجل الإجابة عن السؤالين المطروحين أعلاه، لاسيما أن الجانب الأول، الذي هو نوعية الخطاب الروائي، يشكل — حسب ما تبيَّن لنا من النصوص — استراتيجية لدى جميع الروائيين بلا استثناء، تحكمها جملة من العوامل، سنبينها بعد حين، أما الجانب الثاني، الذي هو الموقف من الثورة، فلأن له علاقة مباشرة وقوية بمسألة الهوية والانتماء القومي بالنسبة للكتاب، وكذا بالنسبة للأبطال، حيث شكل الانتماء القومي في الروايات المدروسة حافزا كان يدفع الأبطال إلى التخلي عن حيادهم ، واتخاذ مواقف إيجابية من الثورة.

مضمون الخطاب في روايات الثورة:

لقد برهن الكتَّاب، الذين أتينا على ذكر أعمالهم، في الفترة التي سبقت قيام الثورة التحريرية على التزامهم بقضايا الشعب الجزائري، ومن ثمة برهنوا على انتمائهم لهذا الشعب، وذلك عن طريق الأدب الاحتجاجي الذي كتبوه، وعبروا فيه — كما مر معنا في الفصل السابق — عن الوضعية المزرية التي كان يعيشها الجزائريون، فكانوا لسان حال الشعب في تلك الفترة العصيبة التي شملت سنين الحرب العالمية الثانية وما بعدها، لكن، كان على

هؤلاء الكتاب، بعد أن اندلعت ثورة التحرير، أن يبرهنوا مرة أخرى على قوة انتمائهم إلى الشعب، وأن يكونوا ترجمانه لدى الرأي العام الفرنسي والعالمي، وهذا ما حاولوا أن يقوموا به — بالرغم من أن ذلك جاء متأخرا — وذلك من خلال خطاب ذي خصائص مميزة ، حكمته ظروف خاصة، لعل أبرزها وأهمها أنه يتوجه إلى الجمهور الفرنسي. وسوف نحاول فيما يلي — وكما حاولنا أن نفعل في الفصول السابقة — أن نعتمد في تحديد أهم خصائص هذا الخطاب، بناء على رصدنا للجزئيات المتفرقة في النصوص نفسها، قبل أن نخرج بحوصلة في الأخير نأمل أن تكون معبرة ودقيقة. وسنبدأ من البداية، مع رواية "الانطباع الأخير" لمالك حداد، ثم نتفحص بعد ذلك بقية الروايات الأخرى، في خط زمني تصاعدي، بحسب تاريخ الصدور، وهو ما سيسمح لنا برصد أي جديد في نصوص المدونة.

* * *

الانطباع الأخير: أجواء الحرب في مدينة الجسور.

يتخذ مالك حداد*، في رواية "الانطباع الأخير"[2] من مدينة قسنطينة مسرحا رئيسيا لأحداث روايته، وهي المدينة التي ولد بها وعاش طفولته وشبابه فيها، وأحبها كثيرا، وتغنى بها في أشعاره، ويبني الحدث الرئيسي

---

* ولد مالك حداد بتاريخ 5 جويلية 1927 بمدينة قسنطينة، حيث نشأ وزاول تعليمه الابتدائي والثانوي، ليلتحق بالتعليم الابتدائي كمعلم مثل والده، وفي سنة 1954 انتقل إلى التحق بجامعة"أيكس أون بروفانس" بالجنوب الفرنسي لدراسة الحقوق، غير أنه تخلى عن الدراسة عندما اندلعت الثورة التحريرية في الفاتح من نوفمبر 1954، وأصبح مناضلا بقلمه في صفوفها، يكتب في مختلف الجرائد والمجلات في فرنسا وسويسرا على الخصوص، في سنة 1956 أصدر ديوانه الشعري الأول: « Le malheur en danger » (الشقاء في خطر)، وفيه اتضح توجهه الثوري، ووقوفه الكامل في صف الثورة. وقد مثل جبهة التحرير أثناء الثورة في العديد من التظاهرات الثقافية ومؤتمرات الكتاب، التي جرت هنا وهناك، في اليابان، والاتحاد السوفييتي والهند، ومصر وسوريا. وأصدر ما بين 1958 و1961 أربع روايات تباعا هي: الانطباع الأخير(1958)، سأهبك غزالة (1959)، التلميذ والدرس (1960)، رصيف الأزهار لم يعد يجيب(1961). وختم أعماله الإبداعية بديوانه الشعري الثاني"اسمع وأناديك" مع مقال مطول، هو في الواقع عبارة عن بيان مطبوع بطابع شعري بارز، عبر فيه الكاتب عن وجهة نظره في الكثير من القضايا المصيرية المتعلقة بمرحلة ما بعد استعادة السلم والاستقلال في الجزائر، مثل مسألة اللغة والدين والهوية الوطنية. وبعد الاستقلال توقف عن الكتابة الإبداعية، ولكنه ظل يكتب المقالات التي نشر معظمها في جريدة النصر التي كانت تصدر في قسنطينة باللغة الفرنسية. تقلد بعد الاستقلال عدة مناصب ثقافية في وزارة الإعلام والثقافة، كمستشار ثقافي ، كمدير مركزي للثقافة، ومدير مكلف بالدراسات والبحوث والإنتاج في مجال الآداب والفنون، وأهم الأعمال التي قام بها في هذا إطار: إشرافه على أول مؤتمر ثقافي وطني أيام 31 مايو/3 يونيو 1968، وأول مهرجان إفريقي في جويلية 1969، انتخب سنة 1974 أمينا عاما لاتحاد الكتاب الجزائريين، وفي عهده عقد بالجزائر مؤتمر اتحاد الكتاب العرب العاشر والمهرجان الشعري الحادي عشر، وذلك في أبريل 1975. توفي في 2 يونيو 1978 بالجزائر.

[2] Malek Haddad "La dernière impression"Ed. Julliard, Paris 1958.Ré. Bouchène, Alger 1989.

فيها على عملية تفجير الثوار لأحد الجسور الذي بني حديثا في منطقة غير بعيدة عن المدينة، لمنع قوافل الجيش الفرنسي من استعماله لمرور الدبابات والأسلحة الثقيلة التي تستعمل لزرع الموت في القرى والأرياف[3]. ولا يفوتنا هنا ما لهذا الاختيار من علاقة بالميزة التي اشتهرت بها مدينة قسنطينة من الناحية الدلالية والجمالية، ألا وهي الجسور، حتى لقبت بسبب ذلك بمدينة الجسور، ومن هنا تتخذ عملية نسف الجسر في الرواية على المستوى الرمزي دلالة قوية، لتعبر، من جهة، عن جو الحرب الذي أصبح يطبع حياة المدينة العريقة، و يؤثر على هدوئها، وعلى جمالها الطبيعي الأخاذ، وتعبر من جهة أخرى، عن القطيعة الكاملة والنهائية التي أحدثتها الثورة مع النظام الاستعماري، الذي برهن طوال تاريخه أن لا فائدة ترجى من إبقاء الجسور ممدودة معه.

وقد أضفى المؤلف على حادثة نسف الجسر طابعا دراميا مؤثرا، حين جعل الثوار يطلبون من سعيد، وهو المهندس الجزائري الشاب (بطل الرواية) الذي أشرف على إنجاز الجسر أن يساعدهم على نسفه، بإرشادهم — من الناحية التقنية — إلى نقاط الضعف في الجسر، وهو ما أوقع سعيد في حيرة شديدة من أمره، بل، وفي ارتباك لا مثيل له مع نفسه وضميره، لأن مهمته كمهندس كانت تقوم على بناء الجسور لا على هدمها، لكن، في المقابل، كان واجبه الوطني كجزائري، يحتم عليه

3 "La dernière impression",p141.

أن لا يبقى مكتوف اليدين أمام ما يحدث، وأن يسهم بدوره، وحسب استطاعته، في الكفاح الوطني الذي يخوضه أبناء جلدته ضد الاستعمار.

يضاف إلى هذا جانب درامي آخر في الموضوع، زاد من حدة الصراع في نفس سعيد، يتمثل في أن الجسر الذي سينسف كان أول مشروع هندسي يسند إليه ويشرف على تنفيذه بعد تخرجه كمهندس، ولذلك فقد كان الجسر بالنسبة إليه بمثابة مولوده البكر، بل كان أكثر من ذلك، لأن اكتمال المولود — كما يذكر الراوي — يحتاج إلى تسعة أشهر، في حين أن إنجاز الجسر تطلب من سعيد أكثر من سنة كاملة[4].

وإلى جانب نسف الجسر، الذي يشكل الحدث الرئيسي في الرواية، يصور الكاتب، أحداثا أخرى متفرقة ومتفاوتة الأهمية، منها ما يتعلق بالحياة الشخصية للبطل نفسه، ومنها ما يتعلق ببعض أفراد أسرته، ومنها ما هو تعبير عن مواقف معينة، أو مشاعر إزاء الأحداث نفسها، أو إزاء بعض الأصدقاء، أو الأقارب، أو حتى مجرد وصف لمشاهد متفرقة أحيانا من الحياة اليومية التي تشير كلها، على أية حال، إلى جو الحرب الذي أصبح يطبع حياة المدينة، كرؤية دوريات الجنود وهي تجوب الشوارع مثلا[5]، أو قوافل الدبابات والعربات وهي تأتي وتروح

4 "La dernière impression" , p37.
5 Ibid, p51.

في اتجاهات مختلفة[6]، أو سماع دوي الطائرات الحربية المطاردة وهي تعبر سماء المدينة ، إلى غير ذلك من المظاهر .

وأبرز حادث، على المستوى الشخصي أصاب سعيد في الصميم هو حادث مقتل"لوسيا"، مدرّسة الفلسفة بإحدى المؤسسات التعليمية بمدينة قسنطينة، التي كانت تربطها به علاقة حب. قتلت عن طريق رصاصة طائشة حصدت حياتها في طرفة عين، أثناء تبادل إطلاق النار ــ كما نشرت الصحف المحلية في اليوم التالي* ــ بين الجنود الفرنسيين وأفراد من الفدائيين في أحد الشوارع الرئيسية بمركز المدينة[7]. وكانت "لوسيا" تتهيأ عشية ذلك اليوم للسفر، لتعود في صبيحة اليوم التالي إلى مسقط رأسها في"إيكس أون بروفانس" بالجنوب الفرنسي، بعد أن صعب عليها العيش في ذلك الجو المشحون بالخوف والعنف، والاستمرار في تأدية مهمتها التربوية التي جاءت منذ ثلاث سنوات خلت إلى الجزائر من أجل الاضطلاع بها[8].

هز هذا الحادث كيان سعيد، وأحدث شرخا عميقا في نفسه، لا لأنه يحب"لوسيا" فحسب، ولكن، لأن مقتلها كشف له شيئا لم يكن

6 Ibid, p97.

* يشير الكاتب مرتين في الرواية إلى الدور السيء الذي كانت تلعبه الصحف في إذكاء نار الحرب وزرع الحقد في النفوس، بما كانت تنشره من أكاذيب، ومنها ادعاؤها بتحالف الوطنيين مع الشيوعيين، ويذكر بالاسم جريدة"لادبيش" التي كانت تصدر في مدينة قسنطينة: راجع : "La dernière impression" , p42 et 62.

7 "La dernière impression" p19.

8 Ibid, p80.

واضحا أمام عينيه من قبل بما فيه الكفاية، ألا وهو عبثية الحرب التي كان المستوطنون وأنصارهم في فرنسا من أصحاب المصالح يصرون على خوضها، ويجندون لها كل مقدرات الأمة الفرنسية حفاظا على بقائهم في الجزائر، وعلى مصالحهم وامتيازاتهم فيها، ويذهب ضحيتها الأبرياء من الطرفين، من أمثال لوسيا، بل وأمثال أخيها"جان فرانسوا" الذي جند في صفوف الجيش الفرنسي، وجيء به إلى الجزائر مرغما، ليقتل بدوره فيها[9]، ومثل بوزيد أخي سعيد أيضا، الذي استشهد في إحدى المعارك ضد الفرنسيين، وترك زوجة، وطفلة صغيرة تحتاج إلى رعايته وحنانه[10]. ولا يختلف بوزيد عن"جان فرانسوا" إلا في أنه حمل السلاح طواعية وعن إيمان بعدالة القضية التي يدافع عنها، إلا أنه من جهة أخرى، وأمثاله من الثوار لم يكن لهم من خيار أمام تعنت المستوطنين، وإصرارهم على استعباد الجزائريين، إلا حمل السلاح لإزالة هذا الحيف، وتغيير ذلك الواقع: ((لقد كانت الهوة عميقة (مع المستوطنين) وملؤها يبدو مستحيلا))[11].

أما على المستوى الأسري، فيمكن أن نذكر في هذا الصدد حادثة مداهمة الشرطة لمترل السيد بلحسن، والد سعيد وبوزيد، بحثا عن هذا الأخير الذي كان قد التحق بصفوف الثوار . فقد هاجموا البيت في ساعة مبكرة من الصباح، فتسلقوا سور الحديقة، واعتلوا سطح المترل،

9 "La dernière impression",, p43
10 Ibid, p157.
11 Ibid, p37

قبل أن يقتحموه بطريقة عنيفة ومفاجئة، أفزعت أهله الـــذين كـــانوا نياما، وجعلتهم يعيشون لحظات صعبة، ولم تشفع لصاحب البيت عند المهاجمين خدمته السابقة للعلم الفرنسي، ولا فقدانه ذراعه في معركـــة "فردان"* ، دفاعا عن حرية فرنسا، ولم يعفه ذلك من الاستجواب، ولا منع مستجوبيه من إظهار الشك في صدق أقوالـــه، ولا حـــتى مـــن السخرية منها[12] . وواضح من عناية الكاتب بتصوير عمليـــة المداهمـــة هذه، أنه أراد أن ينقل صورة حية عن الممارسات اليومية الفظة الـــتي كانت تتعامل بها قوات الشرطة والجيش الفرنسيين مـــع الجزائـــريين، حيث كانت تنتهك حرمات بيوتهم في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار، فتعتقل الرجال، وتروع الآمنين من الأطفال والنساء والشيوخ، وقد تلحق الإهانة والأذى حتى بمن خدم الدولة والأمة الفرنسية، وقدم تضحيات في سبيلها مثل السيد بلحسن.

ولا يفوت المؤلف أن يقدم لمحات عن أسرة بلحسن الصغيرة هـــذه، التي خرج منها الإبنان الثائران، بوزيد وسعيد، وذلك من خلال مشاهد صغيرة من حياتها اليومية العادية، بحيث تبدو لنا أسرة متوسطة الحـــال، على قدر لا بأس به من الثقافة، يجمع أفرادها التعاون والمحبة والوئـــام، ولا شيء فيها يهيئها لأن تكون منبتا للحقد والشر، وإخراج العتاة من

* معركة" فيردان" هي أكبر معارك الحرب العالمية الأولى بين الفرنسيين والألمان ، فيما عرف بحرب الخنادق، ودامت أحد عشر شهرا (من شهر فبراير إلى ديسمبر1916) وقتل فيها خلق كثير من الجانبين .

12 "La dernière impression", p64.

القتلة وقطاع الطرق، وهي الصورة التي دأبت الدعاية الاستعمارية على ترويجها عن الثوار الجزائريين، بل إن بوزيد كان على العكس من ذلك تماما، كان رجلا قوي الإحساس بالمسؤولية، يقدر الحياة الأسرية، ويحب زوجته وطفلته، ويعمل بكل ما أوتي من قوة على إسعادهما، ولكنه كان في الوقت نفسه يرتب الأولويات، ويقدم حب الوطن والتضحية في سبيل حريته على حب الأسرة والتضحية من أجلها. ومع هذا فإن بوزيد لم يكن بالرجل الصارم الذي لا يرى من الحياة إلا وجهها الجاد، فقد كان يتحلى أيضا بروح الدعابة، ويمزح أحيانا، ولكن لم تكن دعابته لتنسيه الأمور الجادة، ولا كان مزاحه خلوا من أي هدف أو معنى، وهذا الجانب يؤكد فيه صفاته الإنسانية النبيلة التي ذكرناها له ولا ينفيها. وفي هذا السياق يورد المؤلف حكاية ديك الأسرة الذي كان يخطئ التوقيت، ويصيح قبل الفجر، فيجد بوزيد في ذلك مادة للمزاح، ويطلب من أمه ذات يوم قائلا:"عليك أن تأخذي هذا الديك لمصلح الساعات"[13].

غير أنه ، وبعد اندلاع الثورة في الفاتح من نوفمبر 1954، أصبح بوزيد يرى في صياح الديك قبل الأوان معنى آخر، فكان يردد:((إن هذا الديك ليس بليدا بهذا القدر، إنه ليس هو المتقدم ولكن نحن المتأخرون ..))[14].

13 "La dernière impression", p60.
14 Ibid,p60.

ولهذه الخصال التي تجمعت في بوزيد نجد أخاه سعيد معجبا به، رغم اختلاف الطباع بينهما، فقد كان سعيد مزيجا من الشاعر والعقلاني[15]، في حين كان بوزيد على العكس من ذلك ميــالا بطبعــه إلى العمــل الميداني، بعيدا عن التفلسف ــ كما تعكس شخصيته خصاله المذكورة ــ بل لعل إعجاب سعيد بأخيه يأتي من هذا الاختــلاف الموجــود بينهما، الذي يجعل الأخ الأصغر يحس أنه يفتقر إلى مزايــا وأخــلاق أخيه، وأهمها ، بلا شك، قوة العزيمة، ووضوح الرؤية، وروح المبادرة. ولهذا كان يحلو لسعيد أن يردد دائما أن بوزيد هــو"مثلــه الحــي"، و"ضميره الموجه"[16].

ويأتي وصف المعركة التي دارت في أحد الجبال، بين الثوار والقوات الفرنسية، واستشهد فيها الأخوان بوزيد وسعيد معا، لينهي بها المؤلف روايته، وتكون خاتمة قوية لكل الأحداث التي ذكرناها آنفا. وقد عمل المؤلف على نقل المشاعر والأحاسيس الإنسانية في ذلك الجو المتــوتر أكثر مما عمل على وصف الأحداث في حد ذاتها، كما أنه لم يلجــأ، وهو يتحدث عن التفوق الكبير للقوات الفرنسية في العدة والعدد، إلى أي نوع من التهويل أو المبالغة ، واهتم، عوضا عن ذلــك، بوصــف مشاعر المتحاربين، وما يجول في خواطرهم من أفكار وقلــق وتــوتر، وأضفى حتى على آليات الدمار نفسها ، التي يستعملها الجيش الفرنسي

15 "La dernière impression", p18.
16 Ibid, p56.

شيئا من قلق المتحاربين، واستعار لها بعضا من هواجسهم. يتجلى لنا ذلك في قوله:((في الأسفل، على الطريق، كانت الكلمة للدبابات، كانت تهدر كيفما اتفق، وتطلق نيرانها بلا هدف ولا اقتناع، ولم تكن الطائرة قد رأت شيئا بعد، ولا أخرجت الطريدة من مكمنها. لابد أن النظارات المقربة تبحث الآن ، ولا بد أن مركز الاتصال بالراديو قد فقد صبره. وتطايرت أتربة مرتفع أرضي كان على اليمين. لقد أطارت القذيفة كل شيء فيه في السماء. ولحسن الحظ أنه لم يكن هناك أحد)) [17].

وأمام هذا التفوق الساحق للقوات الفرنسية، بفضل ما تمتلكه من أسلحة ثقيلة، ومن وسائل تكنولوجية عالية القدرة والكفاءة، لم يكن بيد الثوار من سلاح حقيقي، بعد الصبر والإيمان، إلا ما توفره لهم أرض بلدهم من حماية طبيعية، كالجبال والغابات والصخور والكهوف، فتصبح الأرض في هذه الحال الأم الحنون، التي تضمهم إلى صدرها، وترد عنهم غائلة تلك الأسلحة الفتاكة، بل إنهم يجدون حتى في تقلبات الجو، وتعاقب النهار والليل ما يوفر مثل تلك الحماية، فقد تمنحهم ظلمة الليل مثلا غطاء يسمح لهم بالإفلات من قبضة العدو، ومن رصد الطائرات الاستطلاعية لتحركاتهم:((لا بد من انتظار الليل، صديق الرجال الذين ليس لديهم دبابات ولا طائرات.. ولكن طائرة

17 "La dernière impression", p155.

الاستطلاع الصغيرة في الأعلى تبدو فاقدة الصبر، إنها تدور وتدور، إنها تفقد أعصابها..))[18].

كما تصبح الصخور صديقة للمقاتلين، لأنها تحميهم من نيران الدبابات، وتمنعها من أن تدوسهم:((أيها الصخر، كن صديقا للرجال الذين لا يمتلكون دبابات ولا طائرات، و يا أيها الليل لا تتأخر..))[19].

لكن المؤلف، حتى وإن لم يكن ليخفي في هذا الموقف تعاطفه مع الثائرين، فإنه في المقابل لم يكن أقل تعاطفا مع أولئك الشبان الفرنسيين الذين كانوا يجندون رغما عنهم، ويدفع بهم إلى الموت، مثل"جان فرانسوا" الذي أشرنا إليه آنفا، فهم أيضا رجال، لهم مشاعر وأحاسيس، ولهم آباء وأمهات، يعيشون يوميا حالة القلق عليهم، وينتظرون بفارغ الصبر نهاية الحرب، وقد لا يرجع بعضهم إلى ذويه إلا في صندوق مثل ما حدث لـ"جان فرانسوا": ((جثمان صغير، حار وحزين، إنه جثمان جان فرانسوا ، أخو لوسيا. إنه مدعو لأداء الخدمة العسكرية. إنه مدعو، وكان لابد من أن يدعى إلى ربه، ولا بد أن يذكّر الناس بهذا* ..))[20].

---

18 "La dernière impression",, p157.
19 Ibid, p157

* يستغل الكاتب المعنى المزدوج الذي تحمله لفظة: rappeler الفرنسية التي تعني: الاستدعاء للخدمة العسكرية كما تعني التذكير، ليستعملها مرة واحدة بالمعنيين معا، وهو ما لا يمكن فعله عند الترجمة.

20 "La dernière impression" , p142.

والمؤلف هنا إنما يؤكد من جديد على الرسالة التي سبق أن عبر عنها من قبل عند مقتل"لوسيا"، ومفادها أن مسؤولية الحرب لا تقع إلا على عاتق المستفيدين منها من المستوطنين المستغلين، ومن المتحالفين معهم في فرنسا من تجار السياسة والحروب. أما الشبان الذين يخوضون الحرب من الطرفين، إنما هم ضحايا هؤلاء وأولئك من المستغلين، ووقود حربهم.

صيف إفريقي: مشاهد الحرب في المدينة والأرياف.

من جهته، يتخذ محمد ديب في رواية"صيف إفريقي"[21] من مدينة تلمسان، مسقط رأسه، والقرى المجاورة لها فضاء مكانيا له، ليروي لنا جملة من الوقائع والأحداث المتفرقة التي وقعت في هذه النواحي، في صيف إحدى السنوات الأولى لثورة التحرير، إلا أنه، وكما تقتضي قواعد الفن الروائي، الواقعي بالخصوص ، فإن هذه الأحداث لا يقدمها المؤلف بمعزل عن الحيز الزماني والمكاني الذي وقعت فيه، ولا بمعزل عن الوسط الاجتماعي الذي يتجسد من خلال شخصيات روائية تصنع الحدث أو تتأثر به بشكل من الأشكال، ومن خلال شبكة العلاقات التي تربط تلك الشخصيات بوسطها الاجتماعي، وببعضها بعضا، ومن هنا تأتي الأحداث المتعلقة بالثورة متفرقة في الرواية، وضمن سياق الحياة اليومية العادية التي تتحرك فيها الشخصيات، بحيث لا تحتل تلك

---

21 Mohammed Dib "Un été africain" Ed. du Seuil. Paris 1959.

الأحداث في واقع الأمر – على أهميتها – إلا حيزا صغيرا من الانشغالات اليومية الخاصة للأبطال.

وعلى هذا النحو نرى أن الانشغال الرئيسي لأسرة"مختار راي"، التي يقدمها لنا المؤلف في بداية الرواية كنموذج لأسر الطبقة المتوسطة في المجتمع التلمساني في ذلك الحين، إنما كان منصبا على مستقبل "زكية"، الإبنة الوحيدة لـ"مختار راي"، التي حصلت على شهادة البكالوريا في تلك السنة، وأصبح أمرها يشغل كل أفراد الأسرة، وكانت زكية ترغب في أن تقتحم الحياة العملية وتصبح معلمة، حتى لا تضيع كل تلك السنوات التي قضتها في الدراسة وتحصيل العلم بلا طائل، وكان التعليم آنذاك – فيما يبدو – هو المهنة الوحيدة، بالنسبة للمرأة، التي يمكن أن يغض المجتمع المحافظ الطرف عنها، لكن والدها بدا مترددا في تحقيق رغبة ابنته، بعد أن كان قد واعدها بذلك، غير أن قوله لابنته، عندما طرحت عليه موضوع الوظيفة مجددا:".. إن كل شيء قد تغير الآن"[22] يفهم منه أنه كان يلمِّح إلى"أحداث" الثورة المسلحة في تلك الأيام، كما يمكن أن يكون السبب أيضا هو رفض الوسط الاجتماعي لمبدإ عمل البنت، مهما كان نوع العمل، حتى في مجال التعليم، وهو ما لا يستطيع مختار راي تجاهله، حتى وإن كان – وهو الرجل المتعلم – لا يقره، كما لا يستطيع ، للسبب نفسه، أن يصارح به ابنته، وقد تولت أمه العجوز"غازية" مهمة التعبير عن التيار المعارض، وذلك حينما

---

22. "Un été africain". p43

رفضت بشدة فكرة أن توظف حفيدهما في التعليم أو في غيره، محذرة ابنها من أن ذلك سيجعل من اسمه واسم ابنته مضغة في أفواه أهل المدينة كلها، ونصحته بقولها: ((ابحث لها عن زوج، فذلك أصلح لها..))[23]. وفي هذا الجو الذي بدا فيه أن لا شيء يشغل أفراد أسرة مختار راي إلا مستقبل ابنتهم ، يأتي "علال طالب" لزيارة بيت أخته ، زوجة مختار راي، وهو صاحب معمل صغير لتحميص القهوة، وعندها فقط يخرج حديث الأسرة عن الدائرة الضيقة لهمومها الذاتية إلى ما كان يجري خارج البيت من أحداث . يسأل علال صهره :

ــ ((...وهذه الأحداث، يا مختار راي، هل سنعرف قريبا ما ستسفر عنه؟

ــ من يستطيع أن يعرف ذلك؟

ــ أنتم الذين تعملون في إحدى مصالح الدولة ، فأنتم تعرفون دائما أشياء أكثر لا تريدون الإفصاح عنها. إن لدي من التجربة ما يكفي لفهم موقفك..))[24].

غير أن الحديث عن الأمور ذات الطابع العام، سرعان ما ينقطع بشكل مفاجئ، لينحو من جديد نحو الأمور الشخصية، وذلك عندما يحاول "علال طالب" أن يبدد أي نوع من سوء الفهم بينه وبين صهره، فيقول له:

---

23 "Un été africain", p8.
24 "Ibid, p13.

((إنني حينما أقول لك إنكم تعلمون أكثر مما تفصحون عنه، فإنه عليك أن تعرف أن هذا لا يزعجني كثيرا. إنني أقول هذا لشيء واحد لا غير.. إن لدي مخزونا من القهوة بما يكفي لتشغيل معملي بعض الوقت، لأنه لا أحد يدري ما ستأتي به الأيام..)) [25].

ويرين الصمت بين الرجلين لبعض الوقت قبل أن يقطعه مختار راي بتعليق على كلام صهره، بما يوحي أنه يعرف فعلا بعض الحقائق التي لا يريد أن يفصح عنها : ((هذا تدبير جيد بالنسبة إليك.. إن لي شبه فكرة هي أن ما يجري لن يتوقف عما قريب)) [26].

وعلى هذا النحو يمازج المؤلف بين الهموم الذاتية لأبطال روايته، وبين الهم المشترك الذي أصبح يشغل كل الناس في تلك الأيام، ويتكرر هذا المزج بين ما هو ذاتي وخاص، وما هو مشترك وعام مع بقية الشخصيات التي نتعرف عليها تباعا في ثنايا الرواية ، بحيث تبدو الشخصيات في نهاية الأمر، كأنها ترغم إرغاما على التخلي لبعض الوقت عن همومها الذاتية، لتخوض فيما أصبح يشكل حقيقة يومية في حياة كل الناس. ذلك هو حال جمال الذي استقال من وظيفته، لأسباب لا تبدو واضحة، سوى أن نفسه عافت العمل في إحدى المصالح الإدارية التي كان يشتغل بها [27]، وأصبح همه الرئيسي هو البحث عن عمل يعيل به أسرته، لكنه، وأثناء بحثه عن العمل كان يقابل معارف وأصدقاء له، في مختلف

25 "Un été africain",, p13.

26 Ibid, p13.

27 Ibid, p82.

الأماكن العامة كالشوارع والمقاهي والدكاكين، فيتحدثون عن الهموم والمشاغل الشخصية، ولكن يتبادلون أيضا الأحاديث والأخبار حول ما يحدث * . وذلك أيضا هو حال"مصطفى والي"، الذي ماتت زوجته وتركت له طفلة صغيرة تحتاج إلى رعايته، فكان يقضي كامل وقته، بعد ساعات العمل، منصرفا للعناية بطفلته، والسهر على تربيتها ، إلا أن الأحداث كانت أقوى من أن تتركه في حال سبيله، ولم يقف الأمر بالنسبة إليه عند مجرد تعليق عابر على الأحداث، أو حوار ثنائي حذر بينه وبين شخص آخر يثق فيه، ولكنه وجد نفسه ذات يوم وقد جرفه التيار إلى صميم دوامة الأحداث، فقبض عليه بجريرة أخيه"أحمد والي"، الذي كان منخرطا في إحدى الخلايا الثورية، وفي طرفة عين انقلبت حياته رأسا على عقب، فحيل بينه وبين طفلته، وأرغم على تركها للمجهول: ((وأحس مصطفى في تلك اللحظات أن شيئا ما يتمزق في داخله)) [28].

الفلاح"رحمون" وحده، من بين هذه الشخصيات، هو الذي يقدمه لنا المؤلف كشخص ملتزم كليا مع الثورة، حيث كان — بسبب طبيعة

* يقدم المؤلف لقطات عديدة من تلك الأحاديث التي كانت تدور بين الناس، التي غالبا ما تبدأ بالانشغالات الشخصية، وتنتهي بالحديث عن العمليات المسلحة، وفي هذه الحال، يكثر الهمس، ويبدو الحوار غامضا بعض الشيء، وقد يكون من طرف واحد فقط، وأبرز مثال على ذلك، تلك اللقطات التي قدمها المؤلف في مطعم حمزة، بين هذا الأخير وبين بعض زبائنه ممن يعرفهم وممن لا يعرفهم: Cf. Chapitre VIII. P, 67 à 77.

28 "Un été africain", p158.

عمله كمزود للثوار بما يحتاجون إليه من مؤن[29] ـــ يشكل حلقة وصل بين المقاتلين في الجبال والخلايا الثورية التي كانت تنشط داخل المدينة، بالإضافة إلى مهمة أخرى أسندت إليه في وقت لاحق ، وهي الفصل فيما ينشأ بين أهل القرية من نزاعات أو خصومات، لكي لا يلجأوا إلى العدالة الاستعمارية[30]. ومع هذا فإن "مرحوم" نفسه لم يكن في أول أمره يختلف في شيء عن الشخصيات التي تعرفنا عليها من قبل، إذ لم يكن بدوره يشغله في حياته إلا أرضه، وعمله كفلاح، لكن تطورات الأحداث غيرت حياته رأسا على عقب، وشكلت وعيه على أساس جديد، فقد كانت تلك الأحداث من الأهمية والخطورة بما لا يسمح أبدا ببقاء الناس على الحياد، وكان لابد له أن يختار صفا يقف فيه، وكان من الطبيعي أن يختار الوقوف في صف الثورة، لا لأنه ينتمي إلى الأغلبية المضطهدة فحسب، ولكن، لأن الفرنسيين كانوا يدفعون الجزائريين، بسبب معاملتهم لهم، إلى اتخاذ مواقف معادية لفرنسا، إذ أنهم لم يكونوا يميزون بين من حمل السلاح ضدهم وبين من كان مسالما، فطائراتهم كانت تقصف القرى والأرياف بلا تمييز، وعملياتهم القمعية ضد الأهالي كانت لا تستثني أحدا، ومنذ اليوم الذي انخرط فيه في العمل الثوري تغيرت حياته تغيرا جذريا، فخرج من الدائرة الضيقة التي كان يعيش فيها منصرفا إلى أرضه وزراعته، إلى دائرة أرحب وأوسع، هي دائرة العمل الجماعي المنظم، الذي يشمل القرية والمدينة والمجتمع ككل،

---

29 "Un été africain",p 37.
30 Ibid, p38.

وأصبح عمله كفلاح مجرد غطاء يستعمله لإخفاء نشاطه وتبرير أسباب تنقله بين القرية والمدينة.

هذا هو نوع الشخصيات التي يقدمها المؤلف في رواية "صيف إفريقي"، وهي كما نلاحظ شخصيات شعبية بسيطة، تتكون من موظفين وتجار صغار وبطالين وفلاحين، نجدهم في غالبيتهم أناسا مسالمين، منصرفين في معظم الوقت إلى تحصيل رزقهم ورزق عيالهم، لكن آلة القمع الاستعماري تعامل الجميع على حد سواء، وقد تدفع بعضهم، ولاسيما فئة الشباب منهم، إلى الالتحاق بصفوف الثوار. ذلك ما حدث، على سبيل المثال، في قرية الفلاح مرحوم عقب عملية تمشيط واسعة قامت بها القوات الفرنسية، بعد أن بلغها أن بعض سكان القرية قد استقبلوا جماعة من الثوار في بيوتهم، وآووهم وأطعموهم، فكانت نتيجة العقاب الجماعي القاسي الذي تعرض له كل أهل القرية أن التحق معظم الشبان بصفوف الثورة[31].

ولم يكن الأمر في المدينة مختلفا عن القرية إلا في أساليب القمع، وفي الدوافع التي تجعل الشبان يلتحقون بالثورة، وهذا ما حاول المؤلف أن يعبر عنه من خلال مواقف عديدة ومتفرقة في الرواية. فإلى جانب الأوضاع المعيشية المتردية وحالة الفقر والبطالة التي عبر عنها المؤلف من خلال عرضه للوضعية الصعبة التي كان يعيشها جمال، هناك حالة الحرب التي كانت المدينة تعيش على وقعها، وتتجسد من خلال العديد من المظاهر، كالدوريات العسكرية

31 "Un été africain", p24.

التي كانت تنتشر في كل مكان في المدينة[32]، والأسلاك الشائكة التي تسد منافذها على الناس[33]، ومداهمات البيوت الآمنة، والقبض على أناس أبرياء، مثل مصطفى والي الذي أشرنا إلى ما حدث له آنفا[34]، والزج بهم في السجون لمجرد الاشتباه فيهم، وتعذيب بعضهم إلى درجة إلحاق عاهات جسمية ونفسية مستديمة بهم مثل ذلك القروي الذي دخل مطعم"حمزة "، وكشف لبعض الزبائن، في شيء من التردد وعدم الاطمئنان، بعض ما حدث له من تعذيب وحشي في المعتقل[35].

وتبدو العمليات المسلحة التي يقوم بها الثوار، من خلال رواية"صيف إفريقي"، مجرد مناوشات، وإزعاج للسلطات، حيث كانوا يستهدفون، في الغالب، تخريب المنشآت الحيوية للدولة وإلحاق الضرر باقتصاد المستوطنين، كتفجير قضبان السكة الحديدية[36]، أو قطع أشجار الكروم، أو حرق مزارع المستوطنين الواقعة على أطراف المدينة[37]، ولم يرد فيها ما يشير إلى ارتكاب عمليات قتل ، لكننا نجد رد الفعل في المقابل لدى القوات الاستعمارية بشكل لا يتفق أبدا وحجم تلك العمليات، من تفتيش، وتمشيط على نطاق واسع ، وقنبلة للقرى والأرياف بالطائرات والمدفعية الثقيلة، وحرق لمزارع الفلاحين الجزائريين، وهدم لبيوتهم[38]، لكن الأسوأ

32 "Un été africain", p20.
33 Ibid, p21.
34 Ibid, p158.
35 Ibid p70,71.
36 Ibid, p19.
37 Ibid, p39.
38 Ibid, p169.

من ذلك أن الجنود كانوا يقتلون الناس والحيوانات[39] ، ويتلفـون المـواد الغذائية التي يجدونها في البيوت[40] ، حتى يموت جوعا من ينجو من الفلاحين من القتل المباشر بالسلاح ووسائل الدمار، وهو ما كان يثير دهشة بعـض الجنود الفرنسيين أنفسهم مما يفعله زملاؤهم، ومن الأوامر العليا التي كانت تصلهم ، وتشجعهم على ارتكاب مثل تلك الأعمال الإجرامية[41] .

أطفال العالم الجديد: التعذيب كممارسة يومية.

وتتبع آسيا جبار* في روايتها"أطفال العالم الجديد"خطوات حداد وديـب حين تتخذ من مسقط رأسها (مدينة شرشال) مسرحا لأحداث روايتـها،

39 "Un été africain", p170.
40 Ibid, p172.
41 Ibid, p169.

* اسمها الحقيقي فاطمة إمالاين، ولكنهـا اشتهرت باسمهـا الأدبي"آسيا جبار"، ولدت بمدينة شرشال في 4 أغسطس 1936. زاولت دراستها الابتدائية والمتوسطة بمسقط رأسها، وواصلت تعليمها الثانوي بالقسم الداخلي لثانوية"موزاية" بولاية البليدة. عندما حصلت سنة 1953 على البكالوريا، والتحقت بمدرسة تخريج الأساتذة بـ"سافر Sèvres " (فرنسا) سنة 1955، وتخصصت في مادتي التاريخ والجغرافيا، غير أنها توقفت عن الدراسة سنة 1956، استجابة لنداء جبهة التحرير الذي وجهته في 19 مايو من السنة المذكورة للطلبة الجزائريين لكي يلتحقوا بصفوف الثورة. لكنها عادت بعد سنة من ذلك لتكمل الدراسة وتحصل على شهادة الليسانس في التاريخ.وفي سنة 1958 تزوجت والتحقت بتونس لتسهم في الأعمال الاجتماعية لجبهة التحرير، وأجرت مجموعة تحقيقات صحفية في مخيمات اللاجئين الجزائريين على الحدود التونسية الجزائرية. واغتنمت فرصة وجودها بتونس لتعد دبلوما عاليا في التاريخ بالجامعة التونسية، ثم سافرت إلى المغرب، واشتغلت بالتدريس في جامعة الرباط إلى أن عادت إلى الجزائر غداة الاستقلال سنة 1962، حيث واصلت التدريس في قسم اللغة الفرنسية بجامعة الجزائر. وبعد زواجها الثاني سنة 1978 عادت إلى الإقامة في باريس، وإلى حد اليوم. أصدرت أول رواية لها سنة 1957 بعنوان" العطش La soif "، أتبعتها برواية "القلقون Les impatients "(1958)، وتعالجان موضوعات اجتماعية، أما روايتها الثالثة"أطفال العالم الجديد" فتتعلق بثورة التحرير، وقد كتبتها أثناء وجودها بالمغرب، ونشرت في

التي تدور أحداثها سنة 1956 *، أي أنها تتزامن، تقريبا، مع أحداث روايتي "الانطباع الأخير" و"صيف إفريقي"، وتشترك مع رواية محمد ديب على الخصوص في كثرة أبطالها، بحيث تتخذ بذلك طابعا ملحميا، وتتوزع فيها البطولة على عدد كبير من النساء والرجال.

وبدايتنا بذكر النساء هنا مقصودة، نظرا للعناية الخاصة التي أولتها الكاتبة لإبراز دور المرأة الجزائرية في الثورة، وقد بذلت جهدا معتبرا لتقديم نماذج عديدة منهن بلغت سبعا، كلهن في سن الشباب، حيث تتراوح أعمارهن ما بين السادسة عشر (حسيبة)، والتاسعة والعشرين (شريفة)، ولكنهن يختلفن اختلافا كبيرا من حيث المستوى الثقافي والاجتماعي،

سنة 1962. ثم أصدرت أعمالا أخرى بعد الاستقلال روائية وسينمائية، وفكرية متنوعة، أهمها: رواية "القبرات الساذجة "Les alouettes naïves"(1967) و"نساء مدينة الجزائر في بيوتهن"(1980) وفيلم "نوبة نساء جبل شنوة" - - الذي حصلت به على جائزة في مهرجان البندقية سنة 1979، وفيلم تلفزيوني بعنوان "الزردة وأغاني النسيان" سنة 1982. وقد انتخبت سنة 1999 عضوا في الأكاديمية الملكية البلجيكية للغة والأدب الفرنسي، التي تسند بعض المقاعد فيها إلى الكتاب الفرانكوفونيين الأجانب، لتحل محل الكاتب الأمريكي باللغة الفرنسية "جوليان قرين" الذي توفي العام المذكور. كما انتخبت سنة 2005 عضوا في الأكاديمية الفرنسية.

* وردت إشارة مباشرة في الرواية إلى سنة 1956 عندما سألت "سليمة" السجان عن تاريخ اليوم، لتعرف كم مضى عليها في زنزانتها، فدس لها ورقة في اليوم التالي كتب عليها تاريخ ذلك اليوم وهو 24 مايو 1956، كما وردت إشارتان أخريان إلى السنة بطريقة غير مباشرة، الأولى عندما قرر علي ترك الدراسة والالتحاق بالجبل، وقد مضى على بداية "الحرب" ثمانية عشر شهرا، وهو ما يتوافق وتاريخ نداء جبهة التحرير في 19 مايو 1956 للطلبة الجزائريين، التي دعتهم فيه إلى ترك الدراسة والالتحاق بالثورة، وكذا عندما تعرف "يوسف" على المحامي "خالد" الذي كان قد دافع عنه "منذ ما يزيد عن عشر سنوات" حينما قبض عليه في مظاهرات 8 مايو 1945 ينظر: «Les enfants du nouveau monde» Ed. Julliard, Col.10/18. Paris. 1962. p98, 99 et 189.

فمنهن المثقفة ثقافة عالية مثل ليلى وسليمة وسوزان (وهي فرنسية متزوجة من محام جزائري)، ومنهن المتوسطة الثقافة مثل حسيبة وتومة، ومنهن الأمية مثل شريفة وآمنة، أما من حيث المستوى الاجتماعي فيرجعن في معظمهن إلى الطبقة الوسطى الميسورة الحال، باستثناء سليمة التي كانت تعيل نفسها وأمها وأخواتها المطلقات، ومثلها "تومة" التي دفعها الفقر والشعور بالحرمان إلى الانحراف الأخلاقي.

ونلاحظ أن الكاتبة لم تكتف، في الواقع، بإبراز دور المرأة الجزائرية في الكفاح التحرري فحسب ولكنها تجاوزت ذلك إلى تصوير المعوقات الاجتماعية التي كانت تعترض طريق المرأة، وكانت لها آثار سلبية على دورها في الكفاح، وأهم تلك المعوقات، الأحكام المسبقة الموجودة عند الرجل عن المرأة، التي تأتي على الخصوص من تصور الرجل أنها غير قادرة على القيام بما يستطيعه هو، ولاسيما إذا تعلق الأمر بقضايا كبيرة وخطيرة مثل الكفاح ضد المستعمر. كما نلاحظ — من خلال ما تستعرضه الكاتبة — أن مثل هذا التصور لا يقتصر على غير المتعلمين من الرجال فقط، ولكنه يشمل أيضا من يتمتعون منهم بمستوى علمي وثقافي عال، وهذا ما يفسر، على سبيل المثال، موقف علي، طالب الطب، من زوجته ليلى، الذي كان يخفي عنها نشاطه الثوري، ولا يطلعها على أي شيء مما كان يقوم به، مع أنها كانت زميلة له في الجامعة، بالإضافة إلى كونها زوجته، وحين لمّحت له ذات يوم بأنها تعرف نوع النشاط الذي يقوم به أثناء غيابه عن البيت، وعرضت عليه

أن تشاركه فيه قائلة: ((لقد قمنا بكل شيء معا، لم لا آتي معك، ما تفعله سأفعله معك)) [43]،فكان جوابه الصمت. وعندما قرر الصعود إلى الجبل كان قراره انفراديا، ولم يستشرها في الأمر، كما لم يخطر بباله أن يعرض عليها اصطحابها معه، ولم تتجرأ هي على طلب ذلك منه، أو لنقل إن كبرياءها منعها من ذلك، ولم تشأ أن تجابهه بحقيقة يعرفها جيدا، وهو وجود نساء كثيرات يعملن في صفوف الثورة في الجبال، ويشاركن في الكفاح إلى جانب أزواجهن.

وبقطع النظر عما يمكن أن يقدمه علي من مبررات لموقفه هذا، الرافض لإطلاع زوجته على نوع النشاط الذي كان يقوم به، أو اصطحابها معه إلى الجبل، بما في ذلك المبررات العاطفية كحبه لها، الذي قد يكون من وراء ذلك، حماية لها من المخاطر المهلكة التي تكتنف نشاطه، غير أن هذا لا يلغي فكرة أن موقفه ـــ وهو الطالب الجامعي ـــ يتطابق والنظرة التقليدية للمرأة، التي تنفي عنها قدرتها على القيام بالمهمات الخطيرة نفسها التي يقوم بها الرجل، أو القدرة على كتمان السر، وهذا بالتقريب ما تتضمنه تساؤلات ليلى مع نفسها حين راحت تحاول أن تجد تفسيرا لتصرف زوجها إزاءها، لقد عاملها معاملة الرجل للمرأة، بالمعنى التقليدي الذي أشرنا إليه، باعتبارها حملا يثقل كاهله، ويحد من حريته في الحركة والانطلاق. تقول متسائلة مع نفسها:

43 «Les enfants du nouveau monde», p73.

((أيكون قد فكر في نفسه، دون أن يجرؤ على قول ذلك حتى لنفسه، أن يتخلص مني؟ لعلني كنت حملا عليه؟)) [44].

وعلى أية حال، لن نعالج هذه المسألة هنا، لأنها ستخرجنا عن السياق الذي حددناه لأنفسنا في هذا المبحث، وهو تحديد ملامح مضمون الخطاب الروائي في نصوص المدونة، ومن هنا نلاحظ أن اهتمام آسيا جبار في"أطفال العالم الجديد" لم ينصرف كثيرا إلى وصف مظاهر القوة العسكرية للجيش الفرنسي، وعملياته القمعية في المدن، ونشره للخراب والموت في القرى والأرياف ـــ كما رأينا ذلك في روايتي"صيف إفريقي" و"الانطباع الأخير" ـــ وإنما انصرف اهتمامها إلى التركيز على إحدى الممارسات الوحشية التي كانت مستعملة بكثرة في مراكز الشرطة وثكنات الجيش الاستعماري، ألا وهي عمليات التعذيب التي كان يتعرض لها المناضلون الجزائريون، كوسيلة لانتزاع المعلومات منهم. ومن خلال ثلاث حالات من هذا النوع، تكشف المؤلفة عن ممارسات همجية، يتجرد فيها الإنسان من إنسانيته، الجلاد والضحية على السواء، بحيث يتحول الأول إلى وحش كاسر، يتغذى على لحم أمثاله من البشر، ويتلذذ بآلامهم، ويتحول الثاني في يده إلى مجرد كائن ضعيف، مهان ومحتقر، فاقد لكرامته الإنسانية ، وفاقد ــ في مرحلة معينة ـــ للإحساس حتى بالألم من شدة التعذيب الذي يكون

44 «Les enfants du nouveau monde», p130.

قد تعرض له. وفيما يلي نحاول أن نستعرض هذه الحـــالات، ونحلـــل بعض الجوانب فيها.

الحالة الأولى التي تعرضها الكاتبة بشكل إجمالي موجز هـــي حالـــة "سي عبد الرحمان"، صاحب الفرن ، الذي اقتيد من فرنه بمئزر العمل، ليخضع للتعذيب لمدة ثلاثين ساعة متواصلة، حسب بعض الأخبار التي تسربت من وراء جدران محافظة الشرطة إلى الناس عنه، ثم يلقى بـــه، بعد أن استترف من كل قواه في بيته، ليظل طريح الفراش مدة شـــهر بأكمله[45] . والحالة الثانية هي حالة"سعيدي"، التي تتوسع فيها المؤلفـــة بعض الشيء، لتروي بعض التفاصيل عن التعذيب الذي تعرض له هذا المناضل، ومن ثمة تستطرد لتتحدث عن ماضيه. وكان قد قبض علـــى سعيدي بتهمة الاشتراك، مع مناضلين آخـــرين، في اجتمـــاع ســـري بمحافظ سياسي نزل من الجبل. وكان على سعيدي أن يدلي للـــشرطة بكل المعلومات التي يعرفها عن موضوع الاجتماع، والهدف الذي عقد من أجله، واسم المحافظ السياسي الذي نزل من الجبل، وأسماء المناضلين الآخرين الذين اشتركوا في الاجتماع. كان هذا بالتقريب هو مضمون الأسئلة التي طرحها المفتش"حكيم" على سعيدي، قبـــل أن يـــسلمه، بسبب رفضه الإجابة، للجلادين اللذين بعث بهما"مارتينـــاز"، نائـــب مفتش الشرطة، وقد حضرا لسبب ظاهر هو مـــساعدة"حكـــيم" في استنطاق المتهم ، لكونهما متخصصين في أساليب التعـــذيب وانتـــزاع

45 «Les enfants du nouveau monde», p92.

المعلومات بوسائل القهر، أما السبب الخفي فلأن نائب المحافظ لا يثق في "حكيم" ، لأنه عربي، ويخشى، لهذا السبب ، أن يكون، كما فكر في نفسه:"سكينا ذا حدين"[46]، أي أنه ربما يتظاهر بإخلاصه للنظام الاستعماري، ويتعاون في الخفاء مع أبناء جلدته. ويشير هذا الموقف الحذر إلى انعدام ثقة المستعمرين في الجزائريين، مهما كان إخلاصهم لهم وتفانيهم في خدمة النظام الاستعماري.

كان منظر وسائل التعذيب وحده كاف لأن يدخل الرعب في قلوب الضحايا، ولكن سعيد كان مصمما على الصمت مهما كلفه الأمر، حفاظا على سلامة رفاقه الآخرين:((وألقى سعيد نظرة على المكان.. وراح يتأمل ببرود الخيوط، والجرادل، ومولد الكهرباء (الذي عرفه قبل غيره) وحوض ماء متنقل بجانب الجدار..))[47].

ولا تقف المؤلفة طويلا مع وصف وسائل التعذيب، ولا مع الكيفيات التي يمارس بها الجلادون مهمتهم القذرة مع ضحاياهم، فبعد أن يترعوا عن سعيدي ثيابه، وسط عبارات السخرية والضحكات الهستيرية، ويعطي"حكيم" إشارة البدء بتعذيبه، تنتقل المؤلفة إلى الحديث عن ماضي سعيدي، لكن ليس ماضيه الذي جعل منه رجلا ثوريا – كما يتوقع القارئ – ولكنه ماض نكتشف فيه أن سعيدي كان رجلا مستهترا، أو"رأسا محروقة"، حسب تعبير المؤلفة"(كناية على عدم تردده

46 «Les enfants du nouveau monde», p156.
47 Ibid. p159.

في الإقدام عما يعن له في رأسه، دون تفكير في العواقب) وقد أوردت هذا الوصف على لسان علي، الذي روي لليلى إحدى أشهر مغامرات سعيدي، التي جعلت منه "بطلا" في أعين الغوغاء في بلدته، وذلك حين دخل في مغامرة عاطفية مع زوجة أحد المستوطنين الأوروبيين، فأغواها، وزين لها فكرة الهرب معه، واختفى لمدة ثلاثة أيام معها، إلا أن العدالة الاستعمارية نظرت إلى المسألة على أنها عملية اختطاف للمرأة، واغتصاب لها، وحكمت عليه بعشر سنوات سجنا، قضى منها، بعد الطعن في الحكم، أربعا فحسب[48].

وتبقى الأسباب التي جعلت سعيدي يتحول من رجل مستهتر إلى رجل ثوري مجهولة في ثنايا هذه المغامرة، التي أسهبت المؤلفة في روايتها، مع أننا لا نجد فيها، من الناحية الفنية ما يبرر كل تلك الصفحات الطوال التي خصصتها لها، ما عدا أنها أرادت بذلك أن تثبت عناد هذا الرجل وصلابة إرادته، التي جعلته يصمم على الصمت، ولا يبوح بأسماء زملائه المناضلين، إلى آخر نفس في حياته، حيث فاضت روحه بين يدي جلاديه دون أن يذكر اسما واحدا.

وتنهي المؤلفة هذا الفصل الذي خصصته لسعيدي بالعودة مرة أخرى إلى غرفة التعذيب، لتختم المشهد على النحو التالي: ((في الوقت الذي يروح فيه المساعدان يلبسان فيه الجثة ثيابها، يتجه "مارتينيز" إلى النافذة ليفتحها، لأنه لم تعد هناك حاجة لكتم الصراخ، ويكرر "حكيم"

48 «Les enfants du nouveau monde», p170

في صوت خافت قوله"لقد مات"، ثم يخرج من جيبه منديلا كبيرا ويمسح به جبينه)) [49].

والحالة الثالثة التي تستعرضها المؤلفة لعمليات التعذيب تخصصها لـ"سليمة"، وهي فتاة في الثلاثين من عمرها، عصامية، ومكافحة في حياتها، تعمل معلمة في إحدى المدارس الرسمية التابعة للدولة، وتنشط ضمن شبكة التنظيم الثوري داخل المدينة، وقد أوكلت إليها مهمة سهلة تتفق وطبيعة عملها، ألا وهي مهمة الاتصال، حيث كان عملها كمعلمة يتطلب منها الخروج كل يوم من البيت، وهو ما يجعل تحركها عاديا، وغير ملفت للنظر، ومع ذلك، وبالرغم من حذرها الشديد، فقد تنبهت إليها عيون الشرطة الاستعمارية، في آخر مهمة كانت تقوم بها، حيث كانت قد قصدت بيت"محمود"، مسؤول التنظيم الفدائي داخل المدينة، مبعوثة من قبله لتطمئن زوجته، وتعلمها بصعوده إلى الجبل، بعد أن انكشف أمره للسلطات، ولم تكن تدري أن الشرطة كانت تراقب المترل عن كثب، وترصد حركة كل من يدخل إليه أو يخرج منه [50].

ويمكن اعتبار هذه الحالة الأخيرة نموذجية في الرواية، نظرا للعناية التي أولتها الكاتبة لها، والمساحة الأكبر التي خصصتها لها. ويبدو أن مرد هذه العناية من الكاتبة بحالة سليمة ، يعود أولا إلى كونها امرأة، وقد سبق لنا أن ذكرنا من قبل أن الكاتبة كانت حريصة أشد الحرص في

---

49 «Les enfants du nouveau monde», 186.
50 Ibid, pp101,102.

هذه الرواية على إبراز دور المرأة الجزائرية في الكفاح من أجل التحرر، لكن يوجد هناك سبب آخر ـــ في نظرنا ـــ مرده إلى ممارسة التعذيب في حد ذاته، باعتباره همجية لا يليق أن تمارس باسم دولة متحضرة، تدعي أنها بلد الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان، ناهيك إذا كانت هذه الممارسة ضد النساء. علما أن الكاتبة لم تركز في هذه الحالة أيضا ـــ تماما مثل ما فعلت في الحالتين السابقتين ـــ على وصف عمليات التعذيب، ولكنها ركزت على وصف ظروف الاعتقال القاسية، من جهة، وعلى الحالة النفسية للشخصية، من جهة أخرى، بأساليب مختلفة، وبالأخص عن طريق المداولة بين الوصف المباشر حينا، واستعمال تيار الوعي لدى البطلة حينا آخر.

وقد تمكنت الروائية، عن طريق الأسلوب الأول أن تقدم صورة دقيقة عن ظروف الاعتقال القاسية التي كانت أحيانا أسوأ من عمليات التعذيب المباشر، كحبسها في زنزانة مظلمة لا تميز فيها بين الليل النهار، وباردة، لا فراش فيها ولا غطاء[51]، ومثل"نسيانها" أحيانا مدة يوم بأكمله، بلا طعام ولا ماء[52]، كما تمكنت، عن طريق الأسلوب الثاني، أن تتغلغل في نفسية الشخصية، وتعبر عن جملة من المشاعر الدقيقة في نفسيتها، وتكشف عن كثير من التفاصيل الصغيرة في حياتها، حتى تلك التي تعود إلى زمن الطفولة. وباستعمالها لهذا الأسلوب الأخير

51 «Les enfants du nouveau monde » p95,96.
52 Ibid, p97.

(تيار الوعي) تكون الكاتبة قد عملت على تحقيق هدفين فنـيين في آن واحد، أحدهما يتعلق بتعميق أبعاد الشخصية الروائية، برسـم خلفيـة اجتماعية وثقافية ونفسية لها، تعزز جانبها الاحتمالي (الواقعي)، والآخر يتعلق بتوافق الحالة النفسية للبطلة مع مقتضى الحـال، أي محاولتـها التخلص من واقعها المؤلم، عن طريق الاستسلام للذكريات، والهروب إلى كل ما هو مريح ومطمئن في حياتها السابقة، وبـالأخص مرحلـة الطفولة، وهي المرحلة التي يرى علماء النفس أن الفرد يلجأ إليها حين يجد نفسه في حالة عجز كلي عن القيام بأي فعل، فيلجـأ إلى ذلـك كدفاع عن النفس، وكنوع من الهروب من مواجهة الواقـع[53]. وقـد كان هذا هو حال سليمة، التي كانت تجد راحة حقيقية في اسـتعراض ذكرياتها القديمة، وقد يحدث لها أن تنسى بالفعـل واقعهـا وآلامهـا المبرحة:((على هذا النحو صنعت حولها عالما كانت تعلم أنه مصطنع، ولكنه كان يربطها بسنوات دراستها القديمة، وبالتعليم، والقراءة، وبذل الجهد(...) كانت ممددة على السرير*، بلا غطاء، ومع ذلـك لم تعد تشعر بالبرد، لقد كانت سليمة مستغرقة في هذه العذوبة المـثيرة الـتي تمكنت من إختلاسها))[54].

---

53 راجع : سيجموند فرويد "معالم التحليل النفسي"، بإشراف الدكتور محمد عثمان نجاتي، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1986، ص131،130.

* أعطيت سريرا بعد أن انهي استنطاقها، وبعد مضي عشرة أيام من تاريخ القبض عليها.

54 «Les enfants du nouveau monde »pp103,104.

وكان جو الحبس الانفرادي الذي كانت فيه البطلة، وظلمة الزنزانة، والسكون الذي يلف المكان يساعد على إثارة الخيال، واستعادة الذكريات، بل يدفع إليها دفعا. ولم تقف تلك الذكريات عند حدود مرحلة الطفولة وحدها، فقد راحت سليمة تستعيد في ذاكرتها أيضا أدق التفاصيل عن ذلك اللقاء الذي كان قد جمعها بمحمود قبل القبض عليها، وكانت تحس نحو محمود إحساسا غامضا لا تتجرأ على أن تصارح نفسها به وتسميه حبا ، لأنه كان متزوجا، ولكنه على أية حال، كان نوعا من الإعجاب به، بررته على نحو غامض أيضا بصلة القرابة التي كانت تربطها به، وذلك ما جعلها تثق به، وتطمئن إلى العمل معه. وقد قدمت للشرطة بالفعل رابط القرابة هذا كمبرر عن زيارتها لبيت محمود، وظلت مصرة على قولها[55]. وهكذا راحت سليمة تستعيد في ذاكرتها كل ما دار بينها وبين محمود من حوار في آخر لقاء بينهما، وتعيش من جديد مختلف المشاعر التي أحست بها أثناء ذلك اللقاء، وتنتقل بعد ذلك إلى باقة الزهور البيضاء التي اشترتها حينما ذهبت لزيارة زوجة محمود، والعطر الذي رشتها به ربة البيت حينما اعتذرت لها عن شرب القهوة بسبب ضيق الوقت، إلى أن تصل إلى حادثة القبض عليها مساء يوم تلك الزيارة، فتقطع شريط الذكريات لتعيده من الأول، وتستدرك في كل مرة تفاصيل نسيتها في المرة السابقة، لتضيف إليها انطباعات ومشاعر أوحت بها التفاصيل الجديدة.

55 «Les enfants du nouveau monde» p109.

غير أن لجوء سليمة إلى مثل هذه الذكريات الجميلة والمريحة، والتلذذ بها في هدوء ودعة لم تكن لتستمر لفترات طويلة، فقد كان فتح باب الزنزانة عليها بشكل مباغت، وعلى غير موعد، من أجل جلسة استنطاق جديدة، يعيدها إلى واقعها الأليم، كما كان صراخ المعذبين يخترق الجدران أحيانا، ويتناهى إليها من الطابق العلوي ، فيخرجها من أحلامها العذبة، حيث تصاب بنوع من التوتر، وتسد أذنيها لكي لا تسمع الصراخ، وتلجأ مرة أخرى إلى عهد الطفولة، لكن، لا لتستعيد الذكريات في هذه المرة، وإنما لتستعيد الآيات القرآنية التي حفظتها في تلك المرحلة من العمر، إذ تأبى هويتها وثقافتها الأصلية إلا أن تظهر هنا بشكل شبه غريزي، فتروح ترددها بشكل آلي، كنوع من حماية الذات، ومحاولة لاسترجاع الثقة وهدوء النفس[56] .

لقد لعبت المؤلفة كثيرا على هذا الجانب النفسي في صمود البطلة، وقد نجحت فيه إلى حد بعيد، غير أنها غَيَّبت في الوقت نفسه جوانب أخرى لا تقل أهمية، كالجانب السياسي والأيديولوجي مثلا، رغم الصور المثالية التي أسبغتها الكاتبة على معظم أبطالها. إن سليمة لم يكن في وسعها أن تتحمل كل ذلك العذاب لولا إيمانها القوي بعدالة القضية التي كانت تكافح من أجلها، ولولا اقتناعها العميق بأن صمتها وصمودها إنما هو تضحية في سبيل تلك القضية، وحماية لمناضلين آخرين سيواصلون الكفاح، بفضل سكوتها، من أجل انتصار قضيتهم

56 «Les enfants du nouveau monde» p181.

المشتركة. لقد غيب هذا الجانب في الرواية تماما ، لحساب الجانب النفساني للأبطال، حتى إن الكاتبة جعلتنا نستنتج من خلال السياق، أن سعيدي لفظ أنفاسه بين يدي جلاديه ــ كما مر معنا ــ بسبب طبعه العنيد، لا بدافع حماية رفاقه من أجل مواصلة الكفاح وانتصار الثورة.

ولا يفوتنا هنا، ونحن نتحدث عن العناية التي أولتها الكاتبة في روايتها لإبراز مسألة ممارسة التعذيب من قبل الشرطة الاستعمارية على المناضلين الجزائريين أثناء الثورة، أن نقف قليلا مع مسألة ملفتة للنظر، تتعلق بصورة الفرنسي "الأصيل"، والفرنسي الهجين، فقد جعلت المؤلفة الجلادين الذين يمارسون التعذيب من هذا النوع الأخير، أي من اختصاص "مارتينيز" نائب المحافظ، الذي يشير اسمه إلى أصله الإسباني، ويساعده في ذلك "حكيم"، الذي يحاول من خلال تعذيبه لأبناء جلدته من الجزائريين أن يقدم دليل الطاعة والولاء لرؤسائه، ومن خلال ولائه لهم دليل تفانيه في خدمة الوجود الاستعماري في الجزائر، وفي مقابل هذا نجد محافظ الشرطة، السيد "جان"، المنحدر من أصل فرنسي قح، بعيدا عن هذه المهمة "القذرة"، بحيث نجد مهمته تتوقف عند حدود الاستجواب الشفوي لا غير، رغم أنه المسؤول الأول في المحافظة، وحتى في هذه المهمة يبدو السيد "جان" مثالا للذكاء والألمعية، ونموذجا للرجل المهذب والمتحضر، بحيث يحاول أن يحصل على المعلومات عن طريق محاصرة المتهم بالأسئلة، وإرباكه بالمناورة والمداورة، وإيقاعه في التناقض مع ما يلزم ذلك من تمثيل، وإظهار للصرامة ، دون أن يفقده ذلك شيئا

من اتزانه، أو يجعله يتخلى حتى عن استعمال ضمير الجمع في الخطاب، كما تقتضي قواعد السلوك المهذب لدى الفرنسيين، حتى ولو كان المخاطب متهما، أما أدوار الفظاظة والقسوة"التي من ضمنها نزع الكلفة في الحديث"، فيتركها لمساعديه[57] من الفرنسيين المهجنين.

وتتألق صورة هذا الفرنسي الأصيل، المهذب والمتحضر أكثر فأكثر إذا تعلق الأمر بامرأة، ففي حالة سليمة، نراه منذ البداية غير مرتاح لاستعمال العنف معها من قبل مساعديه، كما بدا مستعجلا في الأخير من أجل إنهاء التحقيق معها، لاسيما أن عشرة أيام من التعذيب لم تسفر معها عن أية نتيجة إيجابية، وهذا ما يفسر رفضه القاطع والحازم لاقتراح مساعديه بتجريب أساليب جديدة في التعذيب ترغم المتهمة على الاعتراف. قال، وكأنه يثور لشرفه:((أنا آسف، إنني لن أفعل هذا مع النساء، لا، ليس في محافظتي، ليس هنا.))[58].

وتتأكد هذه الصورة المثالية للفرنسي الأصيل مع"سيزان"، صديقة ليلى، وزوجة عمر المحامي. فبالرغم من أنها لم تتجاوز الرابعة والعشرين من عمرها، إلا أن هذه الفرنسية"الأصيلة" تبدو امرأة ناضجة جدا، وواثقة من نفسها ومن تصرفاتها إلى أبعد الحدود، فهي لا تقدم على فعل أي شيء إلا إذا فكرت فيه، فإذا اقتنعت به لم تأبه بعد ذلك بما يمكن أن يفكر فيه الناس، وهذا ما فعلته حين تزوجت من عمر،

57 «Les enfants du nouveau monde», p109.
58 Ibid, p110.

متحدية كل الأحكام المسبقة التي كانت تحكم العلاقة بين الجالية الأوروبية والجزائريين، وصامدة في وجه كل الضغوط التي مورست عليها من أهلها لمنع ذلك الزواج، ومتحملة مقاطعة والديها لها بعد الزواج[59]. وقد عبرت لها صديقتها ليلى، بشكل مباشر وصريح، عن إعجابها بقوة شخصيتها، وعن أسفها في الوقت نفسه أن لا تكون هي قوية مثلها:((إنك امرأة بحق، كما كنت أود أن أكون، فكلك جدية، وبرودة أعصاب. إن هذا هو النضج، أليس كذلك؟ السيطرة على الذات، نعم إنني أغبطك على هذا))[60].

مع العلم أن ليلى وسوزان كانتا صديقتين منذ الصغر، وزميلتين في الدراسة[61]، أي أن حظهما من التعليم والثقافة كان متساويا، ولكن التربية الأسرية ــ فيما يبدو ــ كان لها من التأثير في صنع شخصيتيهما ما هو أقوى بكثير من تأثير العلم الذي تلقياه معا ــ ونعتقد أن هذا ما أرادت الكاتبة أن تقوله من خلال المقارنة الضمنية التي أجرتها بين هاتين الشخصيتين ــ فكانتا على هذا النحو المختلف تماما.

ولئن لم تقدم المؤلفة أية معلومات عن نشأة"سوزان"، فإنها في المقابل أعطت معلومات كثيرة عن نشأة ليلى. ومن خلال تلك المعلومات تبدو لنا ليلى طفلة مدللة، رغم فقدها لأمها وهي في سن مبكرة، فقد

59 «Les enfants du nouveau monde», p128.

60 Ibid, p124.

61 Ibid, p118.

حظيت بعناية خاصة من والدها، الذي سهر على تربيتها، وشجعها على مواصلة تعليمها، ووفر لها كل أسباب النجاح، رغم معارضة الأهل له في ذلك. وهذه النشأة جعلتها قليلة الخبرة بالحياة، تعتمد في كل شيء على والدها، واستمر ذلك الشعور معها بعد أن كبرت وتزوجت، فأصبح علي بالنسبة إليها صورة أخرى من والدها، تشعر معه بالحماية والأمان، ولذلك أصيبت بما يشبه الذعر حين أخبرها بأنه سيصعد إلى الجبل، وكان شعورها، أمام هذه الوضعية أشبه ما يكون بشعور الطفل إذا أحس بأنه مهدد بفقدان حماية والديه ولذلك نراها تواجه الموقف بالصراخ والبكاء مرددة عبارة:"وأنا، وأنا؟" وهو ما جعلها تبدو في عيني زوجها امرأة أنانية لا تفكر إلا في نفسها[62].

وفي مقابل هذه الصورة نجد"سوزان" تواجه الموقف نفسه ــ وهو قرار زوجها بالرحيل إلى فرنسا ــ بكل هدوء، وتناقش معه قراره بالعقل والمنطق، وتحاول أن تثنيه عن قراره بإقناعه أن رحيله إلى فرنسا غير مناسب في ذلك الظرف، لأن مهمته النبيلة كمحام، تقتضي منه أن يبقى في الجزائر ليدافع عن المظلومين: ((إنك هنا ستدافع على الأقل عن الآخرين، وتكون مفيدا للضحايا، إن لم تكن مفيدا للمقاتلين..))[63].

لكن زوجها ظل مصرا على ضرورة الرحيل، وضرورة اصطحابها معه، وحينئذ وجدت نفسها مرغمة على اتخاذ موقف واضح وصريح،

---

62 «Les enfants du nouveau monde» p129.
63 Ibid. p127.

فأفهمته أن فكرة رحيله في ذلك الظرف يعد"نوعا من الهروب"[64]، أما فيما يخصها هي، فهي ترفض الرحيل معه. قالت له في حسم:

((سأبقى هنا..حتى لو استمر هذا (حالة الحرب) عشر سنوات))[65].

وحتى إلى آخر لحظة، قبل أن يغادر المترل، ظل عمر يكرر عرضه عليها بالرحيل معه، وظلت تكرر رفضها لدعوته، دون أن تضعف لحظة واحدة. وبعد رحيل زوجها لم تستسلم"سوزان" لا للحزن ولا للبكاء ولا لمقاطعة الناس والانطواء على الذات كما فعلت ليلى، بل إنها على العكس من ذلك راحت تكسر طوق العزلة، وتحاول أن تشغل نفسها، إلى جانب العناية بابنتها الرضيعة، بعمل مفيد، وقد وجدته في المهمة النبيلة التي تخلى عنها زوجها، ألا وهي الدفاع عن المتهمين بالانتساب إلى الخلايا الثورية، حتى ولو كان ذلك بشكل غير مباشر، لأنها لم تكن محامية، وكان ذلك عن طريق لجوئها إلى محامين من أصدقاء زوجها ليقوموا بهذه المهمة، وكانت أولى قضاياها هي قضية "سليمة" التي جاءت أمها تبحث عن عمر ليقوم بمهمة الدفاع عنها، فقد تكفلت سوزان بالقضية، واتصلت بالمحامي"خالد" ليتولى الدفاع عنها، ويزورها في السجن، وتكفلت هي من جهتها بالاتصال بمديرة المدرسة التي كانت تعمل بها سليمة، وبمفتش التعليم بالمنطقة.

64 «Les enfants du nouveau monde», p125

65 Ibid, p127.

ليتدخلوا لدى السلطات لصالحها، ويساعدوا في التعجيل بإطلاق سراحها[66].

لقد لعبت"سوزان" الفرنسية دورا كان يفترض أن تقوم به ليلى الجزائرية، والعكس صحيح ولكن الأدوار انعكست، فحاولت"سوزان" أن تمنع زوجها من الهروب إلى فرنسا لكي يضطلع بواجبه الوطني تجاه إخوانه وبلده، وبرهنت بذلك على أنها حين اختارت أن تكون جزائرية فإنها اختارت ذلك عن اقتناع كامل، مع ما يلحق ذلك من تبعات، ومنها بالطبع واجبات المواطنة وحقوقها، في الوقت الذي لم تستطع فيه ليلى ــ رغم ثقافتها ــ أن ترتقي إلى هذا المستوى من الوعي أو من الفاعلية، وحاولت على عكس"سوزان" أن تمنع زوجها من القيام بواجبه الوطني.

وعلى أية حال ، فإن المؤلفة، حتى في حالة ما إذا كانت قد قصدت أن تجري مقارنة ضمنية بين"سوزان" الفرنسية وليلى الجزائرية، مع الفرق الواضح بين النموذجين، فإننا لا نظن أنها قصدت إلى تقديم نموذج عام مطلق للمرأة الجزائرية، بدليل أنها قدمت في روايتها نماذج نسوية جزائرية أخرى عديدة في صورة مثالية عالية، وإذا قصدت المؤلفة أن توجه النقد لموقف ليلى من زوجها ومن الثورة، الذي لم يكن موقفا في مستوى ثقافتها فإننا نظن أنها كانت تقصد نقد تلك الشريحة من بنات المجتمع البورجوازي

66 Ibid, p133.

الجزائري من أمثال ليلى، اللاتي ربما أرادت المؤلفة أن تقول بأنهن لم يكن في مستوى المسؤولية التاريخية في فترة الكفاح الوطني.

أما فيما يخص تلك الصورة الإيجابية التي رسمتها المؤلفة لمحافظ الشرطة، وللسيدة"سوزان" من جهة، والصورة السلبية لـ"مارتنيز" نائب المحافظ، من جهة أخرى، فإنها تذكرنا بقوة بتلك الصورة المثالية لـ"الفرنسي الأصيل" التي طالما روجت لها روايات الكتاب الجزائريين باللغة الفرنسية في المرحلة الأولى 1925- 1952 على الخصوص، التي كثيرا ما جاءت مجسدة في شخص"الأستاذ"*، بينما تأتي العنصرية دائما، والمواقف المعادية للجزائري من أوروبيين ينحدرون من أصول غير فرنسية**، إلا أن الغرض من هذه الصورة هنا مختلف فإذا كان الفرنسي"الأصيل" في الروايات السابقة يبدو عادلا في تعامله مع "الأهلي" وغير عنصري، فإنه في هذه الرواية يبدو صاحب ضمير حي، وأخلاق عالية، وغير مستعد للتخلي عن القيم الحضارية التي تشبع بها

* مثل الأستاذ رودومسكي في رواية"مامون" لشكري خوجة، و"دورتان" في"بولنوار" لرابح زناتي، وآخرها الأستاذ"بواري" في رواية"نوم العادل" لمولود معمري"، و"لوسي" في رواية "الانطباع الأخير" لمالك حداد، وهناك شخصيات أخرى يتجسد فيها الفرنسي الأصيل المثالي، مثل مدير المنجم في رواية"زهراء زوجة المنجمي " لعبد القادر حاج حمو، والسيد"لورمون" صاحب المصنع في رواية"ليلى فتاة جزائرية" لجميلة دباش إلخ..

** مثل المواقف العنصرية التي تعرض لها الملياني في رواية "زهراء زوجة المنجمي" ، حين أدخل السجن بسبب شجاره مع "كريمتشي" الإيطالي، وكذا البطل في رواية "مامون" عندما كان يبحث عن وظيفة في الإدارة الاستعمارية ولم يجد إلا وظيفة بواب ، راجع ذلك في الفصل الأول من الباب الثاني من هذا البحث.

حتى في ظروف الحرب (صورة المحافظ)، ومثالا للوفاء ونكران الذات، والشعور بالمسؤولية إزاء الآخرين، والعمل على مساعدهم في محنهم (صورة سوزان).

وفي اعتقادنا أن هذه الصورة، ليست إلا خرافة لا أساس لها من الصحة*، وهي شبيهة بخرافة "المتوحش الطيب" **(Le bon primitif)** التي روج لها الرومنتكيون في القرن التاسع عشر، لأن المسألة ليست مسألة أعراق بطبيعتها "أصيلة" ونبيلة وأخرى هجينة ووضيعة، والفكرة في أساسها فكرة خاطئة وعنصرية، ولكنها ببساطة — وكما سبق أن بينا في الفصل الأول من هذا البحث — مسألة تتعلق بالنظام الاستعماري في حد ذاته كنظام استغلالي، يقوم في الأساس على استعباد الشعوب، وتجريدها من أبسط حقوقها الإنسانية، واستغلال سواعد أبنائها، ونهب ثرواتها، يتساوى في هذا الاستعمار الفرنسي أو الإنكليزي أو البرتغالي أو الإسباني أو الإيطالي أو غيره، حتى وإن اختلفت الأساليب من بلد إلى آخر، والتاريخ يشهد على صدق هذا القول. ولو كان الأمر متعلقا حقا بالعرق "الأصيل" و "النبيل" للفرنسيين وتمسكهم بقيم الثورة الفرنسية النبيلة، لما كان هناك استعمار فرنسي للجزائر أو لغيرها من الشعوب الأخرى، أو على الأقل — وقد حصل هذا الاستعمار بالفعل،

* هذه المسألة تحتاج إلى دراسة مستفيضة ، ليس هنا مكانها ، تدخل في نطاق الدراسات الأدبية المقارنة التي تهتم بدراسة الصور والخرافات التي تكونها الشعوب والأمم عن بعضها بعضا.

وهيمن عليه أقوام آخرون دخلاء، وأصبحوا هم المستعمرين الحقيقيين، كما يحاول هؤلاء الروائيون أن يوهمونا ـــ لكان كل مؤيـــدي ثـــورة التحرير ومناصريها من الفرنسيين"الأصلاء"، في حين أننا نعرف يقينـــا أن الذين أيدوا الثورة الجزائرية، وساعدوا الجزائريين علـــى اســـتعادة حريتهم واستقلالهم كانوا من مختلف الأعراق والأديان، وممن لا ديـــن لهم، سواء في الجزائر ، أو في فرنسا، أو في غيرها من بلدان العالم.

الانتماء القومي والموقف من الثورة

جدير بنا أن نذكّر هنا أولا بأن الكاتب الاستيطاني"ألبير كامو" كان أول من بادر باتخاذ الانتماء القومي كعامل حاسم بالنسبة للموقف من الثورة الجزائرية، حيث رجح هو شخصيا عامل الانتماء القومي علـــى الوقوف إلى جانب الحق*، وإلى هذا يشير مالـــك حـــداد في روايـــة "الانطباع الأخير" حين يقول: ((وخطر ببال سعيد مقالا لـــ"كـــامو" كان قد قرأه مؤخرا، جاء فيه: إن الوقت قد حان لكي يلتحـــق كـــل واحد بقومه)) [67].

وهي إشارة تعبر، من خلال السياق الذي وردت فيه، عن خيبة أمل المثقفين الجزائريين في مثقف وكاتب كبير مثل"كامو"، كانوا ينتظرون منه أن يكون نصيرا قويا للثورة الجزائرية، ومدافعا عن حرية الجزائـــر،

---

* راجع موقف"ألبير كامو" من الثورة الجزائرية في الفصل الثالث من هذا البحث، بعنوان إشكالية الهوية والانتماء".

67 "La dernière impression", p55.

بلده بالمولد والنشأة، مثل ما كان مدافعا عنيدا عن حرية فرنسا، بلده بالانتماء، أثناء الاحتلال الألماني لها، انطلاقا من مبدإ أن الحرية حق لجميع البشر بلا استثناء، وأن الدفاع عن هذا الحق لا يقبل التجزئة. إلا أن"كامو"، مع ذلك، يكون بموقفه هذا قد قدم حجة ـــ دون قصد منه ـــ للكتاب الجزائريين كانوا في أمس الحاجة إليها ، مفادهـــا أنـــه: إذا كان"كامو" قد انحاز بحجة الانتماء القومي إلى صف الظلم، المتمثل في الاستعمار، فكيف لا ينحازون هم إلى قضية قومهم العادلـــة، الـــذين ثاروا من أجل استرجاع حريتهم المغتصبة؟

وبالفعل، فإننا حين نتفحص نصوص هذه المرحلة نجد أن الانتمـــاء القومي كان حقا عاملا مهما في الانحياز إلى الثورة، ســـواء بالنـــسبة للكتّاب أو بالنسبة للأبطال، الذين كانوا يعكسون إلى حد كبير موقف الكتّاب أنفسهم، غير أن ما يلفت النظر أن التعبير عن هذا الموقـــف لم يكن يتم في أغلب الحالات من منطلق أيديولوجي محدد، ولكن مـــن واقع معيش، ومن وضعية مفروضة، باعتبـــارهم ـــ أي الكتـــاب أو الأبطال على السواء ـــ أفرادا ينتمون عرقيـــا وثقافيـــا إلى المجموعـــة السكانية الكبيرة المسلمة، المـــضطهدة سياسيا،والمهـــضومة الحقـــوق اجتماعيا وثقافيا، والمستغلة اقتصاديا من الأقلية الأوروبية. ومن هنـــا يتخذ الموقف في الرواية نوعا من الحتمية بالنسبة للبطل، ويبدو البطل لا يمتلك الخيار في الانحياز إلى بني قومه، لأنه لا يستطيع الـــتخلص مـــن جلده، ولأن الأقلية الاستيطانية لا تقبل بانتمائه إليها مهما كانت ثقافته

أو شهادته العالية، أو مكانته المرموقة في المجتمع، ومهما أظهر من الإخلاص وحسن النوايا نحوها، لأنها ببساطة لم تكن لتقبل أبدا أن يشاركها"الأهالي" في الامتيازات التي كانت تتمتع بها.

لقد عبر مالك حداد عن هذين المعنيين معا في موقف لبطل روايته "الانطباع الأخير" وذلك حينما طرح عليه محدثه، الدكتور"لوجوندر"، سؤالا عن انتمائه السياسي، بعد ما فهم من لهجته التي كان يتحدث بها أنه من الوطنيين، فأجابه: ((لا أدري إن كنت وطنيا، ولكن ما أدريه جيدا هو أنني جزائري)) [68].

ويعلق بعد ذلك بأن جلسة العشاء الحميمية مع"لوسي"، وطيبة الدكتور"لوجوندر"، منعته من أن يضيف عبارة أخرى قد تجرح مشاعر جليسيه. يقول:((ولم يتجرأ سعيد على التصريح بأنه يخشى أن يتحول إلى مناهض للفرنسيين، وإن له من أسباب ذلك ما لا يحصى)) [69].

وفي موضع آخر يرد سعيد على من قال له"إنك لست مثل الآخرين" (أي الجزائريين الآخرين)، لأنه يستطيع أن يتحدث إليه عن"روني شار" و"بيتهوفن"* فيقول له: ((إنك مخطئ، فأنا مثل الآخرين، وشهاداتي الدراسية لا تضيف لي شيئا، ولا تنقص شيئا... إنني مثل الآخرين، إنني

68 "La dernière impression",, p29.
69 Ibid, p29.

* روني شار من شعراء المقاومة الفرنسية أثناء الاحتلال الألماني لفرنسا، وكان سريالي المذهب، أما"بيتهوفن" فهو الموسيقي الألماني الشهير الذي عاش في القرن التاسع عشر.

مع الآخرين .... كل شيء يربطني بهم، وكل شيء يجعلني أعرف بهم، ولا وجود لي إلا معهم. لقد اختارت الشجرة غابتها، والنوتة سمفونيتها. إنهم وحدهم الذين يفهمونني، وحدهم الذين أستطيع أن أفهمهم حقا، إنهم أهلي))[70].

وهكذا نجد العديد من أبطال روايات هذه الفترة ينحازون إلى صف الثورة، لا عن اقتناع بمبادئ الثورة، ولكن، لأنه لا خيار لهم إلا الانحياز لصفها، بحكم الانتماء، أو بدافع من سياسة المستعمرين العنصرية إزاء الجزائريين، تماما مثل سعيد بطل"الانطباع الأخير"، الذي كان منصرفا إلى مهنته كمهندس، فخورا بإنجازه لأول جسر بعد تخرجه، ولم يفكر أبدا في الاتصال بالثورة، ولا في الإسهام بأي شكل من الأشكال في الكفاح التحرري الذي كان على أشده آنذاك، ولكن الثوار هم الذين اتصلوا به، وطلبوا منه تزويدهم بالمعلومات التقنية لنسف الجسر[71].

وقد احتاج بطلنا إلى بعض الوقت لكي يستوعب حقيقة ما طلب منه، وبعض الوقت لكي يتغلب على الصراع النفسي الذي راح يعتمل في داخله، نظرا لما كانت تنطوي عليه فكرة نسف الجسر من عبثية في نظره أول الأمر، ولكنه في النهاية بدا مقتنعا بالحجة التي قدمها له الثوار، وهي منع القوات الفرنسية من استخدام الجسر لعبور الدبابات

---

70 "La dernière impression", p110

71 Ibid, p37.

والآليات الحربية، لتزرع الدمار والموت في القرى والأرياف المجاورة[72]. وبقطع النظر عما إذا كان سعيد قد اقتنع حقا بهذه الحجة أو لم يقتنع، وبقطع النظر أيضا عن مدى صدق مشاعر الانتماء والوطنية التي غمرته فجأة، وحولت عملية نسف الجسر في نظره من العبثية إلى نوع من التضحية بالمجد الشخصي في سبيل أبناء وطنه، فإن هامش الخيار عنده كان محدودا، إن لم يكن منعدما، بل يمكن القول بأنه وجد نفسه "مورَّطا"، بشكل أو بآخر، في العمل الثوري.

والفلاح مرحوم في"صيف إفريقي" كان أيضا منصرفا إلى أعمال الزراعة، لا يشغله شيء آخر عنها، ولا يحسن شيئا آخر غيرها، إلى أن اتصل به الثوار وطلبوا منه التكفل بتزويدهم بما يحتاجون إليه من المؤونة، ثم أضافوا له في وقت لاحق مهمة فض النزاعات بين الناس، لكي لا يلجؤوا إلى القضاء الاستعماري[73]، مع أنها كانت مهمة تتجاوز استعداده وقدراته، ولكنه حتى في هذه الحالة لم يكن له خيار.

ويجد"خالد بن طوبال" في رواية"رصيف الأزهار لم يعد يجيب" نفسه في وضع لا يختلف كثيرا عن وضع سعيد ومرحوم، مع أنه كان يعيش في فرنسا، فشعوره الحاد بالانتماء إلى الجزائر جعله يعاني من الناحية النفسية آثار الحرب التي كانت تجري في الجزائر، كما لو كان يعيش في الجزائر. وقد عبر المؤلف عن حال بطله هذه أحسن تعبير، وبشكل

72 Ibid, p141.
73 "Un été africain", p 37,38

دقيق، حين قال: ((إن الوطني لا يصنع الوطن، لكن الوطن يمكنه أن يصنع الوطنيين، أما الباقي فليس إلا ادعاء))[74].

وهذا المعنى ينطبق،كما هو واضح، على حال سعيد، كما ينطبق على حال رحمون، ويعني أن نموذج خالد أو سعيد أو رحمون هو نموذج شائع ومتكرر، كما يعني، من جهة أخرى، أن الفرد بهذا المفهوم ليس هو في نهاية الأمر إلا محصلة تضافر مجموعة من العوامل والظروف الحتمية، هي التي تحكمه، وهي التي تكيفه وتوجهه نحو هذه الوجهة أو تلك. ومن هنا نستنتج أن الخطاب في هذه النصوص الروائية يأخذ طابعا تبريريا، فالبطل مجبر على الانحياز إلى الثورة، إما تحت ضغط الواجب الذي يفرضه الانتماء، وإما نتيجة للسياسة الاستعمارية التي تدفع به إلى أن يكون ضدها، وفي كلا الحالين هو مجبر.

لكن، هل يفسر هذا خلو الخطاب الروائي في مدونتنا من أية مضامين تستلهم بشكل ما أيديولوجية الثورة الجزائرية؟ الواقع أن هذا يمكن أن يكون تفسيرا منطقيا ومعقولا لو تعلق الأمر بالخطابات التي تأتي على لسان هؤلاء الأبطال، الذين وجدوا أنفسهم فجأة " ثوارا بالرغم منهم" ـــ إن صح التعبير ـــ ولكنه ينطبق على خطابات كل الأبطال في روايات المدونة بلا استثناء، ومنهم أبطال"أطفال العالم الجديد" الذين أغفلنا الإشارة إليهم هنا عن قصد، لأنهم يختلفون بعض الشيء عن أبطال روايات مالك حداد ومحمد ديب، إذ يتميزون بنوع

74 « Le Quai aux fleurs ne répond plus », p26.

من الحماس الثوري الذي لا نجده في أبطال الروايات الأخرى، حيث يبدون أكثر اقتناعا بالعمل الثوري، وأكثر حماسا وتصميما على تجسيد إرادهم في النضال من أجل الحرية والاستقلال، ويتجلى هذا بشكل خاص في حماس أصغر الأبطال سنا، وتصميمهم على الانضمام لصفوف الثورة مهما كانت الصعوبات، ومهما كلفهم الأمر ، مثل حسيبة، وبشير، وتوفيق ، فقد حاول كل واحد منهم أن يبرهن بطريقته الخاصة على أنه غير قاصر على القيام بالمهمات نفسها التي يقوم بها الراشدون. تقول حسيبة، ابنة الأربعة عشر ربيعا، لمن بلغها عدم استجابة القيادة لطلبها الالتحاق بالثورة لصغر سنها: ((الثورة للجميع، الكبار مثل الصغار، وأنا أريد أن أعطي دمي للثورة))[75].

وظلت طوال عامين بعد ذلك تعد الأيام، وتنتظر في صبر بلوغ السن التي يسمح لها فيها بالالتحاق بالجبل، وأثناء ذلك راحت تتعلم مهنة التمريض، حتى تكون جاهزة للمهمة حينما تأتي الفرصة. وإلى آخر لحظة كانت إرادها محل اختبار، حيث حذرها المسؤول من قسوة الحياة في الجبل، والتنقل باستمرار ليلا على الأقدام، فأجابته في تصميم: ((أستطيع أن أمشي ولو حافية القدمين إذا لزم الأمر.. وأريد أن أصحب المقاتلين.. أريد أن أعاني معهم ليلا ونهارا..))[76].

75 «Les enfants du nouveau monde », p235.

76 Ibid p235.

وفي طريقها إلى الجبل كانت حريصة على أن لا تمشي في آخر المجموعة، حتى لا يظن بها التعب، كما كانت تبذل جهدا كبيرا لإخفاء الانزعاج الذي كانت تحس به بسبب الحذاء المطاطي الذي أعطي لها لتلبسه بدل حذاء الكعب العالي. وكانت سعيدة بكل ما تلقاه، فالمهم بالنسبة إليها أنها حققت مثلها الأعلى في أن تلتحق بالجبل وأن تصبح في عداد المجاهدات في سبيل تحرير الوطن.

ويتكرر مثل هذا الحماس مع الطالب الثانوي بشير، ابن السابعة عشر، الذي تحمس بدوره للالتحاق بالعمل الفدائي، مضحيا بمستقبله الزاهر الذي كان والده يعده له، نظرا لتفوقه في الدراسة على كل أقرانه. إن كل ذلك مهم، كما أوضح لرفيقه الذي جاء يختبر مدى جديته في الالتحاق بالعمل الفدائي، لكنه ليس أهم من تحرير الوطن:

((ماذا تعني الدروس وما يتبعها بالنسبة إليه؟ لاشيء.. إنني أريد أن أفعل كالآخرين،كالإخوة ". وكانت هذه هي المرة الأولى التي يستعمل فيها كلام المناضلين، فعلت وجهه بعض الحمرة، آملا أن لا يكون الآخر قد تنبه إليه))[77].

ولم تكن مغامرة الشاب توفيق في هذا الصدد تختلف في شيء عن مغامرة حسيبة وبشير في حماسهما، وفي نظرتهما الرومنسية إلى العمل الثوري، لولا أن الدراما الرومنسية التي كان هو بطلها قد انحرفت عن

---

77 «Les enfants du nouveau monde » p201.

مسارها الذي كان يفترض أن تسير فيه، وتحولت إلى مأساة أسرية دامية، فقد فكر توفيق أن سبب رفض طلبه للالتحاق بصفوف الثورة لا يعود إلى صغر سنه كما قيل له، ولكنه يعود إلى السلوك الأخلاقي السيء لأخته "تومة"، وتعاونها مع الشرطة الاستعمارية، وهذا ما جعل شعوره بالإحباط يتحول إلى غضب وحقد على أخته، فيهددها بالقتل إن لم تغير سلوكها وتقطع علاقتها بالشرطة، ولأن أخته لم تأخذ تهديده لها مأخذ الجد، فقد أقدم على قتلها بالفعل[78].

وعلى العموم، يبدو أبطال وبطلات رواية آسيا جبار أكثر اقتناعا بالنضال الثوري ضد الاستعمار، وأكثر حماسا واستعدادا للقيام به، ومع ذلك فالخطاب الذي يدور على ألسنتهم أبعد ما يكون عن الخطاب الأيديولوجي، حتى بالنسبة لمن لهم أقدمية في النضال الوطني، وارتبطوا بالحركة الوطنية، وبالتنظيمات الحزبية والطلابية التي سبقت الثورة، مثل يوسف، المسؤول السياسي عن العمل الثوري داخل المدينة، الذي كان قد حكم عليه من قبل بالسجن لمدة عشرين عاما، لمشاركته في مظاهرات مايو 1945 ، واستفاد بعد سنة من سجنه بصدور عفو عام عن السجناء السياسيين[79]، وكذلك الأمر بالنسبة لعلي، طالب كلية الطب، الذي كان يقود الحركة الطلابية في الجامعة، قبل أن يلتحق بالمقاتلين في الجبل، بعد صدور نداء جبهة التحرير في 19 مايو 1956.

78 «Les enfants du nouveau monde »p241

79 Ibid,p201.

ونعود من جديد لنطرح السؤال: إلى أي سبب نرى الكتاب يلحون على تصوير انحياز أبطالهم إلى الثورة على أساس الانتماء، ويتجنبون طرح المسألة على أساس أيديولوجي نضالي نابع من القناعة بمبادئ الثورة، كما نصت عليها مواثيقها الأساسية على الأقل، كبيان أول نوفمبر، أو مؤتمر الصومام، أو ميثاق طرابلس على سبيل المثال؟ والمقصود هنا روح تلك المواثيق لا نصوصها الحرفية، لأن الفن، أي فن، لا يقبل بطبيعته أن يتحول إلى مناشير سياسية. والظاهر أن تفسير هذا الفراغ الأيديولوجي — إن صح التعبير — لا يعود إلى علة فنية تستوجبها النصوص الروائية، ولكن يعود إلى عوامل خارجة عن النصوص في حد ذاتها، اقتضتها الظروف المتعلقة باستراتيجية الخطاب، وأهمها — حسب رأينا — أن الكتَّاب الجزائريين كانوا في هذه الفترة يتوجهون بأعمالهم الإبداعية إلى القارئ الفرنسي في المقام الأول، أو بتعبير آخر، إلى الرأي العام الفرنسي، وبعد ذلك إلى الرأي العام الدولي ومن ثمة كان هؤلاء الكتاب يراعون مشاعر ذلك القارئ، ويكيفون خطابهم حسب مقتضى الحال، كما تقول القاعدة البلاغية الشهيرة، وبناء على ذلك، وحرصا منهم على كسب ذلك الرأي العام إلى صفهم كانوا يتفادون الظهور بمظهر المؤيد للثورة بشكل سافر، وعلى أساس أيديولوجي، ويحاولون، عوضا عن ذلك، أن يعزفوا على نغم القيم الإنسانية، ويقدموا مبررات"موضوعية" لأسباب الثورة، ويحمِّلوا السياسة الاستعمارية القمعية مسؤولية ما يحدث.

وخلاصة القول أن المتأمل في نصوص المدونة يلاحظ أن الخطاب الروائي كان يحاول أن يظهر في الغالب بمظهر محايد، فيصور بدقة ما كان يجري على أرض الواقع من جو الرعب الذي كان يسود الحياة اليومية في الجزائر، وكان يركز على وصف العمليات الواسعة التي كانت تقوم بها قوات الشرطة والجيش الفرنسي ضد المدنيين الجزائريين العزل، من تفتيش واعتقال ومداهمات للبيوت ليلا ونهارا، وفرض حظر التجول، وإقامة المحتشدات، وممارسة التعذيب لانتزاع الاعتراف من المتهمين، وما إلى ذلك من أنواع القمع والترهيب. هذا بالنسبة لما كان يحدث في المدن، أما في القرى والأرياف، فقد كان جو الرعب فيها يتخذ مظهرا آخر، حيث تقوم القوات الفرنسية بقنبلة القرى بالطائرات والمدفعية الثقيلة، وتهدم البيوت على رؤوس ساكنيها، وتتلف الزرع، وتقتل الضرع والدواب التي يعتمد عليها الفلاحون في حياتهم اليومية، وبالطبع لا يسلم البشر أنفسهم من القتل إذا تمكنت تلك القوات من القبض عليهم، وهذا ما حاول الروائيون نقله للرأي العام بكل عناية.

والواقع أننا إذا تأملنا هذا الوصف الذي يبدو محايدا، فإننا نجده في حقيقته بعيدا عن الحياد، فالتركيز على وصف عمليات القمع التي كانت تقوم بها القوات الفرنسية ضد المدنيين العزل، يحمل في ثناياه إدانة ضمنية لتلك الممارسات، ويشير بإصبع الاتهام إلى المتسبب الحقيقي في جو الرعب الذي كان يسود الجزائر في تلك

الحقبة، فإذا تعلق الأمر بالهجمات المسلحة التي كان الثوار يقومون بها، فإن الخطاب يحاول أن يقلل من أهميتها، ويقدمها غالبا في شكل أعمال تخريبية، وحرق لبعض ممتلكات المستوطنين، ولا يصف تلك الهجمات بأية أوصاف مادحة أو قادحة، وتبعا لذلك لم يكن يدخل أيا من تلك الشعارات التي كانت ترفعها الثورة، وتستند إليها في إضفاء المشروعية على الكفاح المسلح، مثل حق الشعوب المستضعفة في تقرير مصيرها مثلا، أو حقها في الحرية والاستقلال، وحقها في السيادة على أرضها، وما إلى ذلك.

ومن هنا نرى أن الخطاب الروائي كان يحاول أن يقوم بدور إعلامي يهدف إلى تعريف القارئ بحقيقة ما يجري في الجزائر، ويحسِّسه بفداحة المشكلة، ويدفع به إلى اتخاذ موقف فاعل ومؤثر على مجريات الأحداث من أجل إيقاف دوامة العنف، وإيجاد تسوية سلمية للأزمة، تحقن الدماء، وتحفظ على الناس حياتهم وممتلكاتهم.

ولأن القارئ الذي يتوجه إليه الكتَّاب بخطابهم هو القارئ الفرنسي بالأساس، فإن ذلك كان يدفع بهم إلى مراعاة مشاعره، وهذا ما جعلهم — في نظرنا — يقتصرون على مخاطبة المشاعر الإنسانية فيه، بعيدا عن أية شعارات أخرى أيديولوجية ثورية، خشية أن تأتي بنتيجة عكسية، لاسيما بالنسبة للقارئ العادي الذي قد تثير فيه مشاعر العداء للثورة، والتضامن القومي مع أبناء جلدته من المستوطنين. وقد ظل هذا هو الخطاب السائد في الأعمال

الروائية الجزائرية باللغة الفرنسية طيلة فترة الثورة المسلحة، ولم تخرج عن هذا الإطار لتعبر عن قيم الثورة وشعاراتها التي أشرنا إليها أعلاه إلا نادرا. ولعل بعض أعمال مالك حداد وحدها التي تمثل هذا الاستثناء، وهو ما يفسر إقدام السلطات العسكرية على منع روايته "الانطباع الأخير" من دخول الجزائر عند صدورها سنة 1958.

وقد عرفت الرواية المكتوبة بالفرنسية في الجزائر تحولا جذريا في خطابها بعد الاستقلال، فانصرف كتابها، من مخضرمين وجدد ـ تحت تأثير الواقع السياسي الجديد ـ في اتجاهين رئيسيين: اتجاه يمجد بطولات الثوار وينساق إلى نوع من المبالغات والتهويل في تصوير تلك البطولات، وهذا ينطبق على معظم ما كان ينشر في الجزائر، وهو الشيء الذي كان يرضي السلطة آنذاك ويلتقي مع توجهها العام، واتجاه تبنَّى أفكار المعارضة وراح يترصد أخطاء السلطة وينتقد سياستها ويتهمها باستغلال إرث الثورة لتدعيم نظامها، وبخيانة تضحيات الشعب والشهداء، وينطبق هذا على ما كان ينشر في الخارج بصفة عامة، وكانت لكلا الاتجاهين دوافع غير موضوعية، مرة بغرض تملق السلطة والتقرب إليها، ومرة لانتقادها وكشف عيوبها، ولهذا ـ وتوخيا منا للموضوعية ـ رأينا أن نفصل بين ما كتب عن الثورة أثناء الثورة، وبين ما كتب بعد الاستقلال.



الخاتمة

من جملة الأسئلة التي طرحناها في أول هذا البحث عن موضوع هوية الأدب الذي كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية منذ نشأته إلى يومنا هذا، ومن خلال استعراضنا لظروف تلك النشأة، والمواضيع التي عالجها، ومناقشتنا لمختلف الإشكالات التي طرحها هو في ذاته، أو تطرح بشأنه، ولاسيما ما تعلق منها بلغته، ومن ثمة بهويته الثقافية والحضارية، وبعد وقوفنا على الكثير من آثاره، وتحليلنا للعديد من نصوصه الروائية، في مختلف مراحله، توصلنا إلى النتائج التالية:

أولا: لقد جاء ميلاد هذا الأدب بعد تسعين عاما من حرب شاملة شنها الاستعمار الفرنسي على الشعب الجزائري أرضا، ووجودا، ومقومات روحية ومادية، وانطلاقا من هذه الحقيقة التاريخية فإن هذا الأدب قد حملته أمه كرها، ووضعته كرها، ولم يأت نتيجة احتكاك حضاري مؤثر، ولا نتيجة تبادل ثقافي مثمر. ومن هنا فقد جاء منذ اللحظة التي ولد فيها يحمل سؤال وجوده، ويطرح إشكالية هويته.

ثانيا: وكما كان حمله كرها، وولادته عسيرة، فقد كانت حياته في مختلف مراحلها صعبة، تعكس أزمة هوية حادة، عبرت عنها موضوعاته الكبرى، ممثلة في موضوع الآفات الاجتماعية، ولاسيما آفة الخمر، التي عالجها في عقد العشرينيات، باعتبار الخمر رمزا للقيم الدخيلة التي أتى بها المستعمر معه وقلبت المفاهيم والموازين في أعين الجزائريين، بحيث جعلت المحرم شرعا مباحا قانونا، وممثلة في مسألة

الاندماج المستحيل، في عقدي الثلاثينيات والأربعينيات، الذي كان مرفوضا من الطرفين: المستعمَر والمستعمِر على السواء، لعمق الخلاف والاختلاف بينهما، ولتضارب مصالحهما وتناقضها، وممثلة أخيرا في مواضيع مخلفات الحرب العالمية الثانية وآثارها الاجتماعية المدمرة على مختلف فئات الشعب الجزائري، في الريف وفي المدينة، وممثلة أخيرا في مواضيع حرب التحرير، وهي المواضيع التي بددت الأوهام، وكشفت كل أنواع الزيف الذي كان يمنع النظر من رؤية الحقائق واضحة، بحيث أظهرت أن لا مفر من تصحيح الأوضاع بشكل جذري ونهائي.

ثالثا: مع بداية الاستقلال طرحت تساؤلات أساسية عن هوية هذا الأدب، وعن مستقبله في الجزائر، وهل يمكن له أن يضطلع بدور ثقافي اجتماعي مفيد بعد أن استعادت البلاد حريتها وسيادتها؟ وتدخلت أطراف عديدة في النقاش، ووقع خلاف حاد، على المستوى النظري بين المؤيدين والمعارضين لقيام وجدوى مثل هذا الدور، وترجم الخلاف على المستوى العملي إلى صمت طويل بالنسبة لمعظم الكتاب المخضرمين، فلم يكتبوا شيئا على مدى سنين طويلة، وهو الصمت الذي عبر عن وجود أزمة فكرية ونفسية عميقة لدى هؤلاء الكتاب.

رابعا: ظهر جيل جديد من الكتّاب بعد الاستقلال لم يتساءل كثيرا عن جدوى الاستمرار في الكتابة باللغة الفرنسية، معتبرا الفرنسية"غنيمة حرب" أكثر من اعتبارها موروثا استعماريا فرض نفسه ذات يوم بالقوة على حساب لغة أهل البلد وثقافتهم. وقد تكرس الإنتاج الأدبي لهؤلاء الكتاب على الساحة الثقافية الجزائرية، كواقع لا يمكن نكرانه، سواء من حيث الكم، أو من حيث مستواه الرفيع في بعض الأحيان،

كما تكرست تسميته"الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية" أو "الأدب الجزائري ذو التعبير الفرنسي" عن طريق الاستعمال اليومي لهذه التسمية في وسائل الإعلام.

إلا أنه، ومهما يكن من أمر، فإن تكريس التسمية كواقع يومي، أو استمرار كتّاب جزائريين في الكتابة بالفرنسية، لا ينفي الإشكالات التي يطرحها هذا الأدب، ولا يلغي وجود أزمة حقيقية تتعلق بهويته وتطرح التساؤلات العديدة عن مستقبله، وهذا ما حاولنا أن نبحث فيه، وأن نجيب عن بعض التساؤلات التي يطرحها. في الوقت نفسه، نعد ما بحثنا فيه، وما توصلنا إليه في هذا الموضوع، مجرد بداية لنقاش أعمق، ولبحث أشمل، ولنتائج أكثر أهمية.

* * *

أهم مراجع البحث

ـ ابو القاسم سعد الله "ابحاث وآراء في تاريخ الجزائر"، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986.

ـ أبو القاسم سعد الله الحركة الوطنية الجزائرية.ج2، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر1983.

ـ "تجارب في الأدب والرحلة"المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر1983.

ـ أحمد بن نعمان"السمات الشخصية الجزائرية، من منظور الأنتروبولوجيا النفسية"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988.

ـ أحمد توفيق المدني"كتاب الجزائر" نشر دار الكتاب، البليدة (الجزائر)، 1963.

ـ "الأدب المقارن عند العرب ، المصطلح والمنهج"، أعمال الملتقى الأول للمقارنين العرب الذي نظمه معهد اللغة العربية وآدابها بجامعة عنابة 12/8 جويلية 1984، نشر ديوان المطبوعات الجامعية ـ الجزائر 1991 .

ـ جمال قنان "نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر"المؤسسة الجزائرية للطباعة 1987.

ـ حمدان بن عثمان خوجة "المرآة"، تعريب وتحقيق وتقديم د. العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1975.

ـ خديجة بقطاش"الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830 ـ 1871".مطبوعات دحلب. الجزائر 1992.

ـ رينيه ويليك "مفاهيم نقدية"، "عالم المعرفة" الكويت، ترجمة د.محمد عصفور1987.

ـ ساطع الحصري "حول الوحدة الثقافية العربية".مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة "التراث القومي"، ط2، بيروت 1985.

ـ سعاد محمد خضر"الأدب الجزائري المعاصر" المكتبة العصرية، صيدا/بيروت 1967.

ـ صالح عباد "المعمرون والسياسة الفرنسية في الجزائر (1870 ـ 1900)". ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984.

ـ الطاهر زرهوني"التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال"."موفم" للنشر1993.

ـ عايدة بامية " تطور الأدب القصصي الجزائري 1925ـ1967" ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982.

ـ عبد القادر جغلول"تاريخ الجزائر الحديث، دراسة سوسيولوجية". ترجمة فيصل عباس. دار الحداثة. ط2، بيروت 1982.
ـ عبد الله ركيبي"القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر"، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة 1969.
ـ عبد الله ركيبي"الفرانكوفونية مشرقا ومغربا"، دار الرواد للنشر والتوزيع. بيروت 1992. ط.2. دار الأمة. الجزائر 1993.
ـ عمار بوحوش"العمال الجزائريون في فرنسا". الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر 1975 .
ـ محمد غنيمي هلال"الأدب المقارن" دار العودة. بيروت 1983.
ـ محمد الميلي"فرانتز فانون والثورة الجزائرية ". الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1973.
ـ مصطفى الأشرف"الجزائر الأمة والمجتمع". ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983.
ـ مولود قاسم، نايت بلقاسم" أصالية أم انفصالية". المؤسسة الوطنية للكتاب، 1991.
ـ نور سلمان "الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرر". دار العلم للملايين. بيروت 1981.
ـ يحي بوعزيز "ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين"، منشورات"المتحف الوطني للمجاهد" ط2، الجزائر 1996.

روايات مترجمة :

ـ مالك حداد "التلميذ والدرس" ترجمة سامي الجندي، دار الطليعة. بيروت 1962.
ـ مالك حداد "رصيف الأزهار لم يعد يجيب" ترجمة حنفي بن عيسى، المطبوعات الوطنية الجزائرية، الجزائر 1965.
ـ محمد ديب "الدار الكبيرة، الحريق ، النول"، ترجمه د. سامي الدروبي، دار الطليعة بيروت 1968.
ـ ياسين كاتب"نجمة" ترجمة محمد قوبعة . ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1987.

مسرحيات مترجمة:

ـ ياسين كاتب ،"الجثة المطوقة" و"الأجداد يزدادون ضراوة" ترجمة ملك أبيض العيسى، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشرط2، بيروت 1979.

القواميس والموسوعات:

ـ "الموسوعة الفلسفية"، بإشراف م.روزنتال، و ب.يادين. ترجمة سمير كرم، دار الطليعة. ط4 بيروت 1981 .

الدوريات:

ـ "التراث" تصدرها جمعية التاريخ والتراث الأثري، ع 5، 1992 باتنة، الجزائر.

ـ "الثقافة" العدد 102، 1989 الجزائر .

ـ "قضايا عربية" تصدرها المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ع2 (خاص بالوحدة العربية) ، حزيران ـ يونيو 1979، بيروت/لبنان .

ـ "الكلمة" تصدرها "جمعية الدفاع عن اللغة العربية". ع 4، يناير 1993، الجزائر.

رسائل جامعية :

ـ أحمد منور"مسرح أحمد رضا حوحو"، رسالة ماجستير ، نوقشت بمعهد الآداب، جامعة الجزائر 1990.

ـ محمد أمين الزاوي "الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية" رسالة ماجستير نوقشت بكلية الآداب، جامعة دمشق 1984.

* * *

Bibliographie أهم المراجع بالفرنسية :

- Abdelghani Megherbi « La Paysannerie algérienne face à la colonisation » E.N.A.P. Alger 1973.
- Abdelkabir Khatibi , "Le roman maghrébin". Ed. F. Maspéro. Paris 1968.
-Ahmed Lansari « Mohammed Ould Cheikh, un romancier algérien des années trente », O.P.U Alger 1986, pp42-43.
- Ahmed Taleb Ibrahimi « Camus vu par un algérien » in « De la décolonisation à la révolution culturelle » S.N.ED Alger 1973 .
- L'Amicale des anciens instituteurs et instructeurs d'Algérie et Le Cercle algerianiste « Les enseignants d'Algérie se souviennent.. » Ed. Privat 1981.
- Albert Memmi « Portrait du colonisé » , Ed. Jean Jacques Pauvert Utrecht, 1966 .
- Amar Belkhodja « Ali El-Hammami et la montée du nationalisme algérien » , Ed. Dahlab. Alger 1991.
- Arlette Roth "Le théâtre algérien". Ed/ François Maspéro. Paris 1967.
- Bouba Mohammedi - Tabti « La société algérienne avant l'indépendance dans la littérature , lecture de quelques romans » O.P.U , Alger 1986.

Charles Robert Ageron "Histoire de l'Algérie contemporaine. Coll Que-sais-je, n°400. P.U.F 1964.
- Christiane Achour , "Abécédaires en devenir, idéologie coloniale et langue française en Algérie". Ed. Enap. Alger 1985.
- Claude Pichois et A.M. Rousseau « La littérature comparée » Armand Colin. Coll. U2 Paris 1971.
- Daniel Reig « Homo Orientaliste, la langue arabe en France depuis le 19è siecle » , Ed.Maisonneuve et la Rose, ColL. Islam et Occident, Paris 1988.
- FadhilaYahiaoui « Roman et société coloniale , dans l'Algérie de l'entre deux-guerres.. » Ed. ENAL-Gam Alger-Bruxelles. 1985.
- Ferhat Abbas " De la Colonie vers la Provence : Le jeun algérien" , Ed. Garnier Frères , Paris 1981 .

- Francis et Colette Jeanson "L'Agérie hors la loi" E.NAG. Alger1993.
- Frantz Fanon « Les damnés de la terre » E.N.AG , Alger 1987
- Ghani Merad . La littérature algérienne d'expression française". Ed. Oswald. Paris 1976.
- Jean Déjeux « La littérature algérienne contemporaine » Coll. Que-sais-je , P.U.F Paris 1975.
- Jean Déjeux «Bibliographie méthodique et critique de la littérature algérienne de langue française 1945- 1977 » S.N.E.D Alger 1979.
- Jean Déjeux « Situation de la littérature maghrébine de langue française » O.P.U Alger 1982 .
- Mahfoud Kaddache "L'Algérie durant la période Ottomane". O.P.U , Alger 1992 .
- Marius-François Guyard « La littérature comparée » Coll. Que-sais-je, P.U.F Paris 1978.
- Mohamed Cherif Sahli « Décoloniser l'histoire: Introduction à l'histoire du Maghreb » Ed. F.Maspéro, Paris 1965.
- Mohamed Ismaïl Abdoun « Kateb Yacine »,Coll.Classiques du monde , S.N.E.D, Nathan Alger-Paris1983.
- Rabah Belamri« L'oeuvre de Louis Bertrand, miroir de l'idéologie colonialiste» O.P.U. Alger 1980.
- Saad Eddine Benchneb , préface des « Memoires » de M. Bachetarzi, , S.N.E.D Alger 1968.
- Seddik Taouti « Les déportés algériens en Nouvelles Calédonie » Dar El-Oumma , 2è édition ,Alger 1997.
- Yvonne Turin, « Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale écoles, médecines, religion, 1830-1880 » E.N.A.L., Alger 1983.

المختارات

ANTHOLOGIES

- Albert Memmi (Sous la direction de) « La poésie algérienne de 1830 à nos jours » , Mouton, Paris 1963.
- Albert Mémmi, (Sous la direction de) « Anthologie des écrivains maghrébins d'expression française », Ed. Présence Africaine, 2ème édition. Paris 1965.

- Albert Memmi (sous la direction de) « La poésie algérienne de 1830 à nos jours » , Mouton, Paris 1963.
- Christiane Achour « Anthologie de la littérature algérienne de langue française »E.N.A.P , Alger,Bordas Paris 1990.

Essais **المقالات :**

- Malek Haddad « Les zéros tournent en rond » (essais) Ed. F. Maspéro, Paris 1961 .
- Malek Haddad «La libérté et le drame de l'expression chez les écrivains algériens » Ministère de la culture et de l'orientation nationale, Damas , Juin 1961.
- Mouloud Mammeri «Culture savante, culture vécue» Ed. Tala, Alger 1991.

Romans **الروايات**

- Albert Camus « L'étranger » Ed. Gallimard , Coll. (Le livre de Poche) , Paris 1957 .
- Assia Djebar « Les enfants du nouveau monde », Ed. Julliard , Paris 1962. Réédité. Coll. 10-18.
- Chukri Khodja « Mamoun , l'ébauche d'un idéal »Ed. Radot , Paris 1928, Réédité par l'O.P.U. Coll. Textes anciens. Alger 1992 .
- Chukri Khodja , « El-Euldj, captif des barbarèsque »Ed.I.N.S.A.P, Réédité par l'O.P.U. Coll. Textes anciens. Alger 1992.
- Hadj Hamou Abdelkader « Zohra , la femme du mineur » , Ed. du Monde Moderne. (Aux Editeurs Associers). Paris 1925.
- Kateb Yacine « Nedjma » ,Ed. du Seuil , Paris 1956 .
- Kateb Yacine «Le polygone étoilé » Ed. du Seuil, Paris 1966.
- Malek Ben Nabi « Lebbeik » , Ed . Enahdha Alger 1948 .
- Malek Haddad « La dernière impression » , Ed. Julliard, Paris 1958, reédité aux editions Bouchene, Alger 1989 .
- Malek Haddad « Le quai aux fleurs ne répond plus » Ed. Julliard , Paris 1961 . Réédité : Coll. 10-18.
- Malek Haddad « L'élève et la leçon » , Ed. Julliard , Paris 1960 . Réédité : Coll. 10-18.

- Mohamed Dib « La grande maison », Seuil, Paris 1952 .
- Mohamed Dib « L'incedie », Seuil, Paris 1954 .
- Mohamed Dib « Le métier à tisser », Seuil, Paris 1957 .
- Mohamed Dib « Un été africain » , Seuil , Paris 1959 .
- Mohamed Dib « Qui se souvient de la mer » , Seuil , Paris 1962 .
- Mohamed Dib « Le sommeil d'Eve » , Ed. Sindbad , Paris 1989 .
- Mohammed Ould Cheikh « Myriem dans les palmes ».
- M.K. Bougurra « La première mort de Hussein - Dey » Ed. E.N.A.P. Alger 1990 .
- Mouloud Mammeri « Le sommeil du juste » , Plon . Paris 1955 .
- Mouloud Mammeri « L'opium et le bâton », Plon, Paris 1965. Réédité: Coll. 10-18 . Paris 1965 .
- Rachid Mimouni « Le fleuve détourné »Ed. P. Laffon Paris.1982 .
- Rachid Mimouni « Tombéza » P. Laffont , Paris 1984 .
- Rachid Mimouni « L'honneur de la tribu » Ed.P. Laffont, Paris 1989 . Réédité aux éditions Laphomic, Alger 1990.
- Tahar Djaout. « L'invention du désert ». Ed. du seuil. Paris 1987.

Recueils de nouvelles — مجموعات قصص

- Kaddour M'hamsadji «Fleurs de Novembre »S.N.E.D Alger1969.
- Mohamed Dib « Au Café », Gallimard , Paris 1956 .
- Mohamed Dib « Le Talisman » Ed. du Seuil, Paris 1966 .
- Mouloud Achour « Héloitropes » S.N.E.D Alger 1973 .
- Mouloud Achour «Les dernières vendanges» S.N.E.D Alger1975.
- Rachid Mimouni «La ceinture de l'Ogress» Ed. Seghers,Paris 1990 Laphomic. Alger 1990 .

Théâtre — مسرح

- Assia Djebar et Walid Garn «Rouge l'aube» S.N.E.D Alger1969.
- Hocine Bouzaher "Voix dans la Casbah" , Maspéro 1960.
- Kateb Yacine « Le cercle des représailles », Seuil, Paris 1959 .
- Kateb Yacine «L'homme aux sandales de caoutchouc» Seuil, Paris 1970.

- Mohamed Boudia « Naissance » suivie de «L'olivier» Ed. La Cité, Lausanne1962 .

Poésie شعر

- Malek Haddad «Le malheur en danger » La Nef de Paris, 1956 .
- Malek Haddad « Ecoute et je t'appelle » Ed. Maspéro, Paris 1961

Entretiens أحاديث

- Hafid Gafaiti « Kateb Yacine , un homme , une oeuvre, un pays », (Entretien) Coll. Voix Multiples. Laphomic. Alger 1986.
- Entretiens avec Mohamed Dib: Radio France Culture, diffusés en Mois de Mai 1977.

Dictionnaires et Encyclopédies القواميس والموسوعات:

- « Dictionnaire des auteurs maghrébins de langue française », Jean Déjeux. Ed. Karthala,Paris1979.
- « Encyclopédia Universalis » , France 1975 .
- « Mémoire algérienne: dictionnaire biographique » de Achour Chorfi , Ed. Dahlab . Alger 1996, p135 .
- « Petit Larousse en couleur » . Edition 1984 .
- « Petit Robert 1». Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française . Ed. 1984 .

Periodiques الدوريات بالفرنسية

- « Révolution Africaine », (Hébdomadaire) N°s:45,46,47,48,49,50 et 57 du 7-14-21-28 Décembre1963 et du 4- 11-29/64, Algérie .
- « Les Temps modernes », (Monsuelle) N°209, Octobre 1963 , France .
- « El-Moudjahid » (Quotidien) n°s 157 du 7/12/63 - 160 du 28/01/64. Algérie .
- «Les Nouvelles littéraires » (France) du 13 Octobre 1960.



فهرس المحتوى

المقدمـــة: 3

تمهيد : في مفهوم الهوية.......................... 11

الباب الأول

من الهوية المغصوبة إلى الهوية المفروضة

الفصل الأول: الهوية الجزائرية وحرب الإبادة الاستعمارية 21

الفصل الثاني: أدب الجزائريين باللغة الفرنسية: التاريخ والتطور. 87

الفصل الثالث: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي: إشكالية

الهوية والانتماء.......................... 133

الباب الثاني

من الهوية المفروضة إلى الهوية المأمولة

الفصل الرابع: الهوية الهجينة والاندماج المستحيل.............. 183

الفصل الخامس: من وعي الذات إلى التمرد.............. 261

الفصل السادس: من التمرد إلى الثورة.............. 369

الخاتمـــة: 429

أهم مراجع البحث.......................... 432

فهرس المحتوى : .... 44'

أنجز طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
الساحة المركزية - بن عكنون
الجزائر



هذا الكتاب

يتناول أدب الجزائريين باللغة الفرنسية منذ نشأته إلى عهد الاستقلال، فيحدد مختلف مراحله، ويحلل مضامينه، ويسائل نصوصه مباشرة، بالدراسة والتحليل والاستنباط، مركزا بالخصوص على النصوص الروائية التي صدرت مابين 1920 - 1950 والتي أهملها الدارسون الجزائريون وغيرهم.

وقد اتبع المؤلف المنهجية نفسها مع الجيل اللاحق من الكتّاب الذين ظهروا في فترة الخمسينيات، وواكبوا الثورة التحريرية. فقد اعتمد المؤلف على النصوص مباشرة بدراستها وتحليل مضامينها، لاستنباط مدلولها.

كما تناول المؤلف النصوص الأدبية في سياق الأحداث التاريخية والظروف السياسية التي عايشها الأدباء ونشأ هذا الأدب في ظلالها، وخاصة التطورات السياسية التي عرفتها الجزائر فيما بين الحربين العالميتين حيث نشأت الحركات الوطنية عبر تيارات متعددة، لتتبلور في النهاية بحركة ثورية تحريرية أدت إلى الاستقلال.

لقد تأثر الأدب في هذه الفترة بالحركات الوطنية، وتفاعل معها في كل المراحل والأوقات.

لقد تتبع المؤلف هذا الأدب عبر هذه المراحل، فرصد تطوره وتتبع اتجاهاته، واستنتج تفاعلاته.



Edition: 4888

